رُبرت هُيْلَنْد

تاريخ العرب في جزيرة العرب

من العصر البرونزي إلى صدر الإسلام

3200 ق م - 630 م

الاقتصاد، المجتمع، الدين، الفن والعمارة والمصنوعات البدوية، اللغة والأدب، العروبة والتعرب

ترجمة : عدنان حسن

تاريخ العرب
في جزيرة العرب

من العصر البرونزي إلى صدر الإسلام
3200 ق م – 630 م

الاقتصاد ، المجتمع، الدين، الفن والعمارة
والمصنوعات اليدوية، اللغة والأدب، العروبة والتعرّب

تأليف: رُبِرت هُيْلَند

تاريخ العرب في جزيرة العرب

من العصر البرونزي إلى صدر الإسلام
3200 ق م – 630 م

الاقتصاد، المجتمع، الدين، الفن والعمارة
والمصنوعات اليدوية، اللغة والأدب، العروبة والتعرّب

ترجمة: عدنان حسن

تاريخ العرب في جزيرة العرب

من العصر البرونزي إلى صدر الإسلام (3200 ق م – 630 م)
الاقتصاد، المجتمع، الدين، الفن والعمارة والمصنوعات اليدوية، اللغة والأدب، العروبة والتعرّب

تأليف: رُبِرت هُيْلَند
ترجمة: عَدنان حسن
مراجعة: زياد منى

تصميم الغلاف: زياد منى
إخراج: طـارق صـبح

الطبعة الأولى: كانون الثاني 2010
شركة قدمس للنشر والتوزيع ش م م
شارع الحمرا، بناء رسامني
ص ب 6435/113
بيروت، لبنان
هاتف: 750054 / 01 فاكس 750053 / 01

التوزيع في سوريا: قدمس للنشر والتوزيع
شارع ميسلون، دار المهندسين 0905
ص ب 6177
الفردوس، دمشق، سورية
هاتف: 2229836 / 011 فاكس: 2324472 / 011

الموزعون ولابتياع نسخ إلكترونية وورقية انظر:
http://www.cadmusbooks.net

عدد كلمات الكتاب: 108223 كلمة تقريباً

صورة الغلاف: لوحة رخامية من الجبة باليمن لمتعبدة اسمها بري لات (بري اللات[!]) تحوي نقوشًا سبئية تعود إلى القرن الأول قبل الميلاد (المتحف الوطنـي بصنعاء). لاحظ وضع ذراعيها (انظر اللوحتين 4/25 و18).

إلى أ ف ل ب

بل أنت لا تدرين كم من ليلة طلق لذيــد لهــوها وندامـها

قد بت ســامرها وغاية تاجرٍ وافيت إذ رفعت وعزَّ مدامها

(معلقة لبيد بن ربيعة 57-58)

المحتوى

الخرائط والأشكال واللوحات

الخرائط

الأشكال

اللوحات

كلمة الناشر بخصوص مراجع الكتاب والمواقع

لقد استخدم المؤلف العديد من المراجع العربية غير المتوافرة لدينا، ومنها مخطوطات محفوظة في مكتبات في دول أوربية مختلفة وسجلها في الكتاب، ما صعب من مهمة المترجم السيد عدنان حسن. لذا قمنا بأخذ النصوص ذات العلاقة من مواقع مختلفة في الانترنت ولذلك فإننا لم نشر إلى تفاصيل المراجع واكتفينا بذكر اسم الكاتب والمؤلَّف. ويمكن للقارئ الراغب في معرفة مراجع المؤلف العودة إليها في ثبت المصادر الذي أوردناه في آخر الكتاب.

ولأن الكتاب موجه إلى الجمهور العريض، فقد استخدم مؤلف الكتاب تسجيل بسيط لأسماء المواقع والأشخاص بدلاً من توظيف نظام تسجيل أحرف لغة بأحرف لغة ثانية والمعروفة باسم "transliteration" ما صعب علينا في بعض الأحيان من تعرف الاسم المقصود واعتمدنا في ذكره على خبرتنا ومعارفنا العلمية. لا شك في أننا أخطأنا أحياناً، ولذلك فإننا نرحب بملاحظات الزملاء

العلماء من أهل الاختصاص بالخصوص وسنعمل على وضع التصويبات التي تصلنا في موقع الدار على الانترنت، وسنقوم بتصحيحها في الطبعات التالية من هذه الترجمة، ونعتذر من القارئ عن أي أغلاط ارتكبناها.

كلمات شكر

اعتمدت في كتابة هذا الكتاب على معينين رئيسين للإلهام أولهما العمل الميداني الذي قمت به على مدى العقد الأخير أو أكثر في الشرق الأوسط، الذي قادني إلى تثمين التنوع الطوبوغرافي والثقافي لهذه البلاد العريقة. ما هو جدير بالذكر على نحو خاص تلك الفصول التي أمضيتها برفقة بدو حومة سابقًا في أقصى شمالي الصحراء السورية في أثناء المشاركة في حفريات أكسفُرد-هايدلبرغ في أندرين (بتوجيه من الدكتورة مارليا مانغو والدكتورة كريستين شتروبه). وفي صيف عام 1999 م كنت محظوظًا بما يكفي بالقدرة على زيارة المواقع الأثرية في اليمن، بمساعدة البروفسور الدكتور يوسف عبد الله، مدير العاديات، ومنحة من الصندوق التذكاري لِلي دوغلاس، وكذلك بالقيام مسح أبيغرافي لجبل سايس في حراء السورية بمساعدة الآنسة منى مؤذن من متحف دمشق وبتمويل من الأكاديمية البريطانية. كان نجاح الرحلة الأخيرة يعزى إلى درجة لا تقل أهمية إلى مرافقي المثقفين والودودين: المصور ديفيد هُبكنز وفليكس إنغ (الرسام الأثري) ومايكل دكر (المؤرخ الزراعي).

أما مصدر إلهامي الثاني فكان الخبراء الكثيرين في مجالهم الذين أفادوني بلطف وكرم من وقتهم ونصائحهم. إن فينيسا بورتر، وجوليا براي، ودان بوتس وفالتر مولر قدموا جميعًا اقتراحات كثيرة ومنحوني كثير من التشجيع المطلوب،

وتحمّل البروفسور مولر أيضًا عناء تدقيق النصوص العربية الجنوبية كافة التي استشهد بها. أما ليلى نعمة وباتريشيا كرون ومايكل مكدنلد فقد قدموا انتقادات شاملة جدًا للمسودات الأولى وهذا الكتاب، رغم نواقصه الباقية الكثيرة، قد تحسّن بشكل لا يوصف بفضل تعليقاتهم الحادة وثقافتهم العظيمة. أود أيضًا أن أسجل امتناني لفريدي بيستن رغم أنه لم يعد معنا في أثناء المخاض بهذا العمل. فقد كان يسكن في البيت الواقع تحت شقتي في شارع سانت جون في الشهور القليلة الأخيرة من حياته وقد كان لدينا كثير من المناقشات هناك وفي أثناء الغداء عن تاريخ جزيرة العرب قبل الإسلام، الموضوع الذي كان يعرفه ويحبه كثيرًا جدًا.

لكن الكتب لا تكتب بناء على الإلهام وحده. فلأجل المساعدة المادية تمكنت من الاعتماد على كلية القديس يوحنا لتأمين الرفقة الجيدة والطعام الشهي (الذي كان يدير تموينه بشكل بارع السيد تيم ويبر). إنني أيضًا ممتن جدًا للأكاديمية البريطانية لدعمي ماليًا على مدى السنوات الثلاثة الماضية. ثم هناك المكتبات والمؤسسات الكثيرة التي أتاحت لي مصادرها بحرية، بالأخص مكتبة بودليان التابعة لأكسفورد والمعهد الشرقي (الذي كفلت تسييره السلس جهود الآنسة إيرا سبينتي ودماثتها). ما يخص السماح لي باستعمال صورهم الإيضاحية ينبغي عليّ أن أشكر المتحف البريطاني واللوفر (الشكر على نحو خاص لجون هيرست أولاً وباتريشيا كالنسكي ثانيًا لكل مساعدتهما)، وصالة والترز للفن، ومتحف بروكلن للفن، ومتحف البحرين الوطني، وعدد من الأصدقاء والزملاء، أبرزهم مايكل مكدُنلد، الذي كان يستجيب دائمًا ويتعاون بلا تذمر للسيل المتواصل من طلباتي. إن ميريلين هدجسن، رئيسة المؤسسة الأميركية لدراسة الإنسان التي تقوم حاليًا بالتنقيب عن معبد أوام (محرم بلقيس) في مأرب، كانت لطيفة بما يكفي لأن تسمح لي باستعمال عددًا من الصور الفوتوغرافية للجمعية الأمريكية لدراسة الإنسان (American foundation for the Study of Man, AFSM)، بما في ذلك صورة التقطتها بنفسها في معبد أوام في ربيع 2000 م. إلى الدكاترة سلطان محيسن، عبد الرحمن الأنصاري، فواز خريشة ويوسف عبد الله، مدراء عاديات سورية والسعودية والأردن واليمن على التوالي، أعبر عن أقصى الامتنان لمنحهم الإذن لي بأن أقدم هنا عددًا قليلاً من كنوز بلدانهم العظيمة. وأخيرًا علي أن أشكر الدكتورة أمريتا نارليكار التي تحملت بكثير من الحب والصبر نوبات الانفعال الكثيرة والليالي الطويلة.

كلمة للطبعة العربية

يرتكز هذا الكتاب على حوالي عقد ممتع جدًا من العمل والترحال في العالم العربي وهي منطقة أنا مهتم بها بشغف ومولع بها. لذلك يسرني ويشرفني أن ثمار هذا البحث ستكون متاحة لأولئك الذين أناقش بلادهم وتاريخهم.

لقد كتبت هذا الكتاب لكي أوسع الفهم التقليدي للجاهلية من حقبة قصيرة جدا قبل بزوغ الإسلام إلى الامتداد الكامل من الزمن منذ النشوء الأول للمجتمعات المعقدة في جزيرة العرب في الألفية الرابعة قبل الميلاد. إنها حقبة هامة من التاريخ في جزء هام من العالم ولذلك فإني أمل أن هذه الطبعة العربية من هذا الكتاب ستجعل قصته معروفة لجمهور أعرض بكثير.

مقدمة

قال يونس بن حبيب قال أبو عمرو بن العلاء ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ولو جاءكم وافرًا لجاءكم علم وشعر كثير (ابن سلاّم الجمحي: **طبقات فحول الشعراء** (25)، **مستشهدًا بقول الفقيه الإسلامي الشهير أبو عمر بن العلاء، المتوفى سنة** 154 **هـ/** 770 **م**)

تُنشر كتب كثيرة كل عام في الغرب عن شبه جزيرة العرب والعرب، لكن محط اهتمامها هو شبه جزيرة العرب (وخصوصًا المنتجة للنفط) والعرب المسلمون، المتحدرون من أولئك الذين هاجروا جماعيًا من شبه جزيرة العرب في القرن السابع ليفتحوا الشرق الأوسط ويستعمروه برمته. هذه الكتب تكرس في أقصى الأحوال صفحات قليلة لجزيرة العرب وسكانها قبل هذا النزوح، وحتى عندئذ تعالج على نحو عادي فقط حياة مؤسس الإسلام، النبي محمد [570-630 م]. أما القرون العديدة من التاريخ العربي التي تسبق وفاة النبي محمد فلا تُدرس إلا قليلاً ولا يُعرف عنها سوى النادر في الغرب. قد يُظن أن هذا الجهل يعكس عدم أهمية جزيرة العرب في التاريخ العالمي قبل ظهور الإسلام، لكن هذا حكمٌ مجحف. فمع أن سكان جزيرة العرب كانوا يعيشون في محيط

الإمبراطوريات العظمى، فقد كانوا ذوي أهمية كبيرة إليها. أولاً، إن موطنهم يحتل موقعًا مركزيًا بين الهند وإفريقية وبلاد بين النهرين والعالم المتوسطي، الأمر الذي يعني أن البشر والسلع العابرين من منطقة إلى أخرى كانوا مجبرين غالبًا على إجراء الصفقات معهم [أي سكان جزيرة العرب]. على سبيل المثال، بمساعدة القبائل العربية فقط تمكّن الملك الآشوري أسرحدون في العام 671 ق م من جمع: («إبل كل ملوك العرب وحمّلتُ عليها كل قراب الماء»، IA 112) وبمساعدة الحكام الفارسيين من سلالة قمبيز في العام 525 ق م («ملأ العرب القراب بالماء وحمّلوا كلّ إبلهِ بها» ‹Herodotus 9.3›) وفي العام 343 ق م تمكّن أرتحششتا من عبور شمالي جزيرة العرب لكي يزحف إلى مصر. ثانيًا، إن وجود اللُبان [البخور] والمر والنباتات العطرية الأخرى في جنوبي جزيرة العرب، وكلها كانت مطلوبة جدًا في حضارات البحر المتوسط وبلاد بين النهرين، قد جلب الثروة والشهرة إلى زارعيها ومصدّريها العرب. ثالثًا، قدمت جزيرة العرب خزانًا من القوة البشرية العسكرية التي كانت تملك خبرة بالسفر في الصحراء، ومارست دورًا هامًا كحليف وأيضًا كعدو لمختلف القوى.

مع ذلك، يواجه دارس التاريخ العربي القديم مهمة هرقلية. لقد كتب المؤلفون الإغريق/الرومان عددًا من المقالات عن جزيرة العرب وعن قضايا عربية، لكنها مفقودة كلها الآن، باستثناء شذرات قليلة ومقتطفات متفرقة ذكرها كتّاب لاحقين. الباحثون الإسلاميون كتبوا دراسات كثيرة عن هذا الموضوع، لكنهم ركزوا على نحو أساس على التراثات القبلية والنبوية لجزيرة العرب [في زمن] النبي محمد أكثر مما ركزوا على ماضيها الأبعد. أخيرًا، دبّج الغربيون الحديثون أقوالاً مثقفة، وروايات أسفار حماسية ونشرات فنية لماعة هي الأحدث، من نوعها، لكنهم نادرًا جدًا ما حاولوا أن ينتجوا تاريخًا سرديًا يفهمه الجمهور غير الخبير. إن الدراستين الوحيدتين اللتين تقفزان إلى الذهن هما كتاب دولاسي أوليري الذي يحمل عنوان ‹جزيرة العرب قبل محمد/ ‹De Lacy O'Leary, Arabia before Muhammad. London, Turbner 1927 وكتاب أدُلف غرُمَن الذي يحمل عنوان ‹جزيرة العرب/,Adolf Grohmann ‹Arabien, Munich, C. H. Beck, 1963 اللذان ترجما كليهما لكن المكتشفات الأثرية الحديثة أهملتهما[1]. بالتأكيد ثمة أسباب مفهومة لهذه الندرة، خصوصًا المشاكل التي تفرضها مادة المصدر والتنوع الكبير للتراثات الثقافية للمنطقة. صحيح أيضًا أنه ثمة حاجة لبذل كم هائل من الكدح (حرفيًا ومجازيًا) قبل أن يكون بالإمكان كتابة أي شيء مثل العرض الشامل عن جزيرة العرب قبل

الإسلام، ومع ذلك من دون بعض الوصف المتاح لحالة [هذا] الحقل سيكون من الصعب دائمًا أن نجذب الدارسين إلى المشاركة في هذه المهمة وأن نلغي صورة هذا الموضوع بوصفه هامشيًا وغامضًا[2]. بما أن هذا سيكون طريقًا وعرًا للقارئ في أرض صعبة نوعًا ما، سيبدو من الحصافة أن نبدأ بمخطط عام للحقل المزمع دراسته ولطريقة المباشرة بذلك.

أرض جزيرة العرب

في أقدم مصادرنا تعني جزيرة العرب البادية والقفار الصحراوية التي تتاخم دول مصر والهلال الخصيب وممالكها. برأي هِردُت (توفي نحو 430 ق م) تطلق تسمية جزيرة العرب أساسًا على أجزاء مصر الشرقية وسيناء والنقب ‹Herodotus, 2.8, 11-12, 75, 158; 3.5, 9›، التي تتفق مع ملاحظة بليني الأكبر (توفى سنة 79 م) أن: «وراء المصب البيلوسي [تل الفرمة قرب بور سعيد، زياد منى ʼز مʻ] [أقصى الشرق] للنيل تقع جزيرة العرب، امتدادًا إلى البحر الأحمر» ‹Pliny 5.65›. في اللوائح الإدارية الفارسية، التي تعود في معظمها إلى عهد داريوس [دارا] (521–486 ق م)، تقع مقاطعة عربايا عادة بين آشور ومصر، التي ربما تكون جزيرة العرب عند هِردُت، إضافة إلى أجزاء من الصحراء السورية. هذه الأخيرة تقابلها «عربية البدو» عند بليني، الواقعة إلى الشرق من البحر الميت ‹Pliny 5.72›. قاد قورش الشاب جيشه المؤلف من عشرة آلاف يوناني في رحلة ملحمية من سارديس إلى بابل في العام 401 ق م لكي يستولي على العرش الفارسي من أخيه. في الطريق سار عبر جزيرة العرب، واضعًا نهر الفرات إلى اليمين ‹Xenophon, An. 1.4.19›، الإشارة هنا إلى مقاطعة عربايا في بلاد بين النهرين الوسطى. يصف بليني هذه بأنها (مقاطعة عربايا التي تدعى بلاد أُرُي (Orroei) [ومن الممكن أن المقصود هنا ʼالرهاʻ – زياد منى ʼز مʻ] إلى الشرق من نهر الفرات وجنوب جبال طوروس ‹Pliny 5.85›.

كان هِردُت على معرفة بجنوبي جزيرة العرب أيضًا: «جزيرة العرب هي الأبعد إلى جنوب كل البلدان المأهولة، وهذه هي البلاد الوحيدة التي تنتج البخور والمر» ‹Herodotus 3.107›. مع ذلك كانت لديه معلومات قليلة عنها وظلت في نظره بلاد العجائب والأساطير، تزخر بالنباتات العطرية و«الأفاعي السامة والثعابين المجنحة». لقد تبدل هذا بعد رحلة سكيلكس الكريندي (Scylax of

Caryanda) البحرية بتفويض من داريوس ‹Herodotus 4.44› وخصوصًا بعد رحلات الاستكشاف التي أطلقها الاسكندر الأكبر (توفي سنة 323 ق م)، التي جعلت شبه جزيرة العرب معروفة على نحو أفضل كثيرًا للعالم الخارجي. إن ثيُفرسطُس الإرسوسي (توفي سنة 287 ق م)، المهتم بقضايا علم النبات، لم يذكرها إلا على نحو عابر ‹Theophrastus of Eresus 9.4.2›، لكن إرَطُستِنِس القوريني (BC 205–Eratosthenes of Cyrene, 284) كبير أمناء المكتبات لبطالمة مصر (توفي سنة 202 ق م)، يقدم وصفًا دقيقًا، إذ يقول: «الطرف الشمالي تشكله الصحراء [السورية] الآنفة الذكر، والطرف الشرقي يشكله البحر العظيم الذي يقع خارج الخليجين» ‹cited in Strabo 16.3.1; Pliny 6.143›.

في هذا الكتاب سنعرف جزيرة العرب بطريقة مماثلة بأنها شبه جزيرة العرب بما في ذلك امتدادها الشمالي، الصحراء السورية. تتحدد تخوم هذه الأخيرة على نحو غير دقيق بخط الهطل المطري البالغ 200 ملم/سنة، النقطة التي يمكن عندها فقط أن تمارس الزراعة، إن وجدت بالمرة، من طريق مختلف تقنيات تجميع وتوزيع الماء (الخريطة 1). هذه الكتلة الشاسعة من اليابسة تصل مساحتها إلى نحو مليون ونصف ميل مربع، أي أكبر قليلاً من الهند أو أوربة (الغربية والشرقية واسكندنافيا). تتكون في معظمها من كتلة منتظمة وحيدة من الصخور القديمة، يشار إليها باسم الدرع العربي، مع تراكم صخور رسوبية أحدث عهدًا، خصوصًا في الجزء الشرقي. يترافق مع هذه الوحدة البنيوية نمط مناخي موحد على نحو واضح: فصول صيف طويلة، حارة جدًا، في كل مكان، باستثناء الجنوب الغربي (اليمن الحديث)، تتلقى معدل هطل مطري يقل عن 200 ملم في السنة، ومعظم الأجزاء الأخرى تتلقى أقل من 100 ملم. يمكن تقسيمها إلى أربع مناطق جغرافية أساس، فهناك المرتفعات الغربية التي تمتد على طول البحر الأحمر ويصل ارتفاعها إلى 3600 متر في الجنوب. ثم هناك الداخل الشاسع، الذي يضم القفار الرملية والحجرية للربع الخالي في الجنوب، وقفار صحراء النفوذ والدهناء في الوسط، وقفار صحراء حِسمى وحماد والصحراء السورية في الشمال. المنطقة الثالثة والأكثر شهرة في العصور القديمة هي الجنوب الغربي، وهي أرض الجبال الشاهقة، والسهول الساحلية الجميلة والوديان السحيقة، المحبوة بنعمتي الأمطار الموسمية والنباتات العطرية. أخيرًا، هناك السواحل الشرقية الحارة والرطبة للخليج الفارسي حيث المناخ القاسي يلطفه وجود المياه الجوفية الوفيرة. إن القساوة التي لا ترحم والرتابة الفخمة لمشهد الجزيرة

العربي قد فتنا المغامرين الغربيين، ومع ذلك ثمة الكثير من الاختلاف والتنوع على المستوى المصغّر. فهناك الواحات المكتظة بالنخيل، والمسطحات الوحلية ومستنقعات الملح المجففة (السبخات)، والبراكين الخامدة مع أسِرّة المقذوفات [اللافا] السوداء الأبنوسية الواسعة، والهضاب مثل نجد وعمان، والتشكيلات الصخرية التي شكلتها الرياح في أنماط وأشكال غريبة، وعندما تصل الأمطار الموسمية فإنها تُحدث الأحواض المائية غير المتوقعة والمراعي للأغنام والماعز والجمال (اللوحات 1/1-4).



الخريطة 1: جزيرة العرب: شبه الجزيرة والصحراء السورية

(اقتبس المؤلف عن M. C. A. Macdonald, Reflections on the linguistic map of pre-Islamic Arabia, 39).

سكان جزيرة العرب

إن المصطلحين الإغريقي-الروماني والفارسي المستخدمين لتسمية جزيرة العرب مشتقان من كلمة «عرب» (Arab)، التي هي اسم شعب. لذلك فإن (Arabia) مرادف للتعبير الآشوري «mât Arabia» (أرض العرب). مع ذلك، ينبغي أن نضع في ذهننا أن العرب لم يسكنوا في البداية كل الأرض الهائلة التي تدعى جزيرة العرب وكانت هذه الكتلة من اليابسة تضم بالتأكيد شعوبًا أخرى كثيرة. بسبب التضاريس والمناخ المتنوعين لجزيرة العرب كانت هذه الشعوب الأخرى غالبًا متميزة تمامًا وذات تواريخ خاصة بها. فقد كانت صحارى الداخل، بالأخص الربع الخالي، إلى حد ما تعزل شرقي جزيرة العرب وجنوبي غربها عن بعضهما وتعزلهما عن شماليها وغربها، ولذلك فقد نشأ سكان كل منطقة على حدة أصلاً على نحو مستقل تمامًا عن بعضهم. أصبح هذا [الوصف] أقل دقة في الألف الأول قبل الميلاد، خصوصًا عندما صار الالتفاف بحرًا حول جزيرة العرب ممكنًا وعندما حث طلب القوى المتوسطية والرافدينية المتزايد على النباتات العطرية لجنوبي جزيرة العرب هذا الأخير على زيادة اتصالاته مع باقي جزيرة العرب ومع العالم الخارجي، وحتى أصبح ذلك أقل دقة في العهد البيزنطي/ الساساني [240–630 م] عندما اشتد التنافس بين القوتين العظمتين في ذاك الوقت وأرغم شعوب جزيرة العرب على ممارسة دور في السياسة العالمية. هكذا نشهد انفتاحًا تدريجيًا لجزيرة العرب على العالم الخارجي على مدى تاريخها وكذلك ازديادًا في انتقال السلع والأفكار ضمنها.

مع ذلك، مع أن جزيرة العرب كانت بلدًا ذا شعوب وتراثات متنوعة، فإن العرب هم الذين نسمع عنهم أكثر وهم الذين حققوا الشهرة المتزايدة في تاريخ جزيرة العرب. فقد ورد ذكرهم لأول مرة في النصوص التوراتية والآشورية في الفترة الممتدة من القرن التاسع إلى القرن الخامس قبل الميلاد حيث يظهرون رعاة بداة يقطنون الصحراء السورية. إن حقيقة أن الاسم بدأت تستعمله الثقافتان [الإغريقية-الرومانية والفارسية] في الفترة نفسها إنما توحي بأن «عرب» كانت التسمية التي أطلقها هؤلاء الرعاة على أنفسهم. إننا لا نعرف ما دلالتها الأصلية[3]، لكنها صارت في نصوص الشعوب المتوطنة [الحضرية] مرادفة لقاطني الصحراء والأسلوب البدوي في الحياة. «جلست لهم كأعرابي في البرية . .» يقول نبي التوراة إرميا (إرميا 3: 2)، «إن بابل . . لا تعمر إلى الأبد» يتنبأ نبي التوراة إشعيا (إشعيا 13: 19–20) «ولا يخيم هناك أعرابي ولا يربض هناك

رعاة»، «لا تعرض البحر للعربي أو الصحراء للصيداوي، لأن شغليهما مختلفان» تقول حكمة من القرن السابع قبل الميلاد ‹أحيقار/ Ahiqar 110›. ويتحدث الملك الآشوري سرغون الثاني [721–705 ق م] عن العرب «الذين يسكنون بعيدًا في الصحراء والذين لا يعرفون الناظرين ولا الموظفين» ‹AR 2.17›.









اللوحة 1/1-4):

مشاهد طبيعية من جزيرة العرب: 1 /1: الحراء (جبل سايس، جنوب شرقي سورية، تصوير Felix NG)؛ 2/1: حِسمى (قرب رم، جنوب غرب الأردن، من تصوير المؤلف 2000/01/01)؛ 3/1: وادي دوعان من حضرموت في وقت الأمطار الصيفية (من تصوير المؤلف)؛ 4/1: إطلالة على جبال عمان الوسطى (لاحظ قناة الماء والمصاطب؛ مأخوذة عن كتاب سير دونالد هولي، ‹عُمان ونهضتها›، لندن، 1977 م، ص 131، بإذن من ستاسي إنترناشيونال).

يظهر العرب في نقش عربي جنوبي قديم جدًا، من الأرجح أن يكون من القرن السابع عشر/ السادس عشر قبل الميلاد ‹RES 3945›، لكن على العموم نـادرًا ما يصَادفون في نصوص تلك المنطقة حتى القرن الأول قبل الميلاد[4]. بعد هذا التاريخ يبدو أنها تتطرق أكثر إلى حياة العرب الجنوبيين، ولا يمر وقت طويل قبل أن يصبح بمقدورنا أن نتتبع حدوث السيرورة نفسها في شرقي جزيرة العرب. بعبارة أخرى كان ثمة تعرُّب لا يتوقف لجزيرة العرب، مع أن العرب كانوا في الوقت نفسه قيد التشكل من طريق التراثات الثقافية لجنوبي جزيرةٍ العرب وشرقيها. هذا التحول التدريجي لشعوب جزيرة العرب، المتنوعة أصلاً، إلى مجموعة إثنية واحدة هو أحد المظاهر الكبرى لتاريخ المنطقة[5]. إنها سيرورة تشمل جوانب عديدة: لغوية، أدبية، إقليمية، دينية، وهلم جرا، وهي مسألة ذات معانـي ضمنية إلى عصرنا هذا، لأنه حتى الوقت الحاضر مازال المعتنقون للإسلام خارج الشرق الوسط يتخذون في العادة اسمًا عربيًا، ويمتلكون في غالبيتهم الرغبة في تعلم شيء من اللغة العربية على الأقل ليكون بمقدورهم أن يقرأوا الكتابة العربية، ويشعرون بأنهم ملزمون بأن يزوروا، لمرة واحدة في حياتهم على الأقل، الموئل العربي لنبيهم العربي.

المصادر عن تاريخ جزيرة العرب

إن النصوص الوحيدة تقريبًا التي خلفها لنا سكان جزيرة العرب هي النقوش الموجودة بعشرات الآلاف في كل أنحاء البلاد. معظمها مختصر ولا يعالج سوى مجال محدود من الموضوعات، لكنها ثمينة لأنها شهادات البشر أنفسهم. فمنذ القرن السادس وأوائل القرن السابع للميلاد يوجد أيضًا الشعر العربي، الذي لا يقدر بثمن بسبب المشاهد الحية التي يرسمها وبسبب العالم الأخلاقي الذي يستحضره، وإن كان من المحتم أنه، نظرًا لطبيعة هذا الجنس الأدبي، لا يقدم سردًا مؤيدًا للأحداث. خلافًا لذلك، فإننا مجبرون على الاعتماد على ملاحظات الشعوب غير العربية، كالآشوريين والبابليين وبنـي إسرائيل واليونانيين والرومان والفرس. هذه الملاحظات مفيدة جدًا لإعطائنا رؤية من الخارج، لكنها لهذا السبب نفسه ستكون متحيزة على نحو كامن أو مضلِّلة. ثم إن هناك لقى علماء الآثـار، التـي غالبًا ما تكون كل ما نملك. فحتى وقت متأخر كانت الحفريات قليلة وفي مناطق محدودة، لكن هذا يتغير الآن ويمكننا أن نتطلع بالتأكيد إلى اكتشافات جديدة كثيرة في المستقبل من شأنها أن تعزز إلى حد كبير فهمنا

ومعرفتنا بجزيرة العرب. مع ذلك، ومع أني قد استفدت من التبصرات التي قدمها علماء الآثار، فإن هذا الكتاب هو، في النهاية، تاريخ نصي ولن يقدم مناقشة مفصلة للمواقع الأثرية ومعطياتها المادية.

هذه الموارد آنفة الذكر تعود جميعها في أصلها إلى ماقبل الإسلام ولذلك سوف تشكل الأساس لهذا الكتاب. فالصورة التي تقدمها، مع ذلك، هي في كثير من الأحيان مشوشة وناقصة، ولذلك سنعتمد في بعض الأحيان على المجامع الكبيرة للمؤلفين المسلمين الأوائل حول التاريخ ماقبل الإسلامي [الجاهلي] لكي نوضح هذه الصورة ونستكملها. لكننا لن نستخدم المؤلفين المسلمين كمورد أساس لنا وذلك لسببين: أولاً، كما لاحظنا أعلاه، إنهم يركزون على نحو رئيس على فترة حياة [النبي] محمد [570–632 م] وذلك لأنهم كانوا في معظمهم إما رواة قصص يريدون تثقيف المعتنقين الجدد في أساسات الإسلام أو محامين يسعون إلى صياغة القانون الإسلامي [الشريعة]، وفي الحالتين كان القرآن وأقوال [أحاديث] محمد [النبي] وأفعاله هي محطات اهتمامهم الكبرى. ثانيًا، كانوا يتصفون بازدواجية إزاء العصر السابق لعصر النبي، وكان بعض الفقهاء المسلمين الأوائل يدفعون كفارة بعد دراسة الشعر الجاهلي تمامًا مثلما كان الرهبان المسيحيون القروسطيون يؤدون التوبة بعد قراءة الأعمال الكلاسيكية. فمن منظورهم كان هذا الأدب أثرًا من آثار عصر وثني كانت فيه الأهواء الطائشة (الجهل)، من وجهة نظر إسلامية تقية، يلطفها التسامح الحكيم (الحِلْم). كما قال مبعوث من مكة [النبي] محمد إلى حاكم الحبشة: « أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش والزنا ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف حتى بعث الله لنا رسولاً منا، نعرفه ونعرف نسبه وصدقه وأمانته . . » ‹ابن هشام›[6]. بالنتيجة، فإن هذه التواريخ الإسلامية لجزيرة العرب قبل الإسلام تقدم لنا صورة للماضي تعكس التغيرات التي أحدثها في المجتمع العربي. مع ذلك فإن كثيرًا من شذرات المعلومات قد نجت من هذه السيرورات، خصوصًا التراثات والأنسابيات المحفوظة والمنقولة عن القبائل. هكذا فإن ثعلبة بن سالول الذي يرد ذكره بوصفه زعيمًا لقبيلة إياد في أحد نقوش جنوبي جزيرة العرب الذي يعود إلى العام 360 م ‹Abadan 1› مسجّل أيضًا بعدئذ بنحو أربعة قرون ونصف من المؤرخ القبلي هشام الكلبي.

يتضح من قائمة المصادر الواردة أعلاه أن معرفتنا بالتاريخ العربي القديم تقوم على أسس هزيلة. فلا يوجد تاسيتوس أو يوسفوس عربي ليزودنا بسردية

كبيرة، بل يتعين علينا بالأحرى أن نركِّب أجزاء الصورة إلى بعضها البعض من قصاصة من الشِعر هنا وتعليق عابر لمراقب أجنبي هناك، أو ربما من إلماعة من نقش أو شيء من سياق يمكن تحديد تاريخه، وهلم جرا. إن هذا يصعّب ممارسة النقد المصدري لأنه سيكون على المرء غالبًا أن يكون لديه مرجع وحيد فقط لحدث معين أو ظاهرة معينة ولذلك سيفتقد الوسيلة للتقدير الصحيح لقيمته، أو يكون لديه مرجعان أو ثلاثة لكنها ذات طبيعة مختلفة يكون من شبه المستحيل مقارنتها. عندئذ يبرز الخطر الدائم للتعميم على الزمان والمكان. فالشعر الجاهلي، على سبيل المثال، غني بالتلميحات إلى العالم الاجتماعي والأخلاقي لمؤلفيه وأفراد قبائلهم، لكنه يشتق في معظمه من شمالي جزيرة العرب ووسطها في القرن السادس ميلادي، ولذلك قد يكون من الخطأ أن يجري استعماله لتسليط الضوء على القرون السابقة أو لوصف المناطق الأخرى من جزيرة العرب. لكن إذا كان الوضع الحالي يبدو كئيبًا نوعًا ما، فإن المستقبل يلوح ساطعًا بلا ريب، لأنه كلما فتحت جزيرة العرب الحديثة أبوابها على نحو أوسع، زادت مكتشفات النقوش وكانت الكنوز الآثارية أكيدة.

الفترة التي سيتم تقصيها

مع أن جزيرة العرب تخلو الآن من البحيرات والأنهار، فإن هذا لم يكن الحال دومًا. إن أقنية الحت العميقة لوديان الأنهار الرئيسة، إضافة إلى المراوح الحصبائية الضخمة المتصلة بها، تدل على وجود مياه أمطار هائلة، ومن ثم، في أزمنة معينة على الأقل، وجود مستوى مرتفع من الهطل المطري. إن ما يوحي أيضًا بوجود بيئة خصبة نسبيًا في الماضي هو وفرة البقايا النباتية والحيوانية، إذ تشمل هذه الأخيرة أفرادًا من فصائل الزرافة والأبقار والخنازير والتماسيح ووحيد القرن. لقد دامت الفترة الرطبة الكبرى الأحدث عهدًا من نحو عام 8000 ق م إلى عام 4000 ق م وأدى ذلك إلى ازدياد هائل في عدد المواقع ماقبل التاريخية المتأخرة التي تشهد على وجود نشاطات الصيد والالتقاط وتربية الحيوانات والفن الصخري في جزيرة العرب في هذه الفترة. إن بدء الشروط [المناخية] الجافة قد أثر في الشمال والوسط على نحو دراماتيكي لكنه كان ذو تأثير أقل في جنوبي جزيرة العرب وشرقيها، حيث كان الأول يتميز بالرياح الموسمية، وكان الثاني يحوي المياه الجوفية الوفيرة. لذلك ظهرت أولى حضارات جزيرة العرب في الجنوب والشرق. إن الاحتكاك مع بلاد الرافدين قد حفَّز

ثقافتين مرتبطتين ارتباطًا وثيقًا، لكنهما مختلفتان في شرقي جزيرة العرب في الألف الثالث قبل الميلاد هما ثقافة دلمون [الحسا، قطر، البحرين، عُمان، شواطيء إيران المطلة على الخليج الفارسي - ز م]، التي كانت قاعدتها في البحرين الحالية والساحل المتاخم، والتي ازدهرت نتيجة للتجارة البحرية العابرة بين الشرق الأوسط والمرافئ الإيرانية والهندية. كانت مَجَن [في عمان؟، مَعِن اليمنية؟، مِصر؟ - ز م] الاسم القديم لشبه جزيرة عمان، هامة للتنقيب عن خام النحاس المحلي وصهره، إضافة إلى الفلزات الأخرى. بما أنه توجد سجلات رافدينية تصف هذه النشاطات بالتفصيل، فسوف نبدأ مناقشتنا شرقي جزيرة العرب من هذه النقطة. فيما يتعلق ببقية جزيرة العرب، وخصوصًا في الجنوب، ثمة دليل في العصر البرونزي على وجود الري وتربية الحيوان، وصناعة الأدوات العملية والزخرفية والطقوسية من الحجر والصلصال والبرونز، وإقامة الإنشاءات الدفنية وهلم جرا. ومع ذلك، لا نمتلك أي معلومات مكتوبة حتى أواخر الألف الثاني أو أوائل الألف الأول قبل الميلاد، ولذلك لا يمكننا البدء بكتابة تاريخها [أي جزيرة العرب] إلا انطلاقًا منه.

المنهجية

تقدم الفصول الثلاثة الأولى مخططًا عامًا لتاريخ جزيرة العرب منذ توثيقه الأول في المصادر المكتوبة (نحو 2500 ق م في شرقي جزيرة العرب، نحو 900 ق م في الشمال والجنوب) حتى فترة حياة [النبي] محمد. بما أن جزيرة العرب كانت على مدى جزء كبير من هذه الفترة مكونة من شعوب مختلفة تمامًا، فإن هذا سوف يراعى في المخطط العام الذي سيجري إنشاؤه وفقًا للمناطق الثقافية الثلاث الأساس. وهذه المناطق هي شرقي جزيرة العرب (الكويت الحالية، البحرين، قطر، الساحل الشرقي للمملكة السعودية، الإمارات، وعُمان)، جنوبي جزيرة العرب (اليمن الحديث تقريبًا) وشمالي جزيرة العرب ووسطها (المملكة السعودية الحالية عدا الساحل الشرقي، وصحراء سيناء والنقب، وأجزاء من الأردن الحالي، وسورية والعراق). على كل، بما أن هذه المناطق الثلاث صارت تتفاعل مع بعضها أكثر فأكثر مع تقدم الزمن، فإن الفصول الخمسة التالية (من الرابع إلى الثامن)، المتعلقة بمظاهر المجتمع والثقافة، سوف تسير وفقًا لموضوع البحث المخصص لكل فصل بحد ذاته. إن لهذا مساوئه، خصوصًا أنه سيكون من الضروري أحيانًا أن نقفز فجأة بين الأزمنة والأمكنة، مع أن ذلك سيفيد في

تفسير وجود تشابهات بين مختلف شعوب جزيرة العرب مثلما توجد اختلافات. أما الفصل الأخير (التاسع) فسيكرس لموضوع جرى التطرق إليه عبر الكتاب، لكنه سيقدم فيه على نحو أكثر اتساقاً: تاريخ العرب، الشعب الأكثر نجاحًا في جزيرة العرب، واستيعابهم لكل الجماعات الأخرى في المنطقة.

من الممارسات الشائعة في الأفلام الوثائقية اليوم أن يدع الشهود يتكلمون بأنفسهم بدلاً من تجنيد راوية [سارد] كلي القدرة، [وهو] ما يتيح للمشاهدين الفرصة لتكوين آرائهم الخاصة. إن [هذه] المقاربة تفتنني حقًا كونها ملائمة على نحو خاص لموضوع هذا الكتاب، لأن المواد اللازمة لكتابة التاريخ العربي الجاهلي لا يُعرف عنها سوى القليل، وغالبًا ما يكون من الصعب تفسيرها. لذلك يجري الاستشهاد بنخبة مثبتة بالأدلة من هذه المواد لكي يتمكن القراء من الاطلاع بأنفسهم على ما تستند عليه معرفتنا بهذه البلاد، وعلى هذا الأساس سوف يبنون أحكامهم الخاصة. إن هذا سيفيد بمثابة مصحح للتخمينات التي أجبرْتُ غالبًا على الانغماس فيها لكي أستخلص سردية من نصوص مسترسلة في كَثير من الأحيان ومتناثرة، ويكون تفسير كثير منها مثار جدل ساخن بين الخبراء. إن ثبت المراجع الوارد في نهاية الكتاب مرتب حسب الموضوعات لكي يرشد الذين يمكن أن يشعروا بمزيد من الإغراء للخوض أكثر في ذلك بوصفه حقلاً لا يزال فتيًا جدًا.

1) شرقي جزيرة العرب

1 / 1) العصر البرونزي [نحو 3200-1300 ق م]

كان الشرق الأوسط في هذه الفترة يسيطر عليه مركزان كبيران للسلطة هما بلاد الرافدين ومصر، مع المنطقة الواقعة بينهما وحولهما المكونة من عدد كبير دائم التغير من الممالك ودول المدن والاتحادات القبلية وما شابه. في هذا العصر لا نسمع سوى عن الشواطئ الشرقية لجزيرة العرب والجزر المستكينة قريبًا منها، التي استفادت من قربها واحتكاكها بالحضارات القديمة لبلاد الرافدين في العراق، وعيلام في جنوب غربي إيران، وملوخّة في وادي الهندوس (الخريطة 2). إن القسم الشمالي (الكويت الحالية، البحرين، قطر، والساحل المتاخم للسعودية)، المعروف ببلاد دلمون قد حقق شهرة خاصة. فالموقع الجغرافي لعاصمته في البحرين، إضافة إلى مخزوناته من المياه الجوفية الوفيرة والمراسي السهلة للسفن، قد جعل منه مركزًا لتسيير القوافل في التجارة البعيدة المدى ومن خلاله كانت تمر كل أشكال السلع، التي كان الكثير منها دخيلاً على المنطقة.

لهذا السبب فإن بلاد دلمون قد صورت غالبًا على نحو أسطوري في أدب بلاد الرافدين. إن أسطورة الخلق المعروفة باسم «إنكي ونينهورساغ» تربط دلمون بأصول العالم. فهناك أسكنت الآلهة زيوسودرا، نوح السومري، ليعيش إلى الأبد بعد أن كان الطوفان قد أفنى الجنس البشري. إنها تمجد بوصفها [أرضًا] 'طاهرة' و'محتفظة بنقائها' [بكرًا]، حيث:

> الأسد لم يقتل، الذئب لم يخطف الحملان . . لا مرض في العين قال هناك: 'أنا مرض العين'. لا صداع هناك قال: 'أنا الصداع'. لا امرأة عجوز تنتمي إليها قالت: 'أنا امرأة عجوز'، لا رجل عجوز ينتمي إليها قال: 'أنا رجل عجوز'». «إنها هبة إلى الإلهة-الأم من الإله العظيم إنكي، الذي وعدها [بقوله]: المياه العذبة ستتدفق من الأرض لأجلك . . مستنقعات الماء المالح ستصبح أحواضًا من الماء العذب . . دلمون ستصبح سوقًا على رصيف الميناء لأجل الأرض» ‹CSL Enki 1.1.1.1-49›. كذلك ورد في الأسطورة نفسها ذكر القسم الجنوبي من شرقي جزيرة العرب، وشبه جزيرة عمان (الإمارات العربية المتحدة وعمان)، الذي كان يورّد [خشب السيسو والأبّا في السفن الكبيرة . . والنحاس القوي المتين ومختلف أنواع الأحجار] ‹CSL Enki 1.1.1.49 AP›)[1].

أظهرت الحفريات الكثيرة أن شرقي جزيرة العرب كان يتميز بازدهار اقتصادي في الفترة الممتدة من 2500 ق م إلى 1750 ق م، وهو ما تؤكده الأدلة الأدبية إذ يتباهى أور-نانشي، ملك لغش [حاليًا تل الهبة - ز م]، دولة المدينة الرافدينية الجنوبية في نحو العام 2500 ق م، بأنه كان يمتلك «سفنًا من دلمون تستورد الخشب من البلدان الأجنبية» ‹La 1.2›. وبعد ذلك بعقود قليلة أرسل ملكان آخران من ملوك لغش تجارًا محملين بالصوف والفضة والسمن والمرهم ومختلف منتجات الحليب والحبوب لمبادلتها في دلمون بالنحاس. لذلك فقد كان الدلمونيون يمارسون منذ هذا التاريخ المبكر دور وكلاء الاستيراد والتصدير في التجارة الدولية. كان سرغون [2334-2279 ق م]، مؤسس الإمبراطورية الأكادية، «يرسي سفن ملوخّة ومَجَن، ودلمون في رصيف ميناء أكاد، العاصمة الرافدينية الشمالية للأكاديين ‹RIM 28›. حتى إن اثنين من خلفاء سرغون، هما مانيشتوسو [2269-2255 ق م] ونارام-سين [2254-2218 ق م] عدّا أن الأمر يستحق القيام

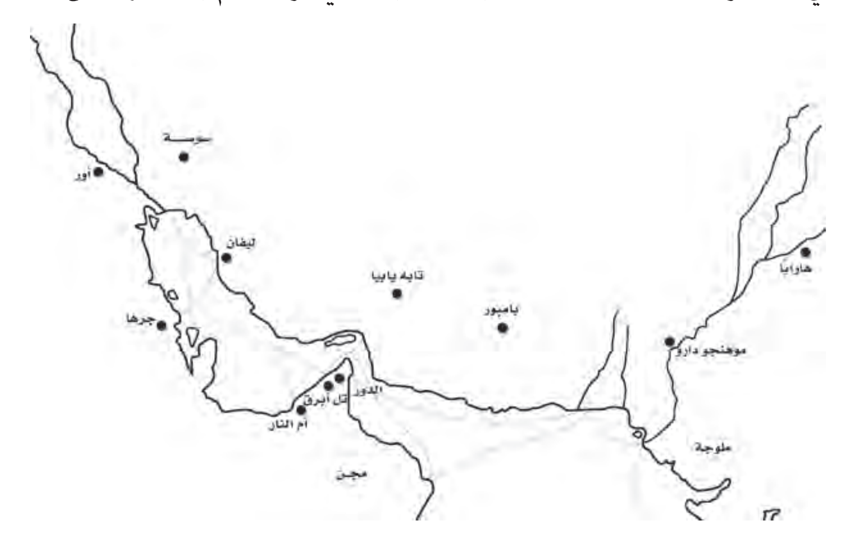
بغزوات إلى مَجَن، سعيًا إلى إخضاعها: فالأول، «فتح مدنهم وأسقط حكامهم» والثاني، «فتح مَجَن وأسر مانيوم، حاكم مَجَن». ثم إن الاثنين اقتلعا الحجر الأسود من الجبال . . وحمّلاه على السفن فرست به على رصيف أكاد حيث صنعا [منه] تمثالاً . . وقدماه هدية إلى الآلهة» ‹RIM 75–76, 97, 100, 117›.

بعد ذلك أصبحت الإشارات إلى شرقي جزيرة العرب في النصوص الرافدينية شائعة، وبشكل شبه دائم حول موضوع التجارة، وهي في معظمها سجلات بسيطة للصفقات، لكن بفضل الخط الجيد، فإن المراسلات الشخصية لتاجر دلموني، يدعى إيا–ناسر، الذي كان يتخذ من أور قاعدة له، قد بقيت سليمة في خرائب بيته. كان يتاجر بقوالب النحاس من مَجَن وكان نشِطًا في الأعمال التجارية في نحو منعطف القرن التاسع عشر قبل الميلاد. يرد ذكره كشخصية عديمة الضمير نوعًا ما، أو أنه كان يمر بأوقات عصيبة في مرحلة ما من حياته، لأنه كان ثمة عدد من الرسائل الغاضبة من أعوانه في أور حينما كان مسافرًا في دلمون تشكو من أنه لم يسلم البضائع الموعودة. هاكم مثالاً على أحد مرافقيه ويدعى ناني، يشجب سلوك إيا–ناسر غير اللائق:

> والآن عندما أتيت قلتَ: 'سأعطي جيميل–سين قوالب جيدة' هذا ما قلته لي عندما أتيت، لكنك لم تفعل ذلك. لقد قدمت لمبعوثي قوالب سيئة، وأنت تقول، إذا كنت ستأخذها فخذها وإذا كنت لن تأخذها فاغرب. من أنا حتى تعاملني بهذه الطريقة، تعاملني بمثل هذا الاحتقار، وبين نبيلين مثلنا! لقد كتبت إليك لكي تستلم كيس الدراهم، لكنك تجاهلت ذلك. فمن من بين تجار دلمون تصرف ضدي بهذه الطريقة؟ ‹UET 5.81›.

بعد وقت قصير من زمن إيا–ناسر تضافرت مجموعة من العوامل التي تسببت في انكماش اقتصاد دلمون ومَجَن. لأسباب مجهولة، عانت حضارة وادي الهندوس تدهورًا حادًا وتأثرت بلاد الرافدين الجنوبية على نحو معاكس بانهيار مملكة حمورابي في العام 1750 ق م. علاوة على ذلك فقد وُجدت آنذاك مصادر بديلة للنحاس متوافرة في الأناضول وقبرص، حيث كان ثمة ما يشهد على وجوده لأول مرة في بابل إيصال قبض يعود تاريخه إلى العام 1745 ق م مقابل النحاس المنقّى من قبرص (Alashiya) ودلمون. هكذا فقدَ شرقي جزيرة العرب موقعه الامتيازي. إن عالم إيا–ناسر وزملائه التجار قد بدأ يتغير ولم تعد دلمون مرة أخرى أبدًا إلى

احتلال المكانة الخاصة التي كانت تتميز بها عند السومريين وأخلافهم المباشرين. في هذا الوقت كانت فقط مقاطعة بعيدة [تابعة] لأي قوة تحكم بلاد الرافدين.



الخريطة 2: خريطة شرقي جزيرة العرب تظهر طرق التجارة
(**اعتمدها المؤلف نقلاً عن**: D. Potts, Ancient Magan, 128).

كان أوائل هـؤلاء الحكام هم الكاسّيون، وهم شعب من أصل غير مؤكد، اندمجوا بالثقافة البابلية وملكوا بلاد الرافدين الجنوبية نحو أربعة قرون [1595-1158 ق م]. لقد عُثر على وثائق قليلة تعود إلى فترة حكمهم في البحرين، تتضمن حجرًا يحمل النص الغامض «قصر ريموم خادم [الرب] إينزاك من آغاروم»، وختم شكّانكّو نائب ملك دلمون (اللوحة 2) إضافة إلى رقيمين منقوشين من العهد الكاسيتي، عثر عليهما في نيبور في بلاد الرافدين، يذكران دلمون، وكلاهما من شخص يدعى إيلي-إيباشرا، مواطن ذي مرتبة عالية من نيبور جرى تنصيبه حاكمًا عليها وهو يكتب إلى زميله إيليليّا، الذي ربما كان حاكمًا لنيبور. من المؤكد أنه كان يلاقي صعوبات مع شعب قبلي يدعى أحلامو، الذين «نقلوا التمر» و«لا يحدثونني سوى عن العنف والسلب، ولا يحدثونني عن المصالحة». وثمة إحساس عام بالفوضى والخراب مع البيوت القديمة المتداعية والتي تحتاج إلى الإصلاح، وتكثر النبوءات عن «تدمير القصر»، لكننا لا نتمكن من الحصول على صورة واضحة عن الوضع ‹Ni. 615, 641›.

1 / 2) العصر الحديدي (نحو 1300-330 ق م)[2]

في أوائل الألف الثاني قبل الميلاد كان ثمة تنامي للتجارة بين الأقاليم في بلاد الرافدين الشرقية وتطوير أكبر للمناطق النائية الريفية من قبل دول مدن سورية وفلسطين. إن الازدياد الناتج من الازدهار قد لفت انتباه المصريين والحثيين من الأناضول (في تركية الحديثة)، اللذان تدخلا اقتصاديًا وسياسيًا وعسكريًا في جنوبي المشرق وشماليه على التوالي منذ القرن السادس عشر قبل الميلاد فصاعدًا. أدى اشتداد التنافس بين القوتين إلى مواجهات مسلحة عرضية (أشهرها معركة قادش في العام 1286 ق م) وازدياد الاستغلال الاقتصادي. فقد انهارت بعض المراكز الإقليمية تحت ثقل المطالب الإمبراطورية وأدى هذا إلى فترة من عدم الاستقرار العالمي. لكن فقدان المراكز القائمة لسلطتها أيضًا أطلق العنان للجماعات السكانية المستقلة وسمح بأشكال جديدة من النشاط الاقتصادي، كالتجارة القائمة على اغتنام الفرص (في مقابل الأسلوب السابق المحكوم بالطلب) من قبل الفئات البينية والمحيطية، وخصوصًا [تجارة] الشعوب الساحلية على متن القوارب و[تجارة] شعوب البادية على ظهور الجمال.

تعقّد هذا الوضع المتقلب بفعل حافزين آخرين للتقلب والتغير، هما تحديدًا انتشار الحديد على حساب البرونز وظهور الأبجديات ذات الأحرف الساكنة التي تنافست مع أنظمة الكتابة المقطعية/التصويرية المرهقة والمعقدة في مصر وبلاد الرافدين. كان هذان البندان موجودين قبلئذ بكثير، لكنهما لم يبدأا بجني المكاسب إلا في نحو نهاية الألف الثاني. ويعدّ الاثنان ذوي تأثير في نزع الصفة المركزية عن السلطة السياسية والاقتصادية. إن الحديد، خلافًا للنحاس والقصدير (اللذان يصنع منهما البرونز)، يوجد عمليًا في كل مكان على الأرض، ولذلك فإن التنقيب عنه لم يكن من الممكن للنخب الحاكمة التحكم به عمليًا كما حصل للنحاس. والأبجديات ذات الحروف الساكنة، خلافًا للأنظمة المقطعية/التصويرية، لا تتطلب تمرينًا مطولاً، ولذلك فإن تعلم الكتابة والقراءة قد أفلت من سيطرة الدولة وأصبح أكثر انتشارًا بكثير. كانت الخطوط الجديدة مفيدة على نحو خاص للتجار الذين استطاعوا آنذاك أن يجروا الصفقات والعقود بسهولة أكبر، وربما ليس من قبيل الصدفة أن الأبجديات قد نشأت من مراكز تجارية مثل فلسطين وفينيقية.

لاتزال الطبيعة الدقيقة والأهمية لهذا الانتقال من أواخر العصر البرونزي إلى أوائل العصر الحديدي موضع جدل كبير، لكن من المؤكد أن المشهد

الجيوسياسي في الشرق الأوسط قد تبدل تبدلاً عنيفًا خلال هذه الفترة. فقد تلاشت المملكة الحثية كليًا في العام 1150 ق م، وتقلصت مصر لتفقد سيطرتها على فلسطين وسيناء والنوبة. دمرت عدة مدن في المشرق، أبرزها أوغاريت [رأس الشمرا] وإيمار [تل مسكنة]، ولم تعد إلى احتلال مواقعها. في العام 1050 ق م كانت آشور قد فقدت السيطرة على أراضيها في بلاد الرافدين العليا فأصبحت المصادر التاريخية نادرة، وعندما تتضح الصورة مرة أخرى في منتصف القرن العاشر يبدو المشهد السياسي مختلفًا جدًا. على وجه الخصوص، إن دول المدن المتركزة في العصور القديمة قد حل محلها عدد من الممالك القبلية المشتقة من الفئات البينية والمحيطية الآنفة الذكر (الآراميين[3]، بني إسرءيل، العمونيين، المؤابيين، والإدوميين) والمستعمرات الساحلية التجارية والصناعية (الفلسطيين والفينيقيين). في نهاية هذه الفترة المضطربة أيضًا يبدأ العرب بالبروز فجأة في مصادرنا، وتظهر الدول في جنوبي جزيرة العرب.



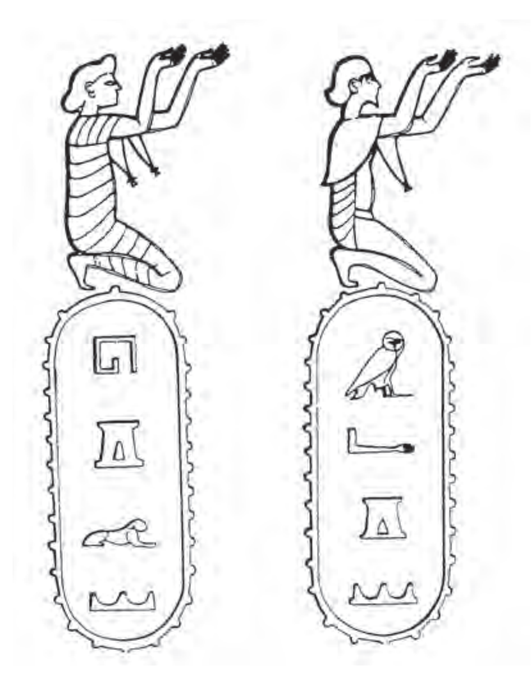


اللوحة 2: ختم أسطواني كاسّي، من البحرين (مع طبعة ختم) يعود إلى أوباليسو-مردوك، ابن أراد-إيا، الذي يحمل لقب «نائب ملك دلمون»، القرن 15 ق م، الطول 4,2 سم (British Museum 122969).

لم تستعد مصر عظمتها السابقة تمامًا، وعلى مدى الستمئة سنة التالية مال ميزان القوة نحو الشرق، إلى بلاد الآشوريين. بدأ هؤلاء الناس تجارًا، يشتغلون خارج مدينتهم آشور في شمالي العراق الحديث. ثم في أواخر القرن الرابع عشر قبل الميلاد باشروا سياسة توسع عدوانية دامت نحو ثمانيمئة عام، باستثناء انقطاعات قليلة (خصوصًا انقطاعات الغزوات الآرامية في الفترة من نحو 1100 إلى 930 ق م): فامتدوا غربًا باتجاه البحر المتوسط وهددوا مصر تكرارًا. بفضل هزيمتهم للكاسّيين أصبحوا مسيطرين على دلمون، فاتخذ الملك الآشوري توكولتي-نينورتا الأول [1243–1207 ق م] وفقًا لذلك لقب «ملك دلمون وملوخّة». ربما لم يعكس ذلك أي تورط حقيقي في شؤون شرقي جزيرة العرب، مع ذلك، لأننا لا نجد ذكرًا آخر لدلمون في المصادر الآشورية حتى بعد ذلك بوقت طويل. لكنه يعاود الظهور في سياق حملة سرغون الثاني [721–705 ق م] ضد العاهل البابلي ميروداش-بالادان. لقد جعل انتصار سرغون كثيرين يهرعون إلى مبايعته: «أوبري، ملك دلمون، الذي يعيش، مثل سمكة، على بعد ستين ساعة في وسط الشمس المشرقة، قد سمع بجبروتي الجليل فجلب عطاياه. على نحو مماثل، في أعقاب نهب سنحاريب لمدينة بابل في العام 687 ق م: «رأى دلمونيون ذلك فوقع عليهم الرعب من أبهة آشور، فجلبوا عطايا أتباعهم». وفي النقوش الملكية لآشور بانيبال [668–627 ق م] ورد أن: «ملك دلمون، هوندارو كان يأتي بجزيته الغنية إلى نينوى كل عام من دون انقطاع، ويتضرع طالبًا حمايتي». لا نعلم عن مَجَن شيئًا من المصادر الآشورية باستثناء أن الجزية قد أُرسلت إلى آشور بانيبال في العام [640 ق م] من قبل: «بادي، ملك أرض قادي الذي كان يقطن في مدينة إيسكا» التي تُعرف حاليًا باسم إزكي في داخل عُمان[4].

خضعت آشور للقوات المشتركة من الميديين والبابليين في العام 609 ق م ولم يحزن لذلك إلا قلة («نينوى دُمرت، فمن سينوح عليها؟» ناحوم 3: 7). واصل هذان الشعبان تقدمهما على الأراضي الآشورية لفترة من الزمن، لكن الفرس القادمين من جنوب غربي إيران طردهما. فقد غزا قورش العظيم الميديين في العام 549 ق م، وفي العام 539 ق م خضعت بابل. في أوج الإمبراطورية التي أسسها كانت تضم أجزاء من الهند ومصر وكل الأراضي الواقعة بينهما. كانت الإمبراطورية يقودها الفرس في مناصبها العليا، وكان ولاؤها للملك العظيم الوحيد، الحاكم على أرض الإله الفارسي، آهورا مازدا، لكنها كانت تتربع على قمة الشرق الأوسط الكوزموبوليتي، تحترم تراثات الشعوب المغزوة وتأخذ منها

كل ما يبدو مفيدًا. فأصبحت الآرامية اللغة المشتركة للإمبراطورية، وجرى تبني البحرية الفينيقية كاملة، وأنشئت الطرق على النمط الآشوري وسُكت العملة استنادًا إلى عملة اليونان وآسيا الصغرى. لذلك فإن حكمهم الذي دام قرنين أو أكثر [550–334 ق م] يتذكره رعاياهم والشعوب المجاورة لهم بأنه عصر تسامح وسلام.



الشكل 1: تصوير لعربي (اليسار، يسمى هاجور، عرب شمال غربي جزيرة العرب بالمصرية الديموطيقية، أكده لي البروفسور ج بينز (J. Baines)) وماكي (اليمين، يسمى ماكا) من تمثال لداريوس وجد في سوسة، لكنه صنع وخصص لمصر ‹The subject peoples on the statue of Darius›, 135, 144 **كما هو الحال مع التصويرات الفارسية الأخرى** ‹Schmidt, Persepolis III, figs. 47, 50› **فإن العربي يرتدي عباءة طويلة والماكي سترة قصيرة.**

إن النفوذ البابلي في الخليج إنما يؤكده نص يعود تاريخه إلى العام الحادي عشر من عهد نبونيد [554 ق م] يتطرق إلى ذكر شقيق حاكم دلمون، الذي ربما عهد إليه بتعزيز أو حماية التجارة بين دلمون وبلاد بابل، وعلى جزيرة إيكاروس (فيلكا الحالية، مقابل ساحل الكويت) جرى اكتشاف لوح ضخم من

الحجر المشذَّب منقوشًا بكلمات «قصر نبوخذنصّر، ملك بابل». ومع ذلك، فإننا لا نعرف سوى القليل جدًا عن دور الفرس في هذه المنطقة. إن قوائم المقاطعات والشعوب الخاضعة لهم تقدم إمكانيتين، جزيرة العرب وماكا، التي يصور سكانها على نحو مختلف جدًا (الشكل 1). الأولى، من المحتمل أنها تدل فقط على منطقة صحراء سيناء-الصحراء السورية، التي ساعد سكانها قمبيز في الهجوم على مصر في العام 525 ق م، ولذلك لم يقدموا طاعة العبيد إلى الفرس، بل اتحدوا بهم من طريق الصداقة ‹Herodotus 3.88›. ربما لهذا السبب يكرم حامل العرش العربي في أحد النقوش النافرة لضريح ملكي فارسي، جنبًا إلى جنب مع السكيثي بقلادة ذهبية. الإمكانية الثانية، الماكيون وبلدهم ماكا، المنافسون المرجحون لشرق جزيرة العرب. إذ توصف في قائمة واحدة بعبارة: «البلدان الواقعة وراء البحر» ‹Persepolis E› ويصفها الكتّاب الكلاسيكيون آريان ‹Arrian, Ind. 32.7› واسطرابون ‹Strabo 16.3.2› وبليني ‹Pliny 6.98› وأميانُس ‹Ammianus 23.6.10›) بأنها رأس البر على الجانب العربي من مضائق هرمز.

1 / 3) العهد اليوناني-الروماني / الفرتي [نحو 330 ق م - 240 م]

في هذا العهد انتقل ميزان القوة على نحو أساس نحو الغرب، بزوال الإمبراطورية الفارسية على يد الاسكندر، العنيف، السكير، المتقلب عاطفيًا إنما الألمعي، الذي يلقب عادة «بالأكبر». فقد عبر الدردنيل (Hellespont) في سنة 334 ق م بقوة مشتركة من الجنود المقدونيين واليونانيين، الذين ربما بلغ تعدادهم نحو 50000، وبدأ الاستيلاء على كافة البلدان التي كان يسيطر عليها الفرس وتغلغل حتى إلى الهند. اتخذ ألقابًا شرقية، ومنح الفرس والمقدونيين واليونانيين حقوقًا متساوية وحافظ على نظام المرزبانيات الفارسي (الأراضي التي يقوم عليها شخص يدعى المرزبان يمنحه الملك العظيم سلطة عسكرية ومدنية)، ضامنًا بذلك ولاء النبلاء الفرس. لكنه استجلب عناصر يونانية أيضًا: جيشًا أصغر وأكثر انضباطًا، نظامًا ماليًا موحدًا واقتصادًا نقديًا يقوم على العملة الفضية الأثينية، واللغة اليونانية. إن اتحاد اليونان وفارس قد رُمز له بعرس جماعي عندما تزوج الاسكندر و10000 من جنوده زوجات فارسيات. لم تُتخذ إجراءات الخلافة فكان من نتيجة ذلك أن سارع قادة جيشه بعد موته في بابل سنة 323 ق م إلى السيطرة على ما يستطيعون من الأراضي لأنفسهم. في

العام 281 ق م، بعد حروب عديدة، جرى تأمين ثلاث سلالات أساس: الأنتيغونية في مقدونية، والسلوقيين في آسية الصغرى والشرق الأوسط، والبطالمة في مصر. فكانت دولاً مفككة على الطراز الفارسي، مع أن الحكام اليونانيين شجعوا الفكر والنخب والمؤسسات اليونانية، التي امتزجت مع التراثات المحلية لتنتج ما ندعوها بالثقافات الهلنستية. في أثناء القرن الثاني قبل الميلاد حوصر السلوقيون من الجانبين، من الرومان إلى الغرب ومن الفرتيين القادمين من شمال شرقي إيران. في العام 140 ق م كان هؤلاء الأخيرون قد نصبوا أنفسهم أسيادًا لبلاد بابل. اكتفى الرومان أساسًا بالتكتيكات المزعزعة للاستقرار، داعمين المطالبين المنافسين بالعرش السلوقي ومشجعين الأنظمة الانفصالية كالمكابيين في ولاية يهوذا. ولم يطردوا السلالة الحاكمة السلوقية إلا في العام 63 ق م، [عندما] ضموا آخر معاقلها، سورية، بوصفها مقاطعة رومانية. منذئذ فصاعدًا عاد الشرق الأوسط إلى السياسة المستقطبة، مع روما وفرتيا اللتان تنظران كل منهما إلى الأخرى بعين الحذر عبر الصحراء السورية على مدى القرون القليلة التالية، وفي أغلب الأحيان أجبرت الشعوب المجاورة على الوقوف مع أحد الطرفين:

> يشكل نهر الفرات والأرض الواقعة بعده حدود الإمبراطورية الفرتية. لكن أجزاء هذا الجانب من النهر إلى مسافة بعيدة تمتد حتى بلاد بابل يسيطر عليها الرومان وشيوخ القبائل العرب، بعضهم يفضل الإصغاء إلى الفرتيين فيما البعض الآخر يصغي إلى الرومان ‹Strabo 16.1.28›.

تمتع شرقي جزيرة العرب بشيء من التحسن في حظوظه في هذه الفترة، نتيجة لتزايد التجارة عبر الخليج والازدياد في الاحتكاكات مع جنوبي جزيرة العرب والأنباط، ونحن نعلم من الأدلة النمية [العُمُلتية] أنه كان يدعم نظامًا ملكيًا لفترة من الزمن، كان مقره في منطقة الإمارات العربية الحالية (اللوحة 3)[5]. مع ذلك، في البدء، لم ينجُ إلا على نحو ضيق من التعرض لغزو الاسكندر. فعندما عاد بسلام إلى بابل بعد نهاية ناجحة للحملة الهندية، وجه الاسكندر اهتمامه إلى شبه جزيرة العرب:

> كان الاسكندر يخطط لاستعمار الساحل على امتداد الخليج الفارسي والجزر الواقعة هناك، عندما اعتقد أنها ستصبح بلدًا مزهرًا مثل فينيقية. فكانت حشوده البحرية موجهة إلى عدد

أكبر من العرب بذريعة أنهم الوحيدون من بين البرابرة في هذه الأصقاع الذين لم يرسلوا مبعوثين ولم يقوموا بأي عمل آخر مقبول أو مبجل له. الحقيقة في اعتقادي هي أن الاسكندر كان على الدوام لا يشبع من كسب الأملاك . . كان ازدهار البلاد أيضًا دافعًا محرضًا، لأنه سمع أن القرفة الصينية تنمو في مستنقعاتهم، وأن الأشجار تنتج المر والبخور، وأن القرفة تقتطع من الأغصان وأن الناردين (سنبل الطيب) ينمو من تلقاء ذاته في مروجهم. ثم كان هناك أيضًا اتساع أرضهم، لأنه علِم أن الساحل البحري لجزيرة العرب كان بطول ساحل الهند تقريبًا، وأن هناك جزرًا كثيرة قبالة الشاطئ والمرافئ في كل مكان في البلاد، بما يكفي لتأمين المراسي لأسطوله وللسماح ببناء المدن عليها، والتي كان من المحتمل أن تزدهر ‹Arrian, An. 7.19–20›.

إن الاسكندر، رغم أنه توفي قبل أن يتمكن من الشروع بأي غزو أو استعمار لجزيرة العرب، قد أرسل ثلاث بعثات لجمع المعلومات الاستخباراتية، عززت على نحو كبير المعرفة الكبيرة بمنطقة الخليج الفارسي:

علِم بوجود جزيرتين في البحر قرب مصب نهر الفرات. الأولى [إيكاروس «فيلكا الحالية»] لم تكن بعيدة عن مخرجه، على بعد نحو اثني عشر ميلاً عن الشاطئ ومصب النهر. هذه الجزيرة أصغر، تكتظ بغابة من كل نوع من الشجر، كانت تحوي أيضًا مزار أرتميس وكان سكان الجزيرة يقضون حياتهم حوله. وكانت ترعى فيها الماعز البري [التيوس] والغزلان، التي كانت موقوفة لأرتميس وبوسعها أن تتجول طليقة، ولم يكن مسموحًا لأحد بأن يصطادها ما لم ينوي التضحية بأحدها للإلهة؛ بناءً على هذا الشرط فقط لم يكن الصيد محرمًا . . أما الجزيرة الأخرى فقيل إنها على مسافة إبحار لسفينة تسوقها الريح يوم وليلة عن مصب الفرات. كانت تدعى تيلوس [دلمون قديمًا، البحرين حاليًا] وكانت كبيرة ولم تكن لا وعرة ولا مكسوة بالغابات في معظمها، بل كانت من النوع الذي ينتج المحاصيل الزراعية وكل الأشياء في الفصل المناسب» ‹Arrian, An. 7.20›.





اللوحة 3: قطعة نقدية فضية من شرقي جزيرة العرب، على طراز الدراخما الرباعية الاسكندرية: رأس هرقل يرتدي إهاب الأسد النمي على وجه العملة وشكل زيوس المعدّل على الوجه الآخر (انظر الفصل السابع من هذا الكتاب)، إن عبارة: «أبيعل ابنة . .» مكتوبة بأحرف آرامية في مكان اسم الاسكندر (British Nuseum 314284).

اهتم خلفاء الاسكندر السلوقيون أيضًا بجزيرة العرب الشرقية حيث أقاموا حامية صغيرة لفترة من الزمن على جزيرة إيكاروس، وكتب إكَديُن (Ikadion)، وهو موظف رفيع مقرب من سلوقس الثاني [246–226 ق م] رسالة إلى سكانها وممثلهم بخصوص نقل حرَم [مقام] محلي وأبلغهم أن «الملك مهتم بجزيرة إيكاروس». إضافة إلى ذلك، بحسب بليني (Pliny 6.147) فإن «الساحل [الممتد] من خركس [كرخ ميسان] (Charax) فصاعدًا قد جرى اكتشافه للملك [أنطيوخوس/الأنطاكي] إبيفانس [175–164 ق م]. لكنهم، مثل الاسكندر من قبلهم، لم يؤسسوا أي حضور دائم، وفي حين أن شعوب الخليج وأنظمته كانت على تماس مع العالم اليوناني، تتبادل معه السلع والأفكار، فقد بقيت خارج حدوده.

ما جذب اهتمام الاسكندر والسلوقيين بالخليج هو التجارة بالمنتجات الكمالية. ما لا شك فيه أن الكيان الأهم والوحيد المشتغل بالتجارة في هذه المنطقة في العصر الهلنستي، الذي كان يقوم بوظيفة المورّد للنباتات العطرية العربية وللسلع من الهند، هو المدينة العربية الشمال شرقية المعروفة لليونانيين باسم جرها/جرحاء (Gerrha) [في الحسا] «التي يبلغ محيطها خمسة أميال ولها أبراج مصنوعة من كتل مربعة من الملح»، (Pliny 6.148)[6]:

> بعد الإبحار على امتداد الساحل [الشرقي] لجزيرة العرب [من مخرج نهر الفرات] لمسافة تبلغ 2400 استاديُما (نحو 380

> كم) يصل المرء إلى جرها [جرحاء]، مدينة تقع على خليج عميق. يسكنها الكلدانيون المنفيون من بابل. تحوي التربة الملح ويسكن الناس في بيوت من الملح، وبما أن طبقات الملح تتسلخ على نحو مستمر، بسبب الحرارة اللاهبة لأشعة الشمس، فإنها تتداعى، فيعمد الناس إلى رش البيوت بالماء بشكل متكرر وبذلك يحفظون الجدران ثابتة. تبعد المدينة 200 ستاديُم (نحو 32 كم. 1 ستادُين = 6,25 كم) عن البحر، ويتاجر أهل جرحاء من طريق البر، في معظمهم، بالبضائع والنباتات العطرية العربية. مع ذلك يقول أرسطُبولِس، بالمقابل، إن الجرحيين يستوردون معظم شحناتهم على الرماث [الأطواف] إلى بلاد بابل، ومن هناك يبحرون بها صاعدين نهر الفرات، ثم يحملونها برًا إلى كافة أنحاء البلاد ‹Strabo 16.3.3, citing Eratosthenes and Aristobulus›.

من هذا الوصف يبدو أنه كان هناك مرفأ جرحاء (يقع على خليج عميق) وبلدة جرحاء داخل البر (تبعد 200 ستاديُم عن البحر). تخبرنا ملاحظات اسطرابون أنه في مرحلة ما، حدث تحول في مسار التجارة الأجنبية لجرحاء. ففي عهد أرسطُبولِس، الذي شارك في حملات الاسكندر، كانت جرحاء تشحن البضائع بحرًا إلى بلاد بابل. يتأكد هذا بملاحظة أن سفن الاسكندر «كانت ترسو في مصب نهر الفرات قرب قرية من بلاد بابل تدعى طريدون (Diridotis) [انظر http://basrahcity.net/pather/bbook/takhtet/03.html، ز م)، هنا يجمع التجار اللبان من أرض جرحاء وكل التوابل الأخرى الحلوة الرائحة التي تنتجها جزيرة العرب ‹Arrian, Ind. 41›. لكن في القرن الثالث، كما يروي العلامة اليوناني الكبير إرَطُسثنس السيريني، بدأت جرحاء بتصدير سلعها برًا. ربما كان يعني هذا باتجاه مصر وسورية، ونحن بالتأكيد نسمع عن البخور الجرحائي في العالم المتوسطي في ذلك الوقت. فقد كان يستعمل، على سبيل المثال، مادة مكونة لترياق مضاد للسم في اليونان ‹Nicander 160›، ويوصف بأنه مادة أساس على قوائم التسوّق للنخبة المصرية (انظر مثلاً بردية زينون Zenon papyri 59536 التي يعود تاريخها إلى 261 ق م). إن حضور الجرحائيين الفردي مدون أيضًا، مثل تيم اللات الجرحائي الذي قدم بضعة قرابين عند المزارات على جزيرة دِلوس/دلث في بحر إيجه (انظر: Delos, 1439, 1442, 1449 ,1444–50).

في العام 205 ق م أبحر الملك السلوقي أنطيوخوس الثالث إلى جرحاء:

> توسل الجرهيون [الجرحائيون] إلى الملك لئلا يلغي النعمتين اللتين أنعمتهما الآلهة عليهم وهما السلام الأبدي والحرية. فأمر الملك عندما تُرجمت له رسالتهم أن يُلبى طلبهم . . عندما ترسخت حريتهم، أصدر الجرهيون مرسومًا يكرم أنطيوخوس بهبة من خمسمئة طلنت من الفضة وألف طلنت من البخور، ومئتي طلنت مما يدعى بزيت المر ‹Polybius 13.9.4–5›.

ربما كان هدفه من وراء عرض القوة هذا، إقناع أهلها بأن يوجهوا مزيدًا من تجارتهم نحو بلاد بابل لكي تذهب العائدات الضريبية إلى مملكته بدلاً من أن تذهب إلى أعدائه البطالمة، الذين كانوا يسيطرون على فلسطين وسورية في ذاك الوقت. ومع ذلك، بعد انتصار السلوقيين على خصومهم في العام 200 ق م، أصبحت هذه المقاطعات ميدانًا سلوقيًا، واستطاع الجرهيون أن يستأنفوا التجارة مع البحر المتوسط من طريق المسار الأكثر مباشرة، أي وادي سرحان بدلاً من المرور من طريق نهر الفرات. بحسب أغثرخيدس [200–131 ق م]، مؤلف دراسة من خمسة مجلدات عن البحر الأحمر، يبدو أنهم أيضًا قد بدأوا يتاجرون مع الأنباط. فإلى البتراء وفلسطين، كما قال: «الجرهيون، والمعينيون وكل العرب الذين يعيشون في المنطقة يحملون، كما يقال، البخور من المرتفعات وحمولات المنتجات العطرية» ‹Agatharchides in Photius 250›. من المفترض أن الجرحائيين كانوا ينقلون السلع الهندية إلى البتراء، لأن بضائع جنوبي جزيرة العرب كانت تنقل على امتداد مسار غربها، أو من طريق البحر الأحمر. فيما بعد مرة أخرى، في القرن الأول قبل الميلاد والقرن الأول بعد الميلاد، كان الجرهيون يزودون الإمبراطورية الفرتية:

> لأجل هذه التجارات [مع إيران] فتحوا [العرب] مدينة جرحاء[7]، التي كانت سوقًا لهذه الأصقاع. فمن جرحاء اعتاد كل شخص قبلئذ أن يتابع طريقه إلى جبة (Gabba)، في رحلة عشرين يومًا، وإلى سورية–فلسطين. بعدئذ، بحسب جوبا (Juba)، بدأوا الهجوم على خركنة [أيضًا: مسينه](❖) (Characene, Mesene) والممالك الفرتية بسبب تجارة العطر ‹Pliny 12.80›.

بعد ذلك يبدو أن حظوظ جرحاء قد بدأت بالانحدار، ربما بسبب استيلاء

(❖) مملكة ذات حكم ذاتي ضمن المملكة الفرتية وقعت على رأس الخليج الفارسي – ز م.

الخركنيون والفرتيون على خط تجارة الخليج بين الهند والغرب. بالتأكيد أن وجود هاتين القوتين في المنطقة موثق جيدًا. فقد جرى العثور على قِطع نقدية لملكة خركنة الصغيرة في بلاد بابل الجنوبية في موقع الدور (ربما أمانا على ساحل إمارة أم القوين) الواسع على ساحل الإمارات. في العام 131 م طلب التجار البلميرا/تدمريون المتمركزين في خركنة إقامة تمثال في بلميرا/تدمر على شرف إيارهاي ابن نيبوزاباد، الذي يقال إنه خدم حاكمًا لسكان تيلوس (البحرين) لصالح ملك خركنة ‹PAT 1374›. ويذكر دليل بحري من القرن الأول ميلادي أنه بعد جزر كوريا-موريا (قبالة جنوب شرق عمان الحالية) «تمتد بلاد أخرى، يسكنها شعب أصيل، لم يعد موجودًا في المملكة نفسها [جنوبي جزيرة العرب]، بل في مملكة فارس» ‹Periplus 33›، مع أن هذا، ربما، لم يكن يعني أكثر من كون الموانئ الأساس لجزيرة العرب الشرقية تحت سيطرة فرتية.

في الوقت نفسه الذي تدهورت فيه مراكز داخل البر مثل جرها، نشهد تعدي القبائل العربية. هذا التغير نشهده بالشكل الأوضح في الاختلاف الملحوظ في الأسماء التي أطلقها على هذه الشعوب كلٌ من اسطرابون وبليني من جهة (اللذان أكملا أعمالهما في عامي 23 و77 ميلادي على التوالي) وبطليموس من جهة أخرى (الذي أكمل عمله في نحو العام 150 ميلادي). في وصف هذا الأخير (Ptolmy 6.7) هناك كثير من الأسماء المألوفة لنا من التاريخ العربي اللاحق. على سبيل المثال، في الاسم «Thanuitae»، يمكن أن نميز تنوخ[8]، وهو اتحاد قبلي عربي تقول المصادر الإسلامية إنه ترك تهامة ونجد واستوطن شمال شرقي جزيرة العرب، وهناك انضم إليه، بحسب بطليموس، كل من (Abucaei) و(Ioleisitai)، أي عبد القيس وبنو عُلَيْس. إن هجرة العرب إلى هذه المنطقة قد دونتها المصادر الإسلامية أيضًا، مع أنها سُردت غالبًا بلغة الأعمال البطولية للقادة المنفردين. فعلى سبيل المثال، إن مازن ابن الأزد قد أرسل أخاه نصر ابن [قبيلة] الأزد إلى شحر (في جنوب شرقي اليمن) مع الخيول والرجال الكثيرين . . فسار إلى شحر ثم استوطن فيها، فقدم أهلها له الولاء [البيعة] وما يتوجب عليهم ‹الأصمعي›. هذه التحركات، التي يعزوها الكتاب المسلمون إلى تصدع سد مأرب، لابد أنها قد حدثت بعد بليني وقبل بطليموس، أي في أواخر القرن الأول أو أوائل القرن الثاني ميلادي (انظر الفصل التاسع من هذا الكتاب).

1 / 4) العهد البيزنطي / الساساني (نحو 240 - 630 م)

مرة أخرى نطل على عهد خضع فيه الشرق الأوسط لكثير من التحولات. فقد أفسحت إمبراطوريتا الرومان والفرتيين الإقليميتان المفككتان الطريق لإمبراطوريتي البيزنطيين والساسانيين (سلالة حاكمة إيرانية) المسكونيتين والموحدتين. إن قربهما الشديد، نتيجة لتحول روما إلى الشرق في القرن الثاني، وعناد الساسانيين، مقارنة بأسلافهم المسالمين، قد أديا إلى حدوث المواجهة. من المحتم أن هذه المنافسة بين الدولتين ذات الموقف المشابه قد أحدثت تغيرًا سياسيًا واجتماعيًا وثقافيًا واسع النطاق. فقد تحولتا باتجاه المزيد من المركزية الإدارية والحكم الاستبدادي، ما أدى إلى تضرر الحكم الذاتي المديني في الغرب والنبالة الريفية في الشرق. لقد بدا أن بيزنطة قد امتلكت السيطرة أولاً، على الأقل بلغة الثروة والمركزة، ولذلك باشر الأباطرة الساسانيون حملة عنيفة من البزنطة [إضفاء الطابع البيزنطي، ع ح]، حيث شرعوا في اكتساب أموال ومهارات وأفكار منافستهم [بيزنطة]. وفعلوا ذلك من طريق الاغتصاب بقدر ما فعلوه من طريق التقليد، مستخدمين قدرتهم العسكرية الرهيبة، أو التهديد بها، لانتزاع الموارد المادية والبشرية والفكرية. زد على ذلك أن الإمبراطوريتين قد دخلتا في تزاحم على النفوذ، وهما تكافحان لكسب الشعوب المحيطية إلى جانبيهما. هكذا جرى التودد على نحو فعال إلى شعوب الحبشة وجزيرة العرب طلبًا لولائها وتأييدها، فاستفادت الأخيرة من ذلك بأن استطاعت أن تنتزع المساعدات الحكومية والسلطة، لكن فقط في مقابل المساومة على استقلالها وحرية قرارها. في النهاية، لم تبق النخب الحاكمة مع ذلك غير مبالية بمعتقدات الجماهير. بالفعل لقد أظهر أباطرة المملكتين، وقد صاروا يتقاسمون عقيدتهم مع غالبية رعاياهم، اهتمامًا بتشجيع الوحدة الدينية ضمن بلدانهم، محققين ذلك من طريق طبقة كهنوتية منظمة تنظيمًا هرميًا [مراتبيًا]. عندما أصبح الدين والسياسة مرتبطين على نحو أوثق من ذي قبل، اكتست الحرب صبغة دينية على نحو متزايد فأصبح الاختلاف الديني في كثير من الأحيان مساويًا للانشقاق السياسي، وكان من نتيجة ذلك الاضطهادات. على مسرح جزيرة العرب، حدث ذلك بالشكل الأكثر دراماتيكية في الجنوب عندما قام حاكم الحبشة الموالي للبيزنطيين بغزو اليمن لمساعدة المسيحيين، الذين يعانون في ظل ملك يهودي[!]، ونصبوا على العرش عاهلاً مسيحيًا (انظر الفصل الثاني من هذا الكتاب).

في شرقي جزيرة العرب، انتقل الساسانيون بسرعة إلى ترسيخ سيادتهم. ما

إن انتزع الحاكم الساساني الأول أردشير [224–242 م] السيطرة على المناطق الرئيسة من القبضة الفرتية حتى زحف إلى عُمان والبحرين واليمامة. فطلع سنترُك، ملك البحرين لصده وقاتله، لكن أردشير قتله وأمر بتدمير مدينته ‹الدينواري›. هذه الغزوة وإطاحة سنترُك، الذي يومي اسمه إلى كونه فرتي، شكلتا علامة على بداية نحو أربعة قرون من الهيمنة الساسانية في المنطقة. إن التدشين الرسمي [لهذه الهيمنة] مدون على النقش الكبير لشابور الأول [242–270 م] في نقش رستم، الذي يعلن فيه: «إنني حاكم على البلدان التالية: فارس، فرتيا، جزيرة العرب . . وعلى الجهة الأخرى من البحر [إلى إيران]، مازون [عمان]». حتى الآن لم يكتشف كثير من البقايا الأركيولوجية من العهد الساساني، لكن مصدرًا من القرن الرابع يرسم مشهدًا مزدهرًا: «على امتداد كل السواحل توجد سلسلة من المدن والقرى، والكثير من السفن التي تبحر رائحة غادية» (Ammianus 23.6.10). من المحتمل أنهم كانوا يمارسون معظم سيطرتهم عبر التحالفات مع مختلف القبائل العربية، وخلافًا لذلك كانت محصورة بمواقع أساس قليلة كالبحرين وصحار. هكذا يرى مصدر إسلامي أن الساسانيين قبل الإسلام كانوا (على شواطئ البحر وضفافه) في حين كانت القبائل العربية في الجبال والصحارى ‹العوتبي›. لقد كان الهدف الأساس الجلي للساسانيين التحكم بحركة المرور عبر الخليج، لكنهم كان بمقدورهم أن يمارسوا سلطتهم على الداخل إذا دعت الحاجة. هذا ما تثبته حملة شابور الثاني [309–791 م] التي قادها ردًا على غارات العرب الفقراء من شرقي جزيرة العرب داخل إيران الجنوبية:

> ثم قطع البحر في أصحابه، فورد الخطّ، واستقرى بلاد البحرين، يقتل أهلها ولا يقبل فداء، ولا يعرج على غنيمة. ثم مضى على وجهه، فورد هجر، وبها ناس من أعراب تميم وبكر بن وائلٍ وعبد القيس، فأفشى فيهم القتل، وسفك فيهم من الدماء سفكًا سالت كسيل المطر، حتى كان الهارب منهم يرى أنه لن ينجيه منه غار في جبل، ولا جزيرة في بحر، ثم عطف إلى بلاد عبد القيس، فأباد أهلها إلا من هرب منهم، فلحق بالرمال ثم أتى اليمامة، فقتل بها مثل تلك المقتلة، ولم يمر بماء من مياه العرب إلا عوّره، ولا جب من جبابهم إلا طمّه ‹الطبري›.

في تاريخ لاحق شدد الساسانيون قبضتهم على أملاكهم العربية. فقد قام الإمبراطور خسرو [531–579 م] بوجه خاص بإعادة تنظيم المملكة وأنشأ سيطرة أكثر مباشرة من المركز، وهي نقلة حفزها تصعيد صراع القوى العظمى في القرن السادس. هكذا نبدأ منذ هذا التاريخ بالسماع عن حكام معينين مركزيًا في جزيرة العرب، وإرسال البعض إلى مناطق لم يكن فيها سابقًا أي وجود إيراني ملموس. يقال إن الشاعر العربي المشهور طرفة بن العبد (توفي نحو 560) قد مات على يدي حاكم البحرين، ويشار إلى وجود هذا المنصب في عدد من الحكايات، كالحكاية التالية:

> بعث وهرز بأموال وطرف من طرف اليمن إلى كسرى، فلما صارت في بلاد بني يربوع [فرع من قبيلة تميم] . . انتهبوها . . وصار أصحاب العير إلى هوذة بن علي الحنفي باليمامة، فكساهم، وزودهم وحملهم، وسار معهم حتى دخل على كسرى . . وعزم [كسرى] على توجيه الخيل إلى بني تميم، فقيل له: «إن بلادهم بلاد سوء، إنما هي مفارز وصحاري لا يهتدى لمسالكها، وماؤهم من الآبار، لا يؤمن أن يعوروها فيهلك جندك». وأشير إليه أن يكتب إلى عامله بالبحرين، وهو آزاد فردز بن جشنس الذي سمته العرب «المكعبر»، لأنه كان يقطع الأيدي والأرجل [لمعاقبة المجرمين] . . ففعل، ووجه له رسولاً ودعا بهوذة فجدد له كرامة وصلة وقال: 'سر مع رسولي فاشفني واشْتَفِ'، وكان بنو تميم يصيرون في ذلك الوقت إلى هجر، للميرة واللقاط، فنادى منادي المكعبر: 'من كان ها هنا من بني تميم فليحضر فإن الملك قد أمر لهم بميرة وطعام يقسم فيهم، فحضروا، فأدخلهم المشقر، وهو حصن حياله حصن يقال له الصفا، فلما أدخل المكعبر بني تميم المشقر قتل رجالهم واستبقى الغلمان ‹الطبري›.

في جنوب شرقي جزيرة العرب، قام الساسانيون، إضافة إلى الاعتراف بعشيرة متسيد من الأزد ومنحها لقب الجلندة، بتنصيب حاكم ذي خلفية عسكرية ‹العوتبي›. فيما بعد، في القرن السادس، أقيم نظام مماثل في اليمن. وفي الحيرة في العراق الأدنى، طرد النصريون، حلفاء إيران منذ زمن طويل، واستبدلوا بقبيلة طيء التي عُين لها قائد فارسي باسم ناخرجان ‹الطبري›.

يبدو أن هذا التصرف قد أثار الذعر بين بعض القبائل العربية:

> عندما سمم خسرو الثاني [591–628 م] النعمان بن المنذر [توفي سنة 602 م] ملك العرب، وابنه، من طريق الحيلة، فإن العرب في إمبراطوريتي الفرس والرومان كفوا عن الولاء لهما وتفرقوا، يتصرفون حسب أهوائهم . . لذلك أصبحوا أقوياء وتسببوا في الكثير من الأذى في المقاطعات، وظلوا هكذا حتى ظهور المشرّع المسلم ‹Chron. Siirt 13. 539–40›.

وكان ثمة عدد من المواجهات بين القبائل الحليفة للإيرانيين والقبائل الأخرى المعادية لهم، التي كان بعضها يضم جنودًا إيرانيين. أما أشهر حادث من هذا النوع فقد حصل في العراق في ذي قار في العقد الأول من القرن السابع. لقد وصفه الرواة المسلمون بأنه الصدام الأول الذي تساوى فيه العرب مع غير العرب ‹الطبري›، فصاغوه في قالب رومانسي [بطولي] تاريخي مغلف بخطابة مثيرة ومشاهد حربية درامية.

تميز العهد الساساني أيضًا بإدخال المسيحية وتوسعها في شرقي جزيرة العرب. فمن سيرة راهب يدعى يونه [يونس؟ – ز م] نعلم أنه وجد دير في منطقة قطر في أربعينيات القرن الرابع ميلادي [340 م]. في نحو العام 390 م غادر المدعو أبديشو [عبد يشوع؟ – ز م] جنوبي العراق إلى «جزيرة اليمامة والبحرين»، حيث «عاش حياة زهدية، وعمّد سكانها وبنى ديرًا» ‹Chron. Siirt 5.310›. في العام 410 م طرد باتاي (Batai)، قس مشمهيغ (جزيرة المحرّق الحالية قرب البحرين)، واستُبدل بشخص يدعى إلياس (Synod Or. 34, 36). ويسجل السينودس (المجمع الكنسي) للعام 424 م حضور يوحنا، قس مازن (عُمان) (Synod 43). ثمة أدلة أركيولوجية، وإن تكن غير كافية حتى الآن، على وجود المسيحية في هذه المنطقة. تتكون هذه الأدلة من ديرين على جزيرتين قبالة ساحل أبو ظبي، وبقايا كنائس على جزيرة فيلكا وفي جبيل وثاج في شمال شرقي جزيرة العرب، وعدة صلبانٍ وربما مقبرة في الحِنة [الحناء؟ ز م] قرب ثاج (ست حجارة وجدت تحمل صلبانًا).

إضافة إلى هذه الإشارات المقتضبة المعزولة لا نسمع شيئًا عن نشاطات مسيحيي شرقي جزيرة العرب في الفترة الممتدة من القرن الرابع إلى القرن السادس. ومع ذلك، فإنهم صعدوا فجأة إلى الشهرة في أوائل القرن السابع

عندما جربوا حظهم مع مسيحيي جنوب غربي إيران وحاولوا التملص من السيطرة العراقية. لقد كانت الجاليات المسيحية العربية على الدوام رافضة للخضوع لسلوقيا-قطسيفون/ طسيفون [المدائن]، حيث كان يقيم رئيس الكنيسة الشرقية، لكن وصول المسلمين منحهم الفرصة لكسب الدعم الخارجي. هذا ما أثار استجابة غاضبة من يشوع يهب الثالث، الأسقف في أربعينيات القرن السابع وخمسينياته [640، 650 م]، الذي عبر عن غضبه في رسالة إلى مسيحيي قطر:

> إن مطارنتكم المزعومين لم يكتفوا بشرورهم ضد كنيسة الرب، فوسعوا إعلان عصيانهم إلى الحكام هناك وإلى الحاكم الأعلى الذي هو فوق حكام هذا الزمن. لقد انتفضوا ضد سلطة كنيسة الرب. فتعرضوا لازدراء الحكام بما يتناسب مع عصيانهم ‹Epistulae 266›[9].

عندئذ لجأ إلى كهنة قطر وشماسيها لكي يطردوا أساقفتهم العنيدين ويرسلوا إليه أشخاصًا أكثر جدارة للمنصب الأسقفي:

> أنتم، أصدقائي المخلصين، الذين يقع تحت سلطتكم المفيدة قاطنو الجزر والصحراء <يوتباي مدبرو>، أي قاطنو ديرين [تاروت الحالية] ومشماهيج [سماهيج، مسماهيج، سماهوي، سماهي، مسمهيج، مسمهج = المحرق؟ ز م]، وتيلون [دلمون/ البحرين]، والخط والهَجَر، ينبغي أن تكونوا الآن أكثر اجتهادًا من ذي قبل في تقديم العون لدينكم وفي التأسيس الشرعي للكهانة التي تلزمكم أكثر حتى بالانخراط في الشؤون الدنيوية. لذلك اجتثوا وأرسلوا إلينا أولئك القساوسة الساقطين الذين ترون من المناسب مرة أخرى أن تتم إعادتهم إلى الخدمة الكهنوتية، أو الآخرين الذين تعدّونهم أكثر ملاءمة منهم لأجل المهمة العظيمة للخدمة الجليلة لكنيسة الرب، بحيث يمكن تكريسهم ورسمهم كهنة وإبلاغهم مرتبة الكمال ‹Epistulae 267f›.

لقد نجح يشوع ياهب، من طريق هذه التوسلات والتهديدات في معالجة الانقسام وتحقيق ترتيب آمن، يتيح لمنطقة قطر استقلالاً أكبر في ظل ميتروبوليتانها الخاص.

البلاغ المسيحي الأخير عن شرقي جزيرة العرب قبل إسلامه يأتي من كتابت

رجل دين في جنوب غربي إيران في خمسينيات القرن السابع الميلادي، الذي يخط قطعة قصيرة عن جغرافية جزيرة العرب:

> إن حاصور، التي يدعوها الكتاب المقدس «رأس الممالك» [يشوع 10:11]، تعود إلى العرب، في حين تسمى المدينة بهذا الاسم تيمنًا بمدين، الابن الرابع لنوح بن قيطورة، فإنها تسمى أيضًا يثرب، ودومة الجندل [الجوف الحالية] تعود إليهم، وأرض شعب الهَجَر، الغنية بالماء وأشجار النخيل والأبنية المحصنة. إن أرض الخط [في الإمارات الحالية]، الواقعة قرب البحر في جوار جزر قطر، غنية بالطريقة نفسها، فهي أيضًا كثيفة الخضرة، تعج بمختلف أنواع النباتات. إن منطقة مازون [عمان] أيضًا تشبهها، وهي أيضًا تقع على البحر، تشمل مساحة تزيد على مئة فرسخ. كذلك [تعود إلى العرب] أيضًا أرض اليمامة، في وسط الصحراء، وأرض الطوف ومدينة الحيرة، التي كانت مقر الملك المنذر، الملقب 'المحارب' ‹Chron. Khuzistan 38f›.

يختم المؤلف بتعليق ساخر وهو أن: «المنذر كان السادس في سلالة الملوك الإسماعيليين»، ما يعني ضمنًا أنه كان يعدّ الملوك العرب الذين يحكمون في أيامه استمرارًا لحكم ملوك عرب الجاهلية. إذا كان الأمر كذلك، فمن المرجح جدًا أنه يكتب هذا في أثناء عهد علي بن أبي طالب، صهر النبي محمد و'أمير الحيرة' [656–660][10].

1 / 5) أركيولوجيا شرقي جزيرة العرب

إن إعادة بناء تاريخ هذه المنطقة يعيقها بشدة نقص المصادر المكتوبة. إذ لا توجد تقريبًا أي نصوص بلغة محلية ويوجد القليل جدًا من النصوص باللغات الأجنبية. مع ذلك، على الجانب الإيجابي، فإن الاستقصاء الأركيولوجي لشرقي جزيرة العرب، هو أكثر تقدمًا على نحو كبير من استقصاء بقية شبه الجزيرة. في العام 1878 م تم إجراء أول مسح عندما وصل ضابط بريطاني شاب، هو الكابتن إ ل دْيُرَند (E. L. Durand)، إلى البحرين لاستعراض عاديات الجزيرة. في العام 1953 م تم القيام بأول حفريات احترافية عندما طلبت بعثة دانمركية الإذن ببدء العمل في البحرين، وفي نصف القرن الواقع بين الفترتين جرى إحراز

كثير من التقدم وتوسع الاستكشاف إلى بقية جزيرة العرب، وخصوصًا الإمارات. إن المادة المنبوشة قد يكون من الصعب تفسيرها وقد لا تأخذنا في الاتجاه الذي كنا نأمل أن نمضي فيه، لكنها دائمًا تحمل إلينا نوعًا من القصة عن ماضي المنطقة وتتيح لنا قبسًا من الحياة اليومية لسكان المنطقة، أكثر واقعية من تلك التي تقدمها معظم النصوص الأدبية.

إن تركيب الشيء المصنوع وأسلوبه يشيان غالبًا بتاريخه ومكان منشأه، ومن هذا يمكننا أن نعرف متى ازدهر موقع ما ومن هم شركاؤه التجاريون. يثبت الكم الكبير من السلع المنتجة أجنبيًا، المكتشفة في شرقي جزيرة العرب من أواخر الألف الثالث/أوائل الألف الثاني قبل الميلاد والعهد الإغريقي-الروماني أنه كان نشطًا على نحو خاص في التجارة الدولية في هذه الأزمنة. وهذه التجارة شملت ليس فقط جيرانه المباشرين، أي: بلاد الرافدين وإيران، بل ضمت أيضًا دولاً أبعد بكثير. لذلك، فقد عثر على أضرحة بكتيرية في تل أبرق (اللوحة 4)، وعلى مزهريات من المرمر في جنوبي جزيرة العرب، وأمفورات إغريقية في مليحة، وأواني زجاجية رومانية وأواني فخارية هندية حمراء مصقولة في الدور (والمواقع الثلاثة هي مواقع كبرى في الإمارات) وعلى قطع نقدية نبطية في ثاج وقطيف في شمال شرقي جزيرة العرب.

بالطبع إن غالبية الأشياء المستعملة في شرقي جزيرة العرب صنعت محليًا وثمة شواهد على وجود عدد من الحرف. وقد وصلت إحدى هذه الحرف إلى حجم الصناعة، وهي صهر وتشكيل النحاس في مَجَن (= ماجان)، التي كانت تؤمن أيضًا القوالب المصبوبة وتجهز المنتجات على نحو نهائي للتصدير. جرى تحديد مواقع مناجم قديمة عديدة ونحو 150 موقعًا للصهر، وجرى الكشف عن كل أحجار المطارق لجرش المعدن الخام، والأفران للصهر والقوالب للصب وجرى توثيق وجود تراكيز كثيرة من الخبث. قدمت الحفريات أيضًا أدلة وافرة على استعمال مادتي النحاس/البرونز، في الحياة اليومية: الدبابيس، صنارات صيد السمك، الإبر، الأزاميل، المخارز، السكاكين، الفؤوس، رؤوس الحراب، رؤوس السهام، وأصناف متنوعة مختلفة من القصعات والحلي الشخصية.

تشكل بقايا النباتات (خصوصًا البذور) والحيوانات (خصوصًا العظام) جزءًا كبيرًا من لقى معظم الحفريات وتزودنا بتبصرات كثيرة في الاقتصاد المحلي. ففي البحرين، على سبيل المثال، تكشف هذه اللقى أن البستنة، وبالأخص زراعة التمر، كانت نشاطًا هامًا، وكان عسل التمر ينتج منذ الألف الثاني قبل

الميلاد فصاعدًا. كان القمح والشعير يزرعان وكذلك القطن، ما يؤكد تقرير عالم النبات اليوناني ثيُفرسطس ‹Theophrastus 4.7.7› بهذا الخصوص. كانت الأغنام والماعز تربى على الجزيرة وعلى البر الرئيس المتاخم. إن صيد السمك وجمع الأصداف كانا يمارسان على نحو شائع، وكان اللؤلؤ يجنى في أوائل الألف الثاني قبل الميلاد. لقد لفت وجود هذه الجواهر البحرية في مياه البحرين انتباه الغرباء، الذين كانوا يعدّون المنطقة «مشهورة جدًا بلآلئها الكثيرة» ‹Pliny 6.148›. وكان يُروى أنه: «حول الجزيرة توجد أطواف مصنوعة من القصب، يغطس الرجال منها في البحر إلى عمق عشرين قامة وينتشلون المحار المزدوج الأصداف ‹Athenaeus 3.146›.



اللوحة 4: مشط عظم بكتيري من تل أبرق مع رسم أزهار، من نحو العام 1500 ق م (Dan Potts).

إن الأبنية قد يكون من الصعب تفسيرها على نحو خاص، وتحديدًا عندما تعود لشعب يكون عالمه التخيلي والرمزي شبه مجهول. فعلى سبيل المثال، تبدأ أبراج الآجر الطيني الدائرية بالظهور فجأة في مَجَن في الألف الثالث قبل الميلاد، إذ يبلغ قطرها على نحو أنموذجي 20–40 مترًا، ويبلغ ارتفاعها أصلاً نحو 7–8 أمتار ولها جدار مبطن بالحجر يمتد بشكل مستقيم عبر مركز البناء نزولاً إلى مستوى الماء. فاستُنتج أنها تمثل المعاقل لأشباه «حكام» مَجَن الذين

قاوموا الطاغية الأكادي مانيشتوسو عندما شن حملة هناك في القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد. في هذه الحالة كان البرج مسكن الإقطاعي وعائلته، وربما أيضًا ملجأ في وقت الأزمات للتجمع البشري الذي كان يعيش حول البرج في بيوت من سعف النخيل. لكن ثمة إمكانيات أخرى، كأن تكون هذه المنشآت مفيدة كونها مراكز لحكم المستقرات، حيث كان كبار السن يجتمعون لحسم قضايا التجمع البشري، أو أنها ذات أهمية عبادية ما. مها يكن الحال فمن المؤكد أنها شكلت النواة للمشتركات الزراعية الأولى لشرقي جزيرة العرب. إن أفضل موقع معروف، وهو حيلي في واحة العين، كان يمتلك نظامًا غذائيًا على درجة عالية من التنوع في العام 3000 ق م. إذ يظهر تحليل عينات التربة من هذا العصر أن الحبوب (القمح والشعير) والفاكهة (العنب والبطيخ) والتمور كانت تزرع هناك، وتقدم الفحوص الجارية على العظام الدليل على تدجين الغنم والماعز والأبقار، إذ إن من الواضح أن هذه الأخيرة كانت تستخدم للجر، وربما للحراثة وتشغيل الآبار. هكذا فإن أسلوب الحياة في الواحات الذي اشتهرت به جزيرة العرب قد بدأ في وقت مبكر جدًا، منذ نحو 5000 عامًا.

2) جنوبي جزيرة العرب

2 / 1) **العصر الحديدي** [**نحو** 1300 - 330 **ق م**]

إن تاريخ جنوبي جزيرة العرب (اليمن الحديث) أسهل لإعادة البناء من تاريخ شرقي جزيرة العرب لأننا لدينا نحو عشرة آلاف نقش. لسوء الحظ، مع ذلك، أن هذه [النقوش] غير محددة التاريخ، وفقًا لعصر مطلق، وذلك حتى القرن الأول ميلادي، وتكاد لا تلمّح أبدًا إلى الأحداث خارج جزيرة العرب. لقد حاول الباحثون أن يرتبوها بتسلسل زمني (كرونولوجي) وفقًا لأسلوب كتابتها، لكن مع شبه انعدام أمثلة ذات تاريخ مؤكد لتأمين نقطة [انطلاق] ثابتة لا يمكن لهذه الطريقة أن تقدم أكثر من إشارة تقريبية. لذلك من الصعب جدًا إنتاج سردية تعاقبية للتاريخ المبكر. إن الفترة الواقعة بعد فتوحات الاسكندر الأكبر إنما توضحها إلى حد ما روايات المستكشفين والتجار الأجانب المغامرين، لكن القرون الأولى التي شهدت تطورات هائلة كظهور الدول المعقدة وبدء تجارة

النباتات العطرية، لاتزال غامضة حتى الآن.

كانت الأرض الجبلية جدًا تعيق تشكيل نظام حكم واحد، فكانت السلطة السياسية عمومًا مجزأة بين مختلف شعوب جنوبي جزيرة العرب (الخريطة 3) إذ يبدو أن كل شعب على حدة كان يشكل جماعة دين واحد، تجمعًا بشريًا يرتبط ببعضه من طريق الولاء لإله حام ويتسيّد عليها حاكم يتخذ لقب ملك وأحيانًا لقب موّحد (مكَرِّب). من المحتمَل أنه كان ثمة روابط أخرى عديدة، كاللغة على سبيل المثال، لكن الدين ومقدساته هي التي يبدو أنها تؤدي الدور الأهم في تشكيل هوية كل جماعة على حدة. يظهر كثير من هذه الشعوب في النقوش، والبعض منها يختفي مع تقدم الزمن، إذ يجري امتصاصه على نحو مفترض من قبل الشعوب الأخرى التي سعت لبسط سيطرتها على مساحة أكبر من الأرض. إن أول شعب يمكننا أن نقتفي مآثره هو شعب سبأ، التي كانت الأوفر أدلة على وجودها في السجلات الباقية.

عُرف السبئيون أساسًا بولائهم للإله ألمقه، فهم كانوا أولاد <ولد> ألمقه ‹RES 3945, CIS 4.363›، تربطهم مقدسات وطقوس، ومهرجانات مشتركة وحاكم مشترك. ربما كانت أرضهم محددة أصلاً بمأرب وما يحيط بها، لكن المآثر العسكرية لمختلف القادة أضافت بلدانًا جديدة وكان المتوقع من سكانها أن يبجلوا ألمقه. هكذا أقام ملك في منطقة الجوف مع قبيلته كمنهو [خربة كمنة] برجين [من أسوار مدينة نَشْق] لألمقه و[ملوك] مأرب وسبأ ‹CIS 4.377›، «وعند هزيمة نشن "خربة السوداء"» أجبرت على «بناء معبد لألمقه في وسط المدينة» ‹RES 3945›. إضافة إلى ذلك، نصادف في كثير من الأحيان عبارة سبأ والاتحاد <جوء> ‹CIS 4. 967, Ja 2848› التي تشير إلى كيان أكبر بكثير. إن مؤلف هذين النقشين يضمّن في إهدائه ذكرًا ل «كل الآلهة والأرباب الحامية، وملوك وشعوب سبأ والاتحاد» ‹M 203›. هنا لَدينا شيء ما يشبه تحالف [القبائل]، الذي تزعمته سبأ. كانت الصلة المشتركة هي الولاء للإله الأعلى عثتر، وكان يجري تجديد التحالف تجديدًا منتظمًا في مراسم تقام في معبده على جبل كروان القديم (حاليًا جبل اللوذ في الجوف). لقد أفاد التحالف على نحو مفترض في الحفاظ على السلم والأمن بين أعضائه، وبالأخص احترام كل واحد لمقدسات الآخرين ومناسباتهم المقدسة، وربما أفاد في تسهيل العون المتبادل في أوقات الشدة والتعاون في المشاريع الكبيرة (وخصوصًا بناء الإنشاءات المائية).

يُزعم أن أقدم إشارة إلى السبئيين إنما توجد في الحكاية التوراتية عن زيارة

ملكة سبأ إلى الملك سليمان (نحو 970–931 ق م]:

> وسمعت ملكة سبأ بخبر سليمان لمجد الرب لتمتحنه بمسائل. فأتت إلى أورشليم بموكب عظيم جدًا بجمال حاملة أطيابًا وذهبًا كثيرًا جدًا وحجارة كريمة وأتت إلى سليمان وكلمته بكل ما كان بقلبها. فأخبرها سليمان بكل كلامها. لم يكن أمر مخفيًا عن الملك لم يخبرها به. فلما رأت ملكة سبأ كل حكمة سليمان والبيت الذي بناه وطعام مائدته ومجلس عبيده وموقف خدامه وملابسهم وسُقاته ومحركاته التي كان يصعدها في بيت الرب لم يبق فيها روح بعد. فقالت للملك: 'صحيحًا كان الخبر الذي سمعته في أرضي عن أمورك وعن حكمتك، ولم أصدق الأخبار حتى جئت وأبصرت عيناي فهو ذا النصف لم أخبر به. زدت حكمة وصلاحًا على الخبر الذي سمعته. طوبى لرجالك وطوبى لعبيدك هؤلاء الواقفين أمامك دائمًا السامعين حكمتك، وليكن مباركًا الرب إلهك سر بك وجعلك على كرسي إسرائيل. لأن الرب أحب إسرائيل إلى الأبد جعلك ملكًا لتجري حكمًا وبرًا'. وأعطت الملك مئة وعشرين وزنة ذهب وأطيابًا كثيرة جدًا وحجارة كريمة. لم يأت بعد مثل ذلك الطيب في الكثرة الذي أعطته ملكة سبأ للملك سليمان (سفر الملوك الأول: 10: 1–10).

كان يُظن عادة أن الدول لم تكن قد وجدت بعد في جنوبي جزيرة العرب في هذا التاريخ المبكر، ولذلك رفضت هذه الرواية بوصفها اختلاقًا أو ترجيعًا لوضع لاحق[1]. ومع ذلك، ففي الآونة الأخيرة قدمت الحفريات في عدد من المواقع (مثل حجر ابن حُمَيد ويالا) أدلة على وجود الاستيطان الكبير منذ أواخر الألف الثاني/ أوائل الألف الأول قبل الميلاد، بما فيها بعض النقوش العربية الجنوبية القصيرة جدًا على الأواني الفخارية. إضافة إلى ذلك، جرى اكتشاف مبخرة [محرقة بخور] من مؤاب (غربي وسط الأردن الحديث) وجرة تخزين منقوشتين بأحرف جنوبية عربية من مويلح (في الإمارات الحديثة) في سياقات محددة التاريخ على نحو مؤكد بالعامين 800 ق م و700 ق م على التوالي، ما يوحي بأن جنوبي جزيرة العرب كانت له قبلئذ احتكاكات تجارية مع العالم الخارجي في ذاك الوقت. بالطبع إن المقطع التوراتي الوارد أعلاه كان المقصود منه تمجيد سليمان ورب بني إسرائيل، واسم سبأ الدخيل من الممكن فقط أن يكون قد تم

حشره في تاريخ لاحق لتحقيق هذا الهدف، ومع ذلك فإن فرضية التقرير، أن العلاقات بين جنوبي جزيرة العرب والبحر المتوسط قد أقيمت قبلئذ في القرن العاشر قبل الميلاد، قد يكون لها أساس ما في الواقع. لكن يتعين علينا أن ننتظر حتى منتصف القرن الثامن قبل أن نحصل على شهادة أدبية أكيدة. في هذا الوقت شن حاكم سوهو في منطقة الفرات الأوسط غارة تأديبية على قافلة تعود إلى «أهل تيماء وسبأ الذين كان بلدهم بعيدًا، الذين لم يكن رسلهم قد جاؤوا إليّ أبدًا والذين لم يسافروا أبدًا لملاقاتي» من الواضح أنه شعر بالإهانة، لأنه، هكذا يخبرنا، «أسرت منهم أحياءً، أسرت إبلهم البالغة مئتين مع حمولاتها . . بكل نوع من البضائع» ‹346 Suhu/351›. بعد ذلك بقليل «أرسل إتءمرا السبئي»، الذي يرد ذكره جنبًا إلى جنب مع ملك مصر وملكة العرب، المرجح جدًا أنه نفسه كان عاهلاً، العطور والأحجار النفيسة إلى سرغون الثاني في العام 716 ق م كما أرسل كرب إيل ملك سبأ إلى سنحاريب بعدئذ بنحو ثلاثين عامًا ‹440 ,AR 2 18›. هذان الاسمان يصادفان عمومًا بين قوائم الحكام السبئيين، لذلك لا يمكننا أن نتأكد أيّهم هو المعني، لكن من الممكن على الأقل أن نقول إن سبأ كانت قبلئذ مزدهرة في القرن الثامن قبل الميلاد.

إن العاهل السبئي الذي يرد ذكره على النحو الأكثر تواترًا في النقوش هو المدعو كرب إيل وتر. يبدو أنه كان مسؤولاً عن شهرة سبأ في جنوبي جزيرة العرب، وتخلد مآثره في نصين طويلين محفورين على كتلتين ضخمتين ‹RES 3945–46› في المعبد الكبير للإله القومي السبئي ألمقه في صرواح (اللوحة 5). الأول يحكي تفاصيل حملاته العسكرية التي انتصر فيها «لألمقه وسبأ على طريق البخور، ساحقًا مملكتي أوسان ونشان الواقعتين إلى الجنوب الشرقي والشمال الغربي على التوالي، وموسعًا النفوذ السبئي إلى الأراضي الزراعية الخصيبة للمرتفعات إلى الشمال والجنوب. بإتمام الغزوات الكبيرة، شرع كرب إيل بتعزيز مكتسباته، كما هو مدون في النقش الثاني، فحصن المدن ودشن إنشاءات الري وأقام المستعمرات السبئية في المناطق المهزومة.



الخريطة 3: **جنوبي جزيرة العرب**

.(adapted by the author from Christian Robin, ʾLa Fin du royaume de Maʿinʿ, 179)

2/2) العهد الإغريقي - الروماني / الفرتي [نحو 330 ق م - 240 م]

لا يخبرنا الآشوريون والفرس شيئًا تقريبًا عن جزيرة العرب، لكن الإغريق والرومان، المستفيدين من عدد من الحملات الاستكشافية إلى ذاك الجزء من العالم، هما أكثر تثقيفًا بالمعلومات، مع أنها [جزيرة العرب] بقيت بنظرهم أرضًا غريبة وغرائبية إذ يصفها اثنان من أقدم مصادرنا الإغريقية عن جنوبيها هما ثيُفرسطس الإرسوسي (Theophrastus of Eresus, 372–287 BC) وإرَطسثِنِس القوريني بأنها تسيطر عليها أربعة شعوب كبرى (إثنيات). فعلى حد تعبير الأخير (كما يستشهد به اسطرابون ‹Strabon 16.4.2›) كانت هذه الشعوب

هي: المعينِيُون [أهل معين] (Minaeans) على الجانب نحو البحر الأحمر، الذين كانت أكبر مدنهم هي قرناو (Karna)، يليهم السبئيون الذين كانت عاصمتهم مأرب (Mariaba)، والشعب الثالث هو القتبانيون (Gatabanians) . . الذين يدعى مقرهم الملكي تمنة (Tamna)، والأبعد باتجاه الشرق، الحضرميون (Hadramites)، الذين تدعى مدينتهم شبوة (Sabata). كانت عواصمهم هذه، جنبًا إلى جنب مع عواصم عدد من الشعوب الأصغر، كلها واقعة على حواف الصحراء المعروفة للجغرافيين العرب القروسطيين مثل صيهد (حاليًا رملة السبعتين). قد يبدو موقع في المرتفعات الأكثر برودة والأكثر خضرة اختيارًا أكثر معقولية، لكن النباتات العطرية كانت تمر من طريق محيط الصحراء في رحلتها الطويلة إلى البحر المتوسط وبلاد الرافدين. لذلك فكل من كان يرغب في المشاركة في هذه التجارة كان مجبرًا على اتخاذ موقع قرب هذا الطريق.



اللوحة 5: مدينة صرواح القديمة مع معبد ألمقه في الوسط (Venetia Poter).

العرب الجنوبيون الوحيدون الذين يتكلمون عن التجارة في نقوشهم هم المعينيون الذين أسسوا أنفسهم كونهم قوة اقتصادية مزدهرة بحد ذاتهم. خلافًا للممالك الثلاث الكبرى الأخرى، لم يتقدموا بأي ادعاءات سياسية، إذ لم يخض حكامهم أي حروب ولم يسكّوا نقودًا، بل ركزوا بدلاً من ذلك على التجارة.

ومع أن أرضهم كانت صغيرة، فقد تاجروا في طول الأرض وعرضها، يرسلون القوافل إلى مصر وغزة وسورية وبلاد الرافدين وصور. كان اسمهم مترادفًا من الناحية العملية مع النباتات العطرية في عيون المستهلكين (ورد في بردية زينون التي يعود تاريخها إلى 261 ق م ‹Zenon papyri 59536›: «اللبان المعيني»). وإضافة إلى ذلك:

> عبر أرضهم يقع خط العبور لتصدير اللبان على امتداد مسار ضيق واحد. كان هؤلاء القوم هم من أوجدوا التجارة وهم من مارسها على نحو أساس . . إذ يقال إنه يوجد ما لا يزيد عن 3000 عائلة تملك حق المتاجرة به كملكية وراثية. بالنتيجة فإن أفراد هذه العائلات يُدعون بالمقدسين ولا يسمح بتدنيسهم بمقابلة النساء أو المواكب الجنائزية عندما يكونون منهمكين في إحداث الشقوق في الأشجار لكي يستخرجوا اللبان. بهذه الطريقة يزداد سعر السلعة بسبب وساوس الدين ‹Pliny 12. 54›.

إن المعينيين هم أيضًا القوم الوحيدون الذين ألفوا نصًا يشير إلى حدث خارج جنوبي جزيرة العرب. وقد ألفه التاجران عميصدق وسعد، اللذان يشكران آلهتهما على عودتهما سالمين من حملة إلى مصر رغم «الأعمال العدائية التي قامت بها سبأ وخولان ضد شخصيهما» ورغم «الصراع الذي حدث بين الميديين (أي الفرس) والمصريين» ‹M 247›. هذا الحدث الأخير ربما كان يشير إلى حملة أرتحششتا (Artaxerxes) سنة 343 ق م أو ربما يشير إلى حملة قمبيز سنة 525 ق م، أو، خلافًا لذلك، إلى مناوشة أصغر وقعت بين القوتين. في القوائم التي تدون المبالغ المدفوعة للسماح بدخول النساء الأجنبيات إلى المجتمع المعيني ‹M 392–98› ثمة اثنان وثلاثون ذكرًا لمدينة غزة التي كانت تتمتع بازدهار وشهرة كبيرين خلال العهد الفارسي [539–334 ق م]. توفي أحد التجار المعينِيُون في مصر فنقش على ناووسه [تابوته الحجري] أنه: «كان يستورد المرّ والوج [الأقورون] لمعابد آلهة مصر» ‹M 338›. يعود تاريخ هذا النقش إلى العام الثاني والعشرين من عهد بطليموس بن بطليموس، وهو ما يسمح لنا بأن نضعه في مكان ما بين العامين 262 ق م و5 ق م. أخيرًا، ثمة نقش باللغتين المعينية والإغريقية من جزيرة ديلوس [دلث] يحمل إهداءً لمذبح إلى: «ود والآلهة المعينية»، الذي يرجح أنه نفّذ بعد وقت قصير من تحول ديلوس إلى ميناء حر

في العام 166 ق م ‹M 349›. رغم أن الدقة مستحيلة حتى الآن، يمكننا على الأقل أن نستنتج من كل هذه النصوص أن المعينيين ازدهروا بين نحو 500 ق م و100 ق م.

تذكر قتبان للمرة الأولى في نقش كرب إيل وتر الآنف الذكر ‹RES 3945›، حيث تظهر كونها خلفية لسبأ. بعد ذلك ببعض الوقت، تتكلم النقوش عن الصراع بين سبأ وقتبان. إن أحد النقوش، على سبيل المثال، يعود في تاريخه إلى «زمن الحرب التي قادها . . ملوك سبأ، وسبأ نفسها، والقبائل الحليفة لهم . . ضد يدع أب [ملك قتبان]، وقتبان وذرية عمّ [أي القتبانيين]» ‹RES 3858›. من الملفت للانتباه أيضًا أنه في مرحلة ما يدَّعي حكام قتبان السيادة على الأمكنة التي كانت سابقًا تحت النفوذ السبئي. وبالفعل فإن النقوش القتبانية قد جرى اكتشافها في هذه الأمكنة. المعنى الضمني لذلك هو أن قتبان كانت في تلك الفترة، مثل سبأ قبلها، تتبع سياسة توسعية. إذ يصرح إرَطُسثِنِس القوريني أن: «أرضهم تمتد إلى المضائق والممر عبر الخليج العربي» (أورده اسطرابون Strabon 16.14.2)، لكنه لا يقول شيئًا عن الأراضي السبئية. هكذا يبدو في القرن الثالث قبل الميلاد أن قتبان كانت تتحدى الموقع المهيمن لسبأ في جنوبي جزيرة العرب. من المفترض أن ينسب المرء إلى فترة التوسع هذه كثيرًا من الأضرحة الموجودة على سفوح جبل حيد بن عقيل خارج تمنة العاصمة، التي تضم النصب التذكارية المتقنة التشكيل لعظماء المدينة ونبلائها (اللوحة 6). إن معرفتنا بحضرموت حتى أكثر ضآلة بسبب ندرة النقوش، لكن سيرتها ستبدو مشابهة لسيرة كرب إيل وتر، والحفريات في عاصمتها تعطي الانطباع بأنها كانت مزدهرة في نحو القرن الرابع إلى القرن الثاني قبل الميلاد عندما جرى إنشاء التحصينات الضخمة والكثير من الأبنية العلمانية والدينية.

يبدو أن القرن الأول قبل الميلاد كان نقطة انعطاف في تاريخ جنوبي جزيرة العرب لأن الأقوام الواقعة حول صحراء الصيهد التي هيمنت على شؤون المنطقة حتى هذا التاريخ، صارت تستبد بها قبائل المرتفعات تدريجًا في ذاك الوقت. أحد العوامل في هذا الانتقال كان إقامة ربط بحري منتظم بين العالم المتوسطي وجزيرة العرب والهند. لقد بُذلت محاولات متكررة للإبحار من مصر إلى الهند بنجاح مشوب، لكن أول من قام بذلك على نحو متكرر وبمساعدة الرياح الموسمية، أكثر مما هو رغمًا عنها، إنما كان يدقسس السيزيكسي (Eudoxus of Cyzicus)، الذي قام بثلاث رحلات بحرية ناجحة بين العامين 117 ق م

و109 ق م. تعزز هذا المرور على نحو كبير عندما قام أغسطس بدمج مصر في الإمبراطورية الرومانية، حيث صار بوسع اسطرابون في نهاية القرن الأول قبل الميلاد أن يكتب:

> بما أن تجار الاسكندرية يبحرون مع الأساطيل من طريق النيل والخليج العربي وصولاً إلى الهند، فقد أصبحت هذه المناطق معروفة لنا اليوم على نحو أفضل مما كانت معروفة لأسلافنا. بأي حال عندما كان غَلّس (Gallus) حاكمًا مطلقًا لمصر، رافقته وصعدت نهر النيل حتى سِين (Syene) وحدود الحبشة. علمت أن عددًا قدره مئة وعشرون مركبًا تبحر من ميوس هورموس [Myos Hormos' أحد مرافئ البحر الأحمر على الساحل المصري؛ قُصير القديم؟ ز م] إلى الهند، في حين أنه سابقًا، في ظل البطالمة، لم يغامر سوى القليلين منهم بالقيام برحلة بحرية ومزاولة التجارة بالبضائع الهندية ‹Strabo 2.5.12›.

كان يعني هذا أن مستقبل جنوبي جزيرة العرب كان يكمن في المرافئ، وليس في مدن القوافل. لقد حققت حضرموت ذلك فأنشأت المرافئ في قنا (قرب بير علي حاليًا) وسمهرم (خور روري الحالية في جنوبي عُمان). يقدم لنا كتاب دليل من منتصف القرن الأول الميلادي عن التجارة البحرية المعلومات التالية عن المرفأ الأول:

> بعد العربية السعيدة [عدن الحالية] يوجد الميناء الآخر للتجارة على الساحل، قنا، الذي يعود إلى مملكة إليازوس (Eleazos) [العز بن يلهان؟ – ز م]، الأرض المنتجة للبخور . . فوقها في البر الداخلي تقع العاصمة شبوة، التي هي أيضًا مكان إقامة الملك. كان البخور الذي ينمو في البر يجلب إلى قنا كما لو أنه يدخل إلى مستودع، بواسطة الجمال، إضافة إلى أنه يجلب بواسطة الأطواف [الأرماث] من النوع المحلي المصنوعة من الأكياس الجلدية، وبواسطة القوارب. إنها أيضًا تمارس التجارة مع الموانئ الواقعة على الطرف الآخر من الماء [أي في الهند] . . ومع بلاد فارس المجاورة. إن مستورداتها من مصر هي القمح، بكمية محدودة، والنبيذ . . والملابس العربية . . والنحاس، والقصدير والمرجان

> وصمغ الأصطرك . . كذلك [يستورد من هناك]، للملك، الأواني الفضية المزخرفة والنقود، بكميات كبيرة نوعًا ما، إضافة إلى الخيول والتماثيل والملابس ذات الجودة الممتازة من دون أي زينة. إنها تصدر الأواني المحلية واللبان والآلوة، أما بقية صارداتها فتأتي من خلال صلاتها مع موانئ التجارة الأخرى ‹Periplus 27–28›.

كان العامل الثاني المحتمل في انحدار مدن القوافل العربية الجنوبية القديمة هو محاولات روما غزوها. فقد كانت نتيجة معركة أكطيُم (Actium, now Punta) في العام 31 ق م [بين أكطفيان ومارك أنطني وكليوبطرا – ز م]، إضافة إلى هزيمة كليوبطرا، أن أصبح الإمبراطور أغسطس يسيطر على مصر وساحلها على البحر الأحمر. عندئذ خطر بباله أن يمد الهيمنة الرومانية إلى كل البحر الأحمر، مانحًا الإمبراطورية مقدرة التحكم بكل التجارة القادمة من الهند وجزيرة العرب. ربما كان دافعة الشخصي هو أن يبز الاسكندر الأكبر، الذي طالما كان يسحره، وتبجح ذات مرة لمعلمه، عبثًا، أنه سيفتح البلدان المنتجة للبخور. لهذه الغاية أرسل أغسطس في العام 26 ق م القائد أيلُس غَلُّس (Aelius Gallus):

> لاستكشاف القبائل والأمكنة، ليس فقط في جزيرة العرب بل أيضًا في الحبشة، لأن قيصر كان يرى أن بلاد سكان الكهوف؟ (Troglodyte) التي تتاخم مصر تجاور جزيرة العرب، وأن الخليج العربي [أي جنوبي البحر الأحمر – ز م] أيضًا، الذي يفصل العرب عن سكان الكهوف، ضيق جدًا. وفقًا لذلك، فقد وضع في ذهنه هدف كسب العرب كأمة تابعة أو غزوهم صراحة. كان الاعتبار الآخر الذي أخذ به، هو الإشاعة، التي انتشرت عبر كل العصور، بأنهم أثرياء جدًا، وأنهم يبيعون النباتات العطرية والأحجار الأغلى ثمنًا مقابل الذهب والفضة، لكنهم لا ينفقون عند الغرباء أي جزء مما يقبضونه بالمقابل. لأنه كان يأمل إما أن يتمتع بالعرب كأصدقاء أغنياء له، أو أن يُخضعهم كأعداء أغنياء ‹Strabo 16.4.22›.



اللوحة 6: تمثال نصفي أنثوي مرمري من مقبرة حيد بن عقيل خارج تمنة، أطلق عليه مكتشفوه اسم مريم، القرن الأول الميلادي، 36,5 × 18 سم (AFSM).

مع ذلك، فإن القائد النبطي سيلايوس (Syllaeus) [صالح؟ - ز م] الذي «وعد أن يكون دليله في المسيرة وأن يؤمن له كل الاحتياجات وأن يتعاون معه، تصرف بخيانة في كل الأمور، ولم يدله إلى رحلة بحرية آمنة على طول الساحل ولا إلى رحلة آمنة من طريق البر، مضللاً إياه إلى أمكنة لا طرق فيها ومن طريق مسالك ملتفة وعبر مناطق قفرة خالية من كل شيء». هذه [الخيانة] ومرض الكثير من أفراد جيشه كانا يعنيان أن غَلُّس لم يبلغ جنوبي جزيرة العرب حتى العام 24 ق م. هناك استولى على عدد من المدن وبدأ حصار مأرب؟ (Marsiaba)، لكنه كف عن ذلك بسبب نقص الماء، وأجبر على أن يعود أدراجه، ومع ذلك ادعى النصر لأغسطس، ولدى عودته تمكن من الإبلاغ عن عدد من الاكتشافات، هي:

إن البدو يعيشون على الحليب ولحم الحيوانات البرية، وإن

> بقية القبائل تستخرج النبيذ من أشجار النخيل، كما يفعل السكان الأصليون في الهند، ويستخرجون الزيت من السمسم، وإن الحميريين هم القبيلة الأكثر عددًا، والمعينيين يمتلكون أرضًا خصبة وبساتين النخيل والخشب، وغنية بالقطعان، وأن الكربائيين (Cerbanians) [القتبانيين؟] والأجـريـين؟ (Agraeans)، وخصوصًا الحضرميين، يمتازون بكونهم محاربين، إن الجريين (Carraeans) يمتلكون الأرض الزراعية الأكثر اتساعًا وخصوبة، أما السبئيون فهم الأكثر ثراءً، بسبب خصوبة غاباتهم في إنتاج العطور، ومناجم الذهب، وأرضهم الزراعية المروية، وإنتاجهم للعسل والشمع . . يرتدي العرب العمامات أو يسيرون وشعرهم غير مقصوص، يحلقون لحاهم لكنهم يطلقون الشوارب، مع ذلك فإن آخرين يطلقون اللحى أيضًا ‹Pliny 6.161f›.

اتخذ الحميريون، الذين وصفوا أعلاه بأنهم «القبيلة الأكثر عددًا» من ظفار عاصمة لهم في المرتفعات الجنوبية الخصيبة (اللوحة 7)، ومن هناك شقوا طريقًا إلى ميناء موزا (Muza) (مخا الحالية) في الطرف الشمالي من مضيق باب المندب حيث تكاد جزيرة العرب أن تلامس إفريقية. قبلئذ في منصف القرن الأول الميلادي كانوا قد حققوا موقعًا بارزًا في المنطقة، كما يشير إلى ذلك الدليل البحري المذكور سابقًا:

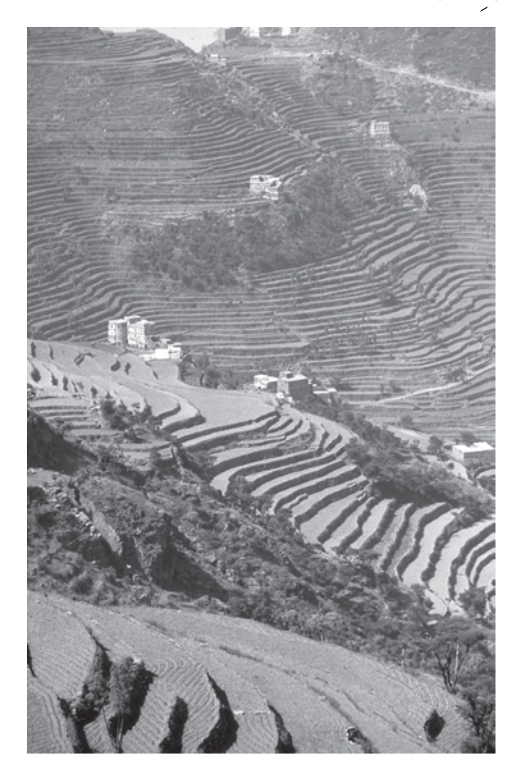
> على الخليج الأخير على الشاطئ الأيسر من هذا البحر [الأحمر] تقع موزا . . المكان كله يعج بالعرب، مالكي سفن أو مؤجريها وبحـارة، ويمور بالنشاط التجاري لأنهم يتقاسمون التجارة عبر الماء [الساحل الإفريقي] ومع بريغازا (Barygaza) [على الساحل الهندي]، مستعملين معدّاتهم الخاصة . . على بعد ثمانية أيام في البر تقع ظفار، العاصمة، مقر كرب إيل الملك الشرعي لأمة الحميريين والأمة الواقعة بعدهم، التي تدعى السبئيين. إنه صديق للإمبراطور بفضل السفارات المستمرة والهبات. إن ميناء موزا التجاري، رغم كونه بلا مرفأ، يقدم مكلاًّ جيدًا للرسو بسبب المراسي ذات القاع الرملي حوله ‹Periplus 23f›.

يشير التطرق إلى أن كرب إيل كان ملكًا على أمتين إلى حقيقة أن سبأ كانت مرغمة، من خلال الضائقة الشديدة، على البحث عن ائتلاف مع حمير، لتشكلا الملكية الموحدة ل «سبأ وذو ريدان». مع ذلك، ففي القرن الثاني الميلادي انتعشت حظوظ الشعب السبئي نوعًا ما فشنوا حملة قوية ضد الحميريين. خلال فترة المقاومة هذه، التي دامت نحو قرن ونصف، أصبح معبد ألمقه في مأرب، مرة أخرى، مركزًا دينيًا هامًا وكثرت التقدمات، وجرى تدشين عملة جديدة، وشُيد قصر غمدان العجيب، الذي رفع إلى مرتبة العاصمة جنبًا إلى جنب مع مأرب. لكن في نهاية القرن الثالث ميلادي، يبدو ببساطة أن السلالة الحاكمة السبئية تتلاشى ولا نسمع شيئًا آخر عن سبأ كونها قوة مستقلة. كان المعينِيُون عندئذ قد فقدوا نفوذهم في أثناء القرن الأول قبل الميلاد. استولت حمير وحضرموت على أراضي قتبان وتقاسمتاها في أواخر القرن الثاني ميلادي. أخيرًا، في أواخر القرن الثالث، قام الملك شمر يهرعش/ يرعش، ملك حمير، بغزو حضرموت، التي كفّت بالنتيجة عن أن تكون لاعبًا كبيرًا على الخشبة السياسية. صار العصر الحضرمي، النظام المطلق للتأريخ، مستخدمًا في ذاك الوقت على نحو مشترك في كل أنحاء جزيرة العرب، وعلى نقش يعود تاريخه إلى العام 409 من العصر الحميري [299 م] سمى شمر نفسه «ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنت» ‹YMN 13›، [وهو] ما يعكس حقيقة أن جنوبي جزيرة العرب كان قد أصبح دولة موحدة للمرة الأولى.

لقد ولت الأيام المجيدة التي كانت فيها مدن القوافل لصحراء سيهد تمارس احتكارًا على تجارة النباتات العطرية، وعندما صارت أكثر فقرًا، قلّت شيئًا فشيئًا قدرتها على صد تعديات القبائل العربية على شماليها. منذ القرن الأول الميلادي فصاعدًا يذكر العرب بتواتر متزايد في النقوش. في بعض الأحيان كان هذا الذكر مرتبطًا بالغارات عليهم. هكذا كان على قبيلة حاشد في المرتفعات في شمال غربي اليمن ذات مرة أن تشن حربًا على بعض العرب على تخوم قبيلة حاشد وفي بعض بلدان العرب، العرب الذين تصرفوا على نحو خاطئ تجاه أسيادهم، ملوك سبأ، وفي بعض أراضي قبائل ملك سبأ ‹Ja 561 bis›. في أحيان أخرى يبرز العرب كونهم قوات أجنبية في جيوش الممالك المستقرة، كما عندما واجه الملوك السبئيون ائتلافًا يضم «حضرموت وقتبان ورمدان ومذحج وكل شخص والعرب الذين كانوا معهم» ‹Ja 629›. كانت الدول المستقرة مجبرة على تطوير سياسة للتعامل مع هذه القبائل: تمييز بعض زعماء [القبائل] للاعتراف

بهم كملوك، أخذ الرهائن ضمانة للسلوك الجيد، القيام بغارات عقابية في حالات خرق الاتفاقيات وهلم جرا. إننا نرى مثالاً على ممارسة سبأ لهذه السياسة في نقش يتقدم فيه ملكان سبئيان بالشكر إلى الإله ألمقه:

> لأنه مكنهم من أن ينتزعوا من مالك، ملك كندة [القبيلة العربية]، التعويض المطلوب من مالك أن يقدمه إلى ألمقه وملوك سبأ [أي كل شخص] امرؤ القيس بن عوف <مراقيس بن عوف!>، ملك خساسة <خصصتن> (Khasasa)، و[وذلك] بإبقاء مالك وزعماء كندة في الحجز في مأرب إلى أن سلموا ذاك الفتى امرؤ القيس وقدموا رهائن من كندة ابنه [مالك] وأبناء زعماء وقادة كندة، ومزيدًا من التعويض إلى ألمقه وملوك سبأ بالخيول وجِمال الركوب وجِمال النقل ‹Ja 576›.



اللوحة 7: منظر أنموذجي لمرتفعات اليمن (J. Leslie).

ولدينا أيضًا دليل على المبادلات الدبلوماسية، كإرسال المساعد الشخصي للملك السبئي في أوائل القرن الثالث ميلادي الشرح يحضب: «إلى ملوك الشمال، أي الحارث بن كعب، ملك أسد، ومالك بن بد، ملك كندة ومذحج وبعض العرب الآخرين» (CIAS 2. 33; Cf. ZI 75: بعثة الشرح يحضب إلى ʼملوك غسان ونزار ومذحجʻ).

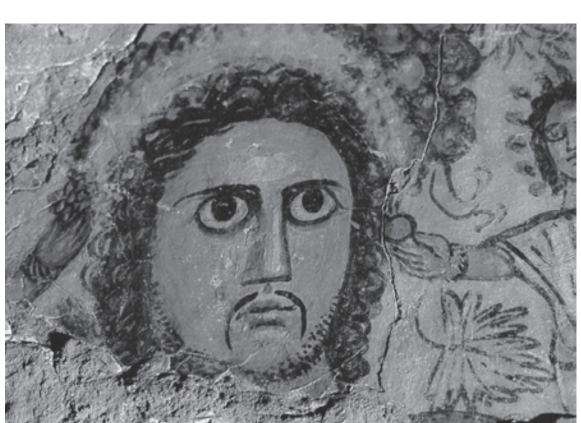
2 / 3) العهد البيزنطي / الساساني [نحو 240 - 630 م]

حذا ملوك حمير، الذين كانوا آنذاك أسيادًا على كل جنوبي جزيرة العرب، حذو سبأ وحضرموت ببسط نفوذهم على القبائل العربية، مع أنهم كانوا يمتدون إلى الشمال أبعد بكثير من أسلافهم. ثمة نقش يعود تاريخه إلى العام 360/470 م يعدد الحملات العسكرية لبعض الملوك الحميريين الذين تقدموا إلى مسافة بعيدة مثل يبرين (واحة في شرقي جزيرة العرب) وجو (اليمامة حاليًا في شمال شرقي جزيرة العرب) وخَـرْجْ (وسط جزيرة العرب)، ليصطدموا، من بين الآخرين، مع قبائل مراد وإياد ومعد وعبد القيس، حيث هُزمت هاتان الأخيرتان في سيان؟ (شمال شرق مكة)، «بين أرض نزار وأرض غسان»، ‹Abadan 1›. يروي نقش من النصف الأول من القرن الخامس من وسط جزيرة العرب كيف أن الحاكم أبي كرب أسعد وابنه حسان يهنعم، «ذهبا وأقاما في أرض معد بمناسبة تأسيس بعض قبائلهم» ‹RY 509›. تصف المصادر الإسلامية أيضًا حملة أبي كرب أسعد إلى الشمال، التي نصب في أثناءها حُجْر الكندي على قبيلة معد ‹ابن حبيب، المحبر؛ الإصفهاني›، من الواضح أن حمير كانت قد عينت عشيرة حُجْر، من قبيلة كندة، لتتصرف كونها ممثلة لها في وسط جزيرة العرب، ولتحافظ على النظام بين القبائل العربية في تلك المنطقة. هذا من شأنه أن يشرح تبني الحكام الحميريين لاحقًا اللقب الإضافي «ملوك . . عربهم من المرتفعات والساحل» والسبب في أن حُجْر شعر أنه لديه المسوغ لتسمية نفسه «ملك كندة» في نقش جداري عربي جنوبي. لقد تابع الأبناء المتعاقبون لهؤلاء القادة من ثم هذا الترتيب:

> فكان ممن يخدم حسان بن تبّع: عمرو بن حُجْر الكندي، وكان سيد كندة في زمانه، فلما سار حسان بن تبع إلى جديس خلفه على بعض أموره . . وكان عمرو بن حُجْر ذا رأي ونبل ‹الطبري›.

وكما يبدو، حذا أبناؤهم من بعدهم حذوهم. فقد «أرسل ابن حسان يهنعم حارث بن عمرو بن حُجْر الكندي إلى معد ونصبه عليهم» ‹وهب بن منبّه›. في هذا الوقت بدأ البيزنطيون بالتودد إلى عشيرة حُجْر كما يروي المدعو نُنسُس (Nonnosus)، الذي كان ينتمي إلى سلالة دبلوماسية بيزنطية إذ يخبرنا أن جده قد أرسله الإمبراطور أنسطسيوس (491 ,Anastasius–518)[2] إلى حارث بن عَمْرو بن حُجْر الكندي، كما أرسل أبوه أبراهام وهو نفسه إلى قيس «سليل حارث»، في عهد جسطنيان (527 ,Justinian–565):

> في هذا الوقت، كان قيس، الذي أُرسل إليه نُنسُس، يقود اثنتين من أبرز القبائل العربية، كندة ومعد. قبل تعيين نُنسُس كان أبوه، أبراهام، قد أرسل بناء على أوامر من جسطنيان إلى قيس هذا وأبرم معاهدة سلام، أخذ بموجبها ابن قيس، الذي يدعى معاوية، رهينة وحمله إلى بيزنطة. فيما بعد فاوض نُنسُس على هدفين: إحضار قيس، إن كان ذلك ممكنًا، إلى الإمبراطور، والوصول إلى ملك شعب أكسوم [في الحبشة]، الذي كان يدعى آنذاك إلاّ أسبيها (Ella Asbeha)، إضافة إلى الوصول إلى الحميريين . . عندما جاء أبراهام على رأس بعثة أخرى إلى قيس، ذهب الأخير إلى بيزنطة، موزعًا سلطته بين أخويه عمرو ويزيد، في حين استلم شخصيًا من الإمبراطور السلطة على فلسطين ‹Photius 3›.



اللوحة 8: نبيل من قرية الفاو كما صورته لوحة جصية وجدت في المدينة (أ الأنصاري، انظر كتابه: قرية الفاو، ص 136–37).

خلال عهدهم كونهم ملوك تابعين لحمير، وعلى نحو مقتضب كونهم ملوك تابعين لروما، استقر زعماء كندة في قرية ذات كهل (حاليًا قرية الفاو)، على بعد 280 كم شمال شرق نجران. هذه المستوطنة كانت تقع على خط التجارة الذي يربط جنوبي جزيرة العرب بشرقيها والعراق، وكان يستعمله قبلئذ المعينِيُون في نحو القرن الثالث إلى القرن الثاني قبل الميلاد أصبحت بعد ذلك عاصمة قبيلتي قحطان ومذحج العربيتين، كما يشير إلى ذلك شاهد ضريح معاوية بن ربيعة، (ملك قحطان ومذحج). في أثناء عهدهما وعهد كندة أصبحت [المستعمرة] بلدة ذات تأثير، تضم سوقًا وقصرًا ومعبدًا وأضرحة وبيوتًا، وكان وجهاؤها أثرياء بما يكفي لأن يتكلفوا عمل اللوحات الجصية الجدارية المتقنة والتماثيل الكبيرة ويستوردوا مصنوعات الزجاج والمعدن والعاج العالية الجودة (اللوحة 8). في أوج نفوذهم شعر أهل كندة بالثقة بالنفس بما يكفي لأن يسكّوا نقودهم الخاصة بهم، ويختموها باسم حاميهم، الإله كهل.

في نحو العام 300 م، أرسل الملك الحميري شمر يهرعش/ يرعش مبعوثًا إلى مالك بن كعب، ملك [قبيلة] الأزد، ومن هناك قام [المبعوث] برحلتين أخريين، إلى قطسيفون وسلوقيا، المدينتين الملكيتين لبلاد فارس، ووصل إلى أرض [قبيلة] تنوخ [في جنوبي العراق] ‹Sharaf 31›. بعد ذلك بعقود قليلة حصل تبادل للسفراء وإقامة علاقات سلمية بين حمير والحبشة ‹Ir 28›. وفي نحو ذلك الوقت بعث الإمبراطور البيزنطي قُسطنطيوس (Constantius, 337–361) سفراء، يرافقهم المبشر ثيوفيلوس (Theophilus) الهندي إلى حاكم الحميريين، طالبًا السماح ببناء الكنائس للتجار البيزنطيين الزائرين و(أي شخص آخر قد يميل نحو المسيحية) ‹Philostorgius 3.4›. في هذا الوقت تحديدًا، إذًا، أصبح جنوبي جزيرة العرب متورطًا في سياسة قوة عظمى. لقد اشتد هذا التورط على نحو مثير في أوائل القرن السادس عندما اندلعت حرب شاملة بين الحبشة وحمير، و الكتاب المسيحيون يصورون هذه الأحداث بلغة الاضطهاد الديني والاستشهاد. مع ذلك لا يوجد أي إيحاء في المصادر المحلية باضطهاد المسيحيين بسبب دينهم فقط. بالأحرى يبدو الاعتراض مرتبطًا بالسياسة، لأن نشر المسيحية كان يفهم على أنه نشر للنفوذ السياسي البيزنطي، الذي عارضته الأطراف الموالية للفرس وأنصار استقلال اليمن. ثمة تلميح إلى قلاقل مستقبلية ورد في سبعينيات القرن الخامس [470 م] عندما أعدم قس يدعى أزقير بسبب الدعوة النشطة إلى الدين الجديد في نجران. عندئذ يخبرنا التاجر البيزنطي كزمس إنديكُبليُستس

أنه حينما كان في الجوار في الحبشة (في بداية عهد جسطين [518–27 ق م]، إمبراطور الرومان، كان إلاّ أسبيها، الذي كان آنذاك ملك الأكسوميين، على وشك الذهاب لشن الحرب على الحميريين) ‹Cosmas Indicopleustes 2.56›.

> إن سبب اندلاع الحرب بينهما هو أنه . . عندما عبر التجار الرومان الآنفو الذكر من أراضي الحميريين ليدخلوا أراضي الهنود ليتاجروا هناك كالمعتاد، علم ملك الحميريين، دِمِنُس بذلك، فقبض عليهم وقتلهم وسلب كل بضائعهم، قائلاً: 'هذا لأنه في بلدان الرومان يقوم المسيحيون بمضايقة اليهود الذين يعيشون في بلدانهم بشكل فظيع ويقتلون الكثير منهم. لذلك فإنني أحكم على هؤلاء الرجال بالموت'. بهذه الطريقة اعتاد أن يقتل كثير من التجار إلى أن استولى الرعب على كثير منهم ورفضوا المجيء إلى البلاد، وتوقفت المتاجرة مع مملكة الأثيوبيين . . بسبب ذلك دخلا في عداوة شديدة وأعلنا الحرب كل منهما على الآخر . . ثم خاضا معركة فانتصر ملك الأثيوبيين على ملك الحميريين، فأخذه أسيرًا وقتله ونهب مملكته ‹Pseudo–Dionysius 54–56; cf. Malalas 18.15; Theophanes 223›.

عندئذ نصَّب إلاّ أسبيها على عرب جنوبي الجزيرة ملكًا مسيحيًا، ومع ذلك:

> بعد [مضي] بعض الوقت صار اليهود الحميريون أكثر قوة. فعندما توفي الملك المسيحي الذي نصبه ملك الأثيوبيين هناك، اختاروا ملكًا من بينهم على الحميريين [يدعى يوسف ذو نواس في المصادر الإسلامية] وفي حالة من الحنق المرير قاموا بذبح كافة المسيحيين هناك وإبادتهم، رجالاً ونساءً وفتيانًا وأطفالاً، فقراء وأغنياء ‹Pseudo–Dionysius 56›.

هذا ما يؤكده إلى حد ما عدد من الوثائق السريانية الأخرى كما تؤكده ثلاثة من النقوش العربية الجنوبية المعاصرة:

> دمر [الملك يوسف] الكنيسة وذبح الأثيوبيين في ظفار، وشن حربًا على أشعر ورَكبْ وفراسان ومخا (قبائل موالية للأثيوبيين). وباشر الحرب وحصار نجران وتحصين سلسلة المندب (عبر المرفأ في المضائق]. هكذا حشد الجند تحت إمرته، وأرسل [الزعماء

الموالين له] مع كتيبة مستقلة، وبلغ ما أخذه الملك بشكل ناجح كغنائم في حملته 12500 قتيلاً و11000 أسيرًا و290000 جملاً وثورًا ونعجة. هذا النقش كتبه القائد شرح إيل اليزني عندما كان يقوم بإجراءات احترازية ضد نجران مع رجال القبائل الهمدانيين، من سكان المدن والبدو <هجر وعرب>، وقوة ضاربة من اليزنيين وبدو كندة ومراد ومذحج، في حين كان أخوته القادة مع الملك للدفاع في البحر عن الأثيوبيين وكانوا يحصنون سلسلة [مضيق باب] المندب. إن كل ما دونوه في هذا النقش في أثناء الإعدامات وجمع الغنائم والإجراءات الاحترازية كان في الحملة، التي كانت نهايتها، عندما عادوا إلى الوطن، بعد ثلاثة عشر شهرًا [من بدايتها] ‹Ja 1058, July 633/ AD 523›[3].

ثم أرسل [يوسف] [مبعوثًا] إلى نجران لتحرير الرهائن منهم، وإلا فإنه سيشن الحرب عليهم [بشكل جدي]. لكن لم يحصل أي تسليم للرهائن، بل على العكس من ذلك فقد ارتكب [النجرانيون] عدوانًا إجراميًا عليهم [الحميريين] ‹RY 507, July 633/ AD 523; cf. RY 508›.

ثمة رواية مثيرة لهذه الأحداث من منظور مسيحي (تصورها على أنها استشهاد للمؤمنين الأبرياء) يقدمها شخص يدعى حارث [حارثة]، الذي يعيد تاريخ النكبة إلى شهر تشرين الثاني من العام السلوقي 523/835 م (مع أنه كتب التاريخ 830، ناسيًا كلمة خمسة» مسببًا على نحو غير متعمد كثير من الخلاف بين الباحثين الحديثين حول تاريخ هذه الأحداث). لم يتأخر قدوم رد الأثيوبيين على هذا العدوان حيث:

حشد إلاّ أسبيها أسطولاً من السفن وجيشًا وهاجمهم، فقهرهم في المعركة وذبح الملك وكثيرًا من الحميريين، ثم عيّن مكانه ملكًا مسيحيًا، حميري المولد، باسم إسيميفيُس[4] (Esimiphaeus) وبعد إصدار أمر يقضي بأن عليه أن يدفع الجزية للأثيوبيين كل عام، عاد إلى وطنه. في هذا الجيش الأثيوبي كان كثير من العبيد وكل من كانوا ميالين إلى الجريمة معارضين تمامًا للحاق بالملك لدى عودته، بل تخلفوا وبقوا هناك بسبب رغبتهم في أرض

الحميريين، لأنها أرض طيبة جدًا. بعد ذلك بوقت قصير، انتفض هؤلاء الرجال بالتحالف مع بعض آخرين ضد الملك واحتجزوه في إحدى القلاع هناك، ونصبوا ملكًا آخر على الحميريين اسمه أبرهة. في ذاك الوقت كان أبرهة مسيحيًا، لكنه عبد لمواطن روماني منخرط في مهنة الشحن بالسفن في مدينة أدوليس في الحبشة [قرب مرفأ مصوع في شمالي إريتريا؛ ز م] ‹Procopius 1. 20; cf. Pseudo-Dionysius 68›.

يتضح من الرد البيزنطي اللاحق أن السياسة الإمبراطورية وقضايا التجارة كانت تقف وراء هذه الصراعات:

في ذاك الوقت، عندما كان إلا أسبيها يحكم الأثيوبيين وكان إسيميفيُس يحكم الحميريين، أرسل الإمبراطور جسطنيان سفيرًا، هو جُليانُس (Julianus)، يطلب من الأمتين المتشاركتين في الدين أن يضموا جهودهم إلى جهود الرومان في محاربة الفرس، لأن الغرض من ذلك هو أن الأثيوبيين، بشرائهم الحرير من الهند وبيعه للرومان، يمكنهم أن يكسبوا مالاً كثيرًا، في حين يتسببوا في أن يربح الرومان بطريقة واحدة فقط، أي إنهم لا يعودون مجبرين على دفع مالهم إلى عدوهم . . أما فيما يتعلق بالحميريين فقد كان المطلوب هو أن ينصبوا قيس، الفار من العدالة، زعيمًا على [قبيلة] معد، وبجيش عظيم من أهلهم ومن معد العرب[5] [قيس] بغزو بلاد الفرس. كان قيس هذا ذا منزلة اجتماعية زعامية بالولادة ومحاربًا ذا قدرة استثنائية، لكنه كان قد قتل أحد أقارب إسيميفيُس وكان هاربًا من العدالة [آبقًا] في أرض خالية تمامًا من السكنى البشرية. هكذا قام كل ملك على حدة بصرف السفير، واعدًا بوضع هذا الأمر موضع التنفيذ، لكن أيًا منهم لم يفعل الأشياء المتفق عليها، لأنه كان من المستحيل على الأثيوبيين أن يشتروا الحرير من الهنود ذلك أن التجار الفرس كانوا يكمنون دائمًا في الموانئ ذاتها التي ترسوا فيها السفن الهندية أولاً، كما أنهم يقطنون البلد المتاخم وهم معتادون على شراء الشحنات بكاملها. وبدا للحميريين أن من الصعب عليهم أن يعبروا أرضًا صحراء ومترامية الأطراف يتطلب اجتيازها وقتًا طويلاً ومن ثم

مهاجمة شعب أكثر ولعًا بالحرب منهم أنفسهم ‹Procopius 1. 20›.

ثمة مصدر آخر، يستعمل كما يبدو تقريرًا مباشرًا أكثر مصداقية:

> عندما أُدخل السفير الروماني ركع وانحنى انحناءة احترام وإجلال فأمرني [كذا!] الملك الإثيوبي بالنهوض والدنو منه. عندما استلم الرسالة من الإمبراطور الروماني قبّل الختم وعندما استلم العطايا التي أرسلها الإمبراطور إليه أصابه الذهول. فقد اكتشف وهو يفتح الرسالة ويقرأها، من خلال مترجم، أن محتواها هو أن عليه أن يسلح نفسه ضد إمبراطور الفرس كاواد [531–488] ، وأن يدمر الأرض المتاخمة لأرضه وألا يدخل مستقبلاً في تجارة معه، بل يواصل التجارة عبر بلاد الحميريين الذين أخضعهم، ومن ثم من طريق النيل إلى الاسكندرية في مصر. وعلى الفور، أعلن إلاّ أسبيها، ملك الأثيوبيين، على مرأى من السفير الروماني، الحرب على الفرس. فأرسل في المقدمة العرب الحميريين الذين كانوا خاضعين له وهاجم الأراضي الفارسية بالنيابة عن الرومان ‹Malalas 18. 56; cf. Theophanes 244–45›.

لقد أثبت أبرهة، الذي رفعه المتمردون إلى سدة السلطة، أنه حاكم مقتدر وكان آخر ملك عظيم لجنوبي جزيرة العرب. فقد أحبط على نحو ناجح محاولات إلاّ أسبيها لطرده، مع أنه استمر في إرسال الجزية إلى خليفة الأخير. في العام 548/658 م شعر، مع ذلك، بالقدرة على انتحال لقب الملك، وبحسب نقش مطول في سد مأرب ‹CIS 4.541›، استقبل السفارات من ما لا يقل عن خمس قوى مجاورة: البيزنطيين، الفرس، المنذر اللخمي، حارث بن جَبَلَة من [قبيلة] غسان وابن قبيلته أبي كرب بن جَبَلَة[6]. كما نجح أيضًا في إخماد تمرد قام به يزيد بن كبشة، الذي كان قد عينه واليًا (خلفت) على كندة في وقت لم يكن لها فيه وال ‹CIS 4.541›. وفي العام 552 أطلق حملتين، واحدة قادها بنفسه (غالبًا ما ترادَف بحملة الفيل المشار إليها في القرآن) والأخرى بقيادة حلفائه العرب، وذلك لفرض سلطته على وسط جزيرة العرب:

> بقدرة الرحمن ومسيحه، كتب الملك أبرهة . . هذا النقش عندما أغار على معد في الربيع في شهر نيسان عندما ثار كل

> بنـي عامر. عندئذ أرسل الملك أبا جبر مع [قبيلتي] كندة وعلي و[أرسل] بِشْرْ بن حِسْن مع [قبيلتي] سعد ومراد. كانت كندة وعلي موجودتين في طليعة الجيش ضد بنـي عامر في وادي ذو مرخ، ومراد وسعد في وادٍ على طريق ترابة. فذبحوا وأسروا العدو وأخذوا غنيمة مرضية. أما الملك، من جهة أخرى، فقد خاض معركة في حليبان (غرب الرياض الحالية) وهزمت جيوش معد وأجبرت على تسليم الرهائن. بعد ذلك تفاوض عَمْر بن المنذر [اللخمي] مع أبرهة ووافق على تسليم الرهائن له، لأن المنذر كان قد سلمه الحكم على معد. هكذا عاد أبرهة من حليبان بقدرة الرحمن . . في العام 662 ‹Ry 506›.

بنقش العام 669/ 559 م، وهو آخر نص عربي جنوبي معروف محدد التاريخ، تنتهي حقبة طويلة من التاريخ. بعد ذلك، هكذا تخبرنا المصادر العربية، أصبح الوجود الأثيوبي أكثر قوة واستبدادًا، ما دفع سيف بن ذي يزن البطل شبه الأسطوري إلى التماس المساعدة الخارجية:

> فلما طال البلاء على أهل اليمن، خرج سيف بن ذي يزن الحميري حتى أتى النعمان بن المنذر، وهو عامل كسرى على الحيرة، فشكا إليه أمر الحبشة، فقال له النعمان: ʼإن لي على كسرى وفادة في كل عام، فأقم حتى يكون ذلكʻ. ففعل ثم خرج معه فأدخله على كسرى. ثم قال له: ʼأيها الملك، غلبتنا على بلادنا الأغربة [يقصد الحبشيين]، فجئتك لتنصرني، ويكون ملك بلادي لكʻ، . . فبعث معه كسرى من كان في سجونه، وكانوا ثمانمئة رجل، واستعمل عليهم رجلاً يقال له وهرز، وكان ذا سن فيهم، وأفضلهم حسبًا وبيتًا. فخرجوا في ثمان سفن، فغرقت سفينتان، ووصل إلى ساحل عدن ست سفن، فجمع سيف إلى وهرز من استطاع من قومه، وقال له: ʼرجلي مع رجلك حتى نموت جميعًا أو نظفر جميعًاʻ. قال له وهرز: ʼأنصفتʻ، وخرج إليه مسروق بن أبرهة ملك اليمن، وجمع إليه جنده، فأرسل إليهم وهرز ابناً له، ليقاتلهم فيختبر قتالهم، فقتل ابن وهرز... فزاده ذلك حنقًا عليهم. فقال: ʼأروني ملكهم . .ʻ ثم وتر قوسه، وكانت فيما

يزعمون لا يوترها غيره من شدتها، وأمر بحاجبيه فعصّبا له، ثم رماه [ملكهم] فصك الياقوتة التي بين عينيه، فتغلغلت النشابة في رأسه حتى خرجت من قفاه، ونكس عن دابته، واستدارت الحبشة ولاثت به، وحملت عليه الفرس، وانهزموا، فقتلوا وهربوا في كل وجه، وأقبل وهرز ليدخل صنعاء، حتى إذا أدتى بابها قال: 'لا تدخل رايتي منكسة أبدًا، أهدموا الباب' فهدم، ثم دخلها ناصبًا رايته ‹ابن هشام؛ ابن قتيبة، عن "كتب الفرس"›.

نُصب سيف ملكًا بناء على تفاهم بأن يحول الضرائب إلى كسرى كل عام وعاد وهرز مرة أخرى، هذه المرة لوضع اليمن تحت الحكم الفارسي المباشر. بقيت [اليمن] هكذا إلى أن توّلتها الدولة الإسلامية المبكرة.

3) شمالي جزيرة العرب ووسطها

3 / 1) العصر الحديدي [نحو 1300 - 330 ق م]

لم تتوافر لكل سكان جزيرة العرب فرص تطور متكافئة. فالأمطار الموسمية في الجنوب والمياه الجوفية الوفيرة في الشرق سمحت بازدهار الزراعة هناك، في حين لم يكن ذلك ممكنًا في الشمال والوسط إلا في عدد محدود من المواقع والواحات، المبعثرة أساسًا. إن المراسي السهلة في الجنوب والشرق والوضع الاستراتيجي قد دعمت التجارة، في حين كان «الإبحار على امتداد الساحل [الغربي] لجزيرة العرب محفوفًا بالمخاطر تمامًا، لأن المنطقة بافتقارها إلى المرافئ كانت تؤمن رسوًا ضعيفًا، وكانت مشوبة بالامتدادات الصخرية، ولا يمكن الاقتراب منها بسبب الجروف الصخرية، وهي مخيفة من النواحي كافة» ‹Periplus 20›. علاوة على ذلك فإن شعوب شمالي جزيرة العرب كانت فريسة لأطماع القوى الكبرى أكثر مما كانت شعوب الجنوب والشرق. لذلك

فإن دول الأنباط والخَرَكان والحضريين والبلميرا/تدمريين قضت عليها روما أو فارس. ينعكس هذا التباين في الفرص والقدرة على تشكيل الدول في المصادر التاريخية الخاصة بجزيرة العرب. ففي حين أن ممالك سبأ ودلمون ومَجَن تحقق منزلة شبه أسطورية في كتابات الأجانب، إذ تشتهر بثروتها وغرائبيتها، فإنهم يستبعدون بقية جزيرة العرب في معظمها بوصفها قفرًا ويُحتقر سكانها بسبب أسلوب حياتهم الجوال والطفيلي:

> وإذا زرع بنو إسرائيل كان يصعد المديانيون والعمالقة وبنو المشرق يصعدون عليهم، وينزلون عليهم ويتلفون الأرض إلى مجيئك إلى غزة ولا يتركون لإسرائيل قوت الحياة ولا غنمًا ولا بقرًا ولا حميًرا، لأنهم كانوا يصعدون بمواشيهم وخيامهم ويجيئون كالجراد في الكثرة وليس لهم ولجمالهم عدد (سفر القضاة 6: 3-5).

في النصوص الكتابية [التوراتية] يرسم هذا التباين على نحو أنسابي، فأبناء يُقطان بن أبراهام (من قيطورة) هم شبا/سبأ وديدان، المشرفان على تجارة البخور، في حين أن أبناء إسماعيل بن أبراهام (من هاجر) هم اثنا عشر أميرًا وفقًا لقبائلهم [أسباطهم] الذين، مثل أبيهم، يقيمون في الصحراء. يذكر سفر إشعيا (60: 6-7) أن: «كلها تأتي من سبأ تحمل ذهبًا ولبانًا وتبشر بتسابيح الرب»، وفي حين يتكلم عن «كل غنم قيدار وكباش نبايوت» والأخيران هما ابنا إسماعيل. على النحو نفسه يشير سفر حزقيال (27: 20-21) إلى أن: «العرب وكل رؤساء قيدار هم تجار يدك، بالخرفان والكباش والأعتدة». وبالأسلوب نفسه يعلن أن: «تجار شبا ورعمة [نجران] هم تجارك، بأفخر أنواع الطيب وبكل حجر كريم والذهب أقاموا أسواقك». إضافة إلى ذلك فإن التباين بين المناطق يفسر أركيولوجيًا، ففي حين أن آثار المدن الكبيرة، والمعابد الجليلة، والمنشآت الدفنية الضخمة والمصنوعات الديوية المشغولة بمهارة قد جرى اكتشافها في جنوب وشرق جزيرة العرب، ثمة دليل واهٍ على وجود الاحتلال التوطني الهام في الشمال أو الوسط قبل إقامة العاهل البابلي نبونيد في تيماء [نحو 552-543 ق م]، ويبقى في حدوده الدنيا حتى تأسيس الأنباط في نهاية الألفية.

على كل، إن الرعاة البدو لشمالي جزيرة العرب ووسطها هم الأكثر ظهورًا في التوراة والحوليات الآشورية، وذلك لأنهم كانوا على تماس مع حياة هذين الشعبين

أكثر مباشرة ما كان أبناء عمومتهم في جنوبي جزيرة العرب وشرقيها، ونصادف في هذه المصادر مصطلح «عربي» لأول مرة. إن أقدم إشارة موثوقة إنما يجري تقديمها في نقش يعود تاريخه إلى العام 853 ق م للملك الآشوري شلمنصر الثالث الذي يدون فيه النصر على ائتلاف من القادة السوريين والفلسطينيين، الذين قاتل إلى جانبهم المدعو جندبو العربي بألف جمل ‹AR 1.611›. أما أقدم إشارة مزعومة فهي العبارة الواردة في التوراة والتي تنسب إلى الملك سليمان (نحو 970–931 ق م) مع أنها حررت بعدئذ بزمن طويل، بقوله: «كل الملوك العرب وحكام الأقاليم جلبوا الذهب والفضة» (سفر الأخبار الثاني 9: 14). بعد ذلك، تصبح الإشارات إلى العرب في المصادر الآشورية والكتابية أكثر تكرارًا، وتكون عادة بتلك النفحة من الفوقية التي اعتمدتها على نحو شائع الدول الحضرية تجاه الشعوب البدوية التي تعيش على الحدود. في أغلب الأحيان كانت [المصادر] تسجل إخضاع مختلف القبائل: على سبيل المثال عندما يقوم عزيا [871–740 ق م] بإخضاع «العرب الذين يسكنون في جور بعل» (سفر الأخبار الثاني 26: 7)، ويعرض العاهل الآشوري تغلاتبلصر الثالث [744–727 ق م] بالكلمة والصورة شمسي المهزومة شر هزيمة (اللوحة 9):

> أما شمسي، ملكة العرب، فقد هزمتُ 9400 من شعبها عند جبل سقوري، فبلغ مجموع ما استوليت عليه من معسكرها: 1000 شخصًا و30000 جملًا و20000 من الماشية . . 5000 كيسًا من كل أنواع التوابل . . وقواعد تماثيل آلهتها، وأسلحة وعتاد ربتها وأملاكها. ولكي تنقذ حياتها فقد انسلت هاربة إلى الصحراء، إلى مكان قاحل، مثل أتان وحشية. أما بقية ممتلكاتها وخيامها وحراس أهلها، داخل معسكرها، فقد أحرقتهم. فجاءت مذعورة من أسلحتي الجبارة وأحضرت معها الجمال، والنوق مع صغارها إلى حضرتي في آشوريا، فعينت عليها مراقبًا و10000 جنديًا ‹ITP 229›.

إن ذكر النباتات العطرية في لائحة الغنائم التي أخذها تغلاتبلصر يقدم لنا دليلًا على سبب دخول العرب على نحو مفاجئ إلى خشبة المسرح العالمي في هذا الوقت. من الجلي أن المتاجرة بهذه المنتجات بين جنوبي جزيرة العرب والعالم المتوسطي قد بدأت وكانت بعض القبائل العربية الشمالية تؤدي دورًا كبيرًا فيها. هذا بدوره يفسر جزئيًا على الأقل، توسع المملكة الآشورية نحو الغرب، وهي نقلة

للسيطرة على النهايات الشمالية لطرق التجارة، وكذلك للسيطرة على مقاومة الولايات السورية والفلسطينية لهذا التوسع. ومع ذلك، فقد برهن الآشوريون على أنهم أقوياء جدًا، ونسمع عن ملوك دمشق والسامرة وصور وزبيبة، 'ملكة العرب'، الذين يدفعون الجزية لتغلاتبلصر في العام 738 ق م ‹ITP 69›.



اللوحة 9: نقش نافر آشوري يظن لامرأة عربية جرى أسرها خلال حملة تغلاتبلصر ضد شمسي (British Museum 118901).

يمكننا أن نميز في تصرفات تغلاتبلصر وسرغون الثاني [721–705 ق م] تجاه العرب الخطوط العامة لسياسة دمج جماعات البدو في النظام الإمبراطوري في المناطق الحدودية. لقد كان ذلك هامًا للحفاظ على السلم والأمن في هذه البقاع، ولتأمين احتياطي من القوة البشرية العسكرية، فجرى اختيار بعض الزعماء للمناصب الرسمية، المترافقة عادة بالألقاب والمكافآت. على سبيل المثال، جرى تعيين شخص اسمه (إيديبي-إيلو) العربي لحراسة الدخول إلى مصر «التي تتضمن مهمات الإشراف والتفتيش» إذ تقول مسودة: «أمر الملك» إلى موظف بصراحة: «أعط إيديبي-إيلو منصبًا قبلك ودعه يرعى في وسط البلاد»، وذكر في الجملة نفسها: «هؤلاء العرب» والحفاظ على «نقاط التفتيش في الصحراء كما كانت من قبل». كان البدو يوطنون أحيانًا في المناطق الحدودية، كما فعل سرغون على حدود فلسطين-سيناء، للأمن وتولي نقل البضائع بين آشور ومصر. لقد قام

الحاكمان أيضًا بمحاولات لإدخال المزيد من القبائل ضمن الفلك الإمبراطوري، وهم تحديدًا «العرب البعيدون الذين يقيمون في الصحراء، والذين لا يعرفون المراقبين ولا الموظفين ولم يقدموا جزيتهم إلى أي ملك»[1].

في القرن السابع قبل الميلاد خاض الآشوريون حربًا طويلة الأمد ضد زمرة متمردة من البابليين، وقف العرب القيداريون فيها إلى جانب البابليين، فجلبوا على أنفسهم غارات سنحاريب [704–681 ق م] وآشور بانيبال (668–627 ق م] العقابية، حيث كان انتقام الأخير شديدًا على نحو خاص:

> تخلص عويط[؟] بن حزائيل، ملك جزيرة العرب، من نير حكمي . . حرض أهل جزيرة العرب على الثورة، فأغاروا مرة تلو الأخرى على ملوك العرب، المقطعين التابعين لعهدتي، فأرسلت ضده جنودي الذين كانوا ضمن أرضه، فهزموه. كل الذين تمردوا من أهل جزيرة العرب مع عويط جرى التغلب عليهم بقوة السلاح. فقد أحرقت بيوت البادية، الخيام التي كانوا يسكنون فيها وأضرمت فيها النار، لقد جلبت إلى آشور البشر من الجنسين، والحمير والجمال والماشية والقطعان التي لا حصر لها، فامتلأت بها أرضي، كلها، حتى آخرها، ووزعت الجمال كما القطعان على أهل آشور. في بلادي كان المرء يشتري جملاً عند بوابة السوق مقابل قروش قليلة، ويحصل على صاحبة حانة بقطعة واحدة، وعلى مخمّر الجعة بجرة واحدة، وبستاني بباقة من الرشاد، والجمال والبشر. أما بقية أهل جزيرة العرب الذين فروا من أسلحتي، فقد قضى عليهم إرّا القوي (إله الطاعون والمجاعة). تفشت المجاعة بينهم إلى درجة أنهم أكلوا لحم أطفالهم لكي يمنعوا عن أنفسهم الموت جوعًا . . كان الناس في جزيرة العرب يسألون بعضهم بعضًا: لماذا حلت هذه الكارثة بجزيرة العرب؟ هل لأننا لم نفِ بالأيمان العظيمة لآشور، فارتكبنا خطأ ضد لطف آشور بانيبال، الملك الذي أسر قلب إنليل. لذلك حلت المحنة على عويطة ففر وحيدًا إلى أرض نبايوت ‹VAT 5660›.

ما إن سحقت آشور التمرد حتى أصبحت متورطة في حرب أهلية أدت، بالتضافر مع توغلات الميديين، إلى زوالها في سنة 609 ق م. في هذا الوقت برزت

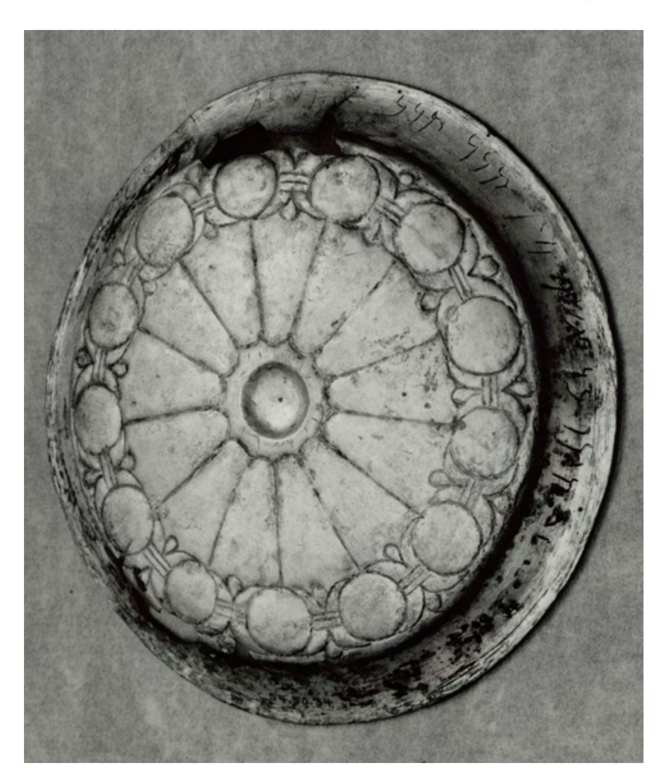
مملكة بابل إلى الواجهة مرة أخرى، فأنجبت عاهلين شهيرين جدًا في فترة نهوضها القصيرة، أولهما نبوخذنصّر [605–562 ق م]، باني الحدائق المعلقة العجيبة وفاتح أورشليم، الذي أرسل أيضًا وحدات عسكرية «إلى الصحراء، نهبت ممتلكات وحيوانات وآلهة العرب الكثيرين» ‹ABC 101›. مع ذلك، فإن الأكثر ارتباطًا بتاريخ جزيرة العرب هو نبونيد الذي كتب: «سلكتُ الطريق إلى تيماء وديدان وفَدَاك وخيبر ويديع [بلدات الواحات العربية الشمالية]، وبعيدًا حتى يثرب، حيث أقمت بينهم لمدة عشر سنوات [نحو 552–543 ق م] ولم أدخل مدينتي بابل» ‹Harran Inscription H2A 1.24–26›. تروي الوثائق المتعلقة بهذا الحدث أن الملك ذهب إلى هناك بوصفه فاتحًا، وقهر ملك ديدان، وذبح حاكم تيماء وشيد لنفسه قصرًا في الواحة الأخيرة. مع ذلك، فإنها [هذه الوثائق] لا تكشف أسباب قيامه بإخلاء الأرض من سكانها. فمن المعروف عنه أنه كان متعبدًا متعصبًا لإله القمر سين، وربما ذهب إلى تيماء هربًا من المعارضة في الوطن ولكي يرقي منزلة سين في الخارج. يبحث العلماء الحديثون عن تفسيرات أخرى أكثر ذرائعية، مثل السيطرة على التجارة الرابحة المارة عبر شمالي جزيرة العرب من الجنوب أو إقامة العلاقات مع الحكومات القريبة من مصر، المنافِسة الرئيس لمصر، مثل حلف قبائل قيدار.

منذ القرن التاسع قبل الميلاد فصاعدًا كان على الحكام الآشوريين أحيانًا أن يتولوا زمام الحكم في «إمارات قيدار» هذه، كما فعل ذلك أيضًا نبوخذنصّر [بختنصر،] في سنة 598 ق م. مثل المديانيين في التوراة كان هؤلاء الناس رعاة بدوًا على نحو أساس، «أمة لا مصاريع ولا عوارض لها، تسكن وحدها» (سفر إرميا 49: 31)، يسكنون في «خيام» (نشيد الأناشيد 1: 5؛ المزامير 120: 5)، يدفعون ثمن حاجياتهم «خرافًا وأكباشًا وتيوسًا» (حزقيال 27: 21). وكذلك مثل الميديانيين اغتنت بعض العشائر القيدارية من انغماسها في النشاطات التجارية. كان مجيء الفرس مواتيًا لقيدار والجماعات العربية الأخرى، لأنهم «لم يقدموا طاعة العبيد إلى الفرس، بل ارتبطوا معهم بصداقة مقابل إعطاء قمبيز ممرًا إلى مصر، التي لم يكن بمقدور الفرس أن يدخلوها من دون موافقة العرب» ‹Herodotus 3.88›، وفي العام 400 ق م نكتشف وجود قيدار في مكان بعيد غربًا كحدود مصر، كما تصور ذلك جفنة فضية من المنطقة تحمل النقش الآرامي: «الذي جلبه قينو بن جشم، ملك قيدار، تقدمه لِ [الربة/ الإلهة] اللات» (اللوحة 10)[2].

3 / 2) العهد الإغريقي-الروماني / الفرتي [330 ق م - 240 م تقريبًا]

إن وثائقنا عن جزيرة العرب، والشمال على وجه الخصوص، تصبح أفضل كثيرًا في هذا العهد. في المقام الأول ترافق صعود الحكم الهلنستي والروماني بازدهار علومهم، الذي يمدنا للمرة الأولى بالأوصاف المفصلة لجزيرة العرب وسكانها. فالنزعة الإمبراطورية (الإمبريالية) والعلم قد سارا جنبًا إلى جنب، مع إطلاق الفاتحين الراغبين لبعثات الاستقصاء قبل شن غزواتهم. ثمة ثلاثة مؤلفات شاملة لاتزال باقية هي: كتاب ‹الجغرافيا› من تأليف اسطرابون (Strabon, Geography) (كُتب ونُقح في 25–23 ق م) وكتاب بليني الأكبر ‹التاريخ الطبيعي/ Pliny the elder, Natural History› من تأليف بليني الأكبر (أكمله في العام 77 م) وكتاب بطليموس ‹الجغرافيا/ Ptolmy, Geography) (أكمل في نحو 150 م)، وكلها تضم ملاحظات شهود عيان معاصرين إضافة إلى تقارير أسبق. يتبع الكتابان الأولان التقليد الهلنستي في تقسيم جزيرة العرب إلى العربية السعيدة «Felix» (شبه جزيرة العرب)[3] والعربية الصحراوية (Deserta) (على نحو رئيس الصحراء السورية). مع ذلك فإن بطليموس يقسم هذه الأخيرة ليجد متسعًا للعربية الصخرية (Petraea)، التي كانت وفقًا له تمتد من أراضي الحمم البركانية جنوب دمشق إلى الدلتا الشرقية لمصر وكانت مشتركة الحدود تقريبًا مع المملكة السابقة للأنباط.

في المقام الثاني، بدأت جماعات محلية عديدة من شمالي جزيرة العرب ووسطها بخلق صوتها الخاص بها، بالتعريف عن نفسها في السجل التاريخي من طريق النقش على الحجر. هذه النصوص هي إما باللهجات العربية الشمالية والطبعات المختلفة للأبجدية العربية (انظر الفصل الثامن) أو مكتوبة باللغة الآرامية والخط الآرامي (غالبًا مع ترجمة يونانية في حالة بلميرا/تدمر). إنها، في معظمها، نقوش جدارية أو شهادات شخصية، أو تدوين لخواطر خصوصية ومشاعر ونشاطات يومية، مع أن عددًا لا بأس به منها، خصوصًا النصوص الآرامية، بيانات رسمية تخلد ذكرى نجاحات تجارية أو عسكرية، إكمال بناء أو ضريح، أو إهداء تمثال، وهلم جرا. سنقدم هنا وصفًا موجزًا لأهم هذه الفئات.



اللوحة 10: جفنة فضية وجدت في تل المسخوطة قرب الإسماعيلية في مصر أهداها ملك قيدار إلى الإلهة اللات القطر 16,7 سم (Brooklyn Museum of Art, 545034).

3 / 3) كتّاب النصوص العربية الشمالية

3 / 3 / 1) قبائل الحرّاء

في الصحراء البازلتية [حرّاء] التي تمتد من جنوب شرقي سورية عبر شمال شرقي الأردن وإلى داخل شمالي السعودية، وكذلك في الصحاري الرملية شرقًا، تم العثور على نحو 20000 نقش جداري مكتوبة بلهجة عربية شمالية. لأن النصوص الأولى التي اكتشفها الأوربيون كانت قرب الصفا، حقول الحمم البركانية إلى جنوب شرقي دمشق، يشير البحاثة الحديثون عادة إلى تلك اللغة باسم اللغة الصفوية. يتكلم مستعملوها عن تربية الحيوانات ورعيها، خصوصًا الجمال،

وعن غاراتهم والصيد، عن صلواتهم وأضاحيهم، عن أحزانهم وعشقهم، عن شدائدهم ومسراتهم، نسبهم وحسبهم القبلي، عن هجرتهم الصيفية الشتوية. يبين مضمون هذه النصوص وتوزعها أن كتابها كانوا رعاة مترحلين. لكن مع أنهم كانوا يقطنون بعيدًا عن التجمعات التوطنية [الحضرية] ومنهمكين في نشاطاتهم الخاصة، فقد كانوا مدركين للأحداث في العالم الأوسع. لقد كان ذلك ممكنًا بفضل الذين يسافرون إلى الخارج، لأن لدينا نقوش جدارية صفوية من مواقع متفرقة جدًا (الصالحية/ Dura Europos، بلميرا/تدمر، الحجر/ مدائن صالح، لبنان، بومبي)، أو الذين كانوا يعملون بين الشعوب المستقرة (أحد النصوص، على سبيل المثال، يذكر «عقرب بن أبجر»، فارس في الوحدة العسكرية لقبيلة أمرت "يمري" ‹MNA 64›، إذا تم تحديد تاريخ النصوص، فسيكون ذلك غالبًا بالرجوع إلى حدث خارجي ما، «عام ثورة الأنباط ضد الرومان» ‹WH 2815›، «العام الذي حارب فيه الفرس الرومان في بصرى» ‹CIS 50 4448›، «العام الذي كان فيه جنود جِرمانِكُس (Germanicus) في نقءتء[؟]» ‹PAES 4 C. 653›، «العام الذي نُصِب فيه رب إيل ملكًا» ‹ISB 57›. مع أنه نادرًا ما يكون بالإمكان رد تاريخ محدد إلى هذه المراجع، فإنها تخبرنا أن هذه القبائل كانت نشيطة أيام الحكم النبطي والروماني، مع أنه من المستحيل تحديد الزمن قبل ذلك وبعده.

3 / 3 / 2) قبائل حِسمى

إن الصحراء الرملية الممتدة جنوب شرقي الأردن حاليًا، وشمال غربي السعودية تعرف باسم حِسمى [هضبة حِسمى!؛ ز م]. يُعرف سكانها القدماء فقط من آلاف النقوش التي حفروها على جبال الحجر الرملي وصخور صحرائهم. كانت لغتهم لهجة عربية شمالية ندعوها الحِسمية بسبب أصلها. يتكلم مستعملوها عن القرابة النَسَبية والقبلية، ويلفتون الانتباه إلى رسومهم الحيوانية، يصلّون كي تتذكرهم آلهتهم وتباركهم أو تكافئهم أو تسمعهم، ويعبرون عن مشاعرهم بالسعادة، المرض، الحزن، الحب والرغبة، والتبجح بغزواتهم الجنسية، يدونون بناءهم أو امتلاكهم حظائر الحيوانات والمنشآت الأخرى، ويصفون رحلات الصيد. إن النقوش الجدارية الحِسمية تفتقر إلى صيغ

التأريخ الموجودة في الصفوية، لكن ثمة أسباب وجيهة للظن بأن أصحابها كانوا أيضًا معارضين للحكم النبطي. أولاً، إن الأسماء الملكية النبطية تبرز غالبًا كونها جزء من أسمائهم، مثل عبد حارثت وعبد عبدات. ثانيًا، إنهم يلتمسون العون من آلهة الأنباط نفسها: اللات، وكُتبَة وبالأخص ذو شرا. وأخيرًا تكشف كتاباتهم من حين لآخر عن سمات الفونولوجيا والأورثوغرافيا [اللفظ والتهجئة، ع ح] النبطيتين. لا يوجد دليل، مع ذلك، على الزمن الذي كتبت خلاله هذه النصوص.

3 / 3 / 3) قاطنو الواحات

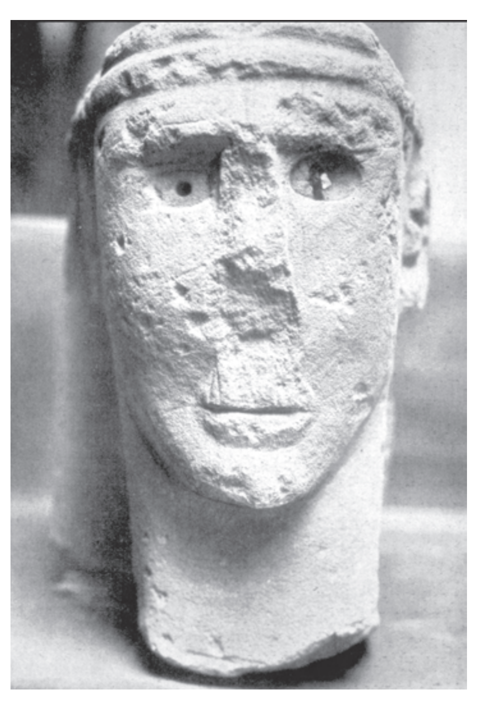
من بين الواحات المتباعدة في هذه المنطقة توجد ثلاث تحظى باهتمام الأجانب، وهي تيماء وديدان ودومة. ففي تيماء مورست الزراعة منذ زمن طويل، وانخرطت في التجارة منذ القرن الثامن قبل الميلاد على الأقل. إن كتابتها، وهي شكل من الحرف العربي، ربما كانت موجودة في هذا الوقت لأن الوصي على العرش في كركميش [جرابلس؛ ز م] في شمالي سورية يدّعي معرفة الكتابة التيمانية من القرن الثامن قبل الميلاد ‹CHLI 1.131›. لقد جرى بالتأكيد العثور على كثير من النقوش الجدارية في تيماء أو حولها، مكتوبة بلهجة عربية شمالية، لكنها، جميعًا، غير محددة التاريخ إذ يشير أحدها إلى «نبونيد، ملك بابل» ‹Askubi 169›، لذلك فإنه قد كُتب في منتصف القرن السادس (قبل الميلاد)، إلا أننا لا نعرف عن البقية هل هي أقدم أو أحدث منه. إن معظمها مختصر ويقدم ما هو أكثر قليلاً من الأسماء، مع أن القليل منها يحكي لنا عن الآلهة المحلية وعن النزاعات مع ديدان والقبائل المجاورة، التي يرد في الكتاب المقدس ذكر اثنين منها هما نبايوت ومسّا، بوصفهما ابني إسماعيل (سفر التكوين 25: 13–14 /15 ,13 ,WR T11–16). إضافة إلى ذلك عُثر هناك على نحو ثلاثين نقشًا آراميًا. إن معظمها يحمل أسماء وإهداءات، لكن أحدها، يوجد في حرم تيماء جنبًا إلى جنب مع ألواح تقديم [القرابين] والأدوات العبادية وقاعدة تمثال حجرية مزخرفة، محفورًا على رقيم حجري [مسلة تيماء/ حجر تيماء؛ ز م] ويسجل تنصيب إله في الواحة يدعى صلم هجم [صنم هجم؛ ز م]. مع أن التحديد الدقيق لتاريخ هذه النصوص هو موضوع خلاف، فمن المحتمل أنها تنتمي إلى العهد الفارسي عندما أصبحت اللغة الآرامية لغة مشتركة للشرق الأوسط.

في القرن السادس قبل الميلاد يرد ذكر واحة ديدان في المصادر التوراتية التي تتكلم عن «قوافلها» و«تجارة سروج الخيل» (إشعيا 21: 13، حزقيال 27: 20)، وكذلك وصف نشاطات نبونيد، التي تتضمن ذبح «ملك ديدان»، فربما إلى الفترة نفسها، إن لم يكن إلى الشخص نفسه، يعود النقش على ضريح «كبر إيل بن متع إيل، ملك ديدان» ‹JS Lih 38›. بعدئذ بوقت قليل أصبحت ديدان تحت سيطرة ملوك لحيان، الذين يسمى عدد منهم في نقوش المدينة ومحيطها. إننا لا نعرف بالضبط متى حصل هذا الحدث. ثمة حد أعلى يعطيه نقش ‹JS Lih 349› الذي يسجل «حاكم ديدان» (بدلاً من لحيان)، الذي ينتمي على نحو واضح إلى العهد الفارسي [539–334 ق م]، لأن المصطلح الفارسي (فحت) هو المستخدم. أما الحد الأدنى فيرسمه ضم الأنباط ديدان، الذي لابد أنه قد حدث في العام 24 ق م، عندها نعلم أنهم كانوا يسيطرون على الحجر/ مدائن صالح المجاورة، وربما قبلئذ بوقت كثير.

إن وجود الدليل على التأثير البطلمي في الأساليب النحتية اللحيانية يمكن أن يعني أن هؤلاء الأخيرين كانوا معاصرين لبطالمة مصر [305–31 ق م] علاوة على ذلك فإننا نعرف أن المملكة اللحيانية كانت متعاصرة مع المعينيين [نحو 500–100 ق م] الذين تذكر نصوصهم مستعمرة التجارة في ديدان وتشير أيضًا إلى لحيان. كل هذه مجتمعة تخبرنا بأن مملكة لحيان ازدهرت على مدى قرن ونصف على الأقل في وقت ما بين القرنين الخامس والأول قبل الميلاد.

إضافة إلى نحو مئة نقش جداري، لا تدون عادة أكثر من اسم الشخص، خلفت لحيان عددًا لا بأس به من النقوش النُصُبية، التي تحيي ذكرى بناء الأضرحة والمنشآت الزراعية وإهداء الأعمدة الحجرية المنقوشة والتماثيل (اللوحة 11). كان المال اللازم لشراء هذه النقوش يرد من انخراطها في تجارة النبات العطرية بين جنوبي جزيرة العرب والعالمين المتوسطي والرافديني. إن الطبيعية الدقيقة لهذا الانخراط ليست واضحة، لأن الوكلاء الأساسين يبدو أنهم كانوا المعينيين، الذين تشهد النقوش على نشاطاتهم في ديدان. من الممكن أن لحيان كانت ببساطة قبيلة قوية تنشط لفرض الضرائب كمقابل لضمان الأمن. خلافًا لذلك من الممكن أنهم كانوا يتصرفون كونهم حلفاء لمصر ضد الأنباط، فيسمحون للنباتات العطرية بالعبور مباشرة إلى مصر من طريق البحر الأحمر بدلاً من المرور برًا عبر الأراضي النبطية. إن الفقدان اللاحق للأرباح كان إذًا أحد الأسباب في أن الأنباط قرروا أخيرًا أن يمدوا سيطرتهم باتجاه

الجنوب على البلدات الواحية لتيماء وديدان ويستأصلوا لحيان. بأي حال فإن هذه الأخيرة تختفي من السجل التاريخي في هذا الوقت ولا يسمع بها مرة أخرى إلا في المصادر الإسلامية بوصفها فرعًا من حلف هُذيل القبلي، الموجود حتى الآن في منطقة الحجاز.



اللوحة 11: رأس تمثال لحياني من الحجر الرملي من ديدان (أ الأنصاري).

تقع دومة (دومة الجندل الإسلامية القديمة، الجوف حاليًا) في الطرف الجنوبي من وادي سرحان [السرحان؛ ز م]، الذي كان طريقًا هامًا يربط شمالي جزيرة العرب وجنوبي سورية. يرد ذكرها في النصوص الآشورية، تحت اسم إدوماتو، بوصفها مقر تحالف قبائل قيدار وقاعدة لعبادتهم. هذا ما تثبته النقوش الموجودة التي عثر عليها في الجوار، المكتوبة بلغة وخط مشابهين للغة تيماء وخطها، والتي تقدم الصلوات إلى عدد من الآلهة. أحد هذه النقوش يطلب «العون في قضية حبي» من رُدا ونهيا/ نهيا/ نها وعتر سماين [عثتر سماين/ عثتر السماوات، ز م]، والثلاثة معروفون جيدًا للآشورين بوصفهم آلهة قيدار

‹WR J23; IA 53›. لا يوجد بينها أي نقش محدد التاريخ، لكن الأرجح أنها تعود إلى فترة ازدهار قيدار الممتدة من القرن الثامن إلى القرن الخامس قبل الميلاد. بعد ذلك لا نسمع شيئًا عن دومة إلى أن وقعت في أيدي الأنباط، الذين يُعرف وجودهم هناك من نقش نبطي يعود للعام 44 م.

3 / 3 / 4) ثمود

هذا اسم قبيلة أو حلف قبلي من شمال غربي جزيرة العرب. يدّعي سرغون الثاني [721–705 ق م] أنه هزمهم مع القبائل الأخرى، «العرب قاطني الصحراء البعيدة» وأعاد توطين الناجين في السامرة ‹AR 2. 17, 118› في العصور الكلاسيكية نجدهم مدونين في نصوص مثل كتاب بليني ‹التاريخ الطبيعي› وكتاب بطليموس ‹الجغرافية›، وبعض الجماعات منهم مدرجة في قوائم الجيش الروماني. إحدى هذه الجماعات بنت معبدًا في روّافة في شمال غربي جزيرة العرب وخلّدت ذكراها بنقش مكتوب باللغتين اليونانية والنبطية:

> لأجل . . حكام العالم قاطبة . . مارقُس أُرليُس أنطُنيُس (Marcus Aurelius Anthoninus) [161–80 م] ولوقيوس أُرليُس فيروس (Lucius Aurelius Verus)، فاتحي الأرمنيين. هذا هو المعبد الذي بنته الوحدة[4] القبلية لثمود، زعماء وحدتهم، هكذا كان من الممكن أن يُبنى بأيديهم وأن يكون مكان تبجيلهم إلى الأبد . . بمؤازرة من أنطستيُس أدفنطُس (Antistius Adventus) الحاكم ‹BIA 10.55›.

فيما بعد، في القرن الرابع ميلادي، تدون وحدتان عسكريتان جرى تشكيلهما من ثمود على أنهما تخدمان في الجيش البيزنطي، واحدة في فلسطين والأخرى في مصر ‹Notitia dignitatum or. 28. 17, 34. 22›.

بحسب المؤرخين المسلمين، كانت ثمود إحدى القبائل العربية القديمة التي اندثرت في العصور القديمة الغابرة إذ يروي القرآن كيف أبيدوا ب «صيحة» أو زلزال أو صاعقة لأنهم رفضوا النبي صالح الذي أرسله الله إليهم، وقبلئذ عدّ الشعراء العرب من القرن السادس ثمود شعبًا اختفى في العصور الغابرة (انظر الفصل الثامن). هذا يثير التساؤل عما إذا كنا نتحدث عن القبيلة نفسها طوال هذه الفترة الطويلة جدًا من الزمن. من الممكن أن تكون القبيلة الأصلية قد

تلاشت أو تفتت في لحظة ما، لكن الاسم تبنته جماعة ما في وقت لاحق وذلك بناء على قدمه.

3 / 4) كتّاب النصوص الآرامية /اليونانية

وجد على حواف الصحراء السورية عدد من الكيانات السياسية التي وصفها الكتاب الإغريق-الرومان والباحثون المعاصرون بأنها عربية. فهناك، على سبيل المثال، أنباط البتراء، الإدوميّون في جنوبي فلسطين، والإطوريون (Ituraeans) حول جبل لبنان، والحمصيون في وادي نهر العاصي، والأبجريون (Abgarids) في أرفة (الرها/ إديسّا)، والبريطاوي (Preatavi) في سنجار ‹Pliny 5.86›، والخركيون (Characenes) في جنوبي العراق وسكان الحضر (Hatra) وبلميرا/ تدمر. على العموم لا يوجد دليل كافٍ يؤكد صفتهم العربية أو يدحضها، ومع ذلك، فإن وجود هذه الكيانات على حافة البلدان المستقرة السكان يجعل من المحتمل أن سكانها، وحتى لو كانوا أصلاً من منشأ عربي، قد جرى استيعابهم [تمثّلهم] سريعًا وإلى حد كبير في الثقافة الإغريقية-الآرامية السائدة ووقعوا إلى حد ما تحت سيطرة روما أو فارس. علاوة على ذلك، من المحتمل أنهم، كونهم مجتمعات مدنية، قد أدركوا التباين الملحوظ بينهم وبين شعوب البادية. لذلك فإن نقوش الحضر تفرق بين المقيمين فيها وسكان المناطق النائية ‹IIH 336. 343›. وثمة نص بلميرا/تدمري يمجد أوغلوس بن مكايوس (Ogelos son of Makkaios) في العام 199 م «لأنه خدم خدمة جيدة في الحملات العديدة ضد البدو ولأنه أمن السلامة للتجارة والقوافل» ‹PAT 1378›. أخيرًا، إن كثيرًا من كياناتهم كانت مراكز لتجارة العبور [الترانزيت] ولذلك كانت مفتوحة على مجموعة من المؤثرات. فالحياة الدينية لِلحضر، على سبيل المثال، هي مزيج انتقائي على نحو عجيب من العناصر الرافدينية، والسورية والعربية والإغريقية-الرومانية.

ربما يكون من المفيد أن نلقي نظرة على سيرة الحمصيين إذ يشار إليهم لأول مرة في رسالة سيسرو (Cicero) في العام 51 ق م حيث ينوه فيها إلى أن «أيامبليكوس، زعيم (phylarch) العرب»، من المرجح أن يتم صرفه إلى روما في حال حدوث غزو فرتي (Ad familiares). وبالعودة إلى أربعينيات قبل الميلاد [40 ق م] يتكلم اسطرابون عن أرثوسا (Arethusa) على نهر العاصي باعتبارها «تعود إلى سمبسيكراموس وابنه أيامبليكوس، زعيمي قوم (ethas) الحمصيين»

‹Strabon 15. 2.10–11›. في القرن الأول ميلادي يبدو أن هذه القبيلة استوطنت في عاصمتها إمِسَا (Emesa) (حمص الحالية) واعترف الرومان بأفراد أسرتها الحاكمة بوصفهم ملوكًا (يظهر الملك شمشجرم Samsigeramus في نص بلميرا/ تدمري هو ‹Sy 12.139›). علاوة على ذلك، فقد اكتسبت الأسرة الحاكمة المواطنية الرومانية، كما يتبين من استعمال اسم يوليوس في النقوش (مثل IGLS 5.2212: يوليوس شمشجرموس Julius Samsigeramus، ابن يوليوس ألكسيو Julius Alexio)، المؤرخ سنة 79 م، لكننا لا نعرف شيئًا بعد ذلك عن التاريخ الحضري لعاصمتها أو التركيب الاجتماعي لرعاياها وثقافتهم. في الواقع، إننا نعرف القليل جدًا عن أي من هذه الكيانات باستثناء ثلاثة منها، البتراء وبلميرا/ تدمر والحضر، التي أصبحت مشهورة جدًا ولذلك فهي تستحق الذكر هنا.

3 / 4 / 1) الأنباط

يدون إرَطُستِنِس القوريني، نقلاً عن مصدره، الذي اجتاز طريق البخور من جنوبي جزيرة العرب إلى سورية، أن المرء يمر في هذه الرحلة عبر بلدان «الأقوام العربية كالنبطيين والهجريين» (cited in Strabo 16.4.2). مع ذلك، لا نعلم على وجه اليقين ما إذا كان الأنباط يعدّون أنفسهم عربًا إذ يبدو أنهم دخلوا إلى المنطقة الواقعة حول البتراء (جنوبي الأردن الحالي) إثر اندثار قيدار في القرن الرابع قبل الميلاد. إن جذورهم البدوية واضحة من وصف دِيُدُروس صِيقولوس ‹دِيُدُر الصقلي› (Diodorus Siculus, 80–20 BC) الذي كان مصدره الأساس المؤرخ هيرُنيموس الكاردي (Hieronymus of Cardia)، وكان موظفًا ذا مرتبة في بلاط أنطِغُنُس (Antigonus)، أحد قادة جيش الاسكندر الأكبر (توفي سنة 323 ق م):

> يعيشون في العراء، يدّعون أصلهم في أرض قفر لا أنهار فيها ولا ينابيع غزيرة يمكن لأي جيش معادٍ أن يحصل منها على الماء. ليس من عادتهم أن يزرعوا القمح، أو يغرسوا شجرة مثمرة أو يتناولوا النبيذ، ولا أن يبنوا بيتًا. وإذا وجد من يتصرف خلافًا لذلك يكون جزاؤه الموت، إنهم يتبعون هذه العادة لأنهم يؤمنون بأن الذين يمتلكون هذه الأشياء، لكي يحتفظوا بها، يكون من السهل على الأقوياء أن يجبروهم على القيام بما يأمرونهم به. يربي بعضهم

> الجمال، والبعض الآخر يربي الغنم ويرعونها في الصحراء، إنهم مولعون بالحرية على نحو استثنائي، وكلما اقتربت منهم قوة من الأعداء يلتجئون إلى الصحراء، يستخدمونها حصنًا، لأنها تفتقر إلى الماء ولا يمكن للآخرين أن يعبروها. أما ما يتعلق بهم وحدهم، ولأنهم جهزوا خزانات تحت الأرض مبطنة بالجص، فهي تؤمن لهم السلامة ‹Diodorus 19.94›.

في صفحات اسطرابون، التي كتبها بعد ثلاثة قرون من هيرُنيموس، تُرسم صورة مختلفة جدًا. من الواضح أن الأنباط قد استوطنوا في ذاك الوقت: فقد كان لهم بيوت، وملك، مع أن مظاهر المساواتية القبلية لاتزال جلية في سلوكه، وحتى إنهم يمارسون الزراعة:

> إن عاصمة الأنباط هي البتراء [أي: الصخرة]، كما تسمى، لأنها تقع في موقع ممهّد ومستو من نواح أخرى، لكنه محصن من كل جوانبه بالصخر، الأجزاء الخارجيةً من الموقع شديدة التحدر وعمودية، والأجـزاء الداخلية ذات ينابيع وفـيرة، للأغراض المنزلية ولـري الحدائق. أما خـارج دائـرة الصخر فإن معظم الأرض صحراء، وبالأخص تلك المتجهة نحو يهوذا (Judaea). هنا أيضًا يقع أقصر طريق إلى إريحا، إذ تستغرق الرحلة ثلاثة أو أربعة أيام، وكذلك إلى بستان النخيل [منطقة تبوك]، الذي تستغرق الرحلة إليه خمسة أيام. البتراء يحكمها دائمًا ملك من الأسـرة المالكة، وللملك من بين مرافقيه شخص بمثابة مدير الأعمـال، يدعى «الأخ». الأنبـاط شعب حساس، وهـم ميالون كثيرًا إلى اكتساب الأملاك، حيث إنهم يغرّمون علنًا أي شخص أنقص ممتلكاته ويمنحون ألقاب التكريم لأي شخص يزيدها. بما أنهم لا يمتلكون سوى القليل من العبيد، فإن من يقومون على خدمتهم هم أبناء قومهم في معظمهم، أو كل واحد يخدم الآخر، أو يخدمون أنفسهم، ويمتد هذا التقليد إلى ملوكهم . . إن بيوتهم مكلفة بسبب استعمال الحجر، لكن المدن ليست مسورة بسبب [حالة] السلم. إن معظم البلاد مـزوّد جيدًا بالثمار باستثناء الزيتون، فهم يستعملون زيت السمسم بدلاً عنه. الأغنام ذات

> صوف أبيض، والثيران كبيرة، لكن البلد لا يربي الخيول. تتكفل الجمال بالخدمة التي يحتاجون إليها بدلاً من الخيول. إنهم يخرجون من دون أردية، مع أحزمة حول عوراتهم، وشباشب في أقدامهم، [ويفعل ذلك] حتى الملوك، مع أن اللون في حالتهم هو الأرجواني ‹Strabo 16.4.21, 26›.

كان البحر الميت المجاور «ينتج الأسفلت بوفرة، ومنه يحصلون على عائد ليس قليلاً» ‹Diodorus 2.48›، لكن التجارة هي التي جعلت الأنباط مشهورين، خصوصًا بالسلع الكمالية لجزيرة العرب الجنوبية:

> في حين توجد قبائل عربية كثيرة تستعمل الصحراء مرعىً، فإن الأنباط يبزون الآخرين كثيرًا بالثروة مع أن عددهم لا يتجاوز كثيرًا العشرة آلاف، لأن كثير منهم معتادون على أن يجلبوا إلى البحر اللبان والمر وأغلى أنواع التوابل التي يدبرونها من الذين يحملونها مما تدعى العربية السعيدة ‹Diodorus 19.94›.

نقرأ في كتاب بليني ‹Pliny 6.144› كانت عاصمتهم البتراء تقع، حيث «يلتقي طريقان، واحد يؤدي من سورية من طريق بلميرا/تدمر وآخر يأتي من غزة». في أوج قوتهم سيطر الأنباط أيضًا على كثير من الأراضي حول البتراء: النقب إلى الغرب، وعبر نهر الأردن وحوران إلى الشمال، وباتجاه الجنوب والشرق في جزيرة العرب إلى مناطق بعيدة مثل الحجر/ مدائن صالح ودومة.

لم يأت هذا النجاح حتمًا من دون ثمن وكانت عيون كثير من القادة الطموحين على البتراء. إن أقدم مواجهة كانت مع أنطِغُنُس آنف الذكر، الذي أرسل حملتين، واحدة بقيادة قائده أثنِيُس (Athenaeus)، والثانية بقيادة ابنه دِمِتريُس (Demetrius). نجحت الأولى في البداية، لأن معظم مواطني البتراء كانوا بعيدًا في مهرجان، فتمكن من الاستيلاء على كثير من «اللبان والمر» و«نحو خمسمئة طَلِنت من الفضة». لكن الأنباط لحقوا بهم وداهموهم وهم نيامًا في معسكرهم «فذبحوا معظم الجنود الأعداء حيث كانوا راقدين، أما الباقين فقد قتلوهم بالرماح عندما استيقظوا وامتشقوا السلاح». بدأ ديمتريوس أولاً بحصار البتراء، لكن وفدًا من مواطنيها «أقنعه بأن يأخذ أثمن منتجاتهم هبة له وأن يبرم اتفاقًا معهم» ‹Diodorus 19.95–97›. مع ذلك فإن الأنباط عمومًا، كانوا «يعيشون حياة مسالمة» ويتمتعون بعلاقات طيبة تمامًا مع الإمبراطوريتين

الواقعتين على جانبيهم، البطالمة والسلوقيين» ‹Strabon 16.4.18›. تزدهر السوق التجارية على النحو الأفضل في ظل الشروط السلمية ويُنقل عن الأنباط غالبًا أنهم كانوا يدفعون مبالغ كبيرة ويعرضون شروطًا مؤاتية لتجنب النزاعات التي من شأنها أن تضر بمصالحهم التجارية. كان عدوهم الرئيس مملكة يهوذا إلى الغرب منهم، فتشاحنا وتآمرا على بعضهما البعض طوال القرن الأول قبل الميلاد، لكن المواجهات كانت صغيرة هنا أيضًا. إن الرومان، بضمهم سورية في العام 63 ق م، صاروا قريبين من حدود المملكة النبطية. ومع ذلك، لم يكونوا متحمسين لحكم هذه الأرض المقفرة بأنفسهم، بل قرروا بدلاً من ذلك أن يتركوا حاكمًا محليًا في السلطة طالما أن السيادة الرومانية معترف بها اسميًا على الأقل، وهذا التفاعل للعلاقات الوثيقة مع روما والحكم الذاتي المحلي أنتج إنجازات رائعة في حقول الفن والعمارة والري.

مع ذلك فإن هذا النجاح كان بمعنى ما سبب خراب للأنباط، لأنهم حولوا بلادهم إلى جائزة جديرة بالاهتمام. ففي العام 106 م ضمتها روما، كما مدون في الملاحظة المقتضبة لِكاسيوس ديو: «أخضع بالما (Palma)، حاكم سورية، جزيرة العرب حول البتراء وجعلها خاضعة للرومان» ‹Cassius Dio 68.14.5›. على الطريقة الرومانية الفعالة على نحو أنموذجي نُقلت الوحدات العسكرية الأجنبية على الفور إلى المقاطعة الجديدة، وشُق عبرها طريق مباشر يصل سورية بالبحر الأحمر، وحُسبت التواريخ وفقًا للأعوام المنقضية منذ تدشين المقاطعة، وسرعان ما أصبحت اليونانية اللغة الرسمية. ربما، حتى، حصلت إعادة تنظيم اجتماعي: «في الآونة الأخيرة قام الرومان بغزو جزيرة العرب وأبطلوا القوانين القديمة المعتادة، وخصوصًا الختان، العادة التي كانوا يمارسونها» ‹Bardaisan 56›. بعدئذ دخلت البتراء في حالة انحدار طفيف، جزئيًا لأن بُصرى أصبحت المدينة الأساس للمقاطعة الجديدة، ولكن أيضًا بسبب التغيرات في أنماط التجارة التي بدأت قبلئذ بوقت طويل. إن التحسينات في المهارات الملاحية في القرن الأول قبل الميلاد كانت تعني أن السلع الكمالية لجنوبي جزيرة العرب لم يعد لزامًا أن تُنقل برًا إلى البحر المتوسط، بل يمكن أن تذهب من طريق البحر، فالطريق البري كان يحتم المرور عبر الأراضي النبطية، لكن استخدام البحر وفر معبرًا بديلاً من طريق مصر:

تنقل حمولات العطور من لِيُكه كوم (Leuke Kome) ["الميناء

> الأبيض؟ ز م" وهو مرفأ على الساحل الشمالي الغربي لجزيرة العرب على البحر الأحمر] إلى البتراء ومن هنا إلى رينوكلُرا (Rhinocoloura) [العريش حاليًا] . . أما في الوقت الحاضر فإنها تنقل في معظمها من طريق نهر النيل إلى الاسكندرية. ترسو آتية من جزيرة العرب والهند في (Myos Hormos) [قُصير القدم؟ ز م- مرفأ على الساحل المصري على البحر الأحمر] ثم تحمل بواسطة الجمال إلى قِفت (Coptus) في طيبة (Thebais)، الواقعة على قناة النيل، ومن ثم إلى الاسكندرية ‹Strabo 16.4.24›.

يبدو أن المنافسة على هذه التجارة المربحة قد دفعت الأنباط في بعض الأحيان إلى محاولة القرصنة: عاش هؤلاء الأنباط في السابق حياة مسالمة، لكنهم فيما بعد لجأوا بواسطة الرموث [الأطواف] إلى سلب سفن الناس المبحرين من مصر، لكنهم دفعوا الجزاء عندما هجم أسطول ونهب بلادهم ‹Strabo 16.4.18›.

3 / 4 / 2) البلميريون / التدمريون

دخلت بلميرا/تدمر (في جنوبي سورية الحديثة) التاريخ لأول مرة في سياق التجارة إذ يذكر رقيم من القرن التاسع عشر قبل الميلاد، يعود مصدره إلى مستعمرة تجارية آشورية أقيمت في آسية الصغرى، شخصًا يدعى بوزو/فوزو-عشتار «البلميري» بوصفه شاهدًا على عقد. على كل، ثمة إشارات قليلة جدًا إلى بلميرا في النصوص التاريخية حتى القرن الأول قبل الميلاد، عندما يصبح لدينا أيضًا أدلة أثرية على تحولها إلى مستوطنة كبيرة. ونظرًا لموقعها المركزي على الطريق بين بلاد الرافدين والبحر المتوسط، كانت دائمًا تحت خطر الوقوع فريسة لمطامع القوى العظمى:

> بلميرا/تدمر مدينة مشهورة بسبب وضعها، وغنى تربتها وينابيعها السائغة. إن حقولها محاطة من كل جانب بدائرة هائلة من الرمل، وهي، كما لو عزلتها الطبيعة عن العالم، متروكة لمصيرها بين إمبراطوريتي روما وفرتية الجبارتين، وقد لفتت اهتمام الطرفين منذ اللحظة الأولى للصراع بينهما ‹Pliny 5.88›.

في العام 41 ق م لفتت نظر ماركُس أنطُنيُس، في الوقت الذي كان فيه مفتونًا

بكليوبطرا وكان بحاجة إلى المال:

> أرسل أنطُنيُس قوة خيالة إلى بلميرا/تدمر، التي تقع غير بعيدة عن نهر الفرات، لنهبها، مقدمًا التهمة التافهة ضد سكانها وهي كونهم واقعين على الحدود بين الرومان والفرتيين، فتجنبوا الوقوف مع أحد الطرفين. نظرًا لكونهم تجارًا فهم يجلبون منتوجات الهند وجزيرة العرب وفارس ويصرّفونها في الأراضي الرومانية. أما في الحقيقة فقد كانت نية أنطُنيُس إثراء فرسانه. على كل، فقد أنذر البلميرا/تدمريون مسبقًا فنقلوا ممتلكاتهم عبر النَّهر، فيما هم يركزون أنفسهم على الضفة، استعدوا لإطلاق السهام على كل من سيهاجمهم، لأنهم رماة سهام خبيرين. لم يجد الفرسان شيئًا في المدينة، فأقفلوا راجعين من دون أن يلاقوا عدوًا وعادوا خاليي الوفاض ‹Appian 5.9›.

لكن في أيام صراع القوى العظمى هذه لم يكن الحياد خيارًا، ففي العام 20 م كانت روما في آخر عهدها قد ضمت بلميرا/ بلميرا/تدمر فعليًا. في معبد بعل نفسه يوجد تمثال برونزي للإمبراطور طِبريُس (AD 37–Tiberius 14) تحمل قاعدته إهداءً باللاتينية. فاكتسبت بلميرا/تدمر بالتدريج كل بهرجات المدينة الإغريقية–الرومانية: مجلس الشيوخ، مجلس الشعب، القضاة، الساحة العامة [الآغورا]، المسرح، الحمامات، الشوارع المعمّدة [ذات الأعمدة]، والحامية الرومانية، وهلم جرا. يبدو أن البلميريين/التدمريين قد اقتنعوا بقسمتهم الجديدة ولا يبدو أنهم كانوا يعدّون الجنود الرومان في مدينتهم بمثابة قوة محتلة. عندما جاء هدريان (Hadrian) في العام 129 م لزيارتهم، عمدوا إلى تسمية أنفسهم رعايا هدريان (Hadrianopolitans)، قائلين إن مدينتهم قد شيدها الإمبراطور من جديد ‹Stephen of Byzantium, s.v. "Palmyra"›. علاوة على ذلك، نجد مفرزة رماة السهام البلميريين/التدمريين ينتشرون في كل أرجاء الإمبراطورية في أمكنة بعيدة مثل داتشيا العليا (رومانيا الحالية) وإفريقية.

في القرن الثالث اضطربت روما بفعل القبائل الجرمانية في الغرب وسلالة الساسانيين الحاكمة الإيرانية الجديدة في الشرق التي حلت محل الفرتيين في العام 224 م. فقد توغل حاكمهم الثاني، شابور [242–270 م] في الأراضي الرومانية وحقق انتصارات كاسحة، توجت بأسر الإمبراطور فِلِريان (Valerian) نفسه في العام

259 م. كان ثمة مواطن قيادي من بلميرا/تدمر وعضو في مجلس الشيوخ الروماني، هو أوديناتوس (Odenathus) أذينة ابن حيران ابن وهب اللات ابن ناصور، تشير سلسلة نسبه إلى أنه من أصل عربي، صعد إلى سدة الحكم مستغلاً فراغ السلطة وتبنى قضية روما. في ستينات القرن الثالث ميلادي [260 م] «جمع عصبة من أهل البلاد السورية وأظهر مقاومة جريئة. فهزم الفرس هزيمة منكرة في عدد من المناسبات، ولم يدافع عن حدودنا فحسب، بل شق أيضًا طريقه إلى قطسيفون [طيسفون/ المدائن]، بوصفه المنتقم للإمبراطورية الرومانية، وهذا شيء عجيب» ‹Festus›. بسبب هذا الإنجاز سمي «مسترجع كل الشرق» وتصرف فعلاً كونه وكيلاً لروما في الشرق. لا نعرف إن كانت لديه طموحات ليحققها. ربما شهد صعود فيليب العربي إلى العرش الإمبراطوري في العام 244 م وادعاء الحاكم العربي لحمص الحق في السلطة الإمبراطورية، وهما الحدثان اللذان وقعا استجابة لأزمة فرضها التهديد الفارسي، ويعتقد أنه هو أيضًا طالب لنفسه بالمنصب الأعلى. مع ذلك فقد جرى القضاء على هذه الأحلام باغتياله واغتيال ابنه في العام 267 م.



اللوحة 12: دراخما رباعية فضية، مسكوكة من الاسكندرية، تظهر تمثالاً نصفيًا لزنوبيا وتحمل المصطلحات اليونانية ([septim[ia] seb[astê) المرادف اليوناني لـ«أوغسطا/ Augusta»، 271–273 م (British Museum 3124245).

إن مخططات زوجته زنوبيا، التي كانت تتصرف بالنيابة عن ابنها الفتى، كانت أكثر شفافية. «بعد وفاة زوجها ارتدت الرداء الإمبراطوري على كتفيها، مدّعية أنها تتحدر من أسرة كليوبطرا والبطالمة» ‹Scriptores historiae Augustae 24.30.2›. وأطلقت على زوجها بعد وفاته اسم «ملك الملوك» وذلك على نصب

تذكاري وقاعدة تمثال، ثم انطلقت جيوشها لاحتلال مصر وتوغلت عبر آسية الصغرى. توحي الألقاب التي أضفيت على وهب اللات على النصب التذكارية والنقود بأنها كانت منذ البداية تسعى لتقاسم ابنها الحكم مع الإمبراطورين المتعاقبين كلُديُس (Claudius) وأُرليان (Aurelian)، البعيدين في أوربة، ولم تعتمد لقبي «أوغسطا» و«أغسطس» لها ولابنها إلا عندما كشف أُرليان أنه لن يسمح بشيء من هذا القبيل وخرج لملاقاتها (اللوحة 12). جاء أُرليان بقواته عبر آسية الصغرى، وهزم الجيش البلميري/التدمري قرب أنطاكية، ثم طارد زنوبيا إلى مدينتها، فأسرها واستولى على مدينتها في العام 272 م. لكنٍ رغم أن عهد زنوبيا كان قصيرًا فإن شهرتها بقيت زمنًا طويلاً إذ يُعتقد أن أُرليان نفسه اعترف بأن «مأثرتها هي أن أذينة هزم الفرس» وأشار إلى أن «هذا هو الخوف الذي أثارته هذه المرأة في شعوب الشرق وكذلك المصريين حيث إن العرب والسراسن[!] (Saracens) والأرمن لم يتحركوا ضدها». وسرعان ما شاعت الحكايات عن كيف أن «روحها كانت عظيمة على نحو رائع وجمالها لا يصدق . . كانت تصطاد بحماس إسبانية، وغالبًا ما كانت تشرب مع قادة جيشها . . في المآدب كانت تستعمل أوانٍ ذهبية ومجوهرات . . كانت تتكلم اليونانية واللاتينية والمصرية وكانت متمكنةً جيدًا في تاريخ الاسكندرية والشرق» ‹Scriptores historiae Augustae 24.30.6–22›. كانت باختصار، كما هو مدون على نصب تذكاري قرب بلميرا/تدمر «ألمع ملكة» ‹CIS 2.3971›[5].

3 / 4 / 3) الحضريون

كانت الحضر (في شمالي العراق الحالي) مدينة ذات شكل دائري يبلغ قطره نحو 2 كم، يوجد في مركزها معبد كبير مكرس لشمش إله الشمس. من بين الأربعمئة أو أكثر من النقوش الآرامية المكتشفة هناك يوجد نحو ثلاثين نقشًا مؤرخًا، يراوح تاريخها من 89 م إلى 238 م. أما متى جرى استيطان المدينة، قبل هذه الفترة أو بعدها فهو غير مؤكد بعد. حاول إمبراطوران رومانيان انتزاعها من حكامها الفرتيين إلا أن أسوارها العالية والسميكة وأرضها الخلفية القاحلة أنقذتها في المناسبتين:

> هذه المدينة ليست كبيرة ولا مزدهرة، والريف المحيط بها صحراء في معظمه ولا ماء فيه، عدا كمية قليلة وهذه رديئة في

> نوعيتها، وليس فيها خشب ولا علف للماشية [كلأ]. مع ذلك، فإن هذه المساوئ تحديدًا هي التي توفر لها الحماية، إذ تجعل من المستحيل محاصرتها بعدد كبير، وكذلك يحميها إله الشمس الذي كرست له. لأنها لم ينتزعها هذه المرة طراجان [117 م] ولم ينتزعها لاحقًا سيفيروس [نحو 198 م]، رغم أنهما هدّما أجزاءً من السور] ‹Cassius Dio 68.31›.

فيما بعد، يبدو أنها قد آلت إلى الرومان، ربما مع سقوط الفرتيين، لأن النقوش اللاتينية تؤكد أن الجنود الرومان تمركزوا هناك في ثلاثينات القرن الثالث (230). لكن هذا أثار حنق الإمبراطور الساساني، أردشير، الذي أزال تحصيناتها نهائيًا في العام 240 م بعد حصار طويل، وفي العام 363 م، كان بإمكان راصد عابر أن يقول: إنها مهجورة منذ زمن طويل ‹Ammianus 25.8.5›. مع ذلك كان ثمة إيمان قوي بأنها لا تقهر إلى درجة أن إشاعة سرت، تقول إن ابنة ملك الحضر، نادرة الشقراء، وقعت في حب ابن أردشير، الشاب المندفع شابور، فكشفت نقطة ضعف الحضر:

> فأرسلت إليه: ما تجعل لي إن دللتك على ما تهدم له سور هذه المدينة وتقتل أبي . . قال: عليك بحمامة ورقاء مطوقة، فاكتب في رجلها بحيض جارية بكر زرقاء، ثم أرسلها، فإنها تقع على حائط المدينة، فتتداعى المدينة، وكان ذلك طلسم المدينة لا يهدمها إلا هذا ‹الطبري›.

بما أنه لم تصلنا تقريبًا أي كتابات تاريخية من الفرتيين أو الساسانيين، فإننا مجبرون على الاعتماد على البقايا المادية ونقوش الحضر للمعلومات عن ماضيها. إن معظم النصوص المنقوشة قصيرة نسبيًا، فهي صلوات لكي يحفظها المؤلف في ذهنه أو لكي تباركها الآلهة <دكير/بريك> وإهـداءات لتماثيل، ومذابح وما شابه، لكن ما يثير الانتباه هو أن المهن والمناصب تذكر في غالب الأحيان. فضمن المهن نصادف البنائين والنحاتين والمشتغلين بالمعادن والنجارين والخطاطين والمعلمين والكهنة والأطباء والمحاسبين والحراس، والتجار وبائعي الخمور. أما المناصب فيبدو أن كثير منها ذو صلة دينية، مثل «محاسب معبد [الإله] بعل شمين»، و«حامل راية شمش»، و«قهرمان اللات» ‹IIH 49, 202, 384›. لا يظهر لقب الملك إلا في نحو العام 160 م، الأمر الذي ربما يعكس أن

المدينة اكتسبت شهرة أكبر أو استقلالاً ضمن المملكة الفرتية. كان اللقب الكامل هو «ملك العرب» أو «ملك العربية». هذان المصطلحان كانا يدلان على اسم المنطقة أو على كل سكانها، أو مجرد الجزء البدوي من السكان. لكن بما أن المرء لا يتوقع حاكمًا يقطن المدينة يدعى «ملك البدو»، فإن اللقب الملكي من المرجح أكثر أنه كان يدل على المنطقة و/أو سكانها التي/الذين كانت تحكمها/هم الحضر.

3 / 5) العهد البيزنطي / الساساني [نحو 240-630 م]

كانت الكيانات السياسية المختلفة التي ازدهرت على محيط الصحراء السورية في أعقاب انهيار السلطة السلوقية قد أقامت علاقات عمل مع الرعاة البداة من حولها وقامت بالمهمة المفيدة، [مهمة] تنظيم نشاطات هذه الشعوب بالنيابة عن إمبراطوريتي روما وفارس، فكانتا، بإسقاطهما هذه الكيانات السياسية في أثناء القرنين الثاني والثالث للميلاد، مجبرتين على التعامل مباشرة مع البدو على حدودها. على العموم، اعتمدتا الأساليب العريقة لسالفاتها الإمبراطوريات: منح الألقاب والإعانات لمختلف العشائر العربية في مقابل الكف عن مهاجمة المواطنين الإمبراطوريين، والحفاظ على الأمن في المناطق الحدودية وتقديم العون العسكري عند الحاجة. كما يشتهر الإمبراطور الفارسي خسرو الأول بأنه قال للسفراء البيزنطيين المتوسلين السلام بعد قيامه بتدمير أنطاكية في العام 540 م: تدفعون قسطًا سنويًا من الذهب للهونيين [المغول] وللسراسنة [العرب] لكي يصونوا بلادكم من النهب في كل الأوقات ‹Procopius 2.10›. وفعل الفرس الشيء نفسه: أصبحوا [عشيرة نصر بن ربيعة من قبيلة لخم] حكامًا لأن الملوك الفرس استخدموهم لهذا الغرض، معتمدين عليهم لإبقاء العرب المجاورين تحت السيطرة ‹الطبري›. فقد اعتمد الفرس أساسًا على هؤلاء النصريين، الذين كانت قاعدتهم في الحيرة في جنوبي العراق، وكان الجفنيون من قبيلة غسان، الذين كانت قاعدتهم في الجولان، أشهر الحلفاء العرب للبيزنطيين، مع أن الأخيرين سخروا أيضًا زعماء صالح وتنوخ والقبائل الأخرى.

إن أقدم مصادرنا الأدبية عن هذه المسائل هو الجندي والعلاّمة أمّيانُس مارسلّينوس (Ammianus Marcellinus) (المتوفى سنة 395). فيما يتعلق بالعام 636 م يصف عملية [عسكرية] مشتركة لرئيس الوزراء الفارسي ومَلِخُس[!] (Malechus) [الملك؟، ز م] المعروف باسم فودوساكس (Podosaces)، زعيم

العرب الغساسنة، وهو قاطع طريق مشهور، أغار على أرضنا منذ زمن طويل بكل وحشية ‹Ammianus Marcellinus 24.2.4›. في العام نفسه، بعد انتصار الإمبراطور جوليان في كالينيكوم، فإن «أمراء أقوام العرب، قدموا له وهم متضرعون راكعون تاجًا ذهبيًا وقدموا له الولاء بوصفه سيد العالم وشعوبه، وجرى استقبالهم استقبالاً سارًا لأنهم كانوا مناسبين جيدًا لحرب العصابات» ‹Ammianus Marcellinus 23.3.8›. إضافة إلى ذلك نمتلك أدلة مستمدة من نقوش الأضرحة، فثمة نقش باللغتين الفارسية والفرتية ‹Paikuli 92› يذكر اسم «عمرو ملك اللخميين» ضمن مُقطعي (Vassals) الإمبراطور الساساني نارسه (Narseh–302 [293] م]. يوصف ابنه امرؤ القيس (المتوفى سنة 328 م) في المصادر الإسلامية بأنه الحاكم بالنيابة عن الفرس على الأراضي الحدودية لعرب ربيعة ومضر، وباقي القبائل في صحاري العراق والحجاز والرافدين ‹الطبري›. يقع ضريحه في الأراضي البيزنطية، قرب قلعة النمارة في الصحراء البازلتية جنوب شرق دمشق، ربما لأنه «أصبح نصرانيًا» ‹الطبري›. وذهب إلى البيزنطيين، أو ربما لأنه توفي حينما كان في حملة مغيرة في بلاد العدو. على ضريحه نقشت الكلمات التالية (انظر اللوحة 1/32):

> هذا ضريح امرؤ القيس بن عمْر، ملك العرب كلهم، الذي .
> . حكم الأزد ونزار وملوكهما، وأدّب مذحج، فضرب بنجاح، في
> أرض نجران المروية، مملكة شمار [الملك الحميري]. وحكم معد
> . . ولم يبزه ملك في إنجازاته حتى وقت مماته، في الازدهار، في
> العام 223 اليوم السابع من كِسلول [328 م][6].

هذه وثيقة هامة جدًا لتدوين ظهور الإحساس بالهوية لدى العرب، ليس فقط بسبب استعمالها عبارة «ملك العرب كلهم» بل أيضًا بسبب استخدامها اللغة العربية، وإن كانت مكتوبة بالخط النبطي.

لقد حقق تقديم المساعدات المالية إلى القبائل النائية هدفين. أولاً، منح الزعيم على الطرف القابض لها مسوغًا للالتزام بمعاهدة على مدى عدد من السنوات وعدم خرقها في أول فرصة. ثانيًا، بإعطاء ذاك الزعيم الثروة ليعيد توزيعها ضمن حاشيته، يمكن للإمبراطورية أن تأمل في تكريس منصب القائد الذي يمكن في حالات أخرى المساومة عليه بعلاقات مع قوة مستقرة. لذلك كانت المدفوعات الدبلوماسية تأمل في إيجاد ودعم الحلفاء وراء الحدود الذين

ستكون لهم مصلحة في الحفاظ على الوضع القائم وتأييد أولياء نعمتهم [دافعي رواتبهم]. نظرًا للمنافع التي يمكن أن يجلبها هذا الارتباط، فقد سعى كثيرون سعيًا حثيثًا لكسب اعتراف السلطات:

> بين الفرس كان ثمة شخص يدعى أمُرِكسُس (Amorkesus) من قبيلة نوماليوس ظن أن الإمبراطورية الرومانية أفضل، إما لأنه لم يلق الاحترام في بلاد فارس أو لسبب آخر، فغادر بلاد فارس ورحل إلى ذاك الجزء من جزيرة العرب المتاخم لفارس. من هناك لم يقم بأي غزوات وهجمات على الرومان، بل على العرب الذين صادفهم. فتقدم بالتدريج بانيًا قوته من هؤلاء فاستولى على إحدى الجزر العائدة للرومان تدعى أيوتابي (Iotabe) [في خليج العقبة، جزيرة تيران؟، جزيرة فرعون؟ - ز م] وإذ قام بطرد جامعي الضرائب الرومان، حكم الجزيرة بنفسه وجمع ثروة كبيرة من الضرائب. عندما استولى على القرى الأخرى المجاورة، أراد أمُرِكسُس أن يصبح حليفًا للرومان وزعيمًا للعرب تحت الحكم الروماني على العربية الصخرية (Arabia Petraea). لذلك أرسل بيتر [بطرس] أسقف قبيلته، إلى الإمبراطور الروماني ليو (Leo, 457–474)، ليرى إن كان بإمكانه أن يقنعه ويرتب هذه الأمور. عندما وصل بيتر وتكلم إلى [الإمبراطور] قبل ليو مقترحاته وأرسل على الفور في طلب أمُرِكسُس ليأتي إليه ‹Malchus, frag.1›.

إن الراغب في أن يكون زعيمًا سيحاول كسب الاعتراف [به] من طريق الهبات أو اكتساب سمعة حسنة بسبب القدرة والكفاءة، إن لم يكن بعرض القوة:

> هذا الساحل [العربي] الواقع مباشرة وراء حدود فلسطين يسيطر عليه السراسنة [العرب] الذين جرى توطينهم منذ القدم في بستان النخيل. هذه البساتين تقع في الداخل، ممتدة على مساحة كبيرة من الأرض، ولا ينمو هنا شيء آخر على الإطلاق سوى أشجار النخيل. كان الإمبراطور جسطنيان [527-565] قد تلقى بساتين النخيل هذه هدية من أبيكريب[7]، حاكم العرب هناك، وعينه الإمبراطور زعيمًا [شيخ قبيلة] على العرب

في فلسطين. وقد حرس البلاد من النهب حراسة دائمة، لأنه كان يبدو للبرابرة الذين حكمهم وللأعداء أيضًا أن أبيكريب رجل يثير الخوف وفتى ذو طاقة استثنائية ‹11–Procopius 1.19.7›.

في القرن الرابع والخامس لم يكن هؤلاء المقْطعون العرب ذوي أهمية كبيرة للسياسة الإمبراطورية، لكن عندما سخنت الحرب الباردة في القرن السادس أصبحوا أكثر تورطًا من ذي قبل في هذا الصراع الكبير. من منظور الإمبراطوريتين كان ثمة العديد من الزعماء العرب الصغار ذوي المرتبة المتساوية، في هذا الوقت جرى اختلاف الزعماء الكبار. كان أول من بدأ بذلك هو الإمبراطور الفارسي كاواد (488 ,Kawad–531)، الذي عيّن سيدًا أعلى وحيدًا على العرب في الأراضي الفارسية. لمعارضة هذا الرجل، العدو الأصعب والأخطر من كل أعداء الرومان قاطبة، جُمعت مختلف العشائر الموالية للبيزنطيين معًا تحت زعيم واحد، الحارث بن جبلة الجفني [529–569]، الذي منح آنذاك لقب «ملك» (كان الحكام العرب السابقون يدَّعون هذا اللقب لأنفسهم ادعاءً فقط):

حكم المنذر، الذي يشغل منصب الملك، لوحده كل العرب في فارس، وكان قادرًا على الدوام على القيام بغزواته بكامل جيشه حيثما أراد في المملكة الرومانية. فلم يكن أي قائد للجيوش الرومانية ممن يسمونهم الدوتشي "duce"، ولا أي قائد للعرب المتحالفين مع الرومان الذين سموا (phylarchs)، ممن يسمونهم شيوخ القبائل، قويًا بما يكفي مع رجاله لأن يقف ضد المنذر، لأن الجيوش المتركزة في المقاطعات المختلفة لم تكن نِّدا [على نحو إفرادي] للعدو في المعركة. لهذا السبب وضع الإمبراطور جسطنيان [527–65] تحت إمرة الحارث بن جبلة أكبر عدد ممكن من العشائر، وخلع عليه لقب ملك (basileus)، وهو ما لم يحصل لدى الرومان من قبل ‹Procopius 1.17›.

هذا يعني أن الصدام بين الإمبراطوريتين غالبًا ما كان يحصل بين هؤلاء المُقْطعين [التوابع]:

تشاور خسرو مع المنذر بخصوص هذه المسألة [خرق المعاهدة مع البيزنطيين] وأمره بتوفير الأسباب للحرب. وهنا ساق المنذر ضد الحارث تهمة أنه، أي الحارث، كان يتعدى عليه في مسألة

> خطوط الحدود، فدخل في نزاع معه في زمن السلم وبدأ يجتاح بلاد الرومان تحت هذه الذريعة، وأعلن أنه، فيما يتعلق به، لم يكن يخرق المعاهدة بين الفرس والرومان، لأن أيًا منها لم يشمله فيها. وكان هذا صحيحًا، لأنه لم يرد أي ذكر للسراسنة [العرب] في المعاهدات، بناء على كونهم مشمولين تحت اسمي الفرس والرومان. في ذاك الوقت كان هذا البلد، الذي تدعي الحق به قبيلتا السراسنة، يدعى ستراتا (Strata)، ويمتد إلى جنوب مدينة بلميرا/تدمر. لا يوجد فيه مكان تنبت فيه شجرة واحدة أو أي زراعة مفيدة لأراضي الحبوب، لأنه جاف بشكل زائد بفعل الشمس الحارقة، لكنه منذور منذ القدم لرعي بعض قطعان الماشية القليلة. في ذاك الوقت ظن الحارث أن المكان يعود إلى الرومان، مبرهنًا ادعاءه من طريق الاسم الذي طالما أطلقه الجميع عليه، لأن ستراتا تفيد معنى «الطريق المرصوفة» باللغة اللاتينية، واستنتج ذلك أيضًا من شهادات أناس من أقدم الأزمنة. على كل، لم يكن المنذر ميالاً بأي شكل من الأشكال إلى الخلاف حول الاسم، لكنه ادعى أن الجزية كانت تعطى له منذ القدم مقابل رعي أصحاب القطعان هناك ‹Procopius 2.1›.

كانت هذه الزعامات [المشيخات] القبلية العربية من القرن الرابع إلى القرن السادس مختلفة جدًا عن الولايات التابعة للأنباط والبلميرا/تدمريين والحضريين من العصور السابقة. فالشعوب الأخيرة كانت بشكل عام متوطنة، جرى استيعابها [تمثّلها] في الثقافة الإغريقية-الآرامية، وكانت لها عائداتها الخاصة، المشتقة من التجارة والزراعة، التي رعت بها الفن والعمارة. أما الإمارات العربية، من ناحية أخرى، فقد كانت تعيش حياة بدو رحّل، مع أنها كانت عادة تمتلك قاعدة. هكذا كانت تنوخ «تقطن في ملاجئ وخيام من الشعر والجلود» على مسافة معينة من بلدة حيرة في حين كان السكان المسيحيون يقيمون في «بيوت دائمة» ‹الطبري›، وفي روايات هؤلاء الملوك التابعين يكون الحديث دائمًا عن الممتلكات الشخصية للجنود في الحملة:

> دخل المنذر بن الحارث [الجفني] واستولى على خيمة قابوس بن المنذر [النصري] ومخيمه كله، وكل أمتعته وقطعان إبله، وأسر

> أيضًا عددًا من أقاربه وبعض أشرافه، لكن الباقين قتلهم بالسيف. بعد ذلك عبر نهر الفرات وأقام معسكره في أراضي قابوس، وسار برًا إلى مسافة ستين فرسخًا، ووصل إلى المكان الذي توجد فيه قطعان كل أغنياء العرب الفارسيين. هناك أقام معسكره لبعض الوقت، فجاءت حشود قابوس مندفعة إليه، لدى رؤية خيمة سيدها المشهورة منصوبة على هذه المسافة في أرضهم، متوقعة أن تجد ملكها هناك. لكنهم، لدى دخولهم، وجدوا أنفسهم في معسكر المنذر، فجرى القبض عليهم وأعدموا، باستثناء بعض المميزين الذين احتجزوا كسجناء، وبعد المكوث هناك طوال الفترة التي اختارها عاد المنذر أدراجه مع الكثير من الغنائم المكونة من قطعان الخيول والجمال والأعتدة وهلم جرا ‹John of Ephesus 6.3›.

في أشعار شعرائهم والأدب الإسلامي لاحقًا لا يبدو أن ثمة من هو أكثر قوة. «ألم ترى . . .» يسأل شاعر بلاط خطابيًا [وهو يتحدث] عن راعيه الجفني ‹النابغة›:

ألم تـــرى أن الله أعطـاك ســورةً   تـرى كل ملك دونهـا يتذبذب

فإنــك شـــمس والملـوك كواكــــب   إذا طلعت لم يبدو منهن كوكب

ومن ثم فقد سعوا إلى تقليد أسيادهم بوقف الأبنية (الأضرحة، الكنائس، إلخ)، وإقامة البلاطات وتوسيع الرعاية [لتشمل] مقومات الثقافة، وخصوصًا تشجيع استعمال اللغة العربية في الشعر والنثر. لكنهم كانوا يعتمدون في عائداتهم [ريوعهم] إلى حد كبير على حسنات الإمبراطورية، وعندما سُحبت هذه [الحسنات] اختفوا تاركين آثارًا قليلة.

الشكل 2: مخطط زمني يظهر عصر الزمن التقريبي للممالك المذكورة في الكتاب (Clare Hoyland).

4) الاقتصاد

4 / 1) الزراعة وإدارة الماء

تعيد جزيرة العرب إلى الأذهان صور الصحاري المقفرة أكثر ما تعيد صور الحقول الخصيبة، مع أن الزراعة كانت، ولاتزال، ذات أهمية كبيرة في بعض الأجزاء (اللوحة 13). على كل، بما أنه لا توجد أنهار دائمة أو بحيرات في جزيرة العرب وبما أن هطل المَطر محدود بأوقات معينة من السنة (الربيع والصيف في جنوبي جزيرة العرب، الخريف/ الشتاء والربيع في أمكنة أخرى)، فإن الإدارة الحريصة للماء ضرورية في كل مكان. علاوة على ذلك فإن درجات الحرارة المرتفعة تعني معدلات تبخر مرتفعة، وعندما تهطل الأمطار قد تكون غزيرة لكنها قصيرة الأمد. يكون السيل عندئذ فوريًا ومدمرًا في الغالب. بعد وقت قصير يكون كل ماء السطح قد اختفى وتصبح الوديان جافة مرة أخرى. لذلك كان لابد من استنباط طرائق لأجل التجميع والتوزيع والتخزين الفعَّال لهذا المورد الثمين. إن تشكيل المصاطب، تحويل منحدرات الوديان إلى رفوف حجرية، قد كبح سرعة ماء الفيضان، جاعلاً إياه يسقط بلطف على الرفوف الشبيهة بالدرجات، فيغوص جزء منه في الأرض في كل رف، مرسبًا في طريقه بعض التراب والأنقاض العضوية التي حملها معه (اللوحة 4/1). لقد شُقت

الأقنية لتهدئة شذوذات الفيضان، ولتوزيع الماء بالتساوي حول الحقول وحمله إلى مساحات تقع خارج متناول الفيضانات. أنشئت السدود الصغيرة من التراب المرصوص أو الحجر المتقلقل بزاوية على ضفتي الوادي لحرف مسار بعض ماء الفيضان إلى بقع من الأرض على الجانبين. أما عبر الوديان فقد بنيت سدود أضخم تفيد في تهدئة اضطراب الماء، في بعض الأحيان مع المساعدة الإضافية لأحواض التهدئة [الترقيد]، واحتوائه حتى بلوغ المنسوب المطلوب من الماء، عندما يجري جره من طريق الأقنية إلى الحقول المنتظرة. أخيرًا، حُفرت الآبار وجُوفت الصهاريج لكي تخزن الماء، على نحو رئيس للاستهلاك المنزلي، ولكن أيضًا لاستكمال مصادر الري في السنوات الجافة.



اللوحة 13: رقيم مدفني سبئي كلسي يظهر الميت مشغولاً بالحراثة، القرن الأول-الثالث ميلادي 31,5 × 33,5 سم (Louvre AO20893).

يوجد دليل أثري جيد على وجود الزراعة في شرقي جزيرة العرب وجنوبيها،

وفي الواحات في الغرب والشمال، لكن الإشارات النصية أكثر محدودية. كان سكان ديدان يؤدون شعائر تقديم الشكر لإلههم عرفانًا بالجميل لعطاياه (نعمه)، مثل «محاصيل الربيع الوافرة وبساتين النخيل الوارفة» ‹AH 150›. خلّد الأنباط ذكرى بناء السدود في نقوشهم ‹e.g. NIA 7a, 7c, 10; NIN8›، ونوهوا إلى إنشائهم للصهاريج تحت الأرض، [وهي] مهارة طُورت أصلاً لعبور الصحراء، لكن من المفترض أنها نفعتهم في وقت الحاجة عندما تحولوا إلى الزراعة:

> من منظورهم، بما أنهم قد جهزوا خزانات تحت الأرض مبطنة بالجص، فهي [الصحراء] توفر السلامة. لما كانت الأرض في بعض الأمكنة طينية وفي أمكنة أخرى من الحجر الناعم، فإنهم يصنعون حفرًا كبيرة فيها، يجعلون فوهاتها صغيرة جدًا. لكن مع الازدياد المضطرد للعرض فيما هم يتعمقون في الحفر، يجعلونها في النهاية من مقاس حيث إن كل جانب يبلغ طوله بلثرومًا (Plethrum) واحدًا [نحو 30 مترًا]. بعد ملء هذه الخزانات بماء المطر، يغلقون الفتحات، بجعلها مستوية مع بقية الأرض ويتركون إشارات [لافتات] معروفة لهم لكن لا يمكن للآخرين أن يميزوها ‹Diodorus 19.94›.

لكن أكثر ما نسمعه عن الزراعة هو من جنوبي جزيرة العرب حيث تبرز فجأة في مقدار كبير من كل النقوش، في تناقض غريب مع التجارة، التي نادرًا ما تلقى ذكرًا. يخبرنا عمق الرواسب الطميِّة على أرضيات بعض الوديان أن أعمال الري بدأت في هذه المنطقة في وقت مبكر يعود إلى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد. كان المشروع الأكثر هيبة هو إنشاء سد ضخم في مأرب، الذي ربما دُشن في زمن مبكر يعود إلى منتصف الألف الأول قبل الميلاد والذي أبقي قيد الاستعمال حتى أواخر القرن السادس ميلادي (اللوحة 14). بلغت المساحة المحروثة التي كان يرويها نحو 9600 هكتار [24,000 فدان] أو أكثر، وهي رقع هائلة من الحقول المستطيلة الشكل محاطة بأسوار ترابية وتقطعها بشكل متصالب شبكة متقنة من الأقنية. الحبوب (القمح، الشعير، والسرغون) كانت تُزرع، وكذلك القطاني والخضراوات ومحاصيل البساتين الأخرى، والتمور، والكرمة والفاكهة. لقد تصدع السد مرات عديدة فكان لابد من إصلاحه، ويُدون تدميره النهائي في القرآن ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا

لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ(15) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ(16) ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ(17)﴾ (سورة سبأ).

كانت القرابين تقدم على نحو متكرر إلى الآلهة مقترنة بالالتماسات طلبًا للمحصول الجيد. المثال الأنموذجي على ذلك هو صلاة شخص يدعى لحي اللات[؟] إلى الإله عثتر «لحماية أسرته وأراضيها، في الخريف والصيف، والكروم التي في الحقول» ‹RES 4230›. علاوة على ذلك فإن الناس غالبًا ما كانوا يدونون مساهماتهم في تحسين الري والفلاحة، سواءً كانوا أفرادًا أو جماعات أو حكامًا. يخلد أشهر هذه النصوص ذكرى إصلاح سد مأرب في العام 565 [455 م]، الذي يستشهد هنا بمقتطف منه لإعطاء انطباع عن حجم المشروع:

> في سنة 565 [من العصر الحميري] تصدع جدار التحويل وجدار التحكم وحوض الترسيب والسد والقناة من أساساتها، الحجر المصقول والحجر الخشن، في حين كان السد من قاعدته خرابًا. فأطلق الملك في كل أنحاء حمير وحضرموت دعوة للاجتماع بين القبائل . . فكان أن حضر 200000. عندئذ ردموا السد من قاعدته إلى قمته، وهم يردمون ويبلطون الواجهة بالحجر، فجعلوا واجهة قمته ستة أذرع. بنوا جدار التحويل وجدار التحكم بالحجر الخشن والحجر المصقول وزوايا من الحديد، ثم ملّطوها كلها . . بالكلس . . بلغ ما أنفقوه على ذلك، في تقدير القبائل التي جاءت إليهم وفي الإنفاق الفعلي للحرفيين والعمال 285340 مكيالاً من الطحين الناعم، والقمح المطحون والشعير والذرة والتمور، 1363 ذبيحة من الجمال والأغنام والماشية، 1000 زوج من الثيران و670 جملاً تحمل المشروب من الأنواع المختلفة من العنب و42 حملاً من العسل والزبدة ‹CIS 4.540›.

4 / 2) الرعي

في حين أن الأشجار والنباتات موجودات ثابتة، فإن الحيوانات متنقلة. لذلك فإن الإدارة الحيوانية تتيح مرونة حركة أكبر من إدارة المحاصيل. في الطرف المتوطن من الطيف يوجد الرعي الزراعي، الذي مورس في المشرق الجنوبي

وجنوبي جزيرة العرب لآلاف السنوات. يشمل هذا زراعة المحاصيل الحقلية كالقمح والشعير والعدس في السهول الصالحة للزراعة، وتربية الغنم والماعز في الحقول الجذامية(أ) وعلى سفوح الجبال القريبة والمراعي الصحراوية. بعد ذلك على امتداد الطيف يوجد الرعي الموسمي [الفصلي]، الانتقال الموسمي للبشر والحيوانات بحثًا عن المرعى. يتخصص الرعاة الموسميون على نحو أنموذجي في الغنم والماعز التي ينقلونها بين المراعي الشتوية في المنخفضات والمراعي الصيفية في المرتفعات الكثر برودة. في حالات كثيرة يشغلون بيوتًا دائمة وقرى في فصول الشتاء، ولا ينتقلون إلى الخيام إلا في الربيع والصيف لكي يتبعوا قطعانهم. أخيرًا، في الطرف المتجول من الطيف والذي يعدّه الأجانب الصفة الأبرز لجزيرة العرب، يوجد الرعي البدوي. إن ممارسي هذا النوع من الرعي يقومون بتنقلات أفقية أكثر مما هي شاقولية ويتعين عليهم دائمًا أن يقطعوا مسافات طويلة بحثًا عن الطعام والشراب لحيواناتهم، متتبعين طرق هجرة تحددها وفرة الماء والمرعى [الكلأ]. حتى ضمن هذه الفئة توجد تمييزات، لأن بعض البدو يطوفون حول المنعزلات القاحلة التي تقع ضمن الأراضي المأهولة، يمارسون ما يدعوه علماء الإناسة [الأنثروبولوجيون] البداوة المطوّقة. أما الآخرون فيعبرون «الصحاري الرملية الفسيحة كالسماء في اتساعها» و«ينصبون مخيماتهم [مضاربهم] في السهول ذات المدى الذي لا حد له» ‹Diodorus 2.54›، يمارسون ما تدعى البداوة المُبْعدة أو الخارجية.

إن التنويعات الكثيرة على هذه النماذج ممكنة، حيث يمثل كل منها تكيفًا مع الشروط الطوبوغرافية [التضاريسية] والهيدرولوجية [المائية] والإيكولوجية [البيئوية] المحلية إضافة إلى الظروف الاجتماعية والسياسة والاقتصادية. من الممكن، على سبيل المثال، أن توجد تربية الحيوان المتخصصة [التي يمارسها] أفراد قرية توطنية لمنع الإفراط في الرعي(ب) ولحراسة المحاصيل. فتسرح بعض الجماعات في القرية مع الحيوانات في أثناء فصلي الشتاء والربيع إلى البادية والصحراء، ولا تعود إلى القرية إلا في أشهر الصيف الجاف للاستفادة من النواتج الجانبية للمحاصيل ومصادر الماء الدائمة لقطعانهم. على العكس من ذلك، فإن مختلف الرعاة قد يزرعون إذا سمح الطقس بذلك، وهذا يصح على نحو خاص على الرعاة الموسميين، الذين يعملون غالبًا في إنتاج القمح والشعير في المرتفعات وفي جوار الينابيع والجداول، لكنه يصح أيضًا على البدو، الذين يقتنصون الفرصة للفلاحة في أوقات الهطل المطري فوق المعدل، وكل

الجماعات من المرجح أن تنخرط في نشاطات مكملة، مثل صيد الحيوانات البرية والطيور وجمع الأعشاب والجذور والثمار البرية. هذا ينطبق بشكل خاص على البدو بسبب تنقلاتهم الأوسع، التي تعزز حرية الوصول، وبسبب الندرة الموسمية الأكبر التي ينبغي عليهم أن يتلاءموا معها.



اللوحة 14: سد مأرب، الآثار القديمة، شبكة فتحات التصريف الشمالية (AFSM).

لقد شهد الرعي منذ بداياته الأولى في القرن الثامن قبل الميلاد عددًا من التطورات. أحد هذه التطورات كان إدراك أن الحيوانات يمكن استغلالها ليس فقط لاستهلاكها النهائي كلحم، بل من أجل مجال كامل من المنتجات الثانوية: الحليب، الصوف، الشعر، الجلد، العمل، النقل، وهلم جرا. ربما كان هذا سيرورة طويلة، مع كون بعض البنود، كالحليب، قد جرى التعرف عليه منذ وقت مبكر تمامًا والبعض الآخر، كالنقل، لم يُستفد منه إلا في وقت متأخر كثيرًا. التطور الثاني كان الظهور التدريجي للاقتصاد القائم على التبادل، الذي دشن تحولاً في اهتمامات الرعاة من إنتاج الغذاء حصرًا لأجل أفراد أسرهم، إلى تأمين السلع للمستهلكين أيضًا. لقد سار هذا جنبًا إلى جنب مع بروز المدن والدول التي شجع سكانها غير المنتجين للغذاء (الحرفيون، البيروقراطيون، الجنود، المديرون) أو أجبروا منتجي الغذاء على التفكير في توليد المنتجات بأفضل قيمة سوقية. أما الأمثلة على ذلك فهي تفضيل الأغنام الصوفية ذات الذيل الدهني وتعزيز إنتاج

الحليب من الماشية والغنم والماعز من خلال برامج الاستيلاد الموّجه البسيطة.

كان التقدم الأهم في الرعي في جزيرة العرب هو تدجين الجمل الوحيد السنام، [وهي] سيرورة ربما بدأت في جنوب شرقي جزيرة العرب في الألف الثالث قبل الميلاد. فمن المرجح جدًا أنه قد جرى استغلاله أولاً لروثه [بعره]، الذي يحرق وقودًا، وحليبه ولحمه، اللذان يستهلكان قوتًا. في نهاية السيرورة جاء استخدامه للتنقل والنقل. أما متى حصل هذا الحدث الأخير فهي مسألة فيها كثير من الخلاف. فقد افتُرض أن ظهور نوع جديد أكبر من جرة التخزين (the collard-rim pithos) في المشرق الجنوبي في أثناء الفترة الممتدة من القرن الثالث عشر إلى القرن الثاني عشر قبل الميلاد إنما يرتبط بالجمل، لأن قوته وقدرته على التحمل قد جعلتاه مثاليًا لنقل هذه الحاويات الجديدة، الثقيلة جدًا عندما تكون مليئة [80-120 كيلوغرام]. كان المصريون ناشطين في جنوبي فلسطين وشمال غربي جزيرة العرب في ذاك الوقت، كما توضح الأواني الفخارية والأشياء المصرية المنقوشة. ومن الممكن أن يكونوا [أي المصريون] قد وظفوا السكان المحليين وكلاء لهم في هذه التجارة. يُعرف هلاؤء المحليون في الكتاب المقدس عادة باسم المديانيين، الذين كانوا رعاة بدويين («ويجيئون كالجراد في الكثرة وليس لهم ولجمالهم عدد» سفر القضاة 6: 5) وبالتأكيد كان بعض الجماعات يشتغل بالتجارة (تذكّر «التجار المديانيين» الذين يبيعون يوسف في سفر التكوين 37: 28 و«كان وزن أقراط الذهب وأثواب الأرجوان التي على ملوك مديان» في سفر القضاة 8: 26). لقد عثر في تل جمة على الساحل الجنوبي لفلسطين على عظام جمال عربية (وحيدة السنام) من العهد المصري ثم مرة أخرى، بعد انقطاع، في العهد الآشوري. هذا النمط نفسه يسود في شمال غربي جزيرة العرب: إن تراجع مصر عن دورها الإمبراطوري يتميز بفجوة في السجل الأركيولوجي، لم يجر سدها إلا عندما أنشئت خطوط التجارة الجديدة، التي أغرت الآشوريين، بدورهم، للاهتمام بهذه المنطقة. في هذا الطور الأخير يجري نقل النباتات العطرية، كما هو واضح من الازدياد المتزامن في لقى عظام الجمال من هذا العصر في كل من جنوبي جزيرة العرب والمشرق الجنوبي وكذلك من الظهور الواسع الانتشار لمحارق البخور [المباخر] المكعبانية الصغيرة في شرق البحر المتوسط وبلاد الرافدين. مع ذلك، ففي العهد الأسبق، من المحتمل أن سلع الحب والزيت والخمر الأكثر تواضعًا هي التي شكلت حمولة الجمل.

بأي حال، لدينا دليل مصوّر واضح على ركوب الجمال من سورية وآشور منذ

القرن التاسع قبل الميلاد (اللوحة 15)، ومع هذا الابتكار كانت الجمال آنذاك تقدم مجالاً كاملاً من المنافع لأصحابها:

> إنهم [دبا في غربي جزيرة العرب] يربون الجمال ويستفيدون من خدمات هذا الحيوان فيما يتعلق بأهم حاجات حياتهم. على سبيل المثال إنهم يقاتلون أعداءهم من على ظهورها[1]، ويستخدمونها لنقل أوانيهم وبذلك ينجزون كل عملهم بسهولة، ويشربون حليبها وبهذه الطريقة يحصلون على طعامهم منها ويعبرون بلادهم برمتها وهم راكبون على جمالهم المنطلقة بأقصى سرعتها ‹Agatharchides in Diodorus 3.54›.

علاوة على ذلك، لأن الجمل يستطيع أن يسير من دون ماء لفترة تصل حتى الشهر في فصل الشتاء، ولعدد من الأيام حتى في أوج الصيف، ويستطيع العيش على العشب المجفف والشجيرات المجففة، فإنه قادر على البقاء حيًا تحت الشروط الأقل مؤاتاة للشرب والرعي، وهذا ما سمح للرعاة العرب بأن يتوغلوا إلى داخل جزيرة العرب أبعد كثيرًا من قبل وجعل المرور المباشر ممكنًا بين مراكز الحضارة التي تفصلها مناطق الصحراء التي كانت تُعد سابقًا حواجز لا يمكن عبورها.

4 / 3) الصيد

كما نوهنا سابقًا، فإن الرعاة كانوا في أغلب الأحيان يتممون وجباتهم الغذائية من طريق مهنة الصيد. هذا النشاط يُخلد غالبًا في النقوش والرسوم الصخرية للسكان الرعويين لجزيرة العرب الوسطى والشمالية. لا حاجة، مع ذلك، لعدّه فقط مصدرًا للغذاء والدخل، بل يمكن أيضًا تثمينه بوصفه استجمامًا، تمرينًا جسديًا، تدريبًا في فنون الفروسية ورمي السهام، وفوق كل ذلك فرصة لإثبات المهارة والقدرة. كانت أساليب صيد الطرائد عديدة، وكان أسهلها هو استعمال الشِباك، والفخاخ والسياجات الحجرية ذات الجدران الدليلية (المسماة حدأات الصحراء). كانت مهمة بعض المساهمين في الصيد أن يدفعوا الطريدة باتجاه هذه الفخاخ من طريق الصياح، والطرق على الأشياء، والإيحاء والتلويح بالمشاعل وما شابه، في حين يقوم آخرون بتحصين الفخاخ ومباغتة الحيوانات (اللوحة 1/16). إذا كان الهدف هو الرياضة بشكل رئيس عندئذ تكون الأشكال الأكثر رياضية مفضلة، وبالأخص المطاردة، التي تجري عادة على ظهر الحصان، الذي

يفتخر به صاحبه عادة افتخارًا خاصًا (المفضليات 9):

ولقد غدوتُ على القنيص وصاحبي نهدٌ مراكله مسح جرشعُ
تئقٌ إذا أرسلته متقاذفٌ طماعُ أشراف إذا ما يُنزعُ
داويته كل الدواء وزدته بذلاً كما يعطي الحبيب الموسعُ

كان الصياد يتسلح بقوس وسهم ويعاونه في المطاردة الفهد الصياد [الشيتة] أو الوشق، أو كلب الصيد على نحو أكثر شيوعًا (المفضليات، أبو ذؤيب):

فاهتاج من فزع وسد فروجه غُبرٌ ضوار وافيان وأجدعُ
ينهشنه ويذبُّهنَّ ويحتمي عبل الشوى بالطرتين مولعُ
فنخالها بمذلّقين كأنما بهما من النضنح المجدّع أيدعُ
حتى إذا اتدت وأقصد عصبةً منها، وقام شريدها يتضوعُ
فبدا له ربّ الكلاب بكفه بيض رهاب ريشهن مقزّعُ
فرمى لينقذ فرّها فهوى له سهم، فأنقذ طرتيه المنزعُ
فكبا كما يكبو فنيق تارز بالخبتِ إلا أنه هو أبرعُ

إن الصيد يمكن أيضًا أن يحمل تداعيات عبادية. فعلى جزيرة إيكاروس/ فيلكا في الخليج الفارسي:

> يوجد معبد لأرتميس وكميات من الماعز البري والغزلان الريانة والأرانب البرية أيضًا. فإذا طلب رجل [إنسان] إذن الآلهة بأخذها ثم بدأ يصطاد ما هو متاح، فإنه لا يفشل في هدفه بل ينجح ويكون سعيدًا من عطائها. لكنه إذا أهمل السؤال، فإنه لا يأخذ شيئًا ويُعاقب ‹Aelian 11.9›.

حتى عهد قريب جدًا في حضرموت جرت العادة أن يقال إنه: «لو لم نصطد، لما نزل علينا المطر، لحدث الجفاف في البلاد وندرة الطعام». ويثبت عدد من النصوص العربية الجنوبية الجاهلية أن هذه الصلة بين الصيد والنِعَم الإلهية قديمة جدًا. إن التقصير في القيام بالصيد في موعده المحدد يمكن أن تكون له عواقب وخيمة، وبالعكس فإن التنفيذ المخلص يمكن أن يكون مجزيًا:

> هكذا أوعزت شمس، سيدة ميفعة، لخادمها شرحيل بن بتع . .
> أن عليه أن يمجدها بجولة صيد . . لمدة . . يومًا في كل عام . .
> وأن يدع الصيد في هذه الأيام يؤديه شراحيل أو نائبه، كلٌ بدوره
> في كل عام بالتناوب على مدى عامين، لكي تمنحها، أي خادمها

شراحيل وخادمها بنو بتع، المحصول والغنائم ‹CIS 4.571›.



اللوحة 15: نقش نافر على حجر كلسي من تل حلف، سورية، يظهر راكب جمل على سرج يشبه الصندوق. نحو القرن التاسع ق م (Walters Art Gallery).

كان الصيد يجري على تشكيلة واسعة من الحيوانات. على سبيل المثال، «إن يدع إيل بين، ملك حضرموت . . الذي أسس واستعمر مدينة شبوة، مر بهذه الصخرة عندما توقفوا فجاة عن الصيد بعد قتل ثلاثين مارية(ج) واثنين وثمانين تيسًا جبليًا، وخمس وعشرين غزالاً وثمانية فهود [شيتة]» ‹RES 4192›. والقصة الكاملة يمكن إطالتها بعض الشيء: «يدع إيل بين، ملك حضرموت خرج يصطاد في وادي عرمة، فاصطادوا لمدة عشرين يومًا وقتلوا نمرين وفهدي صيد وستمئة تيس جبلي» ‹Ingrams 1›. برز الملوك فجأة بشكل متكرر في نقوش الصيد، ما يوحي بأن هذا النشاط شكّل جزءًا من الطقوس الملكية الهامة. في بعض الحالات، يُذكر «منح اللقب» (ب-سلقب)، وفي إحدى طلعات إيلي عاز يلوت [نحو 220 م] حضر بلميرا/تدمريان وكلدانيان وهنديان ‹Ja 931›[2]. لقد كان هؤلاء مندوبين رسميين من دون شك، وقد جرى إحضارهم من شبوة

المجاورة ليشهدوا صعود الملك إلى العرش أو حدثًا كهذا.





اللوحة 1/16**: رسم صخري من وادي حشد، شمال شرقي الأردن، يظهر «حدأة صحراء» ذات جدران دليلية، ومدخل ضيق ومخابئ (وليام لانكاستر** William Lancaster**)؛** 2/16**: رقيم مدفني من الحجر الكلسي من الجوف يظهر الميت مشغولاً بصيد التيس الجبلي، القرنين** 1–3 **م،** 33 × 32 **سم (متحف صنعاء الوطني).**

كان التيس الجبلي أكثر الحيوانات المطلوبة في هذه المناسبات، ومنزلته الممجّدة إنما يؤكدها ظهوره الشائع جدًا في الفن والزخرفة العربيين الجنوبيين (اللوحة 2/16).

4 / 4) العلاقات الاقتصادية بين الشعوب البدوية والمستوطنة

إن المقدمة الأساس للحياة البدوية هي الحكم الذاتي ولازمته المساواة، وقد لوحظ ذلك لدى البدو العرب من قبل المؤلفين المدنيين منذ زمن طويل: «العرب البعيدون القاطنون في الصحراء . . لا يعرفون المراقبين ولا الموظفين» ‹Sargon II, AR 2.17›، «العرب الذين يسكنون هذه البلاد، الذين يصعب قهرهم في الحرب، يظلون على الدوام أحرارًا، والأهم من ذلك أنهم لا يقبلون أبدًا أن يكون رجلاً من بلاد أخرى سيدًا أعلى لهم ويستمرون في صون حريتهم سليمة» ‹Diodorus 2.48›، «السراسنة [العرب] كلهم سواء، محاربون من مرتبة متساوية» ‹Ammianus 14.4›. وكما يعبرون عن ذلك بأنفسهم: «إن أسوأ شر يمكن أن يحل بقوم، وبعده لا يمكن أن يأتي خير، هو أن تكون رقابهم محنية». لذلك فقد كان البدو العرب، في شعرهم على الأقل، يحتقرون الذين يقبلون العيش كأتباع [رعايا] لدولة، لأن هذا كان يعدّ مرادفًا للعبودية (حسان بن ثابت):

تلقى الحماسيَّ لا يمنعك حرمته   شبه النبيط إذا استعبدتهم صبروا

أما الناس المتوطنون بدورهم فقد كانوا رفضيين في مواقفهم تجاه البدو. على سبيل المثال يصوّر اسطرابون «العرب الخيميين (Scentie) في بلاد الرافدين (شعب جوال، يأخذون اسمهم من خيامهم التي ينصبونها أينما شاؤوا)»، ‹Pliny 6.144› بأنهم «قبيلة من قطاع الطرق والرعاة، الذين ينتقلون فورًا من مكان إلى آخر عندما تنقصهم المراعي والغنائم» ‹Pliny 16.1.26›. «كلما ذكرتُ العرب، تأملوا فقط أيها الفرس»، يحذر السفير الروماني كُمنطيُلوس (Commentiolus) في العام 566، «خراقة الأمة وعدم أهليتها للثقة» ‹Menander 9.1›. «كان ثمة أناس كثيرون بين دجلة والفرات»، يعلق أحد سكان بلاد الرافدين في أواخر القرن السادس « يعيشون في الخيام وكانوا همجيين ومحبين للحرب، خرافاتهم كثيرة والأكثر جهلاً من بين كل شعوب الأرض» (Ahudemmeh 21). «القبيلة العربية» يرى مؤرخ من أوائل القرن السابع، «تعرف بأنها الأكثر لا موثوقية وتقلبًا، فرأيهم ليس ثابتًا وحكمهم ليس

قائمًا على نحو راسخ على الحصافة» ‹Theophylact 3.17.7›. أحد أسباب هذا الموقف النمطي إنما يوحي به مؤرخ الكنيسة يوسبيوس (توفي عام 339)، الذي يدرج قائمة بعدد من الشعوب البدوية، بما فيها العرب، ويلاحظ أن بينهم «لا يوجد صيرفي، ولا نحات ولا رسام ولا معمار ولا اختصاصي بعلم الهندسة، ولا أستاذ في الغناء، ولا ممثل للقصائد الدرامية» ‹Eusebius 6.10›. بعبارة أخرى كانوا محرومين من فضائل الحضارة وكان أسلوب حياتهم يبدو غريبًا للغاية للسيد الذي تربى في المدينة:

> إن العرب، الذين لم نجدهم مرغوبًا فيهم أبدًا أصدقاء كانو أو أعداء، يطوفون في طول البلاد وعرضها، في فترة وجيزة من الزمن خربوا كل ما صادفوه، مثل الحدأات الضارية التي كلما وقع بصرها على فريسة من علو، أمسكت بها بانقضاض سريع، وما إن يستولوا عليه حتى ينسلوا هاربين . . بين تلك القبائل التي تمتد إقامتها من الآشوريين إلى شلالات النيل . . كلهم على السواء محاربون من مرتبة متساوية، نصف عراة، متلفعين بعباءات مصبوغة حتى العورات، يطوفون على نطاق واسع بالاستعانة بالخيول السريعة والجمال النحيلة في أوقات السلم أو في أوقات الفوضى، ليس هناك من رجل يمسك قبضة محراث أو يرعى شجرة، ولا أحد يسعى إلى العيش بفلاحة الأرض، بل يطوفون على نحو مستمر فوق أصقاع واسعة وممتدة من دون بيت، من دون مساكن ثابتة أو قوانين. لا يمكنهم أن يتحملوا البقاء طويلاً تحت السماء نفسها، ولا يكتفون بشمس مقاطعة واحدة. حياتهم هي دائمًا في ترحال . . علاوة على ذلك فإنهم يتجولون على نطاق واسع للغاية ما داموا أحياء حيث إن المرأة تتزوج في مكان، وتلد في مكان آخر، وتربي أولادها بعيدًا، من دون أن تتاح لها الفرصة للراحة. إنهم جميعًا يعتاشون على الطرائد وما يتوافر من الحليب، الذي هو غذاؤهم الرئيس، وعلى تشكيلة من النباتات، إضافة إلى الطيور بقدر ما يتمكنون من الحصول عليها من طريق الصيد، ولقد رأيت كثيرين منهم يجهلون كليًا القمح والخمر. هذا كل ما يتعلق بهذا الشعب الخطير ‹Ammianus 14.4›.

إن العدائية التي يظهرها الطرفان في خطابتهما قد ضللت كثيرًا من البحاثة الحديثين بتصورهم للعلاقات بين البدو والمتوطنين على أنها علاقات عدائية. فهناك، على سبيل المثال، وصف التاريخ الشرق أوسطي القديم بأنه سلسلة طويلة من موجات الغزاة القبليين المهاجمين من الصحاري العربية من الجنوب أو جبال طوروس-زغروس من الشمال في أوقات الأزمة البيئية أو الضعف السياسي، الذين يسلبون الحضارة ويدمرون كل ما يقع في طريقهم. ثم هناك نظريات حدود الصحراء الرومانية المختلفة، التي تطالب بإنشاء عددًا زائدًا من التحصينات العسكرية وحفظ الأمن الصارم من قبل الرومان على طول حدودهم الجنوبية-الشرقية لمقاومة «التهديد البدوي» الدائم. ارتباطًا بذلك توجد حجج «بَدْوَنَة [إضفاء الصفة البدوية] جزيرة العرب»، التي تمتعنا بصور نخبة توسعية نهابة من المحاربين راكبي الجمال الذين يغيرون باستمرار على السكان المستقرين ويضايقونهم.

على كل، إن واقع العلاقات البدوية-التوطنية أقل وضوحًا بكثير من الخطابة، لأن البدو العرب، رغم كل حديثهم القتالي، كانوا معتمدين اقتصاديًا على المستقرات القائمة على طول طرق الهجرة. في أغلب الأحيان لا تنتج البادية والصحراء موارد العيش الكاملة. ففي فصول الرعي الفقيرة قد يكون الراعي عاجزًا عن تموين ماشيته ويكون مجبرًا على الدخول إلى المدينة لتأمين حاجاتها وربما يدخل في ترتيب [صفقة] ما مع المزارعين المحليين لأجل الوصول إلى الجذامة [بقايا الزرع المحصود] او الحقول المحصودة، ولا تكون الحياة المتنقلة متلائمة مع التخصص الحرفي المطوّر، والزيارة إلى المدينة ستكون في الغالب ضرورية للمصنوعات الحيوية: الأواني المعدنية، الأسلحة، الملابس، وهلم جرا. في المقابل يقدم الرعاة منتجات مثل الحليب، والزبدة المصفاة والصوف والجلد والشعر واللحم، والروث (كونه مخصب) وحيوانات الجر والركوب. يمكن أيضًا أن يؤمنوا مجالاً من الخدمات الأخرى. إن ناسك جبل سيناء المشهور، عندما كان راقدًا يحتضر في زنزانته، أرسل عربيًا إلى إيلا (العقبة حاليًا) مع رسالة لاستدعاء أحد أخوته الروحيين ‹Anastasius of Sinai 67›. استأجر قهرمان دير مار سابا في برية جبال الخليل [صحراء يهوذا] جمالاً عربية وسائق جمل عربيًا لجلب القمح من المِكوَر (Machaerus) على البحر الميت ‹Cyril of Scythopolis 186›. دفعت جماعة من الحجاج مبلغًا مرتفعًا بلغ ثلاث قطع نقدية ونصف من الذهب «للعربي الذي أخذنا إلى الجبل المقدس [في سيناء]» إضافة إلى

ما دفعناه له على طول الطريق لأجل الغلام العبد، والجمال وحمار من العرب الآخرين ‹Nessana papyri 89›. كانت جالية فاران في سيناء قد أبرمت معاهدة مع زعيم محلي يدعى أمانس (Ammanes)، تضمن أمنهم مقابل أجر [خُوّة]. وعندما قامت عصابة خارجة على القانون من رجال قبيلته بقتل بعض الرهبان، أرسل مجلس فاران رسلاً إلى أمانس يشتكون من أن المعاهدة قد خُرقت:

> لقد صدّق على المعاهدة وطلب من أولئك الذين ظُلموا أن يأتوا إليه [للتعويض]، خصوصًا رجال قبيلة الأسرى الذين لا يزالون على قيد الحياة. زد على ذلك، إذا طلب أحد الثأر للذين قتلوا، قال إنه مستعد لمعاقبة المذنبين. وقبل أيضًا بإعادة الغنائم إلى الذين سُرقت منهم. كان غير راغب في انتهاك بنود المعاهدة، هكذا أشار، نظرًا لكونه مقتنعًا بالاتفاق الذي توصل إليه مع الفارانيين، بسبب الحوافز التي تلقاها منهم لأن تعاملاتهم مع بعضهم لم تجلب أي مكسب صغير لأولئك الهمجيين، الذين استفادوا من موارد الفارانيين في الحاجات الضرورية التي كانوا يفتقرون إليها ‹Nilus 661–63›.

كان البدو أيضًا يخدمون في الجيش (انظر مثلاً: PAES 3A.752 «آمر الوحدات البدوية»). وفي بلاد الرافدين العليا «يكون قاطنو الخيام مسالمين، ومعتدلين تجاه المسافرين في طلب الجزية، وعلى هذا الأساس يتجنب التجار الأرض على طول النهر ويخاطرون برحلة عبر الصحراء، تاركين النهر على اليمين لأجل رحلة تبلغ نحو ثلاثة أيام ‹Strabo 16.1.27›.

ومع ذلك، فإن البدو، قد يتحولون إلى تكتيك الغارة البديل إذا كانت التجارة لسبب ما مستحيلة أو غير سالكة:

> ثمة صحراء قرب الطريق العام من بيرويا [حلب الحالية] إلى إديسا [أورفة] يجوبها العرب البدو دائمًا جيئة وذهابًا. لهذا السبب يتجمع المسافرون معًا على طول الطريق ومن طريق المساعدة المتبادلة يقللون من خطر هجوم مفاجئ. كان برفقتي . . نحو سبعين. فجأة هبط علينا الإسماعيليون، الذين يمتطون الخيول والجمال، في هجوم مباغت، بشعرهم الطويل المتطاير من تحت عصابات رؤوسهم. كانوا يرتدون العباءات فوق أجسادهم نصف

العارية، والجزمات الطويلة. كانت الجُعَب معلقة من أكتافهم، أقواسهم المنزوعة الأوتار مدلاة على أجنابهم، كانوا يحملون رماحًا طويلة، لأنهم لم يكونوا قد جاؤوا للقتال بل للسلب. ألقي القبض علينا وفُرقنا ونقلنا بالقوة في اتجاهات مختلفة . . جرى اقتيادنا، محمولين على الجمال، وكنا، خائفين دومًا من الكارثة، معلقين أكثر مما كنا جالسين عبر الصحراء الشاسعة. كان اللحم شبه النيئ هو طعامنا، وحليب النوق شرابنا. أخيرًا، بعد عبور نهر عظيم، وصلنا إلى مكان منعزل من الصحراء الداخلية. جرى إدخالنا لكي نقدم الطاعة لسيدتنا والأطفال، أحنينا رؤوسنا. هنا، رغم أنني محبوس في السجن، فقد بدلت ملابسي، وتعلمت أن أسير عاريًا، عهد إليّ رعي الغنم ‹Jerome, 'Vita Malchi' 55–56›.

إن الأشخاص المخطوفين بهذه الطريقة كانوا يُفتدون غالبًا. هكذا خطف العرب الناسك ثِيُدولُس (Theodoulos) في سيناء وعرضوه للبيع في مدينة سبطة (Sobata) في جنوبي فلسطين، و«عندما لم يعرض أحد أكثر من قطعتين من الذهب، هدد الهمجيون بقتله إلى أن يقوم شخص بدفع السعر» ‹Nilus 688›. إن الشعوب المهاجرة، باستغلال الناس المتوطنين من طريق العنف، إنما تحرف فحسب المسار العادي للعلاقات. في التجارة السلمية يكون الراعي البدوي في وضع غير مؤات. إذ يكون التبادل أكثر إلحاحًا إليه مما هو إلى المتوطن [المقيم]. ولا يمكنه أن يصمد بشكل لا محدود أمام الشروط المغرية، لأن عليه أن ينصرف، عاجلاً وليس آجلاً، إلى مراعي جديدة. من ناحية أخرى، فإن البدو، رغم كونهم أدنى مرتبة من الناحية الاقتصادية من المتوطنين، هم «ملائمون جيدًا للقتال التسللي» ‹Ammianus 23.3.8, 31.16.5›. فالبدوي، الذي ولد وتربى على السرج وعلى حياة الصيد والإغارة والعِداء، يمكنه أن يضرب ويسرق ويختفي في القفار الكبيرة حتى قبل أن ينطلق صوت الإنذار. لا يمتلك المتوطنين غالبًا شيئًا يضاهي هذه التكتيكات خارج السور أو الحصن. هكذا فإن العلاقة الاقتصادية بين البدو والمتوطنين متضاربة مع ميزان القوة بينهما. فالغارة يجب في أغلب الأحيان أن تقدم نفسها للبدو كخيار أفضل من التجارة، خصوصًا عندما يعانون من خسارة المواشي بسبب الطقس أو المرض أو السرقة، ولا يبقى لديهم بأي حال من الأحوال سوى القليل للتبادل[3].

إن الروايات العديدة للسلابين العرب في المصادر التاريخية هي التي غذت

حجج أصحاب نظرية «البدوي العدواني». فالخطأ في نظرياتهم ليس أن القبائل لم تكن تمارس العنف، بل هو أنها نادرًا ما كانت تفعل ذلك على نطاق كبير، فكانت الغارات فيما بينهم وضد المتوطنين تشمل أعدادًا صغيرة ومن نوع اضرب واهرب: عند أول إشارة على وجود أي عائق أو مشكلة، كان المجترمون يتلاشون ببساطة في الصحراء. «العرب غير قادرين بشكل طبيعي على اقتحام جدار، وأضعف نوع من المتراس، غير الممزوج مع أي شيء سوى الطين، يكفي لإيقاف هجومهم . . لكنهم أذكى من كل البشر في النهب» ‹Procopius 2.19, B2.9; cf. Ammianus 25.6.8›. في سيناء القرن الرابع هاجمت عصابة من العرب جماعة من الرهبان، لكن «حراسنا ظهروا على تلة وأحدثوا كثيرًا من الفوضى بين الهمجيين. عندما كشفوا عن وجودهم من طريق الصياح، لم يبق واحد [من العرب] هناك، فقد أصبحت المنطقة بأكملها مهجورة وهي التي كانت قبلئذ بوقت قصير مليئة بالناس» ‹Nilus 669›. عندما تسللت أعداد كبيرة من البدو إلى المناطق الحضرية، فقد كان ذلك بشكل معتاد استجابة لكارثة بيئية ما، ولذلك فقد كانوا مهاجرين اقتصاديين أكثر من كونهم محاربين. علاوة على ذلك، مع أنهم كان من الممكن أن يسببوا كثيرًا من الأذى، فقد أمكن احتواؤهم على نحو اعتيادي:

> على مدى عامين متتاليين ابتُلينا بالجفاف وانعدام الحاجات الأساس. كان ثمة تدفق من القبائل الجنوبية بأعداد كبيرة منهم مع قطعانهم حيث إنهم دمروا وخربوا القرى في السهل والجبل. لقد امتلكوا الوقاحة لسلب البشر والبهائم وأَسْرهم حتى في أرض البيزنطيين. فحشد هؤلاء الأخيرون جيشًا كبيرًا وجاؤوا إلى الحدود مصحوبين بالعرب التابعين لهم، وطلبوا التعويض عن الضرر الذي سببه في بلادهم الرعايا العرب التابعون للفرس. إن الحاكم الفارسي المجيد واللامع . . قد ردهم عن ذلك بلطف وذكاء. فقد عقد اتفاقًا معهم بان يجمعوا زعماء العرب الفارسيين وأن يسترجعوا منهم الغنائم والأسرى إذا ما أعاد العرب البيزنطيون أيضًا البهائم والبشر الذين كانوا من حين لآخر يأخذونهم من بيت جرماي [كرخ سلوقيا، كركوك – ز م] وأديابين (Adiabene)(❖) ونينوى. عندئذ أعيد هؤلاء إلى

(❖) مملكة اسمها حديي بالسريانية، عاصمتها إربيل العراقية (ز م).

البيزنطيين وأولئك إلى الفرس، وقاموا بتعريف الحدود باتفاقية لكي لا تتكرر هذه الأحداث المؤسفة وما شابه ‹Synodicon or. letter of Bar Sauma, bishop of Nisibis, written in :27–526 AD 484›[4].

المشكلة الثانية مع وجهة نظر "التهديد البدوي" هي أنها ترسم خطًا صارمًا أكثر ما ينبغي بين البدو والمتوطنين. فالشعوب الرعوية والزراعية لمنطقة معينة، مهما تكن درجة تنقلهم، تضم القطاعات الاقتصادية المتممة لمنظومة واحدة؛ فهي غالبًا ما تكون متوترة. هذا يصح على نحو خاص على القبائل البدوية المطوقة، التي تحوي عمومًا على نخبة مدينية شبه متوطنة تربط بين سكان المدينة وأهل القبيلة. علاوة على ذلك يوجد قدر لا بأس به من الميوعة في أنماط المعيشة في الشرق الأوسط. هذا لأنه بين الأراضي الصحراوية بالكامل والأراضي المزروعة بالكامل توجد رقع واسعة من الأراضي شبه القاحلة (يبلغ معدل الهطل المطري 150–300 ملم في السنة) التي تكون هشة بيئويًا ومن ثم معرضة على نحو خاص للتحولات المتناوبة إما نحو الفلاحة الأكثر استقرارًا أو نحو مزيد من تربية الحيوانات المترحلة المهاجرة. هذه التحولات تسهلها حقيقة أن المزارعين والرعاة، رغم القوالب النمطية السلبية التي يرى بها كل منهما الآخر، يتشاركان ببعض التقنيات والمعتقدات، وتنظيم القرابة/النسب. إن أسباب التحول نحو طرف أو آخر من طرفي الطيف كثيرة، وقد تضم خليطًا من العوامل البيئية والأيكولوجية والسكانية والسياسية والاقتصادية. فضمن الرعاة البدو يكون الفقراء جدًا والأغنياء جدًا هم الذين يميلون إلى التوطن. فإذا هبطت ممتلكات عائلة من المواشي تحت الحد الأدنى المطلوب لأجل العيش سيكون عليها أن تبحث عن عمل إما من طريق أحد أفراد القبيلة أو في المدينة قبل أن تصبح عالة على المواشي، رأس مال جماعتها. إن القطعان الكبيرة من الصعب إدارتها، وقد يميل المالك إلى استثمار فائضه في الأرض بدلاً من المخاطرة بالخسارة من طريق الاستمرار في التنقل، ومن ثم قد يُغرى بالاستيطان لجزء من السنة على الأقل للإشراف على ممتلكاته والتمتع بأرباحها.

إن السؤال الذي أثار كثيرًا من السجال هو إلى أي حد شجعت الدول ماقبل الحديثة على نحو مباشر على التوطن، سواءً من طريق تقديم الإغراءات المالية، أو باستخدام القسر، أو ما شابه. فقد كانت بالتأكيد تمتلك الدافع إلى ذلك، لأن الناس المتوطنين أسهل وأرخص تحكمًا من البدو وكان ثمة دائمًا حاجة

لزيادة إنتاج الغذاء (التي كان بالإمكان القيام بها من طريق زراعة المزيد من المساحات الهامشية). وثمة مؤشرات عرضية على وجود مثل هذه السياسة في مصادرنا:

> قام الاسكندر [الأكبر] بتهدئة كل هذه القبائل [من شمال غربي إيران]، بالهجوم عليها في فصل الشتاء عندما كانت تظن أن بلادها لا يمكن الاقتراب منها. كما أسس المدن لكي لا يعودوا بدوًا بل فلاحين وحارثين للأرض، ونظرًا لكونهم يمتلكون ما يراهنون عليه في الريف يمكن ردعهم عن قيام أحدهم بإيذاء الآخر[5] ‹Arrian, Ind. 40›.

في العصور الإسلامية المبكرة، أيضًا، شجع القادة المسلمون القبائل على الهجرة من جزيرة العرب والاستيطان في مدن الحاميات الجديدة (المهاجَرة)، وأصدروا تحذيرات صارمة ضد العودة إلى الإقامة في الصحراء (التعرّب)، بمساواتها مع الردة [الارتداد عن الدين]. بأي حال من الصحيح على الأقل أن نقول إن تصرفات الدولة كان لها تأثير في هذه السيرورات. فالاستثمار في الطرقات، والأبنية والسلامة العامة قد عزز الاقتصاد المحلي، والطلب الناجم على اليد العاملة والفرص لأجل الربح قد اجتذبا البدو، الذين استوطنوا بالنتيجة. بالمقابل فإن السلوك النهبي والإفراط في فرض الضرائب من قبل الدولة أمكنهما أن يعكسا هذه السيرورة وأن يحثا على الهروب من الأرض.

4 / 5) التجارة

مع أن الزراعة والرعي هما اللذان كانا يمدان سكان جزيرة العرب بأسباب عيشهم الأساس، فقد كانت التجارة هي التي جلبت لهم، أو على الأقل للبعض منهم، الشهرة والثروة. بالطبع كانت مهنة مقايضة المنتجات الحيوانية بسلع الجماعات المشتغلة بالزراعة، لكن ما ألهب مخيلة كتّاب العصور القديمة إنما كان التجارة الخرافية بـ«توابل العربي» (spices of Araby) التي حث كثيرًا من الأباطرة على أن يحلموا بتحدي قفار الصحراء للسيطرة على زراعتها وجعلت «كثيرين ينسون الملذات القاتلة ويعتقدون سرًا أنهم يشاركون في طعام الآلهة» ‹Agatharchides in photius 250›. وأبقوا كثيرًا من المحاسبين الإمبراطوريين ساهرين ليلاً قلقين بشأن ميزان المدفوعات، «لأن الثروة الهائلة من روما وفرتيا

تتراكم في أيديهم [العرب]، لأنهم يبيعون المنتج الذي يحصلون عليه من البحر أو من غاباتهم ولا يشترون شيئًا في المقابل» ‹Pliny 6.162›.

4 / 5 / 1) النباتات العطرية

كانت هذه أشهر صادرات جزيرة العرب، بالأخص اللبان [البخور] والمر، مع أن أهل جزيرة العرب أنفسهم يكادون لا يذكرونها أبدًا في نقوشهم. هاتان المادتان هما راتنجيات صمغية، تتحلب من الأشجار وتحوي كمية قليلة من الزيت الطيار، المسبب لرائحتها العطرة. كانا يستعملان إما بمفردهما، تحرقان عادة، وفي حالة المر، تستعملان مرهمًا، أو ممزوجين مع تشكيلة من المكونات الأخرى لصنع المراهم، والعطور، والزيوت الخاصة بالتحنيط [التصميخ]، والأدوية لكل نوع من الأمراض والبخور بالطبع (مركب ينثر عادة على الجمر فيطلق دخانًا معطرًا). كان اللبان والمر فعالين إلى أقصى درجة في طرد الروائح الكريهة والحشرات الضارة ولذلك كانا مطلوبين كثيرًا في المنزل وحول الشخص وفي الأمكنة العامة. من وظيفة التطهير الجسدي هذه كانت الخطوة الصغيرة باتجاه التطهير الطقوسي، فأصبحت هاتان المادتان جزءًا لا يتجزأ من الطقوس الدينية في كثير من أنحاء العالم القديم. هكذا كان بإمكان المتضرعين أن يتوسلوا إلى ربهم: «لتستقم صلاتي كالبخور قدامك» (المزامير 141: 2)، وكان بإمكان الشاعر على نحو طبيعي أن يربط المعابد بـ«المذابح [جمع مذبح] التي تعبق بدخان البخور» ‹Sappho frag. 2›. علاوة على ذلك، عندما ازداد الطلب وارتفع السعر، أصبح استهلاكهما طريقة لإظهار الثروة، والشهامة والملوكية، وأبرز مثال على ذلك تبديد الإمبراطور الروماني نيرون عشرات الكيلوغرامات من البخور في جنازة زوجته المفضلة بوبايا. كانت الأشجار التي تستخرج منها المواد العطرية تنمو فقط في جزيرة العرب الجنوبية والصومال، ومع مرور الزمن نشأت تجارة منتظمة تلبي احتياجات مصر وبلاد الرافدين واليونان وروما والهند وحتى الصين. في ذورة هذه التجارة، في العهدين السلوقي والروماني، كانت قوافل الجمال المديدة تجتاز بمشقة مئات الأميال على طول شبه جزيرة العرب، وكانت أساطيل السفن تمخر عباب البحر من حولها، تنقل هذه السلع النفيسة، إضافة إلى التوابل الثمينة الأخرى، إلى مستهلكيها المتلهفين.

كانت النباتات العطرية من مختلف الأنواع قيد الاستعمال في مصر وبلاد الرافدين منذ الألف الثالث قبل الميلاد. مع ذلك، لا يوجد أي دليل أكيد على

المتاجرة بمنتجات جنوبي جزيرة العرب تحديدًا حتى الألف الأول. ربما حصل ذلك في وقت مبكر يعود إلى القرن العاشر قبل الميلاد، إذا صدقت الرواية التوراتية عن ملكة سبأ، وبشكل مؤكد في القرن الثامن، عندما استولى تغلاتبلصر الثالث [744–727 ق م] على 5000 كيسًا من كافة أنواع التوابل جزية من «أهل مسا وتيماء وسبأ» ‹ITP 229›. في أثناء القرن السابع بدأت محارق البخور تتكاثر في فلسطين وبدأت الإشارات إلى اللبان والمر تظهر في المصادر التوراتية والإغريقية. هكذا تتكلم شاعرة القرن السابع سافو اللزبية (Sappho of Lesbos) عن احتفال الطرواديين بتقديم هِكتُر (Hector) لعروسه أندرُماخ (Andromache)، الذي قُدمت فيه «موسيقى الناي العذبة . . وصوت الصنوج . . والمر والقرفة الصينية واللبان» ‹frag. 44›. يمكن للمرء أن يقول على الأقل: إذًا، في القرن السابع قبل الميلاد كانت النباتات العطرية من جنوبي جزيرة العرب قد أصبحت واسعة الانتشار في بلاد الرافدين والبحر المتوسط الشرقي.

ومع ذلك فإن المعلومات الثابتة عن طبيعة هذه المواد كان لايزال من الصعب الوصول إليها وكان جنيها مادة للأسطورة والخيال، كما هو جلي من رواية هِردُت (توفي نحو 430 ق م):

> عندما يجمعون [أي العرب] اللبان يحرقون الأصطرك (الميعة)، الذي يقوم الفينيقيون بجلب صمغه إلى اليونان، لكي يطلقوا دخانًا يطرد الأفاعي الطائرة. هذه الأفاعي . . تكون صغيرة الحجم وذات ألوان مختلفة، والأعداد الكبيرة منها تحرس كل الأشجار المنتجة للُبان والطريقة الوحيدة للتخلص منها هي بتدخينها بالاصطراك ‹Herodotus 3.17›.

لا تبدأ التقارير الأكثر دقة بالتداول إلا مع البعثات الاستكشافية التي أرسلها الإمبراطور الفارسي داريوس [دارا] والاسكندر الأكبر، كما ينعكس ذلك في كتاب ثيُفرسطُس الإرسوسي (Theophrastus of Eresus) [توفي نحو 287 ق م]:

> يوجد اللبان والمر . . في شبه جزيرة العرب حول سبأ، وحضرموت وقتبان ومعين (Mamali). ينمو جزء من أشجار اللبان والمر في الجبال، لذلك يكون البعض خاضعًا للفلاحة، والبعض الآخر ليس كذلك. . إن شجرة اللبان، كما يقال، ليست طويلة [باسقة]، إذ يبلغ ارتفاعها نحو خمس أذرع، وهي كثيرة

> الأغصان، لها ورقة تشبه ورقة الإجاص، لكنها أصغر منها وذات لون أخضر جدًا، مثل السذاب (الفيجن)، يكون اللحاء أملس مثل لحاء الغار، أما شجرة المر فيقال إنها أصغر قامة وأكثر تدغلاً، يقال إن لها ساق خشنة، تكون ملتوية قرب الأرض وأثخن من ساق الإنسان، ولها لحاء أملس يشبه لحاء شجر الفريز اليوناني "andrachne" ‹Theophrastus of Eresus 9.4›.

كان إرَطُسثِنِس القوريني أول من أشار إلى نقل السلع العطرية من جنوبي جزيرة العرب: «تنتج قتبان المر وتنتج حضرموت اللبان[6]، وتبيعان هذين النباتين العطريين وغيرهما من النباتات العطرية إلى التجار. يأتي هؤلاء إلى هذه الأجزاء من إيلا [العقبة حاليًا] إلى منطقة بعيدة مثل معين[؟] (Minaea) في سبعين يومًا . . ويصل الجبعيون[؟، ز م] (Gabaioi) إلى حضرموت في أربعين يومًا» ‹cited in Strabo 16.4.4›. يخبرنا أرتيميدورس الأفسوسي (Artemidorus of Ephesus) (كتب سنة 100 ق م) أن: «الذين يسكنون قرب بعضهم [في جنوبي جزيرة العرب] يستلمون على نحو ثابت أحمالاً من النباتات العطرية ويسلمونها إلى جيرانهم القريبين في سورية وبلاد الرافدين» ‹cited in Strabo 16.4.19›. لكن علينا أن ننتظر حتى زمن بليني الأكبر [23–79 م] لنتلقى رواية أكثر تفصيلاً. فهو يتمكن من وصف فلاحة النباتات وحصادها:

> المنتجان الرئيسان لجزيرة العرب هما اللبان والمر . . لقد درجت العادة، عندما تقل فرص بيع اللبان، أن يجري جمعه مرة واحدة في السنة، لكن الطلب في الوقت الحالي يدخل محصولاً ثانيًا. إن الجمع المبكر والطبيعي يحدث في نحو شروق الشعرى اليمانية عندما يكون حر الصيف في أشده. يُحدثون شقًا حيث يظهر اللحاء أكثر امتلاءً بالعصارة ويمتد حتى أكثره رقة ويُحرر اللحاء بضربة، لكنه لا يُنزع. من الشق ينطلق زبد شحمي، يتخثر ويسمُك، حيث يجري تلقفه على حصيرة من سعف النخيل حيثما تتطلب ذلك طبيعة الأرض، أما في أمكنة أخرى فيجري إنزاله على فراغ حول الشجرة جرى رصه فأصبح قاسيًا . . إن الشجرة المنتجة للمر أيضًا تُبزل مرتين في السنة في الفصول نفسها التي تبزل فيها شجرة اللبان.

ويخبرنا أيضًا حول نقلهما وتسعيرهما:

> ينقل اللبان بعد جمعه إلى شبوة على ظهور الجمال . . ويأخذ الكهنة عشر الغلة الذي يقدر بالمكيال وليس بالوزن . . لا يمكن تصديره إلا عبر بلاد القتبانيين (الجبانيين)، وتدفع وفقًا لذلك ضريبة مفروضة عليه إلى ملك ذاك الشعب أيضًا. إن عاصمتهم هي تمنة، تبعد نحو 1487 م[Z] عن بلدة غزة في يهوذا على ساحل البحر المتوسط، تقسم الرحلة إلى خمسًا وستين مرحلة مع استراحات للجمال. وتعطى أيضًا مقادير ثابتة من اللبان إلى الكهنة وأمناء سر الملك، لكن إضافة إلى هؤلاء فإن الحراس ومرافقيهم البوابين والخدم يأخذون أيضًا حصصهم. في الواقع، إنهم يظلون يدفعون طوال الطريق، في مكان ثمنًا للماء، وفي آخر ثمنًا للعلف، أو رسومًا للإقامة في الاستراحات، والمكوس المختلفة. من هنا تصل النفقات إلى 600 دينارًا للجمل الواحد قبل بلوغ الساحل المتوسطي ومن ثم يجري الدفع مرة أخرى إلى ضباط جمارك إمبراطوريتنا. بالنتيجة يبلغ سعر اللبان الأفضل ستة، والصنف الثاني خمسة، والصنف الثالث ثلاثة ديناري لكل باوند . . لا تعطى الأعشار من المر إلى إله، لأنه ينمو أيضًا في بلدان أخرى، مع ذلك يتعين على المزارعين أن يدفعوا ربع المحصول إلى ملك القتبانيين. أما الباقي فيجري شراؤه في كل أنحاء المقاطعة من الناس العاديين ويُعبأ في حقائب جلدية، ولا تجد محلات العطور (العطارين) أي صعوبة في تمييز الأصناف المختلفة من طريق دليل الرائحة والقوام . . تتغير الأسعار مع تغير عرض المشترين، يراوح سعر زيت المر من ثلاثة ألى خمسة ديناري للباوند الواحد، في حين أن أعلى سعر للمر المعتنى به يبلغ أحد عشر ديناري ‹70–Pliny the Elder 12.51›.

إن الأسعار المرتفعة التي تعود بها النباتات العطرية على جنوبي جزيرة العرب قد دفعت الكثيرين إلى الاعتقاد بأنه «من المتاجرة بها أصبح السبئيون والجرهيونأغنى الجميع» ‹Strabo 16.4. 9›. وفي الواقع إن عددًا كبيرًا من السلع المستوردة يرد ذكره في دليل بحري من القرن الأول ميلادي في مرافئ جنوب الجزيرة مثل موزا (مخا الحالية):

> إن البضائع التي تتوافر لها سوق هي: القماش الأرجواني اللون، من النوعية الممتازة والعادية، الملابس العربية ذات الأكمام . . القماش، العباءات، البطانيات، بعدد محدود، من دون زينة، إضافة إلى البطانيات ذات الزينة المحلية التقليدية، الحرامات ذات التقليمات المتدرجة الألوان، المرهم، بكمية معتدلة، النقود، بكمية لا بأس بها، النبيذ والحب، بكمية محدودة لأن المنطقة تنتج القمح بكمية معتدلة والنبيذ بكمية أكبر. للملك والحاكم تقدم: الأحصنة وبغال التحميل، الأواني الذهبية، الأواني الفضية المزخرفة، الملابس النفيسة والأواني النحاسية ‹Periplus 24›.

على كل، كان الشيء الملازم لانتشار المسيحية هو الانخفاض في استعمال اللبان والمـرّ. فالمسيحيون كانوا يرغبون في الابتعاد عن الممارسات الوثنية واليهودية، ولذلك شددوا على أن الإله اللاجسدي لا حاجة به إلى المواد الجسدية. بالتأكيد استمر تدبير النباتات العطرية لأجل الأغراض الصحية والطبية وتكشف النصوص الليتورجية (المتعلقة بالطقوس الدينية) أنها كانت هامة أيضًا في شعائر الكنيسة. علاوة على ذلك، في إطار التعبد الخاص كان عامة الناس والكهنة على السواء يحرقون البخور في أغلب الأحيان في البيوت وفي الكنائس لمرافقة توسلاتهم إلى القديسين. لكن في هذا الوقت كان من غير المقبول كليًا أن يستعمل البخور للأضاحي (القرابين) وإحراق جثث الموتى، وكان استعماله للأغراض التبجيلية أكثر محدودية. هكذا كان الرومان يبجلون بالبخور ليس فقط الآلهة والأباطرة، بل أيضًا أصحاب المقامات الرفيعة وحتى الراقصين، في حين كان البيزنطيون يميلون إلى الاحتفاظ بالتبخير التبجيلي لأجل الإمبراطور من قبل البطريرك. على العموم فإن الإسراف في الاستهلاك الهلنستي والروماني للبخور لم يكن له مثيل في العصور المسيحية.

4 / 5 / 2) تجارة العبور (الترانزيت)

إن موقع جزيرة العرب بين العالم المتوسطي وبلاد الرافدين، وإفريقية والهند، كان يعني أن قدرًا معينًا من حركة المرور التجارية مجبر على المرور من خلال جزيرة العرب أو حولها في طريقه إلى ومن هذه المناطق. عندما كانت الظروف السياسية والاقتصادية تسمح بذلك، كانت مختلف شعوب جزيرة

العرب تستفيد من موقعها لكي تقوم بدور الوسطاء في هذه الحركة [التجارية]، فتكسب أحيانًا ما يكفي لدفع ثمن كل زخارف الحضارة. لسوء حظهم أن الظروف كانت تتغير بنفس السرعة مرة أخرى وتقلب حظوظهم، وحوليات جزيرة العرب الجاهلية مليئة بحكايات الشعوب المشتغلة بالتجارة كالمعينيين والنبطيين، الذين سطع نجمهم لبعض الوقت، ثم خبا. «ثمّ بعد الفلاح والملك والإمة وارتهم هناك القبور» ‹الطبري›. ربما كان البلميريون/التدمريون هم أشهر الشعوب التجارية العربية الكبيرة. فقد كانت مدينتهم بلميرا/تدمر مدينة قوافل حقيقية، لأنها كانت تدين بازدهارها كله إلى قدرتها على تمرير التجارة العابرة بين الإمبراطوريتين الواقعتين على جانبيها (اللوحة 17). «نظرًا لكونهم تجارًا يشترون السلع الهندية والعربية من بلاد فارس ويبيعونها في بلاد الرومان» ‹Appian 5.9›. في حين إن شعوب جزيرة العرب الأخرى لم تعلق أبدًا على نشاطاتها التجارية، فإن البلميرا/تدمريين احتفلوا بها باستمتاع فشرّفوا رؤساء قوافلهم ومسؤوليها الماليين بتماثيل ونقوش:

> هذا التمثال هو تمثال تيمارسو، ابن تيم، ابن مقيمو، ابن جبّا، رئيس القافلة <رب سهيرتا>، أقامه له أفراد القافلة الذين جاؤوا معه من خركس/كرخ ميسان، لأنه دفع نفقاتهم، ثلاثمئة قطعة نقود ذهبًا، بالعملة القديمة، وكان خير سارّ لهم. أقيم على شرفه وعلى شرف يدايّ وعبدي بول، ابنيه، في شهر أيار، من العام 504 ‹PAT 0294, AD 193›.

في حالة البلميرا/تدمريين كان التغير في الوضع السياسي هو الذي دمر ثرواتهم. فالساسانيون، الذين حلوا محل الفرتيين في العام 224، كانوا أكثر توسعية بكثير من أسلافهم، والعلاقات المتوترة التي قامت بينهم وبين الرومان جعلت من المستحيل على كيان مثل بلميرا/تدمر، يتعامل مع الطرفين، أن يبقى على قيد الحياة لوقت طويل.

4 / 5 / 3) التجارة المحلية

لم تكن أغلبية سكان جزيرة العرب منخرطة في تجارة البخور أو تجارة الترانزيت الدولية، لكنهم شاركوا جميعًا إلى درجة ما في التجارة المحلية، أي، في تبادل السلع ذات المنشأ العربي والمخصصة للاستهلاك في جزيرة العرب

نفسها أو على أطرافها. كان الرعاة يقايضون فائضهم من الحيوانات والمنتجات الحيوانية (الحليب، الزبدة المصفاة، الصوف، الجلود، والقرب المصنوعة من الجلد، إلخ) بسلع الجماعات الزراعية (الحب، الزيت، الملابس، النبيذ، الأسحة إلخ). كان من الممكن أن يجري ذلك بشكل غير رسمي في أي وقت؛ خلافًا لذلك كان بمقدور المرء أن يشهد واحدة أو أكثر من الأسواق الكبيرة المُقامة في أوقات ثابتة من السنة في مختلف أجزاء جزيرة العرب:

> كانت أسواق العرب عشرة أسواق يجتمعون بها في تجاراتهم ويجتمع فيها سائر الناس ويأمنون فيها على دمائهم وأموالهم فمنها دومة الجندل يقوم في شهر ربيع الأول ورؤساؤها غسان وكلب أي الحيّين غلب قام ثم المشقّر بهجر يقوم سوقها في جمادى الأولى تقوم بها بنو تميم رهط المنذر بن ساوى ثم صُحار يقوم في رجب في أول يوم من رجب ولا يحتاج فيها إلى خفارة ثم يرتحلون من صُحار إلى ريًّا يعشرهم فيها الجلندي وآل الجلندي ثم سوق الشحِرَ شحر مهرة فيقوم سوقها تحت ظل الجبل الذي عليه قبر هود النبي ولم تكن بها خفارة وكانت مهرة تقوم بها ثم سوق عدن يقوم في أول يوم من شهر رمضان ويعشرهم بها الأبناء ومنها كان يحمل الطيب إلى سائر الآفاق ثم سوق صنعاء يقوم في النصف الثاني من شهر رمضان يعشرهم بها الأبناء ثم سوق الرابية بحضرموت ولم يكن يصل إليها إلا بخفارة لأنها لم تكن أرض مملَّكة وكان من عزَّ فيها بزَّ وكانت كندة تخفر فيها ثم سوق عكاظ بأعلى نجد يقوم في ذي القعدة وينزلها قريش وسائر العرب إلا أن أكثرها مضر وبها كانت مفاخرة العرب وحمالاتهم ومهادناتهم ثم سوق ذي الحجاز ‹اليعقوبي، المبرد، ابن حبيب›.

كانت هذه الأسواق مجازفات تعاونية، فسلامة الشخص والبضاعة في هذه المناسبات تضمنها إما قداسة الموقع (مثال ذلك شحر تحت جنح النبي هود)، أو هيبة قبيلة قوية (مثل كندة في رابية)، أو بوقوعها في أثناء شهر مقدس (مثل عكاظ في ذي العقدة). لقد كانت هذه في التصنيف الأخير شعبية بشكل خاص، لأن توقيتها في شهر مقدس أيضًا يؤمن سهولة السفر إلى هناك والعودة وتميل إلى خلق جو شبه كرنفالي. كان الكثيرون يقطعون مسافات كبيرة للوصول إليها،

مثل المبعوثين الذين كان يرسلهم الملك النعمان ملك الحيرة كل عام لشراء السلع المختارة، كالجلد اليمنـي ‹البلاذري›.



اللوحة 17: نقش نافر من الحجر الكلسي من ناووس في معسكر ديوقليطان، بلميرا/تدمر، يظهر رئيس قافلة مع جمل (متحف تدمر).

4 / 5 / 4) التعدين

كان استخراج النحاس وشغله يمارسان في شبه جزيرة عُمان منذ أواخر الألف الثالث قبل الميلاد. إن الشهادات النصية المدونة أعلاه تسندها الأدلة الأركيولوجية في هيئة أكوام الخَبَث القديمة، ونتف من بطانة أفران الصهر، وأحجار المطارق لتكسير الفلز، وقوالب الصب وتشكيلة واسعة من الأغراض النحاسية المخصصة للاستعمال اليومي (الدبابيس، صنارات صيد السمك، الإبر، الأزاميل، المخارز، السكاكين، إلخ). استمرت هذه الصناعات بمستويات مختلفة من الشدة طوال العصر الجاهلي (يظهر التأريخ بالكربون المشع أن مناجم النحاس حول صُحار قد حفرت في القرنين الخامس/ السادس م) وفي الواقع لاتزال قائمة حتى اليوم.

كان غرب جزيرة العرب حتى أكثر ثراءً، لأنه كان يمتلك فلزات أثمن:

الذهـب الـذي يكتشفونه في دهـاليز تحت الأرض، شكلته

الطبيعة، ويجمعونه بوفرة. إنه ليس [الذهب] الذي اندمج في شذرات اصطناعية من غبار الذهب [التبر]، بل الذهب البكر الذي يدعى، انطلاقًا من حالته عند العثور عليه، الذهب الذي لم تمسه النار (لأنه ليس مصهورًا من الفلزات، كما يُعمل لدى الشعوب الأخرى، بل يستخرج مباشرة من الأرض). أما فيما يتعلق بالحجم فإن أصغر شذرة عثر عليها كانت بحجم نواة الثمرة وأكبرها ليس أصغر كثيرًا من الجوزة الفارسية. هذا الذهب يرتدونه حول معاصمهم وأعناقهم، فيثقبونه ويناوبونه بالأحجار الشفافة، وبما أن هذا المعدن الثمين يتوافر في بلادهم، في حين يندر النحاس والحديد، فإنهم يبادلونه مع التجار بأجزاء مكافئة من المادتين الأخيرتين ‹Diodorus '2.50', 3.54›.

وفي جنوبي جزيرة العرب كانت توجد الفضة:

ليس بخراسان ولا بغيرها كمعدن اليمن وهو معدن الرضراض وهو في حدّ نِهم ومخلاف يام من أرض همدان وخرب على رأس سبعين ومئتين . . وكان أهله جميعًا من الفرس ممن تاوب إليه في الجاهلية وأيام بني أمية وبني العباس وكانوا يسمون فرس المعدن . . وكانت قرية المعدن عظيمة وبها غيل ونخل وكان الجهاز يرد إليه من البصرة والقطرات إليها ومنها من طريق العقيق والفلج واليمامة والبحرين إلى البصرة . . يرتفع لهم في الجمعة حمل فضة وهو عشرون ألف درهم فيؤدي في السنة بالتقريب ألف ألف درهم . . وأنه كان فيه أربعمئة تنور وكان الطائر إذا حاذى قرية المعدن سقط ميتًا من نار التنانير . . ‹الهمداني، كتاب الجوهرتين›.

جرى تحديد موقع هذا المنجم حديثًا ودراسته. إنه يغطي نحو 10 هكتارات ويضم على الأقل ثلاثين نفقًا يتجاوز طولها 10 أمتار. يبلغ طول أحد الأنفاق أكثر من 150 مترًا، وعرضه 30–40 مترًا، وارتفاعه بضعة أمتار، وهو موصول بالسطح (لأغراض التهوية ونقل الفلز) بعشرة أعمدة يراوح ارتفاعها بين 10 و25 مترًا، كل واحد محفور عبر الصخر الأصم. إن عينة من الفحم الحجري من قاع كومة فلز قد أعطت تاريخًا، بتقنيات الكربون المشع، هو سنة 600 م. كل هذا يسهل

فهم الرد الوقح لسيف بن ذي يزن على الإمبراطور الفارسي [نحو 570]، الذي رفض جيش سيف لكنه عرض عليه المال بدلاً من ذلك: «ما حاجتي بالمال إذا كان تراب أرضي من الذهب والفضة؟» ‹النويري›.

لقد أثبت السبر العلمي الحديث وجود هذه الثروة المعدنية واستغلالها في الماضي. إذ يظهر نحو ألف موقع في غرب جزيرة العرب إشارات على وجود نشاط تعدين في ماقبل العصور الحديثة. في أحد أشهر المواقع، «مهد الذهب»، قرب المدينة [المنورة] يوحي التأريخ بالكربون المشع للفحم المتبقي في الجثث، أن تعدين الذهب والفضة وصهرهما قد جرى في نحو العام 950 ق م ومرة أخرى في الفترة 430–830 م. أما أقدم المحاولات فقد تمت الاستجابة لطلب زبائن بلاد الرافدين: «جهز الملك سليمان [970–931 ق م] أسطولاً في عصيون جابر، التي كانت إيلات [العقبة] على شواطئ البحر الأحمر، في أرض إدوم. فأرسل حيرام [ملك صور] في السفن عبيده النواتي العارفين بالبحر مع عبيد سليمان، فأتوا إلى أوفير وأخذوا من هناك ذهبًا أربعمئة وزنة وعشرين وزنة وأتوابها إلى الملك سليمان (سفر الملوك الأول 9: 26 – 28).

في سفر التكوين (10: 29) تدرج أوفير ضمن أبناء يقطان الذي يظهر بين شبا (سبأ) [جنوبي جزيرة العرب] وحويلة (جنوبي فلسطين). لو كان هذا المصطلح الأنسابي رسمًا خريطيًا جغرافيًا، عندئذ فإن أوفير لابد أنها تقع في غرب جزيرة العرب، وهذا هو أيضًا المكان الذي يحدد فيه أغثرخيدس الكنِدوسي (Agatharchides of Cnidus, 200–131 BC) موقع الذهب، حيث تعود معلوماته إلى أريستون (Ariston)، الذي استكشف الساحل الغربي لجزيرة العرب لصالح أحد البطالمة الأوائل في مصر:

> نزولاً إلى منتصف بلادهم يجري نهر [يعني وادي نهري جاف] له ثلاثة مجاري. إنه يحمل غبار الذهب [التبر] بغزارة كبيرة ذلك أن الوحل الذي يتراكم في المصب يلمع عن بعد. إن سكان المكان يجهلون كيف يشكلون هذا المعدن. إنهم مضيافون إلى أقصى درجة، ليس لكل الناس، بل للذين يعبرون من البيلوبونيز وبويوتيا. وذلك بسبب قصة خرافية ارتبطت بهرقل ‹in Photius 250›.

هذه التقارير تزيد من مصداقية بيانات المؤلفين المسلمين عن الثروة المتراكمة

لدى الدولة الإسلامية الغرة من نشاطات التعدين فعلى سبيل المثال قيل إن «كثيرًا من المال قد جاء إلى [الخليفة] أبو بكر [632–634 م] من مناجم قباليّة وَجهينة [قرب المدينة المنورة]، ومنجم قبيلة السُليم جرى افتتاحه أثناء خلافة أبي بكر. كان يتلقى أموال الزكاة منه ويودعها في الخزينة، ومن هناك يوزعها على الناس» ‹ابن سعد›.

5) المجتمع

5 / 1) القبائل[1]

كان كل سكان جزيرة العرب ماقبل الإسلامية [الجاهلية] تقريبًا أفراد قبيلة ما، أي، جماعة متآزرة، ترتبط معًا بمفهوم القرابة[2] كما علّق شاعر جاهلي ‹عمرو بن قميئة› بقوله: «وقوم الفتى أظفاره ودعائمه». خلافًا للدولة، لم تكن للقبائل مؤسسات متخصصة للقانون والنظام، لذلك كانت حياة الشخص وشرفه وممتلكاته يحميها أقاربه، الذين كانوا ملزمين بنجدته في [أوقات] الشدة والثأر له أو التعويض له إذا اعتدي عليه ‹ديوان الحماسة 225›:

ومـولاك مـولاك الـذي إن دعوتـه   أجابك طوعًا والدماء تصبب

والتقصير في أداء هذه الواجبات كان يُدان بوصفه أسوأ الجرائم لأن «سبب دمار القبائل هو انتهاك واجبات الدم» ‹المبرد› - ديوان الحماسة:

لو كنـتُ من مازنٍ لـم تسـتبح إبلـي   بنو الشقيقة من ذهلِ بن شيبانا
إذًا لقـام بنصـرِي معشـرٌ خشـنٌ   عند الحفيظة إن ذَو لوثة لانا
قـومٌ إذا الشـر أبـدى ناجذيه لهم   طاروا إليه زرافاتٍ ووحدانا
لا يسـألون أخاهـم حـين يندبهـم   في النائباتِ على ما قال برهانا

لكـــن قومـــي وإن كانــوا ذوي عـــــددٍ ليسوا من الشر في شيء وإن هانا

لذلك كان يتعين على كل الرجال البالغين أن يكونوا قادرين على القتال (معلقة زهير بن أبي سلمى):

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدّم ومـن لا يظلـم النـاس يظلم

مع ذلك، لا يعنـي هذا أن الحرب والفوضى كانا يسودان، فالتهديد بالثأر سيجعل أي معتدٍ محتمل يفكر مرتين، وكان ثمة آليات عديدة، كالمصاهرة، والوساطة، والشعائر والمهرجانات الجماعية، وعُرف قوي للضيافة، وتبادل الهدايا . . أفادت في الحد من استعمال القوة وفي تشجيع التعايش السلمي.

تشكل الوحدات المكونة للمجتمع القبلي سلسلة شاملة على نحو تدريجي من الجماعات، من الأسرة المترابطة بإحكام إلى القبيلة بكاملها، وحتى أبعد من ذلك إلى حلف القبائل[3]. كمثال دعونا نأخذ عائلة سعد في منطقة الجوف من جنوبي جزيرة العرب. كانت عائلة مشهورة وغنية بما يكفي لتجهيز القوافل لأجل المشاركة في تجارة البخور. لقد كانت تنتمي، مع الآخرين في المنطقة نفسها إلى سلالة أبعَمَر. كانت كانت روابط القرابة تربط هذه الأخيرة بالعشيرة الفرعية [الفخذ] آمان/ (Aman). بالصعود مستوى واحدًا، فإن آمان تنتمي إلى عشيرة جبعان القوية، التي نعرف من النقوش أنها كانت مسؤولة عن بناء الأبراج والأسـوار في ياثيل. إن عشرين أو أكثر من هذه العشائر شكلت قبيلة معين، المتمركزة أساسًا في مدينة قرناو. هكذا تقدم القبيلة نفسها بوصفها مجموعة من العلب الصينية أو الدمى الروسية: الوحدات الأصغر، كالأسر، هي قطاعات من وحدات أشمل، كالسلالات، والسلالات بدورها هي قطاعات من جماعات أكبر، وهلم جرا. لكل مستوى مجموعة خاصة به من المسؤوليات. فالجماعة المحلية تعتنـي بالأشغال اليومية: إنتاج مواد المعيشة، الحرف اليدوية الأساسية، تربية الصغار . . إلخ. أما القضايا الأكثر عمومية فتعالج على مستويات أعلى، وفي حالة الأحداث التي تؤثر في الجميع، الجفاف، الوباء، نقص المحصول، الحرب . . إلخ، فإن القبيلة كلها يمكن أن تجتمع لمواجهة التحدي للمصير المشترك. يكون السلوك السياسي مقيدًا على نحو مشابه. ضمن الجماعة المحلية، من دون أن نذكر العائلة، يجب كبح النزاع بسرعة خوفًا من تصدع الجماعة. ضمن العشائر يمكن للخصام المطول أن يسبب تمزقًا خطيرًا من حيث إمكانية الوصول إلى الموارد وما شابه، ولذلك ينبغي حله عاجلاً ومن دون تأجيل. في المستوى التالي من الاندماج القطاعي تشغل الجماعات على نحو اعتيادي فضاءات أيكولوجية

[بيئوية] مختلفة، لذلك لا توجد حاجة ملحة للقيام بتسوية. وفي المستوى البين-قبلي قد تكون العداوة أبدية، إذ يكون السبب الأصلي للخلاف منسيًا في الذاكرة الحية.

إن الوحدة العاملة الأساس للقبيلة هي الجماعة المحلية المستقلة التي تكون صغيرة عادة، لا يتجاوز عددها بضع مئات من الأشخاص، وغالبًا ما تكون أقل من ذلك بكثير. في حالة الاستيطان قد تكون هذه الجماعة، كما هي بين القبائل الزراعية - الرعوية للمرتفعات العمانية واليمنية، قرية أو عددًا قليلاً من القرى، مجموعات من الأسر القاطنة في بيوت من الآجر الطيني (اللبن). خلافًا لذلك قد تكون، كما هي بين القبائل المربية للجمال في وسط جزيرة العرب وشماليها، مخيمًا أو عددًا قليلاً من المخيمات [المضارب]، مجموعات من الأسر القاطنة في خيام من الشعر. إن التركيب الدقيق للجماعة يختلف أيضًا: سلالة وحيدة، رابطة من عدة سلالات أو شبكة مفككة من الأقرباء والنسباء. مهما يكن الحال، فإنه سيكون هو نفسه في القبيلة: كل القطاعات الأولية، تكون متكافئة بنيويًا. فكل جماعة محلية تنخرط إلى حد كبير في النشاطات الاقتصادية نفسها، ما يعني أن كل واحدة معتمدة أساسًا على الأخرى للمنتجات المتخصصة (التي يلجأون من أجلها إلى الغرباء): كل القطاعات الأساس تكون متكافئة وظيفيًا. في هذا المستوى المحلي تكون الرابطة هي رابطة الدم، إذ تخضع كل المصالح الفردية لمصالح فئة القرابة. في الواقع كانت كل علاقات التعاون والالتزامات الأخلاقية تعدّ مشتقة تحديدًا من وحدة الدم. لذلك إذا تعين عقد ميثاق بين طرفين يشملهما بواجبات الدم المشترك، فسوف يترافق بطقس سري يمزج فيه دماهما:

> لا يوجد أناس يحترمون العهود أكثر من العرب، هذه هي طريقة تقديمها: يقف رجل بين الطرفين الذين سيعطيان الأمان ويجرح بحجر حاد كفي يدي الطرفين، من طريق الإبهام. ثم يأخذ قطعة من الصوف من عباءة كل منهما ويلطخ بالدم سبع حجرات تقع بينهما، متضرعًا في أثناء ذلك إلى ديونيسوس وأفروديت المقدسة، عندما ينتهي من فعل ذلك، فإن من يعطي الأمان يوصي أصدقاءه بالغريب (أو ابن بلده إذا كان هو الطرف الثاني)، ويتعهد أصدقاؤه أنفسهم الالتزام باحترام الميثاق

‹Herodotus 3.8›[4].

يمكن تحقيق التماسك على المستوى الأعلى للبنية القبلية، أي، بين الأشخاص الذين لا تربطهم سوى قرابة بعيدة، إن وجدت، ولن يتقابلا إلا نادرًا، إن تقابلا، بواحدة أو أكثر من مجموعة من الروابط. فكل شعب من شعوب جنوبي جزيرة العرب المختلفة يبدو في نقوشه، ملزمًا بالولاء بعبادة ربه الحامي له، الذي يطلق على أفراده اسم 'أولاده'، والإخلاص لملكهم، الذي هو سيد شعبه. بالشكل نفسه اجتمع شمل الأنباط بعبادتهم لذو شرا ومحبتهم لملكهم، الذي يوصف في نقوش كثيرة بأنه «ملك الأنباط، حبيب شعبه». خلافًا لذلك، فإن التعلق بمكان يمكن أن يوفر الأساس لتماسك الجماعة. إن حوشب بن نافي ووشح ابنة بجرات كلاهما دونا على ضريحيهما نقوشًا تقول إنهما، رغم كونهما قد دفنا في الحجر/ مدائن صالح، فقد كانا مع ذلك تيمانيين ‹12H1, ›. عندما أقام يديع بل تمثالاً في مدينة بلميرا/تدمر لأبيه عزيز بن يديع بل ابن بركاي، أكد النقش الإهدائي أن أباه «بلميرا/تدمري» إضافة إلى كونه من قبيلة متّابولء» ‹PAT 0271›. في مرتفعات جنوبي جزيرة العرب كانت العشائر توصف بشكل عادي بأنها «عشيرة من مكان/ بلدة كذا وكذا»، ولتحديد منطقة يشير المرء بشكل اعتيادي إلى أرض مجموعة قبلية. يمكن للمرء أن يقول، على سبيل المثال، «أرض [قبيلة] معاذن» ‹CIS 4.323›، إلى الشرق من [قبيلة] يرسيم» ‹GL 1177›، أو «على حدود قبيلة حشيد/ حاشد[؟]» ‹Ir 12›. فيما يتعلق بالقبائل البدوية، التي لا تمتلك أي مقر ثابت ولا حاكم أعلى، كان النسب المشترك هو الذي يتكفل بالتضامن، وتتحدد هوية الشخص والولاء من طريق الأنسابية. هكذا كان بمقدور أحد الشعراء العرب ‹طفيل› أن يعلن:

وقد كان حيّانا عدوين في الذي   خلا فعلى ما كان في الدهر فارتب
إلى اليوم لم نحدث إليكم وسيلة   ولم تجدوها عندنا في التنسب

كانت الدرجة التي يمكن أن تندمج بها القبائل في المستويات العليا تتغير على نحو كبير مع تغير الزمان والمكان. كانت الثروة عاملاً هامًا، لأنه إذا وجدت وسائل كافية للحفاظ على البنية الفوقية السياسية، وشبكة من زعماء العشائر وحتى زعيم أعلى، عندئذ يمكن لهؤلاء أن ينسقوا العمل الجماعي بين أفراد القبائل. مارس التعرض لتأثير الدول أيضًا دورًا هامًا، لأن ذلك كان من المحتمل، بشكل عرضي غالبًا، أن يدفع القبيلة باتجاه الدوءلة (تشكل الدولة) الأولية من طريق المطالبة بالتعامل مع «القائد»، ودفع الإعانات الحكومية

وتشجيع العلاقات التجارية. كانت الجماعات النائية الفقيرة، بالأخص القبائل البدوية المربية للجمال في الصحاري الداخلية، عادة أكثر قليلاً من تجمع مفكك من الجماعات المستقلة، المحلية الصغيرة. فقد عملت بشق النفس كونها وحدات كاملة واستعانت بالزعماء الذين كانت لهم وظائف وسلطات قليلة تتجاوز كونهم ناطقين باسم جماعتهم الخاصة وقائمين على شعائرها. كانت ممالك جنوبي جزيرة العرب الفنية القائمة على الزراعة، من ناحية أخرى، تمتلك مراتبية (هرمًا) من الزعماء الذين كان بمقدورهم أن يصادروا السلع والخدمات من شعبهم لبناء المشاريع ولإعالة حاشية من الطاقم الشعائري والتنفيذي. عندئذ فإن هذا قد أتاح درجة ملحوظة من اندماج القبيلة كلها ومستوى عاليًا إلى حد ما من التطور الاقتصادي والثقافي، فالقبائل في جوار الدول يمكنها أن تقدم أنفسها كونها حليفات عسكرية موالية مقابل أجر، بالأخص في أزمنة الصراع. هكذا، بخصوص الصدام بين بيزنطة وإيران، لوحظ «أن الحرب كانت من منظور العرب على الطرفين مصدرًا للربح الكثير» ‹Joshua the Stylite 79›. فكانت العائدات تذهب إلى عشيرة مهيمنة، مثل جفنيي غسان ونصريي لخم، الذين أقاموا محكمة لأنفسهم، ورعوا مشاريع بناء ومشاريع ثقافية، ونظموا أتباعهم لعمل عسكري واسع النطاق. لو طال الاحتكاك وكانت المكاسب كبيرة لنشأت وقتها مؤسسات مركزية يمكنها أن تطالب بولاء أقوى من الولاء للقرابة ولصارت القبيلة تشبه الدولة. في أواخر بلميرا/تدمر الرومانية، قل ظهور النسب (الانتماء) القبلي شيئًا فشيئًا في النقوش، ربما لأن روابط المواطنة والعضوية في الإمبراطورية صارت الآن تحمل ثقلاً متزايدًا. وعندما وسعت بيزنطة وإيران نفوذهما إلى غربي جزيرة العرب في القرن السادس ميلادي، فإنهما فرختا كيانات دينية-سياسية أكثر تنظيمًا، من ذي قبل. كان أشهرها بالطبع هو جماعة محمد الإسلامية، التي وافق أفرادها على القبول بالله وبمحمد حَكَمَين مطلقين لهم وبالقتال [الجهاد] في سبيل الله ضد كل الكفار، حتى لو كانوا من قبيلتهم.

5 / 2) التمايز الاجتماعي والانقسام الطبقي

لوحظ في كثير من الأحيان أن القبائل الرعوية العربية قد أظهرت مستوىً رفيعًا من التجانس الاجتماعي. فكانت تكره بُنى السلطة: «إن العرب البعيدين القاطنين في الصحراء . . لا يعرفون المراقبين ولا الموظفين» ‹Sargon II, AR 2.17›، «لم يقبلوا في أي وقت من الأوقات برجل من بلد آخر سيدًا أعلى عليهم»

‹Diodorus 2.48› «العرب . . كلهم على السواء محاربون من مرتبة متساوية» ‹Ammianus 14.4›. كان المأمول من زعمائهم أن يقدموا الدعم وأن يكونوا القدوة، وليس الإكراه، كما هو واضح من رثاء موت كليب، رئيس قبيلة تغلب العربية الشمالية القوية ‹المهلهل›:

ويقلــن مــن للمســتضيق إذا دعـــا	أم من لخضب عوالي المرّان
أم لأتســار بالجـــزور إذا غـــــدا	ريـح يقطـع معقـد الأشطان
أم من لأسًـــباق الديـــات وجمعـها	ولـفـادحـات نـوائـب الحدثان

علاوة على ذلك مارست القبائل الرعوية الحد الأدنى من تقسيم العمل: لا يشاهد بينهم صيرفي، ولا صائغ، لا رسالم ولا معمار، ولا هندسي، ولا أستاذ في الغناء، ولا ممثل للقصائد المسرحية ‹Eusebius 6.10›. في الواقع إن الحرفيين، كونهم صناع الأدوات المعدنية، والنساجين، والدباغين وما شابه، كانوا يعاملون باحتقار وتطلق عليهم هذه التسميات من قبيل الإهانة الكبيرة: «أليس أبوك فينا كان قينًا» وحتى أسوأ من ذلك «يمانيًا يظل يشد كيرًا» ‹حسان بن ثابت›. لذلك كانت هذه المهنة عادة حكرًا على غير العرب، وخصوصًا العبيد المجندين من خارج جزيرة العرب أو اليهود (الذين قدموا حتى عهد حديث معظم صاغة اليمن). كان التمييز الاجتماعي الأساس هو بين الأعضاء الكاملي العضوية في القبيلة والأعضاء المنضمين إليها التابعين. هؤلاء الأخيرين يمكن أن يكونوا حلفاء، أفرادًا أو جماعات يفترض بهم أن يمضوا وقتًا طويلاً بين الغرباء، ولذلك فقد أقاموا علاقة حمائية مع مضيف أهلي، أو محميين (جيران)، أفراد أو جماعات هاربين من الثأر (الانتقام)، أو من الفقر أو أنهم لسبب آخر بحاجة إلى الدعم، أو غير ذلك قد يكونون عبيدًا، وهم عادة من أسرى الحرب. إذا كانوا سابقًا أفرادًا من قبائل أخرى، فقد كان بإمكانهم، إذا رغبوا، (أو، في حالة العبيد، إذا أعتقوا وجرى تبنيهم) أن يندمجوا كليًا في القبيلة المضيفة، مع أن معظمهم كان يفضل البقاء في القبيلة التي ولدوا فيها. إن أولئك الذين ولدوا خارج الاتحاد القبلي، مع ذلك، كانوا يجدون من الصعب أن يحصلوا على المرتبة القبلية، كما يظهر من النص الآتي:

> وكان الذي بنى [قلعة المشقّر] رجلاً من أساورة كسرى يقال له: 'بسك بن ماهبوذ'، كان كسرى وجهه لبنائه، فلما ابتدأه قيل له: 'إن هؤلاء الفعلة لا يقيمون بهذا الموضع إلا أن تكون معهم

> نساء، فإن فعلت ذلك بهم تم بناؤك، وأقاموا عليه حتى يفرغوا منه‘، فنقل إليهم الفواجر من ناحية السواد والأهواز، وحملت إليهم روايا الخمر من أرض فارس في البحر، فتناكحوا وتوالدوا، فكانوا جل أهل مدينة هجر، وتكلم القوم بالعربية، وكانت دعوتهم إلى عبد القيس، فلما جاء الإسلام قالوا لعبد القيس: ’قد علمتم عددنا وعدتنا وعظيم غنانا، فأدخلونا فيكم وزوجونا‘، قالوا: ’لا، ولكن أقيموا على حالكم، فأنتم إخواننا وموالينا‘، فقال رجل من عبد القيس: ’يا معاشر عبد القيس، أطيعوني وألحقوهم، فإنه ليس عن مثل هؤلاء مرغب‘، فقال رجل من القوم: ’أما تستحي! أتأمرنا أن ندخل فينا من قد عرفت أوله وأصله!‘ ‹الطبري›.

هذا التمييز كان موجودًا أيضًا في الممالك القبلية لجزيرة العرب؛ هكذا فإن السيدة النبطية وشح وبناتها أقمن ضريحًا لأجل محمييهن <جريهم> مثلما أقمن لأنفسهن ‹H12›. لكن هذه الممالك أظهرت درجات من التمايز أكبر بكثير: ليس نظام الطبقة، بل بالأحرى نظامًا من الأولويات العائلية المتدرجة في التحكم بالثروة والقوة، في المطالبات بخدمات الآخرين، في حرية الوصول إلى القدرة الإلهية وفي الأساليب الماديةللحياة. كانت المواقع ذات المنزلة محددة بشكل دقيق جدًا في أغلب الأحيان، مع انتقال الحدود الفاصلة بين طبقة النبلاء وعامة الشعب وفقًا لسياق الوضع والكلام. ففي جنوبي جزيرة العرب، على سبيل المثال، غالبًا ما نصادف، التضاد عبد [الجمع ءدم]-مرء [الجمع ءمرء] التي يمكن أن تطلق على أي علاقة تابع-سائد: زبون-حامي، مستأجر-مالك أرض، رعية-ملك، عابد-رب، وهلم جرا. لذلك لم تكن تدل على توضع مطلق في الهرم الاجتماعي، بل بالأحرى على توضع نسبي. كانت كل قبيلة تسيطر عليها عائلة نبيلة، وكان هؤلاء النبلاء الأقيال في الوقت نفسه مُقطَعين <ءدم> للسيد الأعلى وأسيادًا للعشائر المنضوية تحتهم. إن هؤلاء الأخيرين لم يكونوا عبيدًا بأي شكل من الأشكال، بل كان بوسعهم أن يشيدوا نصبهم التذكارية الخاصة، ويرافعوا في القانون، ويدخلوا في علاقات تعاقدية مع أسيادهم الأعلى منهم (أي، يستأجروا الأراضي منهم – CIS 4.605bis)، وحتى أن يرفعوا الدعاوى القضائية ضدهم ‹Hamilton 9›. والرجل الذي كان عاميًا لزعيم كبير كان مع ذلك نبيلاً من منظور أفراد القبيلة الذين يفوقهم في المرتبة، حتى لو كانوا مجرد الأفراد الآخرين لأسرته (يؤكد ذلك CIAS 1.159، الذي يشكر الإله لحماية كل

الأسرة، «الأفراد بمختلف طبقاتهم»/ هر وءدمء). على كل، فإن المصطلحات نفسها يمكن أن تدل على العبيد والأسياد بالمعنى الأضيق، كما هو واضح من النقش الذي يُعنى «بالتعاملات التجارية التي تشمل . . عبدًا أو خادمة أو رأسًا من الماشية أو سلعة أخرى» ‹RES 3910›.

برز الملوك في مختلف المجتمعات وفي مختلف الأزمنة في جزيرة العرب قبل الإسلام، لكنهم لم يكونوا أبدًا أسيادًا مطلقين، بالأحرى كانت وظيفتهم هي تدشين الأشغال العامة الكبرى ورعايتها، وتطبيق أحكام الجمعية التشريعية والقيام بمهمة القائد الأعلى للجيش في زمن الحرب. لذلك رغم كونهم الأعلى مرتبة، لم يكونوا يُعدّون فوق الجميع. فعلى سبيل المثال لدى النبطيين:

> يكون الملك شعبيًا (dêmotikus) للغاية حيث إنه، إضافة إلى خدمته لنفسه، فهو في بعض الأحيان حتى يخدم البقية بنفسه. فهو غالبًا ما يقدم وصفًا لملكيته في الجمعية الشعبية، وأحيانًا يجري فحص أسلوب حياته . . يعاون الملك كبير المدراء كونه واحدًا من ملازميه، الذي يدعى [الأخ] ‹Strabo 16.4.26, 21›.

يوحي وصف غريب قليلاً من أغثرخيدس الكنِدوسي أن تحركات العاهل السبئي كانت أيضًا مقيدة:

> إن ملك كل القبيلة يتولى منصبه من الشعب. رغم كونه [المنصب] مجزيًا، فإنه محفوف بالمخاطر. إنه مجز لأن الملك يقود الكثيرين ويفعل ما يشاء بما يتفق مع أحكامه، إنه محفوف بالمخاطر لأنه رغم أنه قد تحمل كامل المسؤولية، فهو غير قادر منذ ذاك الحين فصاعدًا على مغادرة القصر، وإلا فإن أي شخص يمكن أن يرجمه بالحجارة وذلك وفقًا لنبوءة قديمة، وهكذا يكون ظهوره مؤذيًا ‹in Photius 250›.

ربما كان هذا يشير إلى عهد كانت فيه المَلَكية في حالة جَزْر بشكل خاص، لكن من الصحيح أنها لم تكن في أي مرحلة من المراحل منصبًا استبداديًا. فالصعود إلى العرش في سبأ، في أثناء القرون الأولى الميلادية على الأقل، كان يتطلب موافقة «السبئيين، والأقيال والجيش» ‹Ja 564›. فقد كانت السلطة العليا تتركز في هيئة تشريعية لم يكن الملك سوى عضو فيها، وكانت المراسيم تسوّد بانتظام باسم الملك زائد جماعة من الموظفين الآخرين. علاوة على ذلك

لم يكن يوجد نظام فرض ضرائب الدولة. فقد كان ملوك جنوبي جزيرة العرب يتلقون الريع من الأراضي الملكية وغنائم الحرب والأجرة من زبانيتهم، وكان بوسعهم أن يفرضوا الخدمة العسكرية ويطلبوا العون لأجل أعمال البناء، لكن الأعشار [ضرائب العشر] (التي تدفع أجرًا على أراضي المعبد أو ضريبة على الأراضي الخاصة) كانت تذهب إلى المعابد[5].

إن المجتمعات العربية ذات الدخل الجيد من الزراعة أو التجارة لم يكن من المرجح أن تكون أكثر هرمية [مراتبية] من القبائل الرعوية فحسب، بل كانت أيضًا تمتلك تقسيمًا أكبر للعمل. ففي نقوش الحضر، على سبيل المثال، نقرأ حول مهن البنائين والنحاتين والمشتغلين بالمعادن والنجارين والخطاطين والمعلمين والكهنة والأطباء والمحاسبين والبوابين والتجار وبائعي الخمور. في جنوبي جزيرة العرب عُرف العديد من المناصب الإدارية، مثل كبير وقين ومقطوي، مع أن طبيعتها الدقيقة ووظيفتها غير واضحتين. فالمنصب الأول، الذي يعني حرفيًا «الأكبر سنًا»، كان شخصية راشدة جدًا. ربما كان رئيس قبيلة أو جماعة مهنية (مثل، رئيس الفرسان <كبير ركض>، Haram 2، «رئيس البنائين» <كبير نحمت>، Haram 16–17) أو وكيل الملك في مدينة او منطقة نائية:

> إن أي كبير يتولى منصبًا في ميفعة، يمكن أن يحتكم إلى [الآلهة] صيين، وهَوْل وهلي إيل وإلى ملك حضرموت إذا كان هذا الأخير، بسبب الغفلة لا يحفظ أسوار وبرج أهل ميفعة في حالة جيدة. في هذه الحالة يدعونه [أي الكبير] يرمم تمامًا أي جزء متضرر يكون معرضًا للانهيار، إضافة إلى ما لم يتداعَ بعد، ويمارس السلطة الملكية بوصفه ممثلاً لملك حضرموت ‹RES 3869, cf. RES 3854, M 247›.

أو خلافًا لذلك قد يكون زعيمًا لمستعمرة تجارية في الخارج، كما هو الحال مع الكبار <كبير> المعينيين الكثيرين المذكورين في ديدان وتيمنة (مثال ذلك VL9: «كبير المعينيين في تمنة»). قبل القرن الأول بعد الميلاد يتكرر لقب قين كثيرًا، رابطًا حامل اللقب برب (مثال ذلك Ja 554, 556) أو بحاكم ‹GL 1717–19› أو بمدينة ‹Ja 555.3› أو بعشيرة ‹Ja 550›، ويتعلق عادة بالإشراف على مشاريع البناء. بعد هذا العصر لا يظهر هذا المصطلح إلا كونه اسمًا لعشيرة (ربما لأن هؤلاء الإداريين كانوا ينتقون أصلاً من هذه العشيرة) ونسمع الكثير

عن المقطاويين (maqtawîs)، المساعدين الشخصيين، وغالبًا ما نصادفهم في الحملات العسكرية ‹e.g. Ja 632, 708, 713, 2113›. لكنهم أيضًا كانوا يقومون بالواجبات السكرتارية، ويشرفون على أعمال البناء ‹CIS 4.287› وما شابه. ومع أنهم يصادفون على النحو الأكثر شيوعًا في خدمة الملوك والنبلاء (الأعيان)، فإن هذا ليس هو الحال دائمًا، وهو ما قد يعني أن نظام الإدارة في جنوبي جزيرة العرب كان غير رسمي نسبيًا (في القرون القليلة الأولى بعد الميلاد على الأقل).

5 / 3) القانون والتشريع

تكلَّم الشاعر العربي الجاهلي المشهور لبيد ذات مرة عن قائد من جماعة عشيرته بوصفه «من معشر سنت لهم آباؤهم، ولكل قوم سُنة وإمامها. فالسّنة هنا تشير إلى الممارسة العرفية الراسخة للقبيلة، التي شرعنها التراث ومآثر الأسلاف. أما الإمام فهو البطل القبلي الذي تحفظ أعماله القانون وتفصح عنه، أي، القدوة والمثال. هكذا عندما قال الله عن آدم: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾ (سورة البقرة 124) فقد كان يقصد: إني مصيرك تؤم من بعدك من أهلَ الإيمان بي وبرسلي، فتقدمهم أنت، ويتبعون هديك، ويستنون بسنتك التي تعمل بها بأمري إياك ووحيي إليك (الطبري، تفسير) لذا كان القانون القبلي قانونًا عرفيًا، رسمته الممارسة القديمة. لذلك فهو محافظ بشكل متأصل/ ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ(22) وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ(23) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ(24)﴾ (سورة الزخرف 22، 24). ويردد صداه الشعراء العرب الجاهليون (عبيد 36: 18):

فاتبعنـــا ذات أولانـــا الأولـــى الـ   مـوقـدي الحـرب ومـوفي بالحبال

لم يكن بالإمكان تحديثه إلا من طريق هؤلاء القدوات الآنفي الذكر للفضيلة القبلية، الذين كسبوا استحسان الجميع، أو من طريق إجماع كافة الأعضاء الكاملي العضوية في الجماعة مجتمعين. هذه التجمعات كانت الوسيلة لمعظم صنع القرار القبلي وإذا كانت فعالة فهي مصدر فخر للقبيلة ‹زهير›:

وفيهـــم مقامـــات حسانٌ وجوههم   وأنـدية ينتابها القول والفعل

وإن جئتــهم ألفيــت حــول بيوتهــم مجالس قد يشفى بأحلامها الجهل

لم تكن الأحكام القضائية تُبلغ والسياسات تقرر في المجالس القبلية فحسب، بل كانت الجنح تُسمع ويستجوب مرتكبوها أيضًا ‹عمرو بن قميئة›:

لعمــري لنــعم المــرء تدعو بحبله إذا ما المنادي في المقامة نددا

كانت البراءة أو التهمة تثبتان من طريق «يمين أو نفار أو جلاء» ‹زهير›. على كل، ففي غياب الشرطة أو السجن أو ما شابه، كان على الرجل وأقربائه أن يسعوا إلى أخذ ثأرهم الخاص. كان الشعار "قتيلاً مقابل قتلانا، أسيرًا مقابل كل أسير منا، وسلعًا/ مقابل سلعنا" ‹الهذليون›. وغالبًا ما نلاحظ ذلك يوضع موضع التطبيق العملي ‹طفيل ابن عوف›:

فنلنــا بقتــلانا مــن القــوم مثلهم وبالموثق المكلوب منا مكلَّبُ

وبالنَّعَــم المأخــوذ مثــل زهــائه وبالسبي سبي والمحارب مِحْرَبُ

ومع ذلك كان ثمة بدائل للثأر أحدها دفع تعويض [الدية]، مع أنه في حالة القتل يُعتقد أن دم القاتل وحده الذي يفي [بالثأر] سيكفي ‹ديوان الحماسة›[6]:

إن أنتــم لم تطلبــوا بأخيكــم فذروا السلاح ووحشوا بالأبرقِ

وخــذوا المكاحل والمجاسـد والبسوا نقب النساء فبئس رهط المرهقِ

ألهــاكــم أن تطـلبــوا بأخيكــــم أكل الخزير ولعقُ أجرد أمحقَ

الوسيلة الأخرى كانت التماس خدمات الوسطاء المحكمين، [وهم] أشخاص محترمون بسبب رفعتهم واستقامتهم وموثوقيتهم، زعامتهم، ورشدهم ومجدهم وخبرتهم ‹انظر اليعقوبي› مع أنهم لم يكونوا يمتلكون أية وسيلة لفرض أحكامهم، فإن فضيلتهم كانت تضيف ثقلاً إلى قرارهم. إننا نجدهم يمارسون دورهم في أوضاع مختلفة جدًا، فأحيانًا يساعدون في فض الخلافات (معلقة زهير بن أبي سلمى):

سـعى ساعيـًا غيـظ بن مرة بعدما تبـزّل ما بين العشيرة بالدم

فأقســمت بالبيت الذي طاف حــوله رجال بنوه من قريش وجرهم

يمينــًا لنــعم الســيدان وجدتــما على كل حال من سجيل ومبرم

تداركتــما عبســًا وذبيــان بعــدما تفانوا ودقوا بينهم عطرً منشم

وقد قلتــما إن نــدرك السِّلم واسـعًا بمال ومعروف من القول نسلم

وفي أحيان أخرى يصدرون حكمهم بناء على بنود من القانون غير قابلة للتطبيق:

وكانت العرب لا يكون بينها نائرة ولا عُضلة في قضاء إلا أسندوا ذلك إلى عامر بن ظرب، ثم رضوا بما قضى فيه. فاختُصم إليه في بعض ما كانوا يختلفون فيه، في رجل خنثى، فقالوا: 'أتجعله رجلاً أو امرأة؟' ولم يأتوه بأمر كان أعضل منه. فقال، 'حتى أنظر في أمركم'. فاستأجروا عنه. فبلات ليلته ساهرًا، يقلب أمره، وينظر في شأنه، لا يتوجه له منه وجه، وكانت له جارية يقال لها سخيلة، ترعى عليه غنمه، . . فلما رأت سهره وقلة قراره على فراشه قالت: 'ما لك لا أبا لك! ما عراك في ليلتك هذه؟' قال: 'ويلك! دعيني، أمر ليس من شأنك' ثم عادت له بمثل قولها . . قال: 'ويحك! اختُصم إليَّ في ميراث خنثى، أأجعله رجلاً أو امرأة؟ فوالله ما أدري ما أصنع، وما يتوجه لي فيه وجه'. فقالت: سبحان الله! لا أبا لك! اتبع القضاء المبال، أقعده، فإن بال من حيث يبول الرجل فهو رجل، وإن بال من حيث تبول المرأة، فهي امرأة'.قال: 'مسّي سخيل بعدها أو صبحي، فرجتها والله'. ثم خرج على الناس حين أصبح، فقضى بالذي أشارت عليه به ‹ابن هشام›.

إذا اقترف شخص جريمة ضمن جماعته القرابية أو هدد سلمها واستقرارها، عندئذ قد تقرر هذه الجماعة أن تنفيه عن وجودها وحمايتها. هذا يعني أن دم الشخص مباح وأنه مجبر على العيش كونه خارج على القانون ‹الشنفرى، اللامية›:

وفي الأرض منـأى للكـريم عن الأذى	وفيها لمن خاف القلى متعزّل
لعمرك ما في الأرض ضيق على امرئ	سرى راغبًا أو راهبًا وهو يعقل
ولـي دونكـم أهلـون سـيدٌ عملـس	وأرقـط زهـلول وعـرفـاء جيأل
هـم الرهـط لا مستودع السر ذائع	لديهم ولا الجاني بما جرّ يخذل

ضمن كيانات جزيرة العرب التوطنية الأكثر غنى وجد نظام قانوني أكثر تطورًا، ذو قدر أكبر من الإطار المؤسستي. فقد كان لعدد من مدن جنوبي جزيرة العرب مجلس <مسود>، وفي كل مدينة من المدن العواصم كان ثمة مجلس أعلى حيث يجلس الملك جنبًا إلى جنب مع مندوبين عن عدد معين من الجماعات القبلية، يمثلون الأمة بكاملها ويصدرون المراسيم بالنيابة عنها. كان مثل هذا المرسوم يبدأ كما يلي: هكذا أمر ووجه وقرر شهر ياغيل يحرجب، ابن هوفعم،

ملك القتبانيين، والقتبانيون، المجلس، لديهم تتمته الكاملة ‹RES 3566›. في هذا النص الخاص يتبين أن على شهر يغيل أن يقاتل للحفاظ على موقعه، لأنه يستمر في الشكوى من أن «بعض الناس من المجلس وجماعة ملاكي الأراضي قرروا وفرضوا قراراتهم بحلف الأيمان فيما بينهم في ذاك المعبد بأسلوبهم العنيد جدًا الغليظ من دون تصديق من سيدهم [أنا]». بالعودة إلى الأنباط نسمع عن 'جمعيتهم الشعبية' (dêmos) التي غالبًا «ما يقدم الملك فيها تقريرًا عن حكمه» ‹Strabo 16.4.26›. في أقدم النصوص من بلميرا/تدمر تصدر القرارات عن «جماعة <جبل/ polis> كل البلميرا/تدمريين» ‹PAT 0269›. على كل، بعد العام 75 م، فإن مجلس المدينة (boulê) هو الذي يتولى نشر القوانين والمراسيم، وإن كان ذلك بمشاركة الشعب، من الناحية النظرية على الأقل». هنا، على سبيل المثال، تمهيد لإصدار قانون ضرائب جديد:

> مرسوم المجلس، في شهر نيسان، اليوم الثامن عشر، العام 448/ 137 م، في أثناء رئاسة بونِي بن بونـي بن حيران. وأمانة الاسكندر بن الاسكندر بن فيلُباطُر، الأمين بالنيابة عن المجلس والشعب، وجلالة مالكو بن عُلاي بن مقيمو وزبيدا بن نسا عندما اجتمع المجلس بحكم القانون، أقر ما هو مدون أدناه . . ‹PAT 0259›.

في هذه الكيانات الثلاثة وجد نظام دفع الغرامات على المخالفات، التي تدفع عادة إلى الأرباب، من طريق كهنتهم ‹see H 34 below and the list in CIS 4.548›، ووجدت أيضًا الإمكانية لمقاضاة الذين يتسببون في الإيذاء أو الرض او الخسارة. هكذا فإن الزوجين النبطيين الذين «كانا يقومان برحلة إلى أرض حضرموت» وكادا أن يموتا من العطش على الطريق شكرا الإله ألمقه لأنه «أنصفهما في دعوى قضائية أقاماها ضد الدليل الذي عرض حياتهما للخطر على نحو غادر» ‹Ja 750›. وقيل عن بلاد النبط إنها:

> محكومة جيدًا إلى أقصى حد. على أي حال، إن أثِنُدُروس، وهو فيلسوف وواحد من أصحابي، كان قد ذهب إلى مدينة البترائيين، اعتاد أن يصف حكومتهم بإعجاب. لأنه قال إنه وجد كثيرًا من الرومان وكثيرًا من الأجانب الاخرين يقيمون هناك، وأنه رأى أن الأجانب غالبًا ما كانوا ينخرطون في الدعاوى

> القانونية، مع بعضهم ومع أهل البلد، لكن أيًا من أهل البلد لا يقاضي الآخر، وأنهم يحفظون السلم في ما بينهم بكل السبل ‹Strabo 16.4.21›.

في جنوبي جزيرة العرب كان يوجد أيضًا التهديد بالوضع تحت الإدانة العامة. فيما يتعلق بالجنايات الأصغر حجمًا يمكن للمرء أن «ينضم ثانية» إلى القبيلة بعد تقديم قربان تكفيري ‹RES 4782›، أما في حالة الجرائم الكبرى فقد يُحرم الشخص من الحريات المدنية، أي، لن يعود قادرًا على أن يعد حياته محمية من الملك:

> إذا قتل شخص زميلاً له من قتبان والقبائل المذكورة، فإنه يُنفى [إذا كان مذنبًا] . . أو يخضع لاستجواب [إذا ادعى البراءة]، كما وجّه الملك ورسم وقضى بأن يُستجوب . . أيًا يكن الذي ينتهك إعلان النفي أو الاستجواب . . فإن هذا الرجل، الذي يكشف [بموجب ذلك] أنه مخالف، يموت، حسب الأوامر، وتكون حياته مباحة. كل من يقتله لا داعي لأن يخشى الموت أو المسؤولية عن حياة ذاك الرجل الذي تبين أنه آثم ‹RES 3878›.

أخيرًا يمكن أن نلاحظ أن بعض أنواع النقوش في جزيرة العرب غالبًا ما تكون ذات طبيعة قانونية. فعلى سبيل المثال إن نقوش الأضرحة غالبًا ما تحدد صاحب الحق في الملكية، ونقل حقوق الدفن وأمكنته، وتشترط ما يجوز وما لا يجوز فعله بالضريح، وتفصل العقوبات التي يجلبها العبث به:

> لا يطلب أحد من بكر أو أخوته أو أبنائهم من عشيرة مقار لا شخص رفيع ولا وضيع، لا ذكر أو أنثى من أتباع مقار، أن يدفنوا في حرم ضريحهم [قرب مأرب] أو في ضريح حجرة انتظاره، سواء بوثيقة أو من دونها ‹CIS 4.619›.

> هذا ضريح هينات، ابنة عبد عبدات، لنفسها ولأولادها والمتحدرين منها ولكل من يبرزون في يدهم من يد هينات هذه وثيقة أو صك تفويض يقضي بأنه يجوز دفنهم في هذا الضريح، ولا أحد يملك الحق في بيع هذا القبر أو تأجيره أو أن يصوغوا لأنفسهم أي وثيقة. وكل من يفعل غير ما ذكر أعلاه سيكون

عرضة لدفع الغرامة إلى [الآلهة] ذو شرا ومناة مبلغًا قدره ألف قطعة من الفضة وإلى سيدنا ربيل، ملك الأنباط بدفع المبلغ نفسه ‹H 34›.

في نص من الحجر/ مدائن صالح ثمة إشارة إلى «نسخة من هذا مودعة في معبد قيشا» ‹H 36› وفي نص آخر من بلميرا/تدمر تلميح إلى نوع ما من مكتب التسجيل العام (<بيت ءركء>/ PAT 2759). يوحي هذا بأنه كان عادة متعارف عليها أن تودع نسخة من ورق البردي (بردية) في أرشيف رسمي. ربما كان هذا الأخير هو المرسوم الأصلي، الذي نسخت منه فقط العناصر الأساس (الاسم، التاريخ، وصف الملكية، وصيغ التنازل، الفقرة الجزائية، إلخ). نسخت على جدران الأضرحة حيث بقيت حية، متجاوزة بوقت طويل الأصل المعرض للفناء، ثم هناك صكوك ملكية المنازل وتوزيعات حصص الأراضي:

ريءب ألهان . . بنى بيته . . بمضافته وطابقه السفلي وجزأيه العلويين وجداريه، ورواقيه المعمدين من القاعدة إلى القمة، بسند ملكية قانوني كامل، بقانون أنباي. لذلك لا يسمح بأي مخالفة لذلك. وقد أسلمه لحماية [الإلهان] عم وأنباي وحماية ملوك قتبان له ولأولاده وخلفائه ضد أي شخص يمكن أن يؤذيه ‹Deo 7›.

هذا [العمود الحجري المنقوش] يحدد تخوم الأرض التي منحها وأجرها، ونقلها ووزعها هوفعم يوحانعيم بن سَمهُوتر ويدعأب ياغيل بن ذمرعلي، الملوك المشتركون لقتبان، إلى قبيلة أديم في وديان آخير وبارام. لقد قبض ثمن الأرض وجرى نقش السجل التوثيقي. يبلغ بعد الأرض كلها كونها وحدة واحدة، في القمية والمساحة . . يحظر على آخير وبارام التوسع أكثر من هذه الأبعاد بأي فلاحة أو زراعة. هذه الوثيقة تستند على أوامر ومراسم أصدرها عم وأنباي، وعلى قانون كان مطبقًا على بارام لسنوات كثيرة، وافقت عليه كل يدعاب وقتبان بالرضا . . فيما يتعلق بسلالة أي ملك أو قبيلة تزيد أو تجزئ مساحة هذه الأرض، وأي شخص يضيف إلى تفاصيل نص هذا الإعلان أو ينقصها، فليحكم عليه وعلى أبنائه بالنسيان ‹VL 7›.

وأخيرًا هناك المراسيم الرسمية. إن عددًا من السلطات المختلفة كان يمتلك

الحق في إصدار هذه النصوص، لكن أبرزها كانت الآلهة، من طريق وحي إلهي ينسخه خادموا معابدهم، والملوك، بالتشاور مع المجالس القبلية:

> هكذا رسم ألمقه في وحيه أن أي رجل مُحرّم عليه أولاً أن يقدم أضحية قبل أن يرفع الكاهن عنه التحريم، لذلك فعلى الرجل المُحَرَّم أن يضحي ويقوم بما هو ملائم ‹CIAS 1.15›.

> هكذا أوعز، رسم، اشترع، وأمر الملك شمّر يوهرعش لرعاياه قبيلة سبأ، مالكي مدينة مأرب وأراضيها الزراعية، بالرجوع إلى كل المبيعات والتعاملات التي يقومون بها إنه إذا اشترى شخص عبدًا، ذكرًا أو أنثى، أو رأسًا من الماشية، أو سلعة أخرى، عندئذ فإن فترة التريث [قبل اختتام البيع] ستكون شهرًا واحدًا. إذا قام أي شخص، بعد عشرة أيام أو عشرين يومًا، بإعادة جمل أو ثور أو رأس من الماشية، فإنه سيدفع أجرته مقابل الزمن الذي يكون قد استفاد منه فيه. وعندما يموت رأس من الماشية في حوزة المشتري بعد مرور سبعة أيام، عندئذ لا تقع أية مسؤولية على البائع بسبب موته وانعدام الفائدة منه، ويجب على المشتري أن يدفع للبائع حقه القانوني ‹RES 3910›.

5 / 4) الزواج ودور النساء

ثمة ما يشهد على التنوع الملحوظ في عادات الزواج في جزيرة العرب قبل الإسلام، مع أننا لا نعرف مدى انتشار أي منها. إن الزواج الداخلي الصارم (الناس لا يتزوجون إلا من سلالتهم) أو الزواج الخارجي (الناس لا يتزوجون إلا من خارج سلالتهم) لا يبدو أنه كان موجودًا (مع أنه في مدينة مطيرة شمال شرق صنعاء كان الإذن مطلوبًا لتزويج البنت إلى غريبٍ، Qutra 1). وبأي حال من الأحوال كان محدودًا بممارسة الزواج من طريق الأَسْر ‹حاتم الطائي›:

ومـا انكحـــونا طائعيـــن بناتهـــم	ولكن خطبناها بأسيافنا قسرا
فمـا زادهـا فينـا السـبـاء مذلـةً	ولا كُلّفت خبزاً ولا طبخت قدراً
ولكـن خلطنـاهـا بخيـر نسـاءنا	فجاءت بهم بيضاً وجوههم زهرا

ومع ذلك كانت معظم القبائل تقريبًا قد حدد الأفضليات، فبعضها يحبذ الزيجات بين أبناء العمومة، والبعض الآخر يرى أن الزواج من الغرباء ينتج

أطفالاً أصلب ويقلل احتمال الشجارات العائلية. كان معظمهم ينبذ الزيجات مع أناس ذوي عادات مختلفة جدًا. هكذا يعبر شاعر من هذيل عن سخطه من فكرة أن عليه أن يبحث عن عروس بين الحميريين، «الذين لا يختتنون نساءهم ولا يتقززون من أكل الجراد» ويُسخر من قبيلة تأبط شرًا لأنهم سمحوا بزواج أختهم في قبيلة تعودت على أكلٍ لحوم البشر ‹الهذليون›.

كان بإمكان المتزوجين حديثًا أن ينضموا إما إلى بيت مولد الزوج أو إلى بيت مولد الزوجة. في الحالة الأولى يتحدى الزواج صلة المرأة بأقاربها الطبيعيين وبمعنى ما يأسرها لصالح أقارب زوجها (وهو ما يدفع مقابله ثمنًا، هو المهر). فهو يملك الحق ليس فقط في خدمات الزوجة بل في المرأة بوصفها منجبة للأولاد وفي أولادها (أيًا تكن في الحقيقة من تنجبهم). ينتمي الأولاد إليه وإلى قومه، بالدرجة الأولى إليه لكن بشكل متبق إلى ذريته، الذين يمكن في حال موته أن يخلدوا مصلحة الجماعة بتقديم زوج ثانٍ:

> فإن الرجل في الجاهلية كان يموت أبوه أو أخوه أو ابنه، فإذا مات وترك امرأته، فإن سبق وارث الميت فألقى عليها ثوبه فهو أحق بها أن ينكحها بمهر صاحبه أو ينكحها فيأخذ مهرها، وإن سبقته فذهبت إلى أهلها فهم أحق بنفسها. (تفسير الطبري 4. 23).

إن الخيار الثاني يفرض مطالب معاكسة تمامًا. فورثة الرجل يوجدون فقط بين أولاد أخته، وليس أولاده، واستمرار النسل يكمن في سيطرته على أخته وذريتها، وليس على زوجته وذريتها. لذلك فإن الرجال يحتفظون بمصالح قوية في أخواتهم حتى ضد زوجاتهم، في حين أن النساء يكن ملزمات بإخوتهن ضد أزواجهن.

في حين يبدو أن النسب عبر خط الذكور كان المعيار في جزيرة العرب قبل الإسلام، فإننا نحصل من حين لآخر على إلماحات إلى ترتيبات ذات صلة بالخط الأمومي. في نصين من جنوبي جزيرة العرب نجد ملكًا يخص عددًا من الأفراد بالسيادة على عائلتين نبيلتين، واحدة في صرواح وأخرى في مأرب ‹Fa 3,76›. إن قوائم الأسماء في كل حالة على حدة تكون مسبوقة بكلمات «الرجال والنساء التالية أسماؤهم» وتتبع بعبارة «وأولادهن والمتحدرون منهن» وهذا ما يوحي بأن الأولاد كانوا يعدّون منتمين إلى الأم وليس إلى والد ذكر، لكن هذا لم يكن بالتأكيد نظامًا شاملاً في جنوبي جزيرة العرب، لأن عبارات مشابهة

في نصوص أخرى تحوي الضمير المذكر. ثمة نص آخر يصف شجارًا بين زوج امرأة وسيد أعلى لعشيرتها، قتل فيه الأول وجرح الثاني ‹Ja 700›. لقد تسبب النزاع في لجوء المرأة إلى السيد الأعلى لقومها طلبًا للمساعدة في أن تستعيد من زوجها عهدة الطفل الذي أنجبته منه، [وهي] ربما إشارة إلى التوتر بين نظامين. في نقش دفني إحسائي من شرقي جزيرة العرب تسرد امرأة أسلافها عبر خط الإناث لثلاثة أجيال: الأم، الجدة، الجدة الكبرى ‹HIT 16; cf. Ja 1048›. وفي الحجر/ مدائن صالح في شمال غرب جزيرة العرب أقام عدد من النساء أضرحة، تشيد فقط بأقربائهن الإناث وتلح على أن المنشأة مخصصة لأجل بناتهن والتابعات لهن:

> هذا الضريح الذي بنته وشح، ابنه بجرت وقينو ونشكوياه، بنتاها، التيمانيتان لأنفسهن، لكل واحدة، ولأجل عميرات وعسرا عنات والـلات، أخواتهن، بنات وشح هذه، ولأجل اللواتي تحت حمايتهن، لكل واحدة ‹H 12›.

أخيرًا نسمع أحيانًا عن نمط من الطلاق لم يكن من الممكن أن يحدث إلا حيث تبقى المرأة مع قبيلتها:

> وكان النساء، أو بعضهن، يطلقن الرجال في الجاهلية، وكان طلاقهن أنهن إن كن في بيت من شعر حولن الخباء، فإن كان بابه قبل المشرق حولنه قبل المغرب، وإن كان بابه قبل اليمن حولنه قبل الشام، فإذا رأى ذلك الرجل علم أنها قد طلقته فلم يأتها ‹الأصفهانـي›.

يظهر التنوع في تقاليد الزواج أيضًا في الدرجة التـي يبرز بها الزواج الأحادي، وتعدد الزوجات (رجل واحد وزوجات عديدات) وتعدد الأزواج (امرأة واحدة وأزواج عدة) في مصادرنا. إن النوع الأخير يبدو أن اسطرابون قد لمح إليه في وصفه للعادات العربية الجنوبية:

> تكون المرأة الواحدة أيضًا زوجة للجميع [أبناء أسرة واحدة]، وأول من يدخل البيت قبل أي شخص آخر هو الذي يضاجعها، إذ يكون قد وضع عصاه أولاً أمام الباب، لأنه بحكم العرف يجب على كل رجل أن يحمل عصا، لكنها تمضي الليل مع الأكبر سنًا. ولذلك يكون كل الأولاد أخوة ‹Strabon 16.4.25›.

ويلقى ذلك إثباتًا محتملاً من نقش عربي جنوبي يحي ذكرى بناء امرأة بيتًا بمساعدة زوجيها ‹YMN 19›. علاوة على ذلك، في قائمة الأنواع المختلفة للزواج التي وجدت في جزيرة العرب قبل الإسلام، يورد مثال على جماعة من الرجال يعتنون بامرأة واحدة ويعيشون معها ‹البخاري، النكاح›.

في بعض الأمكنة كانت هناك ظاهرة الزواج المؤقت، حيث تبحث النساء عن الرجال المرتزقة عندما يردن أطفالاً:

> كان لديهم [العرب] نساء مرتزقات [لأنهن يدفعن للرجال مهرًا، فإن الأزواج يجب أن يكونوا مرتزقة، لكن هذا لا يخطر ببال أميانُس]، يُستأجرن بموجب عقد مؤقت. لكن لكي يكون هناك شبه بالزواج، فإن زوجة المستقبل، من طريق المهر، تقدم لزوجها رمحًا وخيمة مع الحق في تركه بعد زمن متفق عليه، إذا اختارت ذلك، ومما لا يصدق بأي عاطفة ملتهبة يستسلم الجنسان للرغبة الجنسية ‹Ammianus 14.4›.

ربما كانت تحصل هذه الممارسة على نحو رئيس في حال عقم الزوج. في محيط جنوبي جزيرة العرب نجد نساء بلا أطفال يتوسلن إلى إله طلبًا للمساعدة. فقد حبلت إحداهن لاحقًا «بواسطة رجل جاء وبات مع أسرتها في الليلة السادسة» «فصار من واجبهم أن يقبلوا هدية العروس من هذا الرجل وأن يهدوا الابن المولود منه وهذا التمثال الصغير بمثابة تقديم شكر بالنيابة عنهما» ‹CIS 4.581›. بما أن ليس له اسم، فمن المحتمل أنه كان غريبًا عابرًا، وهي ميزة من حيث إنه لن يكون في وضع يؤهله للمطالبة بحقوق الأب بأي طفل مولود، الذي سيبقى فردًا من عائلة الأم، ويصف مؤلفو المعاجم المسلمون ظاهرة «امرأة ترغب في الاتصال الجنسي مع رجل فقط لكي تحصل على ذرية منه» (الاستبضاع):

> كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها: أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبدًا حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي يستصبغ منه فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب ‹صحيح البخاري، كتاب النكاح›.

كان الهدف، كما قيل، هو اكتساب طفل أنجبه رجل متميز بالشجاعة والكرم.

من كل ما قيل يتضح أننا نواجه نساءً هن أولاً وقبل كل شيء زوجات وأمهات. ليس معنى هذا أنه لم يكن ثمة تمايز بين النساء. فقد كان يوجد، على سبيل

المثال، الفرق بين الحرة المولد والأمة، حيث كانت الأخيرة تلقى على عاتقها عادة مسؤولية المهام الأكثر وضاعة مثل الطبخ ‹معلقة طرفة›:

فظـــل الإمـــاء يمتللـــن حـــوارها ويسعى علينا بالسديف المسرهد

ونقل الرسائل وما شابه ‹معلقة عنترة بن شداد›

فبعـثت جاريتـي وقلـت لها اذهبـــي فتجسسي أخبارها لي واعلمي

ولا ينبغي الظن أن النساء العربيات الجاهليات لم يمارسن دورًا خارج المنزل. فقد كن يحتجن، وفي الواقع يطلبن، حماية رجال قبيلتهن، لكنهن كان بمقدورهن أن يقفن إلى جانبهم في أوقات الشدة ‹معلقة عمرو بن كلثوم›:

علـــى آثارنـــــا بيـــضٌ حســـــانٌ نحـــاذر أن تقسّم أو تهونا

ظعائـــن مـــن بنـــي جشـــم بن بكر خلطن بميسم حسبًا ودينا

أخـــــذن علـــــى بعولتهـــن عهـــدًا إذا لاقـــوا كـتـائـب معلمينا

لتســـــتلبن أفـــراسًـــا وبيـــضًـــا وأســرى في الحديد مقرنينا

إذا مـــارحـــن يمشـــين الهـــوينـى كما اضطربت متون الشاربينا

يقتـــن جيـــادنـــا ويقـــلـــن لســـتم بـعـولـتـنـا إذا لم تمنعونا

إذا لـــم نحمهـــن فـــلا بقـــينـــا لـشـيء بعدهن ولا حيينا

علاوة على ذلك نجد في المجتمعات المتوطنة (الحضرية) للعرب الجنوبيين، والنبطيين والبلميرا/تدمريين، نساءً فاعلات في عدد من المجالات المختلفة. فهن يكلفن بالنقوش، ويقدمن التقدمات إلى الآلهة بحكم حقهن الشخصي[7]، ويتصرفن كونهن موظفات إداريات ‹Nami 14, Ja 487›، ويضطلعن بسيادة الزوج لدى موته ‹CIS 4.95› ويبنين الأبنية العامة والأضرحة. إن النشاط الأخير يدل على التمتع بدرجة ملحوظة من الاستقلال المادي [المالي]، وهو أيضًا ما منح النساء حضورًا بارزًا جدًا في مجتمعهن، لأن وجوههن تطل من كثير من التماثيل والمنحوتات النافرة الدفينة (اللوحة 18).

ثمة دوران بارزان على نحو مميز يحتللنهما النساء في كل أنحاء جزيرة العرب تقريبًا. الأول دور الموظف الديني حيث تستمد سلطتها عندئذ من مقدرتها على التخاطب مع العالم الآخر (انظر الفصل السادس) التي كانت بدورها تمكنها من تجاوز التنافسات الصغيرة وتجميع طاقات تكتل اجتماعي كبير. فقد كان حلف قيدار، على سبيل المثال، مرتبكًا لولا صور آلهته وحارستها:

فيما يتعلق بدومة (Adummatu)، معقل جزيرة العرب الذي

احتله سنحاريب، ملك آشور، أبي، وأخذ معه أمتعته، وممتلكاته وأوثانه مع الكاهنة[8] أفكلتو، ملكة جزيرة العرب، بهبات نفيسة إلى نينوى، مدينتي الفخمة، قبّل قدميّ وتوسل إليّ [أسرحدون] كي أعيد إليه أوثانه. أشفقت عليه، أصلحت الأعطال [التي تعانيها] هذه الأوثان: عتر السماين، دعا، نُهى، رضى، عبر إيلو وعثر قرما. كتبت عليها [نقشًا يمتدح] جبروت آشور، مولاي، واسمي الخاص، وأعدتها إليه. جعلت المرأة تبوعة، التي ترعرت في قصري [الذي استولى عليه هناك سنحاريب]، ملكة عليهم وأعدتها إلى بلدها مع آلهتها ‹IA 53›.



اللوحة 18: تمثال نصفي دفني للمرأة البلميرا/تدمرية الثرية تمنة ابنة شميجيرام في نحو العام 150 م (British Museum 125204).

الدور الثاني هو دور المسلّية [النديمة] ‹Pls 19, 30›. كما نوهنا سابقًا، فقد كانت مألوفة في ولائم الخمر الذكورية: «شرب ناعم وقُراقر» ‹عبيد بن الأبرص›؛ ‹معلقة لبيد›:

بصبوح صافية وجذب كرينة   بموتّر تأتاله إبهامها

إن مهارتها في الغناء والعزف على العود هي أكثر ما يحكى عنه، لكن ثمة أيضًا إلماحات إلى مفاتن أكثر حسية ‹معلقة طرفة بن العبد›.

نَدَماي بيض كالنجوم وقينةٌ   تروح إلينا بين بُرد ومُجسد
رحيبٌ قطاب الجيب منها رفيقة   بجّس الندامى بضة المتجرد
إذا نحن قلنا أسمعينا انبرت لنا   على رسلها مطروقة لم تشدَّد

5 / 5) إقامة الولائم والقصف (العربدة)

إننا نمتلك أدلة من كافة مناطق جزيرة العرب، في بعض الأحيان أركيولوجية وفي أحيان أخرى أدبية، على الوجبات الجماعية ‹Pl. 36› إذ كانت هذه المناسبات البهيجة، مثل حفلات الختان والزواج، تقام عندما كانت الجماعات بكاملها تجتمع لتشهد الطقوس وتشارك في الطعام. أما المناسبات الأخرى فكانت أكثر كآبة، مثل المآدب الجنائزية ‹الطعام على الميت، عبد الرزاق›. لكن كل مناسبات الاستهلاك الجماعي هذه كانت تقوم بوظائف تتجاوز الوظيفة المباشرة للإشباع. كان لها في أغلب الأحيان أهداف اجتماعية، لأن الأكل والشرب معًا يشجعان الرفقة، وبذلك يؤكدان ويعززان الهوية الجماعية والتضامن. فإذا كانت هذه الجماعة كيانًا دينيًا، عندئذ تكتسي الوجبات الجماعية أهمية إعلان الولاء الطائفي. وتناول الطعام المنذور لغير المؤمنين قد يعدّ بمثابة شيء بغيض. كما في الوجبة المتعلقة بالقربان المقدس للمسيحيين، فإن الآلهة، أنفسهم قد يكونون حاضرين وبإدخال إنسان إلى مائدتهم إنما يربطونه بهم بعلاقة خاصة. من الممكن أيضًا أن يوجد بعد سياسي، لأنه من طريق رعاية الولائم العامة كان القائد الطامح يصبح رجلاً ذا نفوذ ومشهورًا، إذ إن كرمه الفروسي على الآخرين يخلق (لديهم) التزامات بالرد بالمثل إضافة إلى إكسابه السمعة الطيبة.

إن النمط الطويل الأمد على نحو خاص من الولائم هو المأدبة الطقسية <مرزحء> وهو احتفال تحضره مجموعة مختارة من الأصحاب إجلالاً لإله بعينه أو آلهة بعينها. يوثق ذلك في وقت مبكر من القرن الثالث عشر قبل الميلاد في نص من أوغاريت، يصف التحضيرات التي قام بها رئيس الآلهة لضيوفه، وذبح الحيوانات وتأمين الخمر. في كثير من الأحيان كان ذلك

يستثير إدانـة أنبياء بني إسرائيل بسبب نـزوعه نحـو الإسـراف وارتباطه بالآلهة الأجنبية «يضطجعون على أسّـرة من العاج ويتمددون على آرائكهم، يتغدون على الخراف من القطيع والعجل المسمّن في الزريبة. ويطربون لصوت القيثارة . . يشربون الخمر بالطاس ويدهنون أنفسهم بأروع الزيوت . . لكن عربدة المتمددين مفرطة ‹Amos 6.4–7›.

لقد كان ذلك حدثًا شائعًا في البتراء وبلميرا/تدمر، يُسمى المشاركون فيه «أولاد المأدبة» أو، «رفاق المأدبة» في البتراء. كان الحدث مكرسًا لإله (RES: 1423: مأدبة عُبُدات الإله) وتحوي كثيرًا من الأكل والشرب:

> إنهم يعدون الوجبات معًا في مجموعات مكونة من ثلاثة عشر شخصًا، ومعهم فتاتان مغنيتان لكل مأدبة. يقيم الملك فترات شرب بأسلوب فخيم، لكن لا أحد يشرب أكثر من إحدى عشر كأسًا، في كل مرة يستعمل كأسًا ذهبية مختلفة. الملك ديموقراطي للغاية حيث إنه في بعض الأحيان، إضافة إلى خدمته لنفسه، يخدم الباقين بنفسه بدوره ‹Strabo 16.4.26, on the authority of his friend 'Athendorus' who had been in the city of the Petraeans›.



اللوحة 19: نموذج صلصالي من البتراء لمجموعة من الموسيقيين، رجل يعزف على مزمار مزدوج تحيط به امرأتان تعزفان على آلتين وتريتين، القرن الأول الميلادي، 8,7 × 9,2 سم)، (متحف البتراء الأثري 15768).

كان الداعي إلى المأدبة [الوالم] يحمل لقب «رئيس المأدبة» الذي يحمل معنى رئيس المنتدى (symposiarch) في اللغة اليونانية. يبجل أحد أسياد هذه

الطقوس، الذي يدعى يرحاي أغريبا (Yarhai Agrippa)، في نقش بلميرا/ تدمري جنبًا إلى جنب مع الذين ساعدوه في واجباته: أمين سره، رئيس الطهاة، مقدم الخمور وكل مساعديه ‹PAT 2743›. ويبدو أنه كان منصبًا دوارًا، لأن ياهاري تلقى تهنئة في نهاية «عام كامل». لقد كانت مسؤولية كبيرة، لأن المرء «كان يخدم الآلهة» ما يعني أن المرء يشرف على التحضيرات ويؤمن الخمر «من بيته الخاص». كانت المآدب تقام عمومًا في غرفة مخصصة لهذا الغرض ضمن أو قرب فناء المعبد، الذي كان مجهزًا بمقاعد طويلة لكي يرتاح الضيوف. لقد جرى العثور على العديد من هذه الغرف، مع أن ثمة اختلافًا ملحوظًا بين النمطين البترائي والبلميرا/تدمري (بالأخص أن الغرف في البتراء أصغر)، وهو ربما يعكس اختلافًا في طقوسهما ودلالتها.

في نقوش بعض الحكام القدماء لسبأ يرد عددًا من المرات تعبير «عندما قدم وليمة <ءلم> لعثتار». أما أبرز طبعة من هذا الحدث فقد وقعت في معبد جبل اللوذ في منطقة الجوف، الذي يضم بلاطات ضخمة ذات صفوف عديدة من المقاعد. كانت المأدبة هناك يدعو إليها الحاكم السبئي وكانت مرتبطة ب «ميثاق الاتحاد» <جو>، وهو طقس كان يقدم لجمع القبائل المتفرقة للاتحاد السبئي ولضمان أمن الحرمات (الأمكنة المقدسة) تحت حراستهم المشتركة. عقد هذا الميثاق تحت رعاية عثتار، لأنه فوق كل الآلهة المحلية والقبلية كانت المأدبة تقدم للجمهور تبجيلاً له وبشكل مرجح جدًا على نفقته، حيث كانت كلفتها تدفع بدافع من الواجبت له.

يخبرنا بليني ‹Pliny 12.63› أنه في العاصمة حضرموت «تفرض ضريبة العُشر لتحمل الإنفاق العام، لأن الإله الضيوف يستضيف بكياسة إلى مأدبة في الواقع في عدد محدد من الأيام». هذا يبدو مشابهًا لمرسوم صدر من طريق نقش إلى قبيلة سمعاي من قبل إلههم الحارس تعلب/ ثعلب، يرسم أنه من بين أشياء أخرى «سيقدم ولائم من [عائدات] الأعشار» ‹RES 4176›. ليس واضحًا لأي سبب كانت هذه الآلهة تقدم هذا السخاء، لكن ربما كان ذلك متصلاً بإتمام الحج إلى أمكنتهم المقدسة. بأي حال فقد كان ثمة بالتأكيد وجبات طقسية في هذه المناسبات. لقد حدث هذا، على سبيل المثال، في مأرب، كما يشهد على ذلك عدد من المذابح القربانية المحفورة باسم شهر الحج السبئي أبحي (Abhay).

قد تكون الولائم أيضًا شؤونًا دنيوية، فقط عربدة عادية وصداقة حميمية. فالتلميحات إلى الاجتماعات لغرض الاستمتاع بالخمر، والنساء والغناء شائعة في قصائد الشعراء الرعويين لشمال جزيرة العرب. كان متعهدو تقديم

الخمر يقطعون، كما يبدو، مسافات طويلة لبيع منتوجهم ‹المفضليات، المرقش الأصغر›:

ثوَتْ في سـباء الـدنّ عشـرين حجةً يطـان عليـها قـرمـدٌ وتـروّح
سـباها رجـال مـن يهـود تباعدوا لجيلان يدنيها من السوق مُرْبحُ

عندئذ كانوا يرفعون راية خاصة ليعلنوا للزبائن أن محلاتهم مفتوحة للصفقات ‹معلقة لبيد، معلقة عنترة›. إن نفقات النقل كانت تعني أن الكلفة مرتفعة، ولذلك أصبح مادة تقليدية للتبجج أن يستضيف المرء جلسات الشرب على نحو متكرر. يبرز المقوم الآخر لهذه المناسبات، الفتاة المغنية، في نقوش (قنت، قهلمت) ورسوم قبائل حراء، فكانت عنصرًا دائمًا في حانات المناطق الحضرية من جزيرة العرب ‹الأعشى، المعلقة الأولى›:

وقـد غـدوت إلـى الحانوت يتبعني شـاوٍ مشلٌ شلولٌ شلشلٌ شولُ
في فتيـة كسـيوف الهنـد قد علموا أن ليس يدفع عن ذي الحيلة الحيلُ
نازعتـهم قضـب الريحـان متكئـًا وخمـرة مـزةً، راووقهـا خضِلُ
لا يسـتفيقون منـها، وهـي راهنة إلا بهات! وإن علّوا وإن نهلوا
يسـعى بها ذو زجاجـات لـه نُطَـفٌ مقلص أسفل السربال معتملُ
ومسـتجيب تخـال الصـنج يسـمعه إذا ترجّعُ فيه القينةُ الفُضُلُ
مـن كـل ذلك يـومٌ قـد لهـوت به وفي التجارب طول اللهو والغزلُ

كذلك تدخل في تصنيف الولائم الدنيوية الوجبات المقدمة لأجل الفقراء والمحتاجين، لأجل الغريب وعابر السبيل. كان الكرم وحسن الضيافة يعدّان الفضيلتين العربيتين الأساسين، وكان وصف الرجل بالبخل خرابًا له ‹حاتم الطائي›:

إذا ما صـنعت الـزاد، فالتمسي له أكيلاً، فإنني لست آكله وحدي
أخًـا طـارقًا، أو جـار بيتٍ، فإنني أخاف مذمات الأحاديث من بعدي

كان الكرم [الجود]، من ناحية أخرى، يكسبه وقبيلته السمعة العظيمة ويسمح له بأن يرفع رأسه عاليًا ‹عمرو بن قميئة›:

وندمـان كريـم الجـد سـمح صبحت بسحرة كأسًا سبيّا
فأرسـلتُ الغـلام ولـم ألبـثْ إلى خير البوائك توهريا
فنـاءت للقيـام لغيـر سـوق وأتبعها جـرازًا مشرفيًا
فظـلّ بنعمـة يسـعى عليـه وراح بها كريمًا أجفليا

6) الدين

6 / 1) الشُّرك

في التوحيد يكون المقدّس متركزًا في كيان واحد كلي القدرة وكلي المعرفة، في حين أنه في الشرك يكون منتشرًا فوق مجال عريض من الكائنات والأمكنة والأشياء والممارسات والشخصيات البشرية. في الواقع، يوجد شيء من التسيّل في معظم الديانات التوحيدية، مع نزوع القديسين والمقامات وما شابه إلى الازدياد، بوجود إله واحد، غالبًا يكون مفضلاً على الآلهة الأخرى. لكن الاختلاف بين الاثنين [التوحيد والشرك] حقيقي وجوهري. أولاً، في المجتمعات ماقبل الحديثة التي لم تُعلِمنْ الحياة العامة وتحيل الدين إلى الحقل الخاص، يكون التوحيد بطبيعته متعصبًا ومتشددًا. لأنه يتعين أن يوجد إله حقيقي واحد فقط فكل الباقين يجب أن يكونوا دجالين عقيمين، وأولئك الذين يعبدونهم ليسوا على خطأ فحسب، بل هم ملعونون وينبغي محاربتهم، أو في الحد الأدنى يجب اجتنابهم. فإذا كنت تؤمن بآلهة عديدة، مع ذلك، فلا مسوغ لأن تكون معاديًا لآلهة ليست آلهتك، ولا اعتراض على أن تقدم احتراماتك لهم وللمؤمنين بهم فالمثل العربي القديم يقول ما معناه: عندما تدخل قرية أقسم بإلهها. ثانيًا، إن كلمات الله الواحد الكلي القدرة يجب بالضرورة أن تكون الحقيقة المطلقة، التي في ضوئها

يتعين على متلقيها لذلك أن ينظموا حيواتهم ويفسروا عالمهم. أما الشرك، من ناحية أخرى، فلا هو واحدي للغاية ولا هو متماسك للغاية. إنه بالأحرى رؤية عالمية منوعة، رؤية قادرة على استنباط طيفًا غنيًا ومرهفًا من المعاني من واقع متعدد الوجوه، رؤية تواقة إلى الفهم والتأثير في الطرق العديدة والمتنوعة التي يؤثر بها العالم الطبيعي علينا.

حتى نحو القرن الرابع ميلادي كان كل سكان جزيرة العرب تقريبًا مشركين. إننا نعرف كثيرًا من أسماء آلهتهم لأن الهدف الأكثر شيوعًا للنقوش العربية كان التضرع إلى الآلهة بطريقة ما، بالتوسل إليهم على نحو عادي، أو شكرهم. لكن الأسماء وحدها لا تخبرنا الكثير، وقصَر معظم هذه النصوص يجعل من الصعب علينا أن نفهم طبيعة الآلهة ووظيفتها، أو أن نستوعب ما كانت تعنيه لعابديها. إنهم أيضًا يمنحون نعوتًا في كثير من الأحيان (قارن التسمية المسيحية لمريم بوصفها «أم الرب»، «العذراء»، إلخ)، لكن من دون الأساطير والسرديات [الحكايات] لفك لغزها فإن هذه [النعوت] لا تكون عادة منورة جدًا. على نحو غير دقيق، بالطبع، كانت الآلهة تمثل تلك القوى التي كانت هامة لحياة الناذرين أنفسهم لهم لكنها خارج سيطرتهم: المطر، الخصوبة، الصحة، الحب، الموت وهلم جرا. بالتماس عطف الآلهة، بشكل نموذجي بتقديم هبة نذرية ما، يمكن للمرء من طريق ذلك أن يؤثر في هذه القوى. هكذا فإن أحد أفراد قبيلة أميرٍ من شمال غربي اليمن «قدّم إلى مولاه ذو سماوي في معبده [هيكله] . . تمياثيلاً برونزيًا لناقة كي يمنحه ذو سماوي السعادة له ولأولاده إضافة إلى الخير والسلامة لإبله» ‹Ja 2956›. لكننا لا نعرف كيف كان رجل القبيلة هذا يتصور حارسه الإلهي بالضبط وإلى أي درجة كان هذا الأخير يؤثر في حياته.

رأى عالم الاجتماع إميل دوركهايم (Emile Durkheim) أن المعتقدات الروحية تعكس بنية المجتمعات البشرية. إن هذا يمكن أن يفسر السبب في أن الحضارة المعقدة لجنوبي جزيرة العرب كانت تمتلك مجمعًا من الآلهة هو الأكثر تطورًا في جزيرة العرب، مع أسماء أكثر من مئة إله تبرز في النقوش الباقية، مع أن كثيرًا منها ربما يمثل جوانب أو تمظهرات مختلفة للإله نفسه. كان عشتار يحتل بشكل شبه دائم المكان الأول في القائمة وكانت عبادته منتشرة في كل أرجاء المنطقة. علاوة على ذلك، نجد في نص واحد عابدًا يشكر إلهًا آخر لأجل «التوسط [الشفاعة] لصالحه لدى عشتار» ‹CIAS 20189›. وهو ما يؤكد أنه كان يتمتع بمنزلة معينة. مع أنه كان دائمًا يحمل الاسم نفسه، فقد كانت له تشكيلة من التمظهرات، كل تمظهر يتميز بنعت مضاف، في حالات كثيرة ربما يشير إلى

أحد مقاماته [مزاراته] (قارن الاستعمال المسيحي لـ «سيدة الأرباب»، «سيدة غواديلوب» إلخ). فالاختلاف بين الربوبيات العديدة لجنوبي جزيرة العرب يبدو أنه لا يمكن في وظيفتها، بل في دائرة عملها. لذلك لم يكن ثمة إله مطر مكرّس واحد، بل بالأحرى كان ثمة أرباب حارسة مسؤولة عن ري القرية، وأرباب حارسة لأجل ري الأراضي القبلية، وعشتار لأجل العالم كله.

كان الرب الحامي (شيم) للشعب ذا أهمية أكثر مباشرة في جنوبي جزيرة العرب من الشكل الأبعد لعشتار. فقد كان للشعوب الأربعة الأساس أرباب حامية لها هم ألمقه (السبئيين)، ود (المعينيين)، عمّ (القتبانيين) وسايين (الحضرموتيين)، وكل شعب كان يطلق عليه مجتمعًا اسم «أولاد» ربه الحامي الخاص به. كان هذا الأخير يوصف بأنه «سيد المقام [رب البيت] الذي كان يفيد كونه مركز عبادي لأجل شعبه (مثلاً ألمقه سيد عوّام)»، المعبد الأساس في مأرب. هذه الأرباب الحامية أدت دورًا اجتماعيًا-سياسيًا حيويًا في أن عباداتها أفادت كونها بؤرة لتماسك الشعب وولاءه وقامت بوظيفتها كتعبير الإرادة والنشاط الجماعيين. على سبيل المثال كانت ضرائب العشر المستحقة على الأرض ومنتوجها تدفع إلى الآلهة (من طريق خدمهم البشريين)، الذين كانوا أيضًا يتولون إعادة توزيعها:

> يُنقل اللبان بعد جمعه إلى شبوة على الجمال، حيث تفتح إحدى بوابات المدينة لإدخاله. لقد جعل الملوك ذلك مشقة كبيرة إلى الجمال المحملة هكذا لتنعطف جانبًا عن الطريق العالي. في شبوة يأخذ الكهنة ضريبة عشر يقدرونها بالمكيال وليس بالوزن، للإله الذي يسمونه سايين، ولا يسمح بطرح البخور في السوق قبل القيام بذلك. هذه الضريبة العشرية تفرض لتصرف على الإنفاق العام، لأن الإله في الواقع يقوم في عدد ثابت من الأيام باستضافة الضيوف بسخاء إلى مأدبة ‹Pliny 12.63›.

إن ضرائب العشر التي يفرضها الأرباب المعينِيُون على التجارة نفسها كان بالإمكان أن تصرف على الأشغال العامة، مثل بناء أسوار المدينة، التي يتعهدها دافعو ضريبة العشر ‹e.g. M 29›. في قتبان، عندما «أصدر» الملك نظامًا يعالج إمدادات الماء، جرى نشره باسم الإله أنباي ‹Ry 478›. لقد مكنت العبادة المشتركة لعمّ لبخ التعاون بين مجموعة من ملاكي الأراضي القتبانيين وأقنانهم في دثينة النائية ‹RES 3688-89, 3691-93›. في سبأ شُنت الحملات العسكرية

«لأجل ألمقه والسبئيين ‹e.g. RES 3945›، وكانت الغرامات على أشكال المخالفات كافة تدفع إلى ألمقه وملوك سبأ» ‹e.g. Ja 576›. بعبارة أخرى كانت عبادة الرب الحامي هي التي تسمح للجماعة بالقيام بوظيفتها كيانًا متماسكًا (في مقابل لكتلة من فئات القرابة المتمركزة المختلفة)، مؤدية دورها كنوع من الرابط الاجتماعي.

في المجتمعات الأقل تعقيدًا من جنوبي جزيرة العرب كان مجمع الآلهة أصغر بكثير والرب الحامي يكتسي مكانة بارزة على نحو خاص. هكذا كان سكان واحة ديدان الخصبة يلجأون إلى ذو غبا "سيد الأيكة"، لأجل حاجاتهم ونادرًا ما يلجأون إلى رب آخر. يظهر الإله المعيني ود في نقوش قليلة، لكن هذه النقوش يمكن أن تنسب على نحو مفترض إلى المستعمرة المعينية التي كانت تدير عمليات التجارة في الواحة. ثم هناك كتبة (أو أكتاب) إله الكتاب، الذي يمكن ربطه برب الكتابة البابلي، ربما جلبه إلى شمال غربي جزيرة العرب الملك البابلي نبونيد، لكن الآلهة الآخرين لا يرد ذكرهم أكثر من مرة أو مرتين، فربما كان يتضرع إليهم الرحالة العابرون أكثر ما كان يفعل العابدون المحليون. كان النبطيون على نحو مشابه موالين لذو شرا، «سيد الشرع»، سلسلة الجبال التي تضم عاصمتهم البتراء، و«إله مولانا . . ملك النبطيين» ‹H 11, 28, 36›. ففي البتراء نفسها كان الرب الآخر الوحيد الشعبي جدًا هو العزى «الإلهة الجبارة»، التي تشتهر في النصوص وفي التصويرات الفنية ‹RES 1088, RB 42.413, 43.588›[1]. على كل، كان النبطيون حكامًا لمملكة، وفي الأراضي التي كانوا يسيطرون عليها. كان يعبدُ الكثير من الأرباب الآخرين، مثل هُبَل ومناة في الحجاز، واللات في حوران والصحراء السورية. علاوة على ذلك فإنهم، كونهم تجارة دوليين، كانوا معرضين لكثير من المؤثرات الأجنبية، ولذلك ليس مفاجئًا أن نجدأن عبادة الإلهة المصرية إيزيس كانت واسعة الانتشار في بلاد الأنباط (الشكل 3)، وكان ثمة أيضًا أرباب متخصصون، مثل شيع القوم، «حامي الشعب»، الذي يعتني بالبعيدين عن الوطن. بصفته هذه فقد «ناشده في العام 132 م المدعو عُبيد بن غانم بن سعد اللات النبطي من قبيلة رواح»، الذي كان خيّالاً يقوم بالخدمة في أنات على الفرات ‹CIS 2.3973›.

كانت حالة بلميرا/تدمر خاصة، لأنها كانت تمتلك تجمعًا سكانيًا كوزموبوليتيًا جدًا، حيث إن كثير من أفرادها جلبوا آلهتهم معهم، وبفضل موقعها كانت معرضة منذ زمن طويل لعدد من الثقافات المختلفة، التي تركت بصمتها على حياتها الدينية. من هنا فإن عددًا كبيرًا من الأرباب يتنافس على الموقع في السجل الأبيغرافي للمدينة. إن العبادة الموثقة بالشكل الأفضل، منذ العام 32 م على الأقل، كانت عبادة الثلاثي الإلهي بِل، يرحيبل، وأغليبل (اللوحة 20). لقد

برز بِلْ كونه إلهًا أعلى، في حين أن يارهيبول، الرب السلفي للواحة، وأغليبولْ، رب جَالية شمالية سورية مهاجرة، أصبحا مساعدين له. ومع ذلك، استمر بِلْ يرتبط بأرباب آخرين، مثل إله الشمس شمش وخصوصًا شريكته حرتا. نسمَع أيضًا عن الرب الكنعاني/ الفينيقي القديم بعل شمين، والإلهة العربية اللات، والرب الرافديني نرجال وهلم جرا. وأخيرًا، كما في معظم البلدان المتأثرة بالثقافة الإغريقية-الآرامية، كان ثمة عدد من أرباب الحظ السعيد، الحماة لأمكنة بعينها (مثلاً: «غاد حامي دورا» «غاد حامي بلميرا/تدمر» PAT 1094) وشعوب بعينها (مثلاً: «غاد حامي تجار الزيت» PAT 2137–38).



الشكل 3: تماثيل من الفخار للإلهة إيزيس من البتراء يمكن تمييزها من طريق تاجها التقليدي ذي الريشتين مع قرص الشمس (**أعاد تشكيلها دفيد هُبكنز** (David Hopkins)، **الأصل من متحف البتراء الأثري** J. P. 177).



اللوحة 20: نقش نافر كلسي يمثل ثلاثي إلهي بلميرا/تدمري: بعل شمين (الوسط)، أغليبول (اليمين) وملكبِلْ (اليسار) القرن الأول الميلادي (P & M. Chuzeville, Louvre AO19801).

بالانتقال إلى شرق جزيرة العرب، تخبرنا أسطورة أنكي ونينحورساج أن «نينسيكيلا سصبح سيد مَجَن وإنزاك سيصبح سيد دلمون» ‹Enki 1.1.1.272–80›. إن الأخير، مع خليلته مسكيلاك، يظهران في صيغ التحية لرسائل العهد الكاسي بوصفهما «آلهة دلمون» ‹Ni. 615, 614›، لكننا لا نعرف إن كانا الحاميين الوحيدين للدولة أو ما إذا كان لهما رفاق كثيرون. فيما يتعلق بالعهد الإغريقي-الروماني نمتلك أدلة أكثر ويبدو أن التجار والزوار الأجانب، كما في بلميرا/تدمر، أضافوا آلهتهم إلى قائمة الآلهة المحليين. فعلى سبيل المثال، إن بلْ، والإله الرافديني نابو، والربان الإغريقيان بوسيدون وأرتميس يتضرع إليهمَ مقدموا الأضاحي على جزيرة إيكاروس [فيلكا الحالية]، والإلهان العربيان الغريبان كهل ومناة يظهران على نص مدفني من مليحة من الإمارات العربية الحديثة. كان ثمة أيضًا عبادة إله الشمس شمش في شمال شرقي جزيرة العرب، كما يستدل على ذلك من وجود اسم الرب بحروف عربية جنوبية على العملات من الطراز الهلنستي التي جرى إصدارها في هذه المنطقة.

في مستوى بنيوي آخر كان ثمة أرباب حامية عديدة تؤمن الحماية للقرى

والمخيمات [المضارب]، والعائلات والأفراد. ففي جزيرة العرب الجنوبية نسمع عن الأرواح الحارسة المغفلة الأسماء <منذحت> للجالية المحلية والأرواح السلفية للعائلة، «شمس أسلافهم». في شمال جزيرة العرب كان ثمة كائنات يشار إليها باسم «جني»، الذين يرد ذكرهم في نقش من ضواحي بلميرا/تدمر: «جنية قرية بيت فسع إيل، الآلهة الطيبة والمجزية» (PAT 1704). ربما يذكر هؤلاء بالجن الذين يظهرون في أوصاف غربي جزيرة العرب ووسطها. ففي القرآن يرد ذكر هؤلاء على نحو متكرر بالتوازي مع الجنس البشري (الجن والإنس)، لأنهم أيضًا كائنات مخلوقة وهكذا، مع أنهم يعدّون إلهيين من قبل البشر الفانين فإنهم من مرتبة دنيا نسبيًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (95) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (96) وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (سورة الأنعام 95–100). بشكل مماثل ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ (سورة الصافات 158). ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ (سورة سبأ 41)، وأقصى ما كانوا يأملون الحصول عليه هو الأمان: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً﴾ (سورة الجن 6). كان ثمة نوع خاص من الجن هو الجن الرفيق (يدعى القرين)، الذي يولد عندما يولد شركاؤه البشريون، ويموت عندما يموتون، يبقى معهم في كل الأوقات ويمارس تأثيرًا كبيرًا، نحو الأفضل أو الأسوأ، في سلوكهم وظروفهم وإنجازاتهم. على وجه الخصوص إن أولئك الذين أظهروا مقدرة على التلاعب بالعلم الفيزيائي أو أداء أفعال تعدّ خارج نطاق القدرة البشرية العادية كان يُعتقد أنهم ملهَمون أو مؤازَرون بطريقة أخرى من قبل قرينهم.

أخيرًا، بالتوازي مع الأرواح الحميدة والآلهة المُحْسِنة كان ثمة مرتبة من الكائنات الحقودة التي تراوح بين الكائنات المؤذية والشر المطلق. إنها، مع ذلك، غائبة من السجل الإيبغرافي ويلمح إليها فقط على نحو مختصر، وإن متكرر، في الشعر العربي الجاهلي، لكن المؤلفين المسلمين جمعوا كتلة من الخرافات والحكايات عن هذا العالم الوهمي. إن أكثر من يرد ذكرهم على نحو شائع هم الغيلان التي «كانت تتراءى لهم في الليالي وأوقات الخلوات، فيتوهمون أنها

إنسان فيتبعونها، فتزيلهم عن الطريق التي هم عليها، وتتيههم» ‹المسعودي› يكون مظهرهم الطبيعي قبيحًا جدًا: «عينان في رأس بشع مثل رأس القط، بلسان مشطور، ساقان بحوافر مشقوقة وفروة كلب» ‹الأصفهاني›. لأن قدميه مثل حافري الحمار، «فكان العرب إذا اعترضتهم الغول في الفيافي يرتجزون ويقولون ‹المسعودي›:

يا رجـــل عنـــزٍ انهقـــي نهيـــقا   لن نترك السبسب والطريقا

6 / 2) التوحيد

في شمال غربي جزيرة العرب كان ثمة جالية يهودية قديمة جدًا. إن المدعو شُبيت، الذي أنشأ ضريحًا عائليًا في الحجر/ مدائن صالح في العام 42 م، يطلق على نفسه بوضوح اسم «يهودي» ‹H 4›. يظهر اسم منسّى بن ناثان منقوشًا على مزولة في البلدة نفسها، وفي ديدان المجاورة أقام شخص يدعى يحيى بار شمعون شاهدًا لضريح لأبيه في العام 307 م ‹JS Nab 386›. يضم رسم غرافيتي يهودي صغير من هذه المنطقة بشكل أنموذجي أسماء يهودية مثل إسحق وصموئيل ‹JS Hebl 1–8›[2]، وهذا الدليل الأبيغرافي يمكن إكماله بشواهد من التلمود. في جنوبي جزيرة العرب كانت اليهودية تتمتع بشهرة أكبر بكثير. فعندما رافق المبشر ثيوفيلوس (Theophilus) الهندي سفراء الإمبراطور البيزنطي قُنسطنطيوس (Constantius) [337–61 م] إلى حاكم الحميريين، صادف «عددًا ليس قليلاً من اليهود» (Philostorgius)، الذين ربما كانوا هناك قبلئذ ببعض الوقت. بعدئذ بوقت قليل نسمع عن تهود الملك الحميري أبي كرب أسعد [نحو عام 383–433] من طريق يهوديين متعلمين من يثرب، جلبهما معه إلى بلده: «لدعوة شعبها إلى الدخول في الدين نفسه كما فعل هو»:

> فدعاهم إلى دينه وقال: ‘إنه خير من دينكم’، فقالوا: ‘فحاكمنا إلى النار’، قال: ‘نعم’. قال: ‘وكانت باليمن، فيما يزعم أهل اليمن، نار تحكم بينهم فيما يختلفون فيه، تأكل الظالم ولا تضر المظلوم’، فخرج قومه بأوثانهم وما يتقربون به في دينهم، وخرج الحبران بمصافحهما في أعناقهما متقلديها، حتى قعدوا للنار عند مخرجها الذي تخرج منه، فخرجت النار إليهم، فلما أقبلت نحوهم حادوا عنها وهابوها، فذمرهم من حضر من الناس، وأمروهم بالصبر لها، فصبروا حتى غشيتهم، فأكلت

> الأوثان وما قربوا معها، ومن حمل ذلك من رجال حمير، وخرج الحبران بمصاحفهما في أعناقهما تعرق جباههما لم تضرهما فأصفقت عند ذلك حمير على دينه، فمن هنالك وعن ذلك كان أصل اليهودية باليمن ‹ابن هشام، السيرة النبوية›.

مع أن الأحداث قد تكون حصلت كما وصفت هنا تمامًا، فإن سرعة ونهائية التغير في أسلوب الوعظ الديني في نقوش جنوبي جزيرة العرب في القرن الرابع ميلادي توحيان بالتأكيد بثورة في الاستشراف الديني للنخبة الحاكمة. فالإشارات إلى الألوهيات الوثنية للتراث القديم اختفت اختفاءً شبه كلي لصالح ذكر الواحد الأحد اللّه، الذي يشار إليه «بالرحمن» أو ببساطة «اللّه» ويُوصف عادة بـ «رب السماء»، «رب السموات والأرض». ومن هذه الفترة نفسها نبدأ بالعثور على نقوش تحوي عبارات يهودية مثل الخاتمة «سلوم».

ومع ذلك، في التراث البيزنطي فإن المبشر الذي أرسله قُنسطنطيوس هو الذي حوّل الحاكم الأعلى الحميري [عن دينه]:

> سعى ثيوفيلوس لإقناع حاكم القبيلة بأن يصبح مسيحيًا وأن يتخلى عن أضاليل الوثنية. عندئذ فإن الخداع والمكر الاعتياديين لليهود أرغما على الانكماش إلى سكوت عميق حالما أثبت ثيوفيلوس مرة أو مرتين بمعجزاته العجيبة حقيقة الدين المسيحي. انتهت السفارة بنجاح، لأن أمير القوم، باقتناع صادق، تحول إلى الدين الحقيقي، وبنى ثلاثة كنائس في المقاطعة [واحدة في ظفار «حاضرة الأمة»، واحدة في عدن «السوق الرومانية» وواحدة حيث تقع «السوق الفارسية» تقريبًا عند مدخل البحر الفارسي ‹Philostorgius 3.4›.

سواء كان هذا الوصف صحيحًا أم لا[3]، فمن المؤكد أن المسيحية أحرزت فتوحات كبرى في جزيرة العرب في الفترة الممتدة من القرن الرابع إلى القرن السادس ميلادي. كانت الكنيسة في المملكة الساسانية نشيطة جدًا وأسست فروعًا لها. في كل جزر البلدان الساحلية لشرقي جزيرة العرب في هذا العصر (انظر الفصل الأول أعلاه). منذ منتصف القرن الخامس شجعت بيزنطة المسيحية على نحو نشيط في جنوبي جزيرة العرب، أساسًا من طريق حليفتها الحبشة، التي أخمدت صدامات عنيفة مع معتنقي اليهودية (انظر الفصل الثاني أعلاه). لكن

سكان شمالي جزيرة العرب على وجه الخصوص هم الذين انقلبوا إلى المسيحية بأعداد كبيرة في هذه الفترة. في أغلب الأحيان يصورون على أنهم يتقبلون الدين الجديد كونه نتيجة لقدرة الله المسيحي، كما تظهر الأفعال الإعجازية لمختلف الرجال المقدسين:

> تحول بعض العرب إلى المسيحية قبل وقت قصير من عهد فالنس ‹Valens, 364–78›. يبدو أن تحولهم كانت نتيجة لاتصالهم مع الكهنة والرهبان الذين سكنوا بينهم ومارسوا حياة الزهد والتقشف في الصحارى المجاورة، وتميزوا بحياتهم الفاضلة وبأعمالهم الإعجازية. يقال إن أفراد قبيلة بكاملها، وزعيمها زُقُموس (Zocomus)، تحولوا إلى المسيحية وعمّدوا في هذه الفترة، في ظل الظروف التالية. كان زُقُموس لا أولاد له فذهب إلى راهب ذي شهرة عظيمة يشكو إليه هذه النكبة، لأنه لدى العرب، وأعتقد لدى الأمم الهمجية الأخرى، كان يُعدّ إنجاب الأولاد ذا أهمية عظيمة. تمنى الراهب لزُقُموس أن يكون ذا مزاج جيد، وشارك في الصلاة لصالحه، وصرفه مع الوعد بأنه إن آمن بالمسيح فسوف يرزق بابن. عندما حقق الرب هذا الوعد وعندما ولد له هذا الابن، أدخل زُقُموس وكل رعيته معه [إلى الدين الجديد]. منذ ذاك العهد كانت القبيلة محظوظة على نحو خاص وأصبحت قوية من حيث العدد، ومرعبة للفرس، كما هي مرعبة للعرب الآخرين ‹Sozomen 6.38›.

بانتقالهم من الوثنية إلى «الإيمان الصحيح» عُدّ العرب أنهم قد دخلوا حظيرة المتحضرين: «أولئك الذين كانوا سابقًا يسمون ذئاب جزيرة العرب أصبحوا أفرادًا من القطيع الروحي للمسيح» ‹Cyril of Scythopolis 24›:

> كم من العرب الذين لم يعرفوا أبدًا ما الخبز، بل يتغذون على لحم الحيوانات، جاؤوا ورأوا شمعون المبارك وأصبحوا حواريين ومسيحيين، تخلوا عن صور [أصنام] آبائهم وخدموا الرب . . لقد كان من المستحيل عد العرب، ملوكهم وأعيانهم، الذين أتوا وتلقوا المعمودية، وقبلوا الإيمان بالرب واعترفوا بيسوع وبكلمة من شمعون أقاموا المزارات في خيامهم ‹Simeon Stylites 108›.

كان ثمة شعوب كثيرة بين دجلة والفرات في بلاد بين النهرين تسكن الخيام وكانت بربرية ومولعة بالحرب. كانت خرافاتهم كثيرة وكانوا الأكثر جهلاً من كل شعوب الأرض حتى اللحظة التي جاءهم فيها نور المسيح . . فصمم أحودِمَّه المقدس بصبر كبير على زيارة كل مخيمات [مضارب] العرب، ليرشدهم ويعلمهم بمواعظ كثيرة . . كان لديه كهنة يأتون من مناطق كثيرة . . لكي يؤسس في كل قبيلة كاهنًا وشماسًا. أنشأ الكنائس وأسماها بأسماء زعماء القبائل لكي يدعموه . . هكذا استمال قلوب العرب إلى حب الرب وخصوصًا إلى العطاء للمحتاجين . . فامتدت صدقاتهم إلى كل الناس وكل الأمكنة، لكن بشكل خاص إلى الأديرة المقدسة . . ولا يحصرون تقواهم بتقديم الهبات إلى الكنائس والرهبان والفقراء والغرباء، بل يحبون الصيام وحياة الزهد أكثر من المسيحيين الآخرين، إلى حد أنهم يبدأون صيام الأربعين يومًا قبل أسبوع من بدء الآخرين به. إن كثيرًا منهم لا يأكلون الخبز طوال فترة الصيام كلها، ليس فقط الرجال، بل أيضًا الكثير من النساء ‹Ahudemmeh 21, 26–28›.

هذا الحماس توضحه توضيحًا جليًا أفعال امرأة تدعى ماوية:

في هذه الفترة [نحو 370 م] توفي ملك العرب، فغاب السلام الذي كان قائمًا من قبل بين هؤلاء القوم والرومان. إن ماوية، أرملة العاهل الراحل، بعد وصولها إلى حكم شعبها، قادت جيوشها إلى فينيقية وفلسطين وصولاً إلى مناطق من مصر تقع إلى يسار الذين يبحرون صعودًا مع النيل والتي تدعى عمومًا بلاد العرب. لم تكن هذه الحرب بأي وسيلة حربًا تافهة، مع أنها كانت بقيادة امرأة. يقال إن الرومان عدوها شاقة للغاية وخطيرة للغاية إلى درجة أن قائد الجيوش الفينيقية طلب مساعدة قائد كل فرسان الشرق ومُشاته. هذا الأخير سخر من الاستدعاء وتولى خوض المعركة لوحده، فهاجم وفقًا لذلك ماوية، التي كانت تقود جيوشها الخاصة بنفسها، فتم إنقاذه بصعوبة من قبل قائد جيوش فلسطين وفينيقية . . عندما كانت الحرب لاتزال

> مستعرة بضراوة، وجد الرومان أن من الضروري أن يرسلوا وفدًا إلى ماوية طلبًا للسلام. يقال إنها رفضت تلبية طلب الوفد ما لم تعط الموافقة على تسمية رجل يدعى موسى، كان يمارس الزهد في صحراء مجاورة، أسقفًا على رعاياها. كان موسى هذا رجلاً يحيا حياة فاضلة ومشهورًا بسبب أداء الإشارات الإلهية والإعجازية . . فصالحهم مع الرومان وحوّل الكثيرين منهم إلى المسيحية، وأمضى حياته بينهم كاهنًا ‹Sozomen 6.38›.

شايع موسى هذا شكلاً محليًا من المسيحية (يقول بالطبيعة الواحدة للمسيح/المونوفيزية) يختلف اختلافًا دقيقًا عن النسخة الإمبراطورية (الخلقيدونية[ا]) ويوافر البيئة لدرجة من المعارضة الإقليمية للسلطة المركزية، ولذلك لم يكن الخلاف هنا فقط على تعيين كاهن. لقد وضع الزعماء العرب المسيحيين داخل الإمبراطورية البيزنطية ثقلهم خلف العقيدة المحلية، وغالبًا ما كانوا يتدخلون في سياسة الكنيسة، وحتى إنهم يُصورون وهم يشاركون في مناقشات لاهوتية:

> الحارث بن جبلة، ملك العرب المسيحيين، ورفاقه تعرضوا لكثير من الإغاظة من قبل السينودس (المجمع الكنسي) وحتى إنهم لم يتقاسموا الخبز مع الخلقيدونيين. أرسل الإمبراطور، أفرايم بطريرك أنطاكية [توفي في العام 545 م]، إليهم قبل موته. فقال للحارث: 'لماذا أنتم مغتاظون بشأننا والكنيسة؟' فرد الحارث: 'لسنا مغتاظين من كنيسة الرب، بل بالشر الذي أنزلتموه بالإيمان. إننا نفترق عنكم لأنكم تقدمون رباعية [تقول إن المسيح هو الرب والإنسان] في مكان الثالوث وتجبرون الناس على إنكار الدين الصحيح'. فأضاف أفرايم: 'هل يبدو لك فقط إذًا أن تهزأوا بكل أولئك [الستمئة وثلاثين أسقفًا الذين قبلوا عقيدة خلقيدون] وتعانقوا العدد الصغير من الهراطقة؟' فرد الحارث: 'أنا بربري وجندي لا يمكنني قراءة الكتب [المقدسة]، لكن دعني أعطيك مثالاً. عندما آمر خدمي أن يعدوا وليمة لجنودي، وأن يملأوا القدور بلحم الخروف الشهي ولحم البقر ويطبخون، وإذا تبين عندئذ أن في القدور جرذًا متقزمًا، حسنًا أيها البطريرك، ألا يكون كل اللحم الجيد قد دنس بهذا «الجرذ؟»' 'نعم' كان

الرد. ʼإذًاʻ، تابع الحارث ʼإذا تشوهت كتلة جيدة من اللحم بقليل من الدهن الفاسد فكيف لا يكون كل جماعة الذين شايعوا تلك الهرطقة النجسة [هرطقة خلقيدون] ملوثين؟ʻ (Michael the Syrian, 310f).

6 / 3) السحر والطب

إن الممارسات والمعتقدات الدينية، في هذا السياق المشار إليه بوصفه سحرًا، غالبًا ما يكون الهدف منها التلاعب بالقوى الطبيعية أو فوق الطبيعية لغايات عملية. سيحدث هذا عندما تكون القضية التقنية تتجاوز الكفاءة والسيطرة البشريين العاديين، عندما ينطوي الإجراء المسبب المشكوك فيه على مخاطر جدية على الحياة والرزق، يستشير المرء العرافين ووسطاء الوحي، يستخدم الرُقى والجرعات وهلم جرا، عندما تفشل الإجراءات والترتيبات من صنع الإنسان، أو تكون غير وافية. لذلك فإن هذه الاستعانة ليست بدلاً من سيرورة طبيعية ما أو عوضًا عن شرح واقعي، بل بالأحرى إنها تجري ردًا على أسئلة لا يمتلك أي شعب، بما في ذلك نحن أهل العصر الحديث، أي جواب جيد عليها. فنحن قد لا نختار استخدام الساحرات الراقيات لإنهاء جفاف شديد، لكن ذلك ليس لأن بمقدورنا أن نقترح على مواطني مأرب الذين فعلوا ذلك ‹Ja 735› أية طريقة بديلة. وتخفيف الحزن الذي يشعر به عند موت الأحباب بتجرع تراب قبورهم المحلول في الماء ‹الأصفهاني› قد يبدو لنا علاجًا بعيد الاحتمال، لكن مرة أخرى ليس في متناولنا أي دواء أفضل. بالطبع في البلدان المختلفة والمجتمعات المختلفة يؤدي السحر أدوارًا مختلفة. فقد يكون، على سبيل المثال، موجهًا نحو تنظيم العلاقات البشرية وتخفيف التوترات الاجتماعية (هكذا يفعل الأزاندَ [قبيلة في وسط إفريقية، ز م] بحسب إيفانز-بريتشارد Evans-Pritchard) أو نحو إضفاء القيمة على النشاطات والطقوس الجماعية (كما يفعل الأندامان [سكان جزيرة في المحيط الهندي] بحسب ردكليف-براون Radcliffe-Browne). أما في البيئات الخطيرة أو الهشة، مثل بيئة جزيرة العرب، فمن المحتمل أن استعطاف قوى السماء والأرض واختيارها يكون الهم الأول.

إن الإشارات إلى السحر في النقوش نادرة، ومقتضبة ولا تقدم أية معلومات حول طبيعته وطرقه. فعلى سبيل المثال يخبرنا أحد النصوص الصفوية ‹WH

752› أن شخصًا يدعى شراب بن أحبب كان يمر بنوبة من الخبل تعزى إلى تعويذة سحر <ءودحت رقوت>، لكننا لا نعلم شيئًا عن شكلها، وتأثيراتها وطريقة استعمالها. كل ما لدينا هو ما يمكننا أن نجمعه من أحداث معزولة في حكايات إسلامية لاحقة، كتلك التي رُويت عن عائشة، زوج النبي محمد، قالت:

> سحَرَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم رجلٌ من بني زريق يقال له لبيد بن الأعصم حتى كان رسول الله يخيل إليه أنه كان يفعل الشيء وما فعله حتى إذا كان ذات يوم أو ذات ليلة وهو عندي لكنه دعا ودعا ثم قال يا عائشة أشعرتِ أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجليَّ فقال أحدهما لصاحبه ما وجع الرجل فقال مطبوب قال من طبه قال لبيد بن الأعصم قال في أي شيء قال في مُشط ومشاطة وجف طلع نخلة ذكر قال وأين هو قال في بئر ذروان فأتاها رسول الله في ناس من أصحابه فجاء فقال يا عائشة كأن ماءها نقاعة الحناء وكأن رؤوس نخلها رؤوس الشياطين ‹البخاري، الطب›.

هنا لدينا شرح لما يدعى «قانون التعاطف» (law of sympathy) الذي كشفه جيمس فريزر (James Frazer) (صاحب الكتاب الشهير "الغصن الذهبي/ Golden Bough"): إن المواد التي كانت على تماس مع الضحية، مثل الشعر أو قلامات الأظافر، يمكن التلاعب بها سحريًا لإحداث الأذى لدى الضحية، والمبدأ نفسه يصح أيضًا في سياق إيجابي. لقد كان شائعًا، على سبيل المثال، أن يجري تضمين بعض خصلات من شعر شخص ما في تقدمة إلى إله ما، والقصد من ذلك أحداث التماهي السحري بين المقدم والتقدمة. هكذا كان المؤمنين بأقيصير (Uqaysir) في البادية السورية يحلقون رؤوسهم عند مزاره، فيقدمون له خصلات شعرهم ممزوجة بحفنات من الدقيق ‹ابن الكلبي›.

في الرواية الواردة أعلاه عن النبي فإن الكلمة المستخدمة لأجل [فعل] السحر تأخذ أيضًا معنى «المعالجة طبيًا»، وفي الواقع فإن السحر والطب مترابطان ترابطًا وثيقًا في المصادر الإسلامية عن جزيرة العرب قبل الإسلام. تنسب الأمراض الجسدية على نحو روتيني إلى أعمال الجن والأرواح الأخرى، ولذلك

كانت مهمة الطب/ السحر الأبيض هي معاكسة وتحييد هذه القوى الحاقدة. لقد شاع استعمال التمائم التي تنقش غالبًا بأسماء الأرباب، والرقى، المخصصة لصد الحظ السيء، وبالأخص نظرة العين الشريرة، تلك القدرة المؤذية التي يمكن أن تفسد حياة الشخص الذي تقع عليه. لذلك فإن المحارب يمكن أن يضمن أن فرسه ‹المفضليات›:

تعوذ بالرقى من غير خبل وتعقد في قلائدها التميم

لقد تسربت الطريقتان إلى الإسلام، مع أن الصيغ الوثنية جرى استبدالها بصيغ إسلامية:

> عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى الإنسان الشيء منه أو كانت به قرحة أو جرح قال النبي بإصبعه هكذا ووضع سفيان سبابته بالأرض ثم رفعها بسم الله تربة أرضنا بريقة بعضنا ليشفى به سقيمنا بإذن ربنا ‹صحيح مسلم، سلام›.

من الواضح أن اللعاب كان يعدّ أنه يمتلك خواص خارقة للطبيعة، كما يشير إلى ذلك الاستعمال الشائع لكلمة (نَفَثَ) [رضب] في السياقات السحرية. على سبيل المثال، إنه يرتبط بشفاء المرض («فإن يبرأ فلم أنفث عليه» المفضليات) وتفادي الشر («بصق الساحر اتقاءً للعين الشريرة» (أخفش الأصغر)، عندما يوقظك الشيطان بكابوس، «ابصق ثلاث مرات على الجانب الأيسر واستعوذ بالله من شره» البخاري)، وثمة أيضًا تلميح غامض في القرآن (سورة الفلق) إلى النساء اللواتي يبصقن على العقد (النفاثات في العقد). إن العلاجات الطبية الأخرى قد تبدو أكثر مباشرة: الحجامة، الكي، تناول المواد العلاجية (العسل، حليب الناقة وبولها، الكمون الأسود، مرق الشعير) وهلم جرا، ومع ذلك، كما جرت العادة، بقي السحر مطلوبًا لإحداث فعالية السيرورة الطبيعية المرغوبة وضمانها. فلكي تعمل الحجامة على نحو صحيح يجب القيام بها في اليوم التاسع عشر أو الحادي والعشرين من الشهر ‹ابن ماجة، طب›. إن حلاقة الرأس تطرد القمل، لكن لحفظه خاليًا منه يجب على المرء أن يصوم ثلاثة أيام أو يعطي الزكاة (الصدقات) أو يذبح شاة [غنمة] ‹البخاري 4/ 54›. إن الوخز بالإبر يمكن أن يزيل الألم، لكن فقط إذا اقترن بتعويذة ‹مسلم›.

6 / 4) العِرَافة

يهدف هذا الفن إلى التبصر في المجهول، سواء كان في الماضي أو الحاضر أو المستقبل. إنه ليس موجهًا نحو سؤال «ماذا سيحدث؟» بقدر ما هو موجه نحو سؤال "ما الذي يتعين فعله؟". لذلك فإنه يساعد في صنع القرار السياسي والشخصي، وهو يفعل ذلك من طريق نزع القرار من الأطراف المتنافسة وإعطائه شرعية موضوعية، من خلال مصدره الروحي وأدائه التمثيلي الطقسي المقنع. الفرضية الأساس هي أن الآلهة قد أوجدت أشكالاً للتواصل ترشد بها الجنس البشري وتنصحه بكيفية التصرف في العالم السفلي، وتعود إلينا [مهمة] كشف هذه العلامات والإشارات. إن أبسط طريقة قد تكون باستشارة [استخارة] الآلهة مباشرة، في مهابط وحيها، مع أن الرد الذي يجري نقله من طريق الأصوات السرية (الهواتف)، أو الرؤى والأحلام، أو وسط بشري، يبقى مع ذلك بحاجة إلى تفسير. من ناحية أخرى قد يلجأ المرء إلى مراقبة سلوك الطيور والحيوانات والأجرام السماوية إيمانًا منه بأن حركاتها إنما تحكمها قوى عليا ولذلك فهي تنقل رسالة (فأل)، أو قد يلجأ المرء إلى حيل الحظ، وإلقاء القرعة وما شابه، أملاً بأن يتلقى إلهامًا في اختياره. أخيرًا، قد يعتمد المرء على خدمات عراف [بصّار] روحي، يكون قادرًا على رؤية المجهول ومعرفة المخفي.

في جنوبي جزيرة العرب، كان الوحي الإلهي، على نحو غاية في المنطقية، (مكانًا/ أداة للسؤال <مسءل>). كان الإله في أغلب الأحيان يرد مباشرة على المستفهم ب «جعله يرى» <هرءيهو> رؤية ‹CIS 4.357, RES 4052› أو حلمًا ‹RES 3929, Ja 567›، وحتى بجعله يتكلم شخصيًا إليه (ZI 22). في حالات أخرى كانت من الممكن أن تنقل الآلهة رسالتها على نحو غير مباشر من طريق وسيط. ففي مقام جار اللبّا، غرب بيدا، عثر على حجرين يحملان نقشين ‹CIS 4.460–66›، لسوء الحظ أنهما مفتتان، يصفان بالتفصيل الإجراء المتبع لاستجداء «رد إلهي». يبدو أن الطريقة كانت بجلب قربان وربما التضحية مباشرة، ثم «توجيه السؤال إلى وسيط الوحي من فوق المذبح القرباني». بعدئذ على المرء أن ينتظر حتى يكون المرافق قد «سلّم الرد الوحيي بوحي من 'عشتار'، وأخيرًا يقدم أضحية الشكر عند استلام رد إيجابي». كان الطقس المتبع لأجل ذلك يتضمن فصولاً مثل إعلان أن «تقدمة الدم قد سفكت»، ملتفتًا نحو الحد الذي يحدده هذا العمود مرة واحدة ونحو العمود المقابل ثلاث مرات و«الانحناء إلى الأسفل في أثناء الالتفات ثلاث مرات». كما يبدو فإن وسيط الوحي يتعين

عدم استشارته على نحو عشوائي إذ يجري تخصيص أيام معينة من أشهر معينة على نحو دقيق تحصل فيها الشعائر. إن ذكر تكرار التضحيات مرتين و«الفألات المنذرة بالشر او العين الشريرة» يوحي أنه في بعض الحالات لم تكن توجد أي لفظة في المتناول. كان الملاذ الوحيد عندئذ هو تكرار التضحيات إلى أن يُعطى الجواب. ثمة وصف مماثل مدون في نقش معيني حيث تقدم الأضاحي لكي ينتزع من عشتار قرارًا يتعلق باليوم الذي يتعين فيه الاحتفال بالعيد. فإذا لم تحقق نتيجة من طريق هذه الوسيلة، كان يصدر أمرًا بأن الأضاحي ينبغي «زيادتها وجعلها أكثر وفرة» حتى يجعل الإله رأيه معروفًا ‹M 293›.

إن المألوف لنا أكثر من رسائل الوحي هو الفألات، التي ورثنا منها مخزونًا كبيرًا (القطط السوداء، السماوات الحمراء، طيور العقعق، المرايا المكسورة، إلخ)، حتى لو كنا لا ننتبه إليها كثيرًا الآن. إنها ظاهرات طبيعية أو أحداث تعدّ مؤشرة على المسار المستقبلي المحتمل للأحداث، «آيات لذوي الألباب» (القرآن). في مؤلفه العظيم ‹في العرافة/ Cicero, on Divination) يفتتحه سيسرو بقوله: «إن العرب والفريجيين والقيليقيين يجولون شتاءً وصيفًا عبر السهول والجبال، ولذلك يمتلكون فرصة وافرة لمراقبة صوت الطيور وطيرانها» ‹1/ 42›. بالفعل إن «العرب ينتبهون إلى كل إشارات الطيور» ‹1/ 41›. هذا ما أقر به المؤرخ اليهودي[! ز م] في القرن الأول الميلادي، يوسفوس، الذي يروي أن الملك النبطي حارثة الرابع [8 ق م– 40 م]، لدى علمه بأن الإمبراطور طِبِريُس قد أرسل جيشًا لمعاقبته بسبب غارة ضد الملك اليهودي هيرود [؟ كذا!، الصحيح "حرد" العربي – ز م]، «استشار طيران الطيور» (التطيّر) (oiônoskopia). ومن هذا عرف أن «جيشه [طِبريُس] لا يمكنه بأي شكل من الأشكال أن يدخل البتراء، إذ سيموت أحد القادة، إما الذي أصدر الأوامر بشن الحرب أو الذي انطلق لينفذ قراره» ‹18. 125›. من المؤكد على نحو كاف أن طِبِريُس توفي بعدئذ بوقت قصير وأن القائد العسكري الذي جرى تكليفه بالإغارة على حارثة الرابع قد أجبر على الانسحاب. المثال الآخر على هذه الممارسة يجري تقديمه في القرآن، الذي يصف رد قبيلة ثمود على النبي الصالح الذي أرسل لينذرهم من طرقهم الفاسدة. فقد أخبروه أنه ﴿اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ﴾ ودبروا له مكيدة (سورة النمل 47، سورة يس 18). ومع أن المصطلح في الحالتين يمكن أن يشير إلى التنبؤ على نحو عام فإن البحث في أصل الكلمات يبين أن

المعنى الأصلي ينطبق على الطيور بشكل خاص. علاوة على ذلك فإن التعبير القرآني يعطى دائمًا التفسير العام نفسه من قبل المعلقين (الشراح) والمعجميين المسلمين: إن «العرب، عندما كانوا يرغبون في أن يبدأوا أمرًا، كانوا يمرون بالأمكنة التي تكمن فيها الطيور على الأرض، ويُجفلونها لكي يعرفوا من ثم ما إذا كانت ستطير أم ستحجم عن الطيران»: كان المحك الأساس هو الاتجاه: فإذا طارت إلى اليمين كان فألاً جيدًا أو إلى اليسار كان فألاً سيئًا، مع أنه كان ثمة تدقيقات (تفننات) أبعد من ذلك، ولم يكن طيران الطيور وحده ميمونًا، بل أيضًا طبيعة صيحاتها ومكان حطها، ولم تكن الطيور وحدها هي المنذرة أو المبشرة، بل كذلك الحيوانات وسلوكها، والنجوم والكواكب وحركاتها.

كانت الممارسة الكهانية الأخرى الواسعة الانتشار هي ممارسة اتخاذ القرار في أثناء الفعل من طريق اللجوء إلى التقنيات القائمة على الصدفة أو القرعة/ (النصيب). مرة أخرى جرت إحالة ذلك إلى حد كبير إلى هوامش ثقافتنا، مع أنه ظل باقيًا في تعابير من قبيل "سحب العود القصير". كان ثمة ثلاث طرق شعبية بشكل خاص في جزيرة العرب قبل الإسلام. لا نعرف عن اثنتين منها، هما رسم العلامات في الرمل وعلى الصخور أو رمي الحصى، سوى القليل جدًا[4]، لكننا نستطيع أن نخمن أن القرار كان يقوم على ما إذا ظهر عدد وتري (سيء) أو عدد شفعي (جيد) أو على الأنساق التي تشكلت. نمتلك معلومات أكثر بكثير عن التقنية الثالثة، أي الاختيار على نحو عشوائي من مجموعة من السهام المعلّمة بإرشادات. إن أبسط شكل إنما تشرحه حكاية حول الشاعر المشهور امرؤ القيس (توفي نحو 550 م]، الذي طلب المشورة حول ما يجب فعله بخصوص قتل أبيه على يد قبيلة أسد:

> لما أقبل امرؤ القيس بن حجر، يريد الغارة على بني أسدٍ، مر بذي الخلصة وكان صنمًا بتبالة وكانت العرب جميعًا تعظمه، وكانت له ثلاثة أقدح: الآمر، والناهي، والمتربص فاستقسم عنده ثلاث مرات. فخرجً الناهي، فكسر القداح، وضرب بها وجه الصنم، وقال: عضضت بأير أبيك! لو كان أبوك قتل، ما عوقتني. ثم غزا بني أسدٍ، فظفرت بهم ‹ابن الكلبي، الأصفهاني›.

ثمة شكل أكثر تطورًا تأكد وجوده في الحرم القدسي في مكة، الذي يشرف عليه الصنم هبل:

وكان عند هبل قداح سبعة، كل قدح منها فيه (كتاب: قدح فيه) (العقل) إذا اختلفوا في العقل من يحمله منهم، ضربوا بالقداح السبعة، فإن خرج العقل فعلى من خرج حَمْلُه، وقدح فيه "نعم" للأمر إذا أرادوه يضرب به في القداح، فإن خرج ذلك القدح لم يفعلوا ذلك الأمر، وقدح فيه "منكم"، وقدح فيه "ملصق"، وقدح فيه "من غيركم"، وقدح فيه "المياه" إذا أرادوا أن يحفروا للماء ضربوا بالقداح، وفيها ذلك القدح، فحيثما خرج عملوا به، وكانوا إذا أرادوا أن يختنوا غلامًا، أو ينكحوا منكحًا، أو يدفنوا ميتًا، أو شكوا في نسب أحدهم، ذهبوا به إلى هبل وبمئة درهم وجزور، فأعطوها صاحب القداح الذي يضرب بها، ثم قربوا صاحبهم الذي يريدون به ما يريدون، ثم قالوا: "يا إلاهنا، هذا فلان بن فلان قد أردنا به كذا وكذا فأخرج الحق فيه". ثم يقولون لصاحب القداح: "اضرب" فإن خرج عليكم «منكم» كان منهم وسيطًا، وإن خرج عليه «من غيركم» كان حليفًا وإن خرج عليه «ملصق» كان على منزلة فيهم، لا نسب له ولا حلف، وإن خرج فيه شيء، مما سوى هذا ما يعملون به «نعم» عملوا به، وإن خرج «لا» أخروه عامه ذلك حتى يأتوا به مرة أخرى، ينتهون في أمورهم إلى ذلك ما خرجت به القداح ‹ابن هشام، السيرة›.

هذه الممارسة، رغم أنه من المحتمل أن تتغير كثيرًا في الشكل والدلالة في المناطق المختلفة، يبدو أنها كانت موجودة في كل أنحاء جزيرة العرب. إننا نجدها تؤدى في بلميرا/تدمر شمالاً، حيث يرد ذكر «حوض من الفضة [الرمي] القرعة/ (الحلق)» على نقش تبجيلي من معبد اللات، ويتأكد ذلك أيضًا في اليمن جنوبًا، حيث تظهر عبارة «رمي السهام بالقرعة» (تقرع شلتم) ‹NAG 12›، مثلما يظهر مصطلح «مكان رمي القرعة» ‹مقسم/ CIS 4.548 mqsm›.

لم تكن القدرة على التكهن ممنوحة للجميع. «وهي تكون في العرب على الأكثر، وفي غيرهم على وجه الندرة، لأنه شيء يتولد على صفاء المزاج الطبيعي، وقوة مادة نور النفس . . وإذا هي تفردت فكرت، وإذا فكرت تعدت، وإذا تعدت هطل عليها سحب العلم النفسي . . وربما قويت النفس في الإنسان فأشرقت على دراية الغائبات قبل ورودها» ‹المسعودي›. لذلك ظهر متخصصون في العرافة من المرجح أنهم كانوا عصاميين، أي إن سلطتهم لا تستمد من منصب وراثي، بل من

نجاحهم في إعطاء المعلومات الدقيقة. هذا يعني أنهم كانوا في أغلب الأحيان نساء مثلما كانوا رجالاً. كان الكثيرون منهم متجولين، يقدمون خدماتهم في الأسواق الموسمية للحج، والأسواق الحولية والتجمعات القبلية، والقليلون منهم مرتبطين ببلاطات [الحكام] عندما توجد، أما الآخرون فقد كانوا يمتلكون مقرات ثابتة يأتي إليها زبائنهم، من أمكنة بعيدة غالبًا. كان بمقدروهم أن يقرروا متى يكون أفضل وقت للزواج أو السفر أو الانخراط في العمل العسكري، وأين شردت الحيوانات، أو من الذي قتلها، ومن سرق ملكية شخص ما، وما نسب شخص مجهول، وما المستقبل الذي ينتظر أولاد شخص ما، وما نتيجة مواجهة عسكرية ما، وكيف سيموت المرء، وهلم جرا. في أوقات الكارثة الكبيرة أو الاضطرابات فإن هؤلاء العرافين يمكن أن يفيدوا كقادة، لأن اتصالهم مع الوحي الإلهي يمنحهم السلطة لتجاوز التنافسات الصغيرة بين الزعماء التي من شأنها أن تعيق العمل الجماعي. في هذه الحالة يكون هؤلاء في أغلب الأحيان من النساء، نظرًا لأنهن كن بعيدات عن المسار الاعتيادي للسياسة القبلية ليس فقط من طريق رادعهن الفوق طبيعي بل أيضًا بفضل جنسهن. هكذا فإن امرأة تدعى طريفة تنبأت بانهيار سد مأرب وقادت شعبها شمالاً، وهي توزع النصائح على طول الطريق ‹النويري›. ثمة رؤيوية أخرى باسم زرقاء بنت زهير التي وحدت عشائر قُضاعة المشتتة المتعددة تحت اسم تنوخ ونصحتهم بالرحيل عن البحرين والاستقرار في جنوبي العراق ‹الأصفهاني›. والعرافة سجاح جمعت جماعات متفرقة من تميم في محاولة لمواجهة القوة المتنامية لدولة محمد المدينية في عشرينات القرن السابع ميلادي [620 م] ‹الطبري›.

6 / 5) الأمكنة المقدسة، المناصب المقدسة، الأوقات المقدسة

إن فكرة احتلال الآلهة أمكنة معينة بسبب ارتفاعها الكبير، أو جمالها الفائق، أو خضرتها الوارفة أو ما شابه، قديمة جدًا، ووجد كثير منها في جزيرة العرب. أما المصطلحات المستخدمة للتعبير عنها فكانت في العادة ذات صلة بالحماية والتحريم (الحِمى، الحرم، المحرم)، لأن كل الكائنات الحية بداخلها كانت تعدّ حرامًا وكان كل استعمال للعنف ممنوعًا. في كثير من أنحاء جزيرة العرب كانت الحرمات (المزارات) في الهواء الطلق، مع كون المعالم الطبيعية للبقعة كافية لتمييزها. فقد تكون هذه نبع ما مع ما يحيط به من الخضرة الغنية أو رقعة من غابات تسكنها الأسود، أو صدعًا ظليلاً في سفح الجبل أو ربوة منعزلة

ناهضة من الصحراء. كانت حدود الأرض المقدسة ترسم عادة على نحو واسع نوعًا ما، تطوق المركز المقدس من الجهات كافة، حيث يكون المكان كله معَّلمًا تقريبًا بالأعمدة أو ركامات الحجارة في المدن. وحيث كان المال متوافرًا، كان المكان المقدس محددًا بالجدران ويُملأ بالإنشاءات المزخرفة، مكونة عندئذ ما ندعوه بالمعبد. كان تعليق الحالة العادية للتنافس البشري بداخله يخدم وظيفتين كبيرتين. في المقام الأول كان ذلك طريقة لإزالة الصراع الكامن على الموارد النادرة ولذلك كانت أمكنة الخضرة الكثيفة والماء الوفير تحول إلى مزارات:

> بعد العمق الداخلي الأقصى [لشمال غربي جزيرة العرب] توجد منطقة على طول البحر يبجلها السكان الأصليون بشكل خاص بسبب المزية التي تنشأ عنها عندهم. إنها تدعى بستان النخيل وتحوي عددًا كبيرًا من الأشجار من هذا النوع الذي يكون مثمرًا على نحو مضاعف، ويقدم درجة غير عادية من الاستمتاع والترف. لكن كل الريف المحيط به يفتقر إلى ينابيع الماء وهو حار ملتهب لأنه ينحدر إلى الجنوب. وفقًا لذلك فقد كان من الطبيعي أن يجعل البربريون المكان مقدسًا، وهو الذي كان مليئًا بالأشجار، ويقع في وسط منطقة مقفرة تمامًا، ويؤمن لهم الغذاء، وبالفعل لم تكن قليلة الينابيع والجداول التي تتدفق من هناك، الأمر الذي لا يُحدث الصقيع في فصل البرد، وهذه تجعل الأرض على الجانبين خضراء ومبهجة تمامًا. علاوة على ذلك، ثمة مذبح مبني هناك من الحجر الصلد وهو موغل جدًا في القدم، يحمل نقشًا بأحرف قديمة من لغة مجهولة ‹Diodorus 3.42›.

في المقام الثاني كان ذلك يؤمن مسرحًا لإنجاز نشاطات الأفراد والجماعات خاليًا من أي تشويش:

> هكذا أمر ورسم [الإله] نكرح في وحي إلهي أن يقام مزار مقدس (وثن محرم) . . وكذلك أمر في وحي . أن أي شخص يتحرش بالمرأة التي تصاب بإجهاض أو التي تلد أو تكون مصابة بمرض عضال، يمنع من دخول هذا المكان الملاذ ‹درب الصابي›.

كان بمقدور المرضى والمحتاجين أن يتضرعوا إلى الإله المقيم طلبًا للفرج

والمساعدة، وبمقدور المذنبين أن يقدموا الاعترافات والتكفير والطلب المرتبك للنصائح والحل لمشكلتهم، وبمقدور المضطهدين أن ينشدوا الملاذ والملتجأ الآمن. كانت تعقد المواثيق والاتفاقيات، فتُستدعى الآلهة لتقوم بدور الشاهد والكفيل؛ فكانت تؤدى الطقوس المختلفة والشعائر العديدة.

المناطق المقدسة ليست في حاجة إلى الحراسة، لكن في كثير من الأمكنة كان ثمة حارس واحد على الأقل أو قائم بالوظائف العبادية (اللوحة 21)، كما كان الحال في بستان النخيل الآنف الذكر:

> يكون الإشـراف على المكان المقـدس برعاية رجل وامرأة يتوليان المنصب المقدس طوال الحياة، يكون ساكنا المكان معمرين ويتخذان من الأشجار فراشًا لهما بسبب خوفهما من الوحوش البرية ‹Diodorus 3.42›.

وكذلك كان الحال عند جبل في صحراء سيناء:

> على هذا الجبل يوجد مكان أقام فيه العرب وثنًا لهم، من الرخام الأبيض الثلجي، يعيش كاهنهم (Sacerdos) أيضًا هناك، ويرتدي دلمطيقًا وعباءة من الكتان ‹Antoninus Placentinus 148›.

وساد الوضع نفسه في مواقع أخرى عديدة، مع أن النقوش تسجل فقط وجود هؤلاء الموظفين، وليس وصفًا لعملهم. تختلف الكلمة المستعملة للمنصب، فربما تعكس التفضيل الثقافي-اللغوي أكثر ما تعكس الواجبات المتضمنة. ففي الحجاز كان أفكل المصطلح المعتاد (مثال ذلك أفكل اللّه في روّافة، BIA 10.58، أفكل ود، أفكل كُتبة، وأفكل اللات في ديدان، 55 ،277 ،JS Lih 49، ارتبطت أفكل ذو شرا، وهُبل ومناة في الحجر/ مدائن صالح، H16)[5]. في منطقة سيناء-النقب-حِسمى كانت الكلمة المستخدمة هي كاهن (مثال ذلك كاهن اللات في رم، RB 41.591، كاهن العزى في سيناء، CIS 2.611, 1236). وفي مناطق النفوذ الآرامي كانت الكلمة هي <كمرا> (مثال ذلك كمرا اللات في هبران في حوران، CIS 2.170، Passim في بلميرا/تدمر والحضر). كانت المهمة الأساس المفترضة لهؤلاء الموظفين صون المنطقة المقدسة وخدمة الزوار، باستلام تقدماتهم، ومساعدتهم في طقوسهم، وجمع غراماتهم ورسومهم (التي ربما كانوا يتقاضون رواتبهم منها) وتأمين الخدمات العرافية. في المزارات الكبرى، وخصوصًا في معابد المدينة، كانت هناك هيئة دينية أكثر تخصصًا. كانت الإلهة السبئية ذات بَعدان

تحظر التوسل [الابتهال] لها «عندما لا يوجد في المزار أي كاهنة أو عرافة» حيث كان المصطلح المستخدم لهذه الأخيرة، حرفيًا هو «الحالمة/ <حلمت>»، ما يوحي بوجود نوع ما من الوسيط ‹Nami 74›. ويشهد على وجود منصب مماثل في الحضر نقش ينظم العقوبات ضد السرقة من معبد ويختم بأن «الحالم <حلما> قد أظهر أن [الآثم] ينبغي أن يرجم بالحجارة» ‹IIH 281›. في ريبون في حضرموت يبدو أن الكاهنات كنَّ أيضًا يتولين العمل الاجتماعي، مثل القضاء في حالات النزاعات الزوجية ‹SOYCE 706›. لا نميز في أي مكان وجود طبقة كهنوتية، لكن المناصب يمكن أن تكون وراثية وكانت في بعض الأحيان حكرًا على جماعة قبلية بعينها. على سبيل المثال إن سلالة قصي يبدو أنها كانت مرتبطة بشكل خاص بعبادة الإله اللات في صلخد في حوران. في العام 56 م قام رواح بن مالك بن أكلب بن رواح بن قصي بإعادة بناء المعبد الذي، كما يقول، أسسه جده رواح بن قصي. وفي العام 95 م خضع لترميم آخر على يد فرد آخر من العائلة ‹CIS 2.182, NIN 1›.

في عدد من هذه الأمكنة المقدسة، كان الحج يتم في أوقات ثابتة محددة من السنة. فقد كان السبئيون، على سبيل المثال، يتراصون في موكب سنوي إلى معبد ألمقه في مأرب في وقت الأمطار الصيفية. ولم يحضر أهل مأرب وحدهم، بل كان حلفاؤهم أيضًا يتوقع منهم أن يرسلوا مندوبين، كما جرى تذكير قبيلة سمعاي في مرسوم لإلههم الحامي تألب ‹RES 4176›. كان تألب أيضًا مقصدًا للحج في مقره الجبليِ في أرض همدان ‹GI 1361; Hamda 8.82–83›، وكان الناس يذهبون إجلالاً لذو سماوي في ياثيل ‹CIS 4.547› وإجلالاً لصيين في شبوة ‹Ir app. B3›، لأن الحجاج كانوا مجبرين على وضع أسلحتهم جانبًا طوال فترة الشعائر ‹CIS 4.548›، وعلى الامتناع عن العلاقات الجنسية ‹CIS 4.533›، وكانوا يرتدون أثوابًا خاصة أو حليًا لإعلان أنهم مُعفَون مؤقتًا من القواعد المعتادة للسلوك القبلي. في وسط جزيرة العرب وشماليها كانت هذه الأحداث تشكل جزءًا من ظاهرة أكبر بكثير، هي أسواق الحج الموسمية، التي تحدث في أشهر محددة على نحو خاص كأشهر مقدسة وخالية من العنف [الأشهر الحُرُم]:

> معظم العرب، الذين [يقطنون] في بستان النخيل والذين خارجه وفي ما تدعى الجبال الطورانية؟/ جبل طي [Taurenian]، يقدسون بقعة موقوفة لأحد الآلهة، فيجتمعون هناك مرتين في السنة. يمتد

الاجتماع الأول على مدى شهر بكامله ويحدث في نحو منتصف الربيع، عندما تعبر الشمس برج الحمل، في حين يدوم الاجتماع الآخر شهرين، ويحتفلون بهذا بعد الانقلاب الصيفي. في هذين الاجتماعين يعقدون سلامًا كاملاً، ليس فقط تجاه بعضهم بعضًا، بل أيضًا تجاه كل الناس المقيمين في بلادهم. يزعمون أن الحيوانات البرية تكون مسالمة مع الإنسان، وليس هذا فحسب، بل إنها تكون مسالمة مع بعضها ‹Nonnosus cited in Photius 3›[6].



اللوحة 21: عمود حجري كلسي من تيماء يحمل نقشًا آراميًا من 23 سطرًا على واجهته والمنظر مبين هنا على جانب واحد. يظهر السجل العلوي شخصًا بصورة جانبية ذا رداء طويل وقبعة مخروطية وعصا يقف تحت قرص شمسي مجنح، ربما يمثل الإله سلم. السجل السفلي يصور مذبحًا مع رأس ثور أمامه، وفقًا للنقش، الكاهن سلم-شزيب الذي يقوم بنصب أحد تجليات سالْم <سلم هجم> في تيماء ‹P. & M. (Chuzeville, Louvre AO1505).

تعليق العداوات هذا كان يتيح المجال لازدهار تشكيلة كاملة من النشاطات وسيادة جو شبه كرنفالي:

> ثم يرتحلون إلى عكاظ في الأشهر الحرم، فتقوم أسواقهم بها، فيتناشدون ويتحاجّون ويتحادّون، ومن له أسير يسعى في فدائه، ومن له حكومة ارتفع إلى الذي يقوم بأمر الحكومة من بني تميم، ثم يقفون بعرفة ويقضون ما عليهم من مناسكهم؛ ثم يتوجهون إلى أوطانهم ‹أبو حيان التوحيدي، الامتاع والمؤانسة›.

> ذهبنا سيرًا على الأقدام عبر الصحراء لمدة خمسة أو ستة أيام. كانت الجمال تحمل ماءنا الذي يتلقى كل واحد منا باينتًا منه في الصباح وباينتًا في المساء. عندما صار الماء في القُرب الجلدية مرًا، وضعنا الرمل فيه لتحليته. علاوة على ذلك فإن عائلات العرب، أو بالأحرى نساءهم، آتين من الصحراء وجلسن بجانب الطريق، نصف عاريات يبكين ويستجدين الطعام من المسافرين. فظهر أزواجهن وجلبوا قربًا من الماء البارد من عمق الصحراء وقدموا بعضًا منه لنا وأخذوا الخبز بالمقابل. جلبوا أيضًا باقات من الجذور، كانت رائحتها العطرة تفوق كل العطور. لم يكن يباع أي شيء، لأنهم يعدون ذلك شيئًا محرمًا فيما هم يحتفلون بأيامهم المقدسة، ولأن أيام عطل العرب كانت تقترب الآن من نهايتها، فقد كان يذاع إعلان [نظرًا لأن تعليق العنف كان أيضًا في نهايته] يحذر من البقاء في الصحراء أو العودة عبرها ‹Antoninus Placentinus 147, 149›.

في بعض الأمكنة كانت المقايضة فقط المسموحة، وليس التجارة:

6 / 6) التقدمات إلى الآلهة

كانت الوسيلة الأكثر شيوعًا لإقامة صلة مع الإلهي، ومن ثم التأثير فيه هي اقتطاع شيئًا مما بتصرف المرء وإهداؤه إلى إله (اللوحة 22). عمليًا كان بالإمكان تقديم أي شيء إلى الإله، لكن كلما كبر التأثير المرغوب وجب أن يكون [الشيء] أغلى ثمنًا. أما التقدمات الأكثر شيوعًا فكانت الحيوانات والمحاصيل والطعام والسوائل (الحليب والخمر كونها سوائل إراقة)[ب]، والصفائح المعدنية المنقوشة أو الألواح الحجرية، والنباتات العطرية (التي تحرق عادة لإنتاج روائح

عطرة)، والصروح (الجدران، الأسقف، المعابد، الآبار، الأعمدة، إلخ). والأشياء المصنّعة (المذابح، محارق البخور [المباخر]، طاولات الإراقة، الألواح المعدنية، التماثيل، التمياثيلات، إلخ). كان العرب رعاة الإبل ينذرون بعض بهائمهم إلى الآلهة، فيستبعدونها من السخرة ويتركونها تموت ميتة طبيعية. يقدم القرآن (المائدة 103) عددًا من الأمثلة، مثل الناقة الأخيرة في سلسلة من الإناث المولودة لأم واحدة (بَحيرة) وناقة عاشت لترى ذريتها تلد ذرية (سائبة). فكانت تشرم (تشق) آذانها للدلالة على أنها في حالة التحريم [التابو]. وتترك لترعى من دون راع. في العصور القديمة كان العرب الجنوبيون يسلمون أنفسهم وأبناء عائلاتهم المبَاشرين إلى الآلهة، بما أن كثيرين من هؤلاء المقدمين للتقدمات من منزلة راقية، فربما لم يكن ذلك يعني أي نوع من العبودية المقدسة، بل بالأحرى الولاء التام لجماعة العبادة. فعلى سبيل المثال، كان موضوع تقدمة ملك حضرموت، المقدم إلى سايين وآلهة شبوة، «روحه، ملكاته، أولاده، أمتعته، نور عينيه، ومشاعر قلبه، إيمانًا [منه] بالحماية الإلهية» RES 2693). في تاريخ لاحق كان المتعبدون يقدمون تماثيل صغيرة لهم بدلاً من تقديم أنفسهم مباشرة، مع أن الهدف ربما بقي هو نفسه إلى حد كبير، أي طلب حماية الآلهة. كانت القرابين البشرية تقدم من حين لآخر في جزيرة العرب، فكان الضحايا عمومًا من أسرى الحروب، الذين يمثلون حصة الإله المانح للنصر من الغنيمة ‹جذمة؛ معسل›[7]، مع أن الأشكال الأخرى من الممكن أن تكون قد وجدت[8].

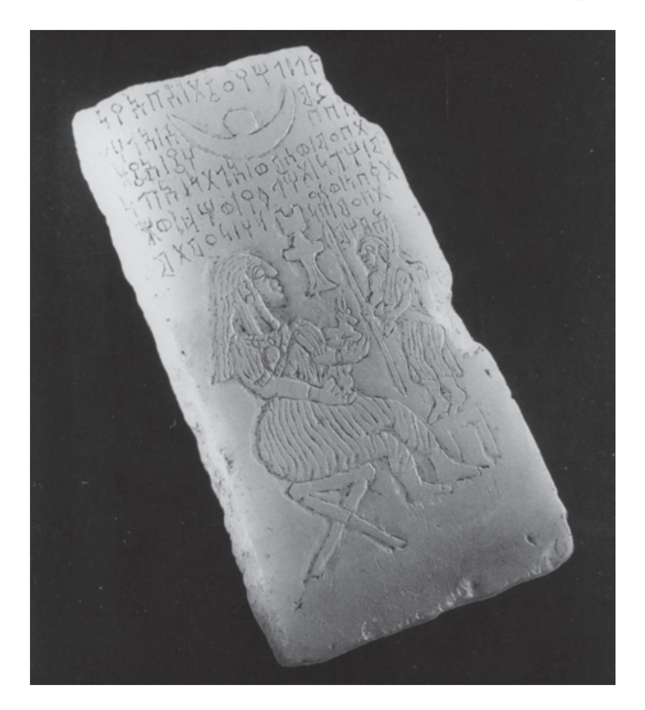
في المعابد والأمكنة المقدسة كانت التقدمات تجري على نحو منتظم، خصوصًا في الثقافات الأكثر تطورًا حيث كانت الخدمة منظمة أكثر وفقًا للأعراف المتبعة في البلاط الملكي. فقد لوحظ أن النبطيين، على سبيل المثال، «يعبدون الشمس، يبنون مذبحًا على سطح البيت، ويسكبون سوائل الإراقة عليه يوميًا ويحرقون البخور» ‹Strabo 16.4.26). وفي جنوبي جزيرة العرب من الشائع أن نقرأ على مذبح ما يشبه التالي: «على هذا سيذبح الملك ثورًا في اليوم التاسع من شهر ذي ثور» ‹RES 3104). يقدم التقويم الزراعي/الرعوي أيضًا مجموعته الخاصة من المواعيد للتقدمات، فعلى وجه الخصوص كانت هناك الممارسة الواسعة الانتشار جدًا لتقديم بواكير الثمار/ بواكير الولادة [الأولاد البكر]، حيث يقدم للإله المعني مقدار من المحاصيل المجنية/ الحيوانات الصغيرة المولودة امتنانًا لسخاءه. وكان ثمة مناسبات مختلفة في حياة الفرد تستتبع عادة التقدمات مثل الولادة، البلوغ، الزواج والموت، لأن هذه كانت أوقات انتقال، وكان الانتقال يعدّ

دومًا ظاهرة حافلة بالخطر المحتمل الذي كانت أفضل طريقة لتقليله هي من طريق استمالة الآلهة إلى جانب المرء. إن تخليد ذكرى حدث عظيم، سواء كان تاريخيًا أو خلافه، يمكن أيضًا أن يصبح جزءًا محددًا من التقويم ويتطلب حتمًا تقدماته الخاصة به:

> في بستان النخيل الآنف الذكر كان يقام مهرجان كل أربع سنوات تتزاحم إليه الأقوام المجاورة من كافة الجهات، للتضحية لآلهة المنطقة المقدسة بأعداد كبيرة من الإبل المسمّنة وكذلك لكي يعودوا إلى بلدانهم الأصلية بشيء من ماء المكان، لأن الاعتقاد المتناقل الذي كان سائدًا هو أن هذا الشراب يمنح الصحة للذين يتناولونه ‹Diodorus 3.43›.

> هناك يجب تقديم تقدمة (قربان) محروقة كل سنة في اليوم الخيّر إلى الأبد، في العام 474 [163 م]، في اليوم السادس من نيسان [أي ذكرى إنشاء معبد بلْ في بلميرا/تدمر، الذي جرى تدشينه في 6 نيسان عام 32 م ‹RES 2157›.

كان ثمة أيضًا مناسبات غير عادية للتقدمات تخلقها الحدوثات، الخاصة أو الاستثنائية في حياة الجماعة والفرد ليس لها مواعيد ثابتة، وهذه قد تكون مناسبات سعيدة، يمكن فيها كشف أفعال العناية الإلهية، مع أنه في غالب الأحيان كانت الأزمات هي التي تتطلب هذا الفعل، أملاً في استعطاف الآلهة وإبعاد الكوارث التي تحل بالجنس البشري دوريًا. نظرًا لأهمية المطر في كل مكان في جزيرة العرب، فإن الجفاف كان يحتم تقديم الأضاحي، وفي جنوبي جزيرة العرب كان ثمة شعيرة خاصة تتضمن تقديم الأضحية ينفذها طاقم ديني متخصص محدد (rshw', e.g. CIS 4.967, G1 1766 / <رسهو>). إذا كانت الفوائد وشيكة أو كانت الأضرار قد تم تجنبها، عندئذ فإن ذلك سيكون مناسبة طبيعية لتقدمة (قربان) الشكر. وبعد اقتراف ذنب ما أو انتهاك محرّم ما فإن التقدمة التكفيرية سوف تساعد على استعادة العلاقة الجيدة الطبيعية بين الإنسان والإله. هذه الممارسة تأكد وجودها في جنوبي جزيرة العرب، حيث وصفت الطبيعة الدقيقة للخرق (المخالفة)، التي تكون مرتبطة غالبًا بخرق قوانين الطهارة، على نقش مرافق[9].



اللوحة 22: عمود حجري من المرمر صنعه لحيا عثت السبئي لصالح أبي بحت زوج تبّع بن صُبح للإلهة شمس. الشخص المذكر الواقف، من المفترض أنه طبّاع، مجهز بقوس ورمح وخنجر، ويقدم مع زوجته، المرأة الجالسة، «الغنائم» (المارية والمزهرية) التي وعدا بها للإلهة. ثمة مذبح-بخور بين الاثنين وهلال وقرص فوقهما، القرن الأول ميلادي، 20,6 × 10,5 سم، (متحف صنعاء الوطني).

بين شعوبٍ جزيرة العرب، وخصوصًا بين القبائل الرعوية، كانت الأضحية الحيوانية شكلاً من التقدمة يمارس على نحو شائع جدًا. فكان يتم اختيار البهائم الداجنة، وخصوصًا الجمل، والغنم والثيران، والطرائد نادرًا ما تُذكر، والطيور الداجنة لا تُذكر أبدًا. لم تكن شعيرة التضحية مرتبطة بموقع بعينه، مع أننا غالبًا ما نسمع عن كونها تؤدى في نوع ما من المكان المقدس. ولا كان تنفيذ الشعيرة مقصورًا على جماعة كهنوتية، بل يمكن أن يقوم بها الناذرون أنفسهم (مع أنه من غير المحتمل أن تقوم بها النساء) أو، في حالة التضحية الجماعية، من رئيس الفئة الاجتماعية ذات الصلة (أهل البيت، الذرية، العشيرة، إلخ). لا نعرف سوى القليل جدًا عن الآلية الفعلية للشعيرة إذ لابد أنه كانت هناك كلمات خاصة تُلفظ وأفعال تؤدى لنقل دراما الحدث، كما يشير إلى ذلك الوصف الآتي:

> يُركعون [ينخخون] جملاً لا عيب فيه، أبيض اللون على الأرض ويمشون كلهم معًا حوله ثلاث مرات في دائرة واسعة. يقود أحد قادتهم أو أحد الكهنة المقدسين من ذوي السن والمرتبة المناسبتين الموكب والترنيمة المؤلفة تمجيدًا لنجمة الصبح. بعد الدورة الثالثة، في حين لا يكون الناس قد كفوا عن الإنشاد بعد، لكنهم لا يزالون يحملون الكلمات الأخيرة من الترنيمة على شفاههم، يستل القائد سيفه ويهوي به بقوة على عنق الجمل، فيكون أول من يتذوق بشوق طعم الدم. عندئذ بالطريقة نفسها ينقض كل الآخرين بسكاكينهم، البعض يقطعون قطعًا صغيرة من الجلد مع الشعر، والبعض الآخر يقبضون على أي جزء يصلون إليه ويفرمونه قطعًا من اللحم. يستمرون في ذلك حتى يصلوا إلى الأمعاء والأحشاء، فلا يتركون شيئًا من الأضحية لتراه الشمس المشرقة[10] حتى إنهم لا يوفرون العظام والنخاع، يخترقون صلابتها، ويتغلبون بالتدريج على عنادها ‹Nilus 613›.

إن دم الضحية، بحسب الشعر العربي الجاهلي وبعض النقوش العربية الجنوبية ‹e.g. CIS 4.464› «يُراق» أيضًا على حجارة المذبح، مشكلاً بذلك رابطًا بين المشاركين البشريين (الذين «ذاقوه») والإله. وتؤكد المصادر الإسلامية أن معظم التضحيات كانت تختم، كما هنا، بوجبة جماعية. على سبيل المثال، عندما كان متنازعان يقفان أمام عراف أو حَكَم ليحل خلافهما، فقد كان على الفائز دومًا أن يذبح جملاً، ومن ثم يوزع لحمه (أطعامه) على أي شخص حاضر وعلى الفقراء والمحتاجين ‹ابن حبيب›.

7) الفن والعمارة والمصنوعات اليدوية

7 / 1) الثقافة المادية العربية؟

قد يتوقع المرء أنه كما تفتتح الدراسات حول التاريخ الإسلامي بتذييل حول الخلفية العربية الجاهلية، كذلك فإن الدراسات حول الثقافة المادية الإسلامية سوف تحذو حذوها. ومع ذلك، ليس هذا هو الحال، لأن هذه المؤلفات تميل إلى افتراض أن جزيرة العرب الجاهلية كانت لوحًا ممسوحًا جماليًا، أي إنها لم تكن تمتلك «أي شيء يستحق اسم العمارة، بل كانت فراغًا معماريًا» إذ يجري التشديد على أن «عرب جزيرة العرب كانوا قليلاً جدًا من التراثات الأصيلة التي لا تتمتع بأي أهمية» وأن «أي تعديل لهذا الانطباع عن الفقر في التطور الفني لجزيرة العرب الجاهلية من المحتمل بالكاد أن يكون ذا أهمية». في الواقع يشار إلى أن الفن الإسلامي لم يعمل به عندما حكم المسلمون انطلاقًا من جزيرة العرب، لأنها كانت «بيئة لم يكن فيها للفنون البصرية . . أي دور ذو مغزى»[1]. صحيح بالتأكيد أن كثيرًا من البلاد لا يمتلك موارد كافية تسمح

برعاية الأبنية الضخمة أو الأعمال الفنية الوافرة، لكن يوجد أكثر مما يعترف به الرأي التقليدي وسيحاول هذا الفصل أن يقدم على الأقل بعض الانطباع عن ذلك.

من الضروري أولاً أن نؤكد مرة أخرى أن جزيرة العرب الجاهلية، رغم كونها نائية، قد تفاعلت مع بقية الشرق الأوسط، وفي الواقع صارت تتفاعل أكثر فأكثر مع تقدم الزمن. من المحتم أن الروابط الاقتصادية والسياسية قد جلبت في أعقابها منتجات وأساليب فنية جديدة. بما أن المناطق المختلفة من جزيرة العرب كان لها شركاء تجاريون وحلفاء سياسيون مختلفون، وكانت على مسافات متغيرة من مراكز سلطة الدولة، فقد كانت معرضة لمؤثرات أجنبية مختلفة. كانت لها أيضًا تراثات محلية مختلفة ومواد خام مختلفة متاحة لها. من هنا فإن فن وعمارة جزيرة العرب يكشفان عن كثير من التنوع المناطقي. فقد تأثر شرقي جزيرة العرب تأثرًا كبيرًا بالأفكار الرافدينية وفيما بعد بالأفكار الإيرانية، وكان للهيلينية تأثير في الشمال الشرقي. إن جنوبي جزيرة العرب قد رعى بشكل أساس أشكاله المحلية الخاصة به، لكنه أصبح بشكل مضطرد أكثر تأثرًا بالفن الهلنستي والروماني، وكان شمالي جزيرة العرب بالطبع محتمًا عليه أن يشعر بجاذبية الإمبراطوريات الكبرى للشرق الأوسط التي سعت غالبًا لإدخاله في فلكها. مع ذلك لم يكن ثمة تقليد للفن الإمبراطوري، بل بالأحرى امتزاج للأساليب الأجنبية بالأذواق المحلية.

إن السبب الأكبر في لامبالاة خبراء الفن الإسلامي بجزيرة العرب الجاهلية هو أنهم يشعرون أن ليس لها أي تأثير في تطور موضوع دراستهم. قد يتبين أن هذا صحيح، لكن ربما يكون من قبيل الطيش أن نكون مطلقين هكذا، في حين أن الفن العربي، حتى تاريخه، لم يلق سوى القليل جدًا من الدراسة المفصلة. لقد شدد أحد التوصيفات الحديثة للجماليات العربية الجنوبية على نزوعها «نحو التجريد والتعبير بالأشكال الهندسية» (geometrisation) (الشكل 4)، وهي سمة أيضًا للفن الإسلامي. ولقد كان ثمة جدل بأن «التمثيل اللامجازي للآلهة بين الأنباط والعرب الوثنيين الجاهليين الآخرين في شمالي جزيرة العرب ووسطها، قد حدد نهجًا لامجازيًا لفن التوحيد الإسلامي»[2]. كل هذا كان يتطلب برهانًا، لكن يوجد على الأقل متسع للمناقشة. في الوقت الحاضر يجب أن نقنع أنفسنا بالملاحظة العامة أن معرفة «القبائل العربية الجاهلية» بالتراثات الساسانية والرومانية-البيزنطية في مرحلة مبكرة قد جعلت السيرورة القصيرة

نسبيًا لبزوغ الفن الأموي الذي تغذّى بهذه المصادر سيرورة ممكنة»[3].

7 / 2) المستقرات

في كتاب الجغرافية «Geography» الذي أتمه بطليموس في نحو العام 150 م كتب «دونا معلومات جديرة بالملاحظة تتعلق بالشعوب وعلاقاتها ببعضها، ولاحظنا المدن الرئيسة والأنهار والخلجان والجبال» ‹19/1›. إن سجله للشعوب وأسماء الأمكنة هو أكثر شمولاً من اسطرابون وبليني مجتمعين، ويقدم الخرائط، لذلك نحصل على صورة مفيدة جدًا لجزيرة العرب وعلاقتها بالإمبراطورية الرومانية. ومع ذلك، فإنها ليست جغرافيا وصفية مبتذلة، بل، كما يمكن أن يتوقع المرء من عالم رياضيات، دليلاً لإنشاء مجموعة دقيقة من الخرائط. في المجموع يعدد بطليموس 218 مستوطنة في جزيرة العرب (الصخرية Petraea، والصحراوية Deserta، والسعيدة Felix)، التي من المفترض أن كثيرًا كان صغيرًا. فيما يتعلق بشبه الجزيرة، التي يقدم عنها حتى الآن معظم المعلومات ‹7/6›، فإن معظم المستقرات ال [151] التي ذكرت أسماؤها توصف بأنها قرى (Kômai)، وبعضها بلدات (Poleis)، والقلة الأقل حتى هي مراكز أسواق (emporia)، وست فقط منها توصف بأنها مدن (mêtropoleis). هذه الأخيرة هي مأرب (Mara)، نجران (Nagara)، شبوة (Sabbatha)، ميفعة (Maepha)، ظفار (Sapphar)، وربما قرية الفاو الحالية (Maocosmos)[4]. كل هذه المدن في جنوبي جزيرة العرب، التي ربما كانت المنطقة الوحيدة من جزيرة العرب التي يمكن وصفها إلى درجة ما بأنها ممدنة (حضرية). لم يكن لدى العرب الجنوبيين أنفسهم كلمة مخصصة للمدينة، بل استخدموا المصطلح هَجَرْ، مكان الاجتماع المحصّن للقبيلة، لكافة أحجام الاستيطان. إن الأمكنة التي يسميها بطليموس، وربما أمكنة قليلة غيرها، تستأهل مصطلح المدينة، مع ذلك، في أنها جميعًا كانت تمتلك عمارة نُصُبية، ومستوىً راقيًا من معرفة القراءة والكتابة (كما تشهد على ذلك النقوش) ومؤسسات سياسية (خصوصًا المجالس).

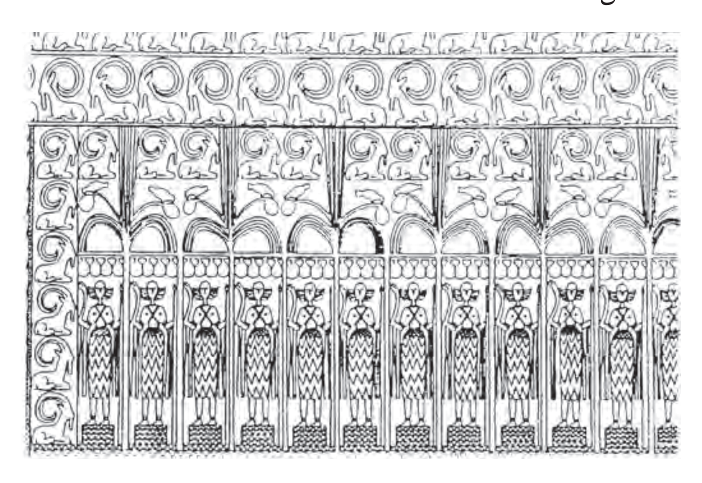
ثمة تنوع ملحوظ في تركيب المستقرات العربية وتخطيطها، تبعًا لشكل المؤثرات الثقافية الخارجية ومداها، ونوع المواد والمهارات المتاحة، والتراثات المحلية والتاريخ المحلي، وطبيعة الأرض وهلم جرا. إن البتراء وبلميرا/تدمر، على سبيل المثال، كانتا لزمن طويل تحت العبودية الثقافية لروما، فاكتسبتا

كثيرًا من زخارف المدينة الرومانية (كالشارع المعمّد (ذي الأعمدة)، المسرح، نصب الحوريات، الحمامات)، التي كانت غائبة عن المستقرات في أمكنة أخرى في جزيرة العرب. بما أن أقدم مدن جنوبي جزيرة العرب كانت متاخمة للصحراء المفتوحة وكانت غالبًا في نزاع مع بعضها، فقد كانت التحصينات تعدّ ضرورية، وما بدأ بمثابة ضرورة سرعان ما أصبح مصدرًا للفخر وعلامة على الثروة والمنزلة، مع تنافس المدن مع بعضها في القوة، ومدى أسوارها المحيطة ومواقعها الحصينة. لكن مع أنها كانت تصل إلى ارتفاعات كبيرة (14 مترًا في حالة ياثيل)، فإنها لم تكن ممتدة جدًا، لأن المدينة العربية الجنوبية العادية كانت ملتزة (متراصة). فمن العواصم الأربع كانت أسوار قرناو يبلغ طولها 1150 مترًا، وفي تِمنة 1850 مترًا، وفي شبوة 1500 مترًا (مع أنها ذات خط دفاعي آخر خارج هذا) وفي مأرب، التي كانت حتى ذاك الوقت أكبر بلدة في جنوبي جزيرة العرب، بلغت 4500 مترًا. بالمقابل، فقد كانت مستوطنات غربي جزيرة العرب ذات طبيعة شاسعة. كان القليل منها فقط مسيجًّا مثل تيماء، حيث كانت الأسوار الضخمة تحيط بمساحة قدرها ثمانية كيلومترات مربعة. كان معظمها غير محدود، مثل المدينة، التي كانت تغطي مساحة تبلغ نحو خمسين كيلومترًا مربعًا، مقسمة إلى مقاطعات عشيرية متميزة صغيرة مكونة من بيوت منفردة ومجمعات سكنية. كان في ما بينها «فضاءات مفتوحة» (فُسح المدينة) منقطة بالبقع الزراعية، وبساتين النخيل، والحدائق والمراعي، والآبار، وتضم قدرًا كبيرًا من القفار ‹ابن هشام، ابن سعد، حسان بن ثابت›.

كان سكان جزيرة العرب يفضلون مساكن الحجر أو الآجر الطيني (اللُبن). إن الشكل الذي يذكره الشعراء الجاهليين والكتّاب المسلمين ذكرًا متكررًا المجمع السكني (القصر). ربما كان هذا مختلفًا قليلاً عن الشكل الذي بقي قيد الاستعمال في القرن التاسع عشر:

> كان القصر ذو الأسوار العالية لهذه الأرض بناءً من أربعة مربعات بالصلصال، ستين درجة على كل جانب، مع أبراج ركنية واطئة. في المنتصف يوجد البئر بعمق سبع قامات حتى الصخر، المبطن، بالحجر الخالي من الزخرفة، وساحة الإبل، المزدوجة، واسطبلات للبقر، والحمير، حجرات الناظرة العبدة وابنها، ومخازن بدائية في الأبراج، ومقر إقامة سائق (مشغّل) البئر.

كان المدخل الوحيد إلى هذه البقعة المسورة يسد عند هبوط الليل. هذه المعاقل، الحصينة في الحرب العربية الضعيفة، تقام في كل المناطق النائية. كانت دواب المزرعة تُساق إليها عند غروب الشمس[5].



الشكل 4: نقش نافر على العتبة العليا لمدخل معبد في حرم مع تصوير مؤسلب لشخصيات أنثوية، أشجار نخيل مع طير، وصفوف التيس الجبلي، نحو منتصف الألف الأول ق م (David Hopkins).

كان كل مجمع يؤوي عددًا من الناس: «يشكل القصر الصحراوي ساحة مربعة مسورة بسور عال، تتاخمها مساكن عدة عائلات، هكذا فإن العشيرة، بكاملها تسكن معًا »[6] في حال حدوث أي نزاعات فإنهم ينسحبون بسرعة إلى مجمعاتهم، مع أنهم قد يجبرون على الاستسلام تحت التهديد بإتلاف محاصيلهم أو نخيلهم ‹ابن هشام 653، 673-74›. يختلف بنيان ومخطط هذه المجمعات من منطقة إلى منطقة. في أغلب الأحيان، كما كان الحال حتى وقت متأخر في بعض أجزاء جزيرة العرب، يجري دمج بيت برجي (أطم)[7] في السور المحيطي الخارجي، من ناحية لأغراض دفاعية، ومن ناحية أخرى للهيبة. كان الآجر الطينـي هو مادة البناء الأساس، يجبل مع الحجر إذا كان متوافرًا بسهولة، وإلا فإنه سيقع ضحية للعوامل الطبيعية القاسية. هكذا كان امرؤ القيس (توفي نحو 550 م) في تيماء يراقب عاصفة شديدة (معلقة امرؤ القيس):

وتيمـــاء لم يتـــرك بهـا جذع نخلة ولا أطُمـا إلا مشيدًا بجندل

عندما وصل الأنباط لأول مرة إلى البتراء في القرن الرابع قبل الميلاد «كان

من عادتهم ألا يبنوا أي بيت» ‹Diodorus 19.94›)، لكنهم كانوا قد طرحوا جانبًا أساليبهم البدوية «فبيوتهم مكلفة بسبب استعمال الحجر» ‹Strabon 16.4.26›). تؤكد الحفريات هذه التقارير، لأن أقدم المساكن لا تعود في تاريخها إلى ماقبل القرن الثالث قبل الميلاد وهي مبنية على أرض بكر. إنها بسيطة، ذات أسقف صلصالية وجدران من الحجر الخشن والصلصال، لكن في وقت لاحق، كما يلمح اسطرابون، صارت مكونة من حجارة مشغولة بعناية ومصفوفة (مدمكة) على نحو متساو، مغطاة بملاط، من الواضح أنه قد طُلي أو زخرف بأشكال كلاسيكية. في أغلبٍ الأحيان أيضًا كانت تنحت في الواجهات الصخرية للمدينة بطريقة الأضرحة نفسها. إن أفضل دليل على وجود العمارة المنزلية في شرقي جزيرة العرب إنما يأتي من سَعَر في البحرين. هنا لدينا صفوف كاملة من البيوت الحجرية، كثير منها بني على المخطط الأساس نفسه، أي البناء المستطيل الشكل مع فسحة صغيرة مسقوفة في ركن واحد ومساحة خارجية على شكل حرف (L) وفي أغلب الأحيان ثمة باحة مفتوحة في الخلف. كانت المساحة على شكل الحرف ذاته تحوي أحواض الماء، والأفران (المواقد)، والحفر، حيث تستعمل هذه الأخيرة لتخزين الأدوات المنزلية (وخصوصًا الجرار الكبيرة) والمواد السائلة (وعندئذ تكون مجصصة بعناية). إن الأبنية السكنية الأكثر إثارة للدهشة في جزيرة العرب إنما توجد في الجنوب. هنا بدأ تقليد السكن العالي (الطابقي) (اللوحة 23). فوق قاعدة من الحجارة المنحوتة التي يبلغ ارتفاعها 2–4 أمتار جرى إنشاء مساكن متعددة الطوابق مبنية من هيكل من العوارض الخشبية مملوء بالآجر الصلصالي. هكذا فإن مهابيه ءتكن قد «بنى وأسس وجهّز وأكمل نحت الحجارة لبيتهم من القاعدة إلى القمة، ستة سقوف مع ست أرضيات» ‹IMT 1›). كان الدخول بواسطة درج خارجي، يؤدي إلى الطابق الأرضي الذي يرتفع مترين فوق الشارع، وهذا ما يمنح هذه المساكن مظهر و، بشكل مفترض أيضًا، وظيفة الملاجئ والحصون، فقد كان بيت اليمني في الواقع هو قلعته.

كانت مدن جزيرة العرب قليلة، لكن مخيماتها [مضاربها] كانت كثيرة، ولذلك كان سكانها بنظر كثير من الأجانب، «ساكنو خيام»، «أمة لا مصاريع ولا عوارض لها تسكن وحدها» (إرميا 49: 31). مع ذلك رغم أن إقاماتهم كانت قصيرة الأجل ومتنقلة، فقد كانوا يتركون علائم على إشغالهم [للمكان]، كما دون ذلك شاعر سوداوي ‹عبيد›:

تغيــرت الديــــار بـــــذي الدفـــين فــأوديــة الــلـوى فـرمــال لين
فحـــرجـي ذروة فقفــــــا ذيــــالٍ يـعـفـي آيــه سـلـف السنين
تبصّـــــر صاحبــــي أتــــرى حمــولاً تـسـاق كـأنـهـا عـوم السفين
جعلـــن الفـــج مـــن ركــك شمـالاً ونـكـبن الـطـوي عـن اليمين

ومن هذه الأشعار يمكننا الحصول على معلومات كثيرة حول الحياة المادية للرعويين العرب الجاهليين وبنية مخيماتهم. إذ نسمع عن «أنا فيّ سعفًا في معرّس مرجل» ‹معلقة زهير، والمفضليات›

هـــل تعـــرف الـــدار عفــا رسمها إلا الأثـــافي ومـبـنـى الخيم

و«مبرك أذوادٍ ومربط عانة من الخيل» ‹عمرو بن قميئة›، وهلم جرا. أما عن الخيام نفسها فلا نملك سوى معلومات ناقصة (لكن انظر اللوحة 24)، فهي غالبًا ما يرد ذكرها في الشعر، لكنها لا توصف وصفًا واقعيًا أبدًا باستثناء كونها مدعومة بأعمدة خشبية (معمّدة)، تنشرها حبال (ممددة)، وتثبتها الأوتدة (موتّدة)، وتصنع إما من الجلد أو من شعر الحيوان ‹cf. Pliny 6.144›: «خيام مصنوعة من قماش شعر الماعز»، ومع ذلك لدينا اوصاف لمآوي مؤقتة تقام للرجال في الحملة ‹طفيل ابن عوف›:

وبيـــتٌ تهـــب الريــح في حجــراتـه بأرض فضاءٍ، بابه لم يحجَّبِ
ســـماوته أســـــمال بـــردٍ محبَّـــــر وصهوته مـنٌ أتحـمـي معصّبَ
وأطنــــابه أرســـان جـــرد، كأنــها صدور القنا من بادئٍ ومعقبَ
نصـــبتُ علـــى قـــوم، تدرّ رماحهم عروق الأعادي من غريرٍ وأشيبِ

7 / 3) الأبنية والأشياء الدفينة

إن المفردة المعمارية الأكثر تواجدًا في جزيرة العرب هي الضريح. فالدفن كان لمعظم العرب شأنًا بسيطًا ‹عبيد›:

ولا محالـــــة مـــن قبــــر بمحنيـــة وكـفـن كـسـراةِ الـثـور وضـاح

فإذا كان الأشخاص يتمتعون بشيء من الأهمية أو ينتمون إلى فئة اجتماعية تمتلك الموارد، عندئذ يمكن أن يبتدع لهم نوع ما من النصب الدفني، سواءً كانت صرحًا مُشادًا أو فراغًا محفورًا. كان المثال الأكثر شيوعًا على النوع الأول هو كومة الحجارة (الرجمة Cairn)، المرتبة غالبًا دائريًا، فوق القبر. كانت هذه الإنشاءات هي النصب التذكاري المفضل للبدوي العربي على مدى آلاف السنوات، لذلك فقد ارتبط شكلها بالموت ‹ديوان الحماسة›[9]:

نفـــرت قلوصـي مـن حجـارة حَـرَّة   بنيت على طلق اليدين وهوب



اللوحة 23: بيت من الآجر الصلصالي [الطوب] في مأرب القديمة (المؤلف).

أما الأكثر إتقانًا فهي الأضرحة المبنية من الحجارة غير المنحوتة أو المنحوتة في أحيان قليلة، المرصوفة إلى بعضها بطريقة ما بحيث تشكل حجرات دفنية من مختلف الأشكال (الدائري، خلية النحل، المستطيل، الكشتبان)، في بعض الأحيان لأجل الدفن الفردي (خصوصًا في البحرين) وأحيانًا لأجل الدفن الجماعي (خصوصًا في عُمان/ الإمـارات)، وتكثر هذه على نحو خاص على امتداد المنطقة الساحلية الشرقية (اللوحة 1/25)، وبالشكل الأكثر شهرة في جزيرة البحرين، حيث تعرف المجمعات الدفنية الكبيرة، التـي يراوح تاريخها بين أواخر الألف الثالث قبل الميلاد والعصر الفرتي على الأقل. أما الأكثر مدعاة للتفاخر فهي الأضرحة البرجية لبلميرا/تدمر. إن الأمثلة الأكثر قدمًا تشبه أبراج المراقبة البسيطة ذات الدرج الداخلي والقبور المتوضعة في القاعدة أو حول الخارج. اكتسبت بالتدريج طوابق عديدة، كل واحد مكدّس عاليًا بأقسام

(حجرات) للجثامين. وصارت تجمّل بكوى زخرفية من الخارج وصفوف من الأعمدة المخددة من الداخل. ثم هناك المنشآت الدفنية المهيبة والغنية للمدن العربية الجنوبية، وهي ما يمكن أن ندعوها بالأضرحة الفخمة، التي كانت تؤوي الموتى من السلالات الأكثر نبلاً. ثمة تنويع يظهر أيضًا في النوع الثاني من الإنشاء الدفني (الفراغ المحفور) الذي يراوح من القبور الصندوقية المحفورة في الأرضيات الصخرية والوديان بشكل مستطيل كبير بما يكفي للجثمان وتكون محكمة الإغلاق بألواح حجرية، إلى الأضرحة الفخمة المقتطعة من الصخر لنخبة البتراء وشمال غربي جزيرة العرب (اللوحة 25/ 2). تمتلك هذه الأخيرة واجهات كبيرة ذات مداخل أنيقة، تكون في الغالب نتوءات وأعمدة، وكلها مشكّلة بمهارة من السطوح الصخرية المجردة.



اللوحة 24: نقش نافر آشوري، نحو 650 ق م، يظهر آشوريين يحرقون خيامًا مستديرة من مخيم عربي
(British Museum 124927)

تقليديًا، كانت بعض ممتلكات الموتى تدفن معهم جنبًا إلى جنب، ويشمل هذا أي شيء يرتبط بهم ارتباطًا حميمًا: ملابسهم، حليهم الشخصية (المجوهرات، التمائم . . إلخ)، الأدوات، الأسلحة (السيوف، النصلات، رؤوس السهام . . إلخ)، والأدوات المنزلية (وخصوصًا الأواني الزجاجية والخزفية والبرونزية). في بعض الأحيان يُدفن حيوان الركوب، الذي يكون الجمل في أغلب الأحيان (مع أنه تم العثور على الأحصنة)، مع الميت أو في ضريح مجاور، فكان الجمل يدفن عادة في وضعية الجلوس [البَرْك] ورأسه مردود إلى الوراء؛ هذه هي وضعية

الذبح الحديثة، ما يوحي بأن الحيوان كان يُقتل عند موت صاحبه. يشير الشعراء العرب الجاهليون إلى ممارسة مشابهة هي ربط جمل أو تقييده في حفرة قرب قبر صاحبه إلى أن يموت من الجوع أو العطش ‹معلقة لبيد بلية، ذي الرمة 49، حفر المبلاّء›، إضافة إلى ذلك يمكن وضع أثر باق يستحضر روح (نَفْسَ) الموتى قرب القبر. يكون هذا عمومًا لوحًا حجريًا يحملً أسماءهم و/أو ملامح وجههم أو شكلهم (اللوحة 25/ 3)، أما ما يتعلق بالأغنياء والمقتدرين فيمكن أن يعني ذلك تماثيل نصفية محفورة وتمياثيلات (اللوحات 6، 2/25، 18) أو، كما في جنوبي جزيرة العرب، نقوشًا نافرة تظهر مشاهد وثيقة الصلة بحياة المتوفى (اللوحات 13، 16/ 2، 36). كان الجثمان يخضع لتحضيرات قبل دفنه. يصف أحد الشعراء، الذي يتخيل نفسه ميتًا، كيف أن أهله:

قد رجّلونـــي وما رجّلــت من شــعثٍ وألبسوني ثيابًا غير أخلاقِ

الذي يقول في ‹المفضليات، ورد لدى الواقدي› أن أوراق شجر النيلوفر والكافور كانت تُستعمل. خلافًا لذلك، كان التضميخ يمارس في جنوبي جزيرة العرب وبلميرا/تدمر.

7 / 4) القصور والمعابد

يخبرنا إرَطُسثنس القوريني «كل هذه المدن [العواصم الأربع لجنوبي جزيرة العرب] يحكمها الملوك وهي مزدهرة، كونها مزخرفة زخرفة جميلة بالمعابد والقصور الملكية» ‹in Strabon 16.4.3›. ونظرًا للأساطير الرائجة بين الإغريق والرومان حول الثروة الخرافية لجزيرة العرب، فقد زعم أن أبنيتهم النصبية لابد أنها قد زُخرفت بشكل يتسم بالأبهة والفخامة:

> بما أنهم [العرب الجنوبيون] لم يعانوا على مدى قرون ويلات الحروب بسبب موقعهم المعزول، وبما أنه توجد وفرة في الذهب والفضة في بلادهم، وخصوصًا في سبأ، حيث يقع القصر الملكي، فإنهم يقتنون الكؤوس المزينة بالنقوش من كل الأوصاف، المصنوعة من الفضة والذهب، والأرائك والتربيزات ثلاثية القوائم الفضية، وكل أثاث آخر ذا غلاء لا يصدق، وقاعات محاطة بأعمدة ضخمة، البعض منها مذهب، والبعض الآخر ذو أشكال فضية على التيجان. أما سقوفهم وأبوابها فقد زخرفوها

> بتجاويف غاطسة مرصعة بأحجار كريمة متلاصقة، وهكذا جعلوا بنية بيوتهم عجيبة في كل جزء منها بسبب غناها، لأن بعض الأقسام قد بنوها من الفضة والذهب، والبعض الآخر من العاج والأحجار النفيسة الأكثر بهرجة أو أي شيء آخر يقدره الناس أعظم تقدير ‹Diodorus 3.47›.

إن القصر الوحيد الذي جرى تنقيبه الواقع في شبوة، المقر الحضرمي، الذي لدينا منه بعض القطع الحجرية الجميلة (اللوحة 26). إنه بناء مهيب ويتميز بأساساته العالية، وقاعدته عديمة النوافذ، وطوابقة العديدة وباحته الداخلية التي لا يمكن النفاذ إليها. كان من الواضح أنه قد أنشئ لأغراض دفاعية، وبهذه الصفة خدم في أثناء حملة العام 220 م عندما أرسل ملك سبأ جيوشه ضد حضرموت لإنقاذ أخته، الأمر الذي حتم التسلل إلى «قصر شقير» كما كان يدعى حيث كان قد التجأ كثير من مواطني شبوة القياديين ‹Ir 13)›. خلافاً لذلك لا نملك سوى بقايا أدبية. فعلى سبيل المثال إن آثار قصر صالحين في مأرب وقصر غمدان في صنعاء، اللذان يرد ذكرهما معًا في عدد من نقوش القرن الثالث ميلادي ‹Ja 577, NAG 12, Ir 18› كانا لا يزالان يشاهدان في العصر الإسلامي، وكان الأخير تحديدًا يثير كثيرًا من الدهشة:

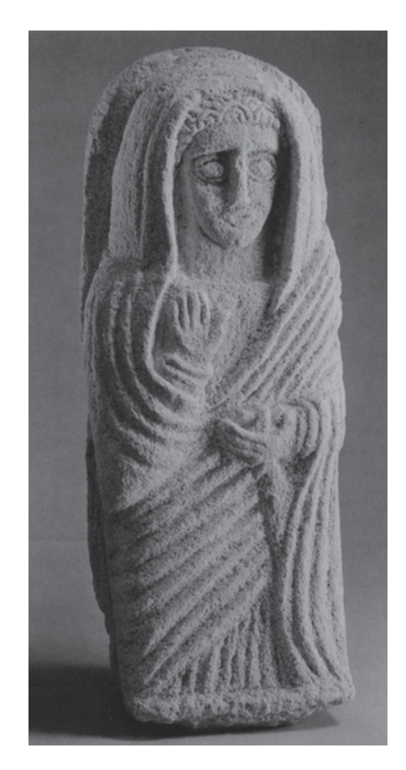
> أول قصور اليمن، وأعجبها ذكرًا، وأبعدها صيتًا، قصر غمدان، وهو بعد في صنعاء . . وكان غمدان عشرين سقفًا غرفًا بعضها على بعض . . وكانت حروفه أربعة تماثيل أسودٍ من نحاس مجوفة فإذا هبت الريح فدخلت أجوافها سمع لها زئير كزئير الأسد . . وكانت له أربعة أوجه في ترابيعه: وجه مبني بحجارة بيض، ووجه بحجارة سود، ووجه بحجارة خضر، ووجه بحجارة حمر. وكان في أعلاه غرفة لها لهج وهي الكوى، كل كوة منها بناء رخام في مقيل من الساج والأبنوس وسقف الغرفة رخامه واحدة صفيحة ‹الهمداني، كتاب الإكليل›.





اللوحة 25/ 1–4: 1: ضريح حيلي الكبير (أعيد بناؤه) الآن في حديقة في واحة العين (2500–2000 ق م)، قطر 12 م (المؤلف)؛ 2: واجهة ضريح من الحجر/ مدائن صالح تحمل نقشًا (63)، (38 H–64 م) (أ الأنصاري)، 3: شاهدة قبر حجري من منطقة تيماء ذات معالم بشكل بشري يرتدي حزامًا وخنجرًا (أ الأنصاري)، 4: تمثال امرأة دفني كلسي من مقبرة المقشا، القرن الثاني–الثالث ميلادي (37 × 17 سم) (متحف البحرين الوطني).





لقد حذا ملوك لخم النصريين حذو أسيادهم الفرس وبنوا عددًا من القصور، لكنها أيضًا هُجرت تمامًا في أوائل القرن السابع كانت أيضًا مهجورة تمامًا ‹المفضليات: الأسود بن يعفر النهشلي›:

مـــاذا أؤمـــل بعـــد آل محـــرِّق	تـركـوا منـازلهـم وبعـد إيـادِ
أهـل الخـورنـق والسـدير وبـارقٍ	والقصر ذي الشرفات من سنداد
جـرت الريـاح علـى مكان ديارهم	فكـأنمـا كـانـوا علـى ميعاد
ولقـد غنـوا فيـها بأنعـم عيشـة	في ظـل ملـك ثـابـت الأوتـاد

ثمة نمط من البناء يذكر عمومًا في النقوش العربية الجنوبية هو «المصنعة»، المقر المحصّن للسيد الأعلى للقبيلة، الذي يكون مجهزًا ب «شقق سكنية، معاقل وجدار مسوّر وصهاريج» ‹Ir 40›. إن صلابة هذه المنشآت تعني أن بقايا الكثير منها قد ظلت قائمة حتى اليوم، تقبع على أعلى مرتفعات جبال اليمن. للسبب نفسه يجري التلميح إليها بشكل متكرر في الشعر العربي الجاهلي، كناية عن الديمومة ‹لبيد›:

بلينـــا وما تبلــى النجــوم الطوالــع وتبقى الجبال بعدنا والمصانع

وهذه الصفة نفسها حتى قد أكسبتها مكانة في القرآن الشعراء 26/ 129: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾.



اللوحة 26: تاج عمود من قصر شبوة، من الممكن أن يكون قد حفر في زمن إعادة بناء القصر نحو 230 م (متحف عدن الوطني).

يزعم بليني أن تمنة كانت تمتلك خمسًا وستين معبدًا وشبوة ستين ‹Pliny 6.153, 155›. مع أن هذه الأرقام قد يكون مبالغًا فيها إلى حد ما، فإن العدد الكبير للآلهة التي تظهر في النقوش يوحي بأن المستقرات الكبرى كانت بالتأكيد تؤوي عددًا لا بأس به من المعابد. في جزيرة العرب القديمة لم تكن هذه أبنية

تجمعية يجتمع فيها العابدون للتعبير عن إيمانهم بقدر ما كانت بيوتًا للآلهة يشرفون فيها على المؤمنين بهم، «فيصنعون لي مقدسًا لأسكن في وسطهم» (سفر الخروج 25: 8)، كما قال يهوه لموسى. قد تكون واقعة ضمن المستوطنة أو خارجها تمامًا، أو في مكان بعيد عن أي سكن. إن التنوع المحلي هو أكثر ما يبرز إلى الواجهة، الأمر الذي يمليه توافر المواد والموارد، والتراثات المعمارية المحلية، والتعرض للتأثير الأجنبي والوظيفة المقصودة، لكن ثمة عدد من السمات المتكررة. إضافة إلى المعبد نفسه، حيث يمكن تخزين الأشياء العبادية (بما في ذلك صورة الإله) ويؤدي خدم الإله الطقوس اللازمة خفية عن أنظار العامة، كان هناك على نحو اعتيادي باحة تفيد كمكان للتضحية بالحيوانات، وتقديم القرابين وتناول الوجبات المقدسة، وكان الحرم بكامله يعلّم عادة بأحجار تخمية أو بجدار محيط.

كان المعبد شيئًا بسيطًا جدًا، ففي مكة يبدو بشكل أولي أنه لم يكن أكثر من حجرة مسورة في الهواء الطلق:

> كانت الكعبة في الجاهلية مبنية بالرضم ليس فيها مَدَر، وكانت قدر ما يقتحمها العناق، وكانت غير مسقوفة، إنما توضع ثيابها عليها، ثم يسدل سدلاً عليها ‹عبد الرزاق الصنعاني، المصنف›.

لكنه كان من الممكن أيضًا أن يكون صرحًا مزخرفًا وضخمًا. إن معبد بلْ في بلميرا/تدمر قد أقيم على منصة عالية، محاطة بأعمدة هائلة تحمل عوارض متصالبة منحوتة ويجري الوصول إليها من طريق درج كبير (اللوحة 27/ 1). كان معبد ذو شرا (قصر البنت) في البتراء مقسمًا إلى رواق معمد رئيس، يمثل نقطة الانتقال من عالم البشر إلى عالم الآلهة، وحجرة مركزية وفي الخلف غرفتان خاصتان، واحدة تؤوي الإله والأخرى لشعائر التنسيب إلى الدين. أما معبد الأسود المجنحة في البتراء فقد زُخرف على نحو متقن بالاستعمال المسرف للألوان وكثرة الصبات، والكوى المزينة بالرسوم الجصية والأعمدة الأسطوانية والأثاث الرخامي، وكلها يقصد منها أن تثير الشعور بالرهبة لدى الذين يتمتعون بالامتياز بما يكفي لأن يسمح لهم بالدخول إلى قدس الأقداس، وفي المملكة السبئية كان المدخل إلى الحرم المقدس مزينًا في كثير من الأحيان بواجهة مهيبة تتكون من سقف كلسي مربع على أعمدة مونوليثيتية (اللوحة 27/ 1)، يؤدي، من طريق باحة محاطة برواق مجصص ذي أعمدة على ثلاثة جوانب، إلى حجرة مقدسة مقسمة إلى ثلاثة أقسام في الخلف.





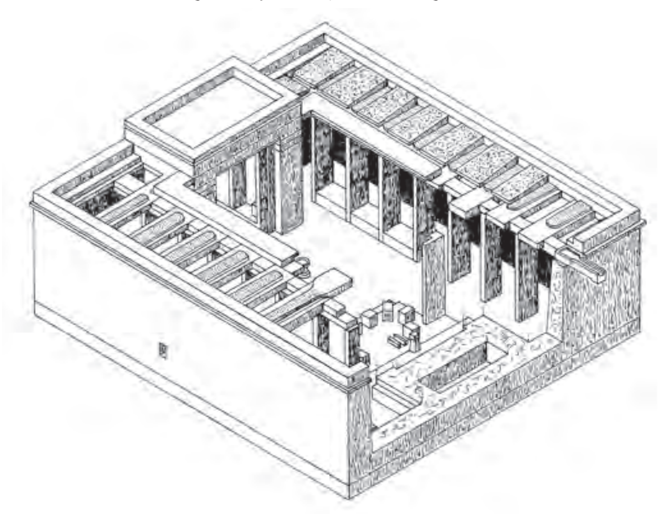
اللوحة 27/1-2 (1: **معبد بلْ في بلميرا/تدمر** (David Hopkins)؛ 2: **أعمدة باقية من المدخل الضخم المؤدي إلى معبد عوّام في مأرب** (Merilyn Hodgson).

إضافة إلى ذلك توجد معابد ذات تصميم مختلف اختلافًا جوهريًا، لا نفهم فهمًا كاملاً طبيعتها ووظيفتها. إن معابد الجوف المعينية تتجنب عادة النزوع الاتجاهي للنوع الآنف الذكر (الموجه على امتداد محور مركزي من المدخل إلى قدس الأقداس) ويشدد على التوازن الطباقي في ترتيب الداخل. يخرق الجدار المسوّر على جانب واحد من طريق مدخل ضخم ينفتح على قاعة مملوءة بعدد من الأعمدة الموزعة توزيعًا منتظمًا عبر ساحة الأرضية كلها أو مملوءة جزئيًا

بأعمدة على الجانبين تترك فراغًا في المركز لباحة [فناء] (الشكل 5). إن ما يدعى معبد بربر [2200–1500 ق م] في البحرين يتألف من أربعة عناصر أساس. إذ توجد منصة بيضوية الشكل تدعم مصطبة عليا رباعية الأضلاع (يظن أنها تحوي الحرم المقدس تمامًا، تؤدي من طريق منحدر على الجانب الشرقي إلى سياج بيضوي صغير ومن طريق سلّم على الجانب الغربي إلى بئر مبطن بالحجر يضم نبعًا طبيعيًا (الشكل 6). إن المعبد في سَعَر، أيضًا في البحرين، مختلف مرة أخرى: بناء شبه منحرف بسيط ذو سقف تدعمه ثلاثة أعمدة حجرية موضوعة على المحور الطويل للمعبد وتضم منطقة تخزين ومذبحين مبنيين بداخلها.

7 / 5) أدوات العبادة

ضمن المعبد أو المنطقة المقدسة كان يتم تخزين عدد من الأغراض التي تتعلق بعبادة الإله المقيم. أهم هذه الأشياء هو نوع ما من تجسيد للإله، وهذا التجسيد قد يتخذ شكل تمثال ذي شكل بشري، وخصوصًا في تلك العصور عندما وحيثما كان النفوذ الإغريقي-الروماني قويًا (اللوحات 20، 28/ 1)، لكن على العموم كان الشكل المفضل هو كتلة حجرية غير منحوتة[10]:



الشكل 5: معبد عشتار في نشن، نحو منتصف الألف الأول قبل الميلاد، 14,1×15,5 م

reconstruction by David Hopkins on the basis of Breton, Le Sanctuaire de 'Athtar dhu-)

(Risaf', 437

> إنهم [الأنباط] يعبدون الإله ذو شرا، فهم يبجلونه فوق جميع الآلهة الأخرى. تكون الصورة حجرًا أسود، مربعًا وعديم الشكل، يبلغ ارتفاعه أربعة أقدام وعرضه قدمان. يثبت على قاعدة من الذهب المشغول. إلى هذا [الإله] يقدمون الأضاحي ولأجله يسفحون دم الأضحية، وهذا هو الشكل الخاص بهم من الإراقة ‹Suidas, 'Theus Ares'›.[11]

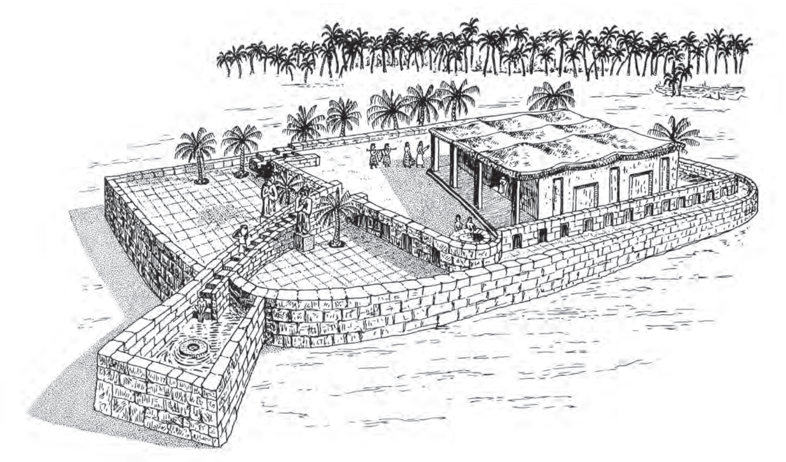
> لم يكن يوجد تمثال لإله من صنع بشري حقيقي [لإله الحمصيين]، من النوع الذي يقيمه الإغريق والرومان. بل كان ثمة حجر ضخم، مدوّر في القاعدة ويتناهى إلى نقطة في القمة، مخروطي الشكل وأسود اللون. هذا الحجر يُعبد كما لو كان مرسلاً من السماء ‹Herodian 5.3›.

> على هذا الجبل [في سيناء] ثمة مكان أقام فيه العرب وثنًا لهم من الرخام الأبيض الثلجي . . عندما يطل القمر الجديد يحين الوقت لمهرجانهم، فيبدأ هذا الحجر بتغيير لونه، يتحول الحجر إلى اللون الأسود كالزفت، وعندما ينتهي الحفل يعود الحجر إلى لونه الأصلي. لقد بدا ذلك لنا عجيبًا ‹Antoninus Placentinus, 148 49–148f›.

> ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها [الكعبة]، كل قبيلة تجمع على حدة، ثم بنوها، حتى بلغ البنيان موضع الركن، فاختصموا فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه من دون الأخرى... . . فكان أول داخل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم. . . فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر، قال: 'هلمّ إليّ ثوبًا'، فأتي به، فأخذ الركن فوضعه فيه بيده، ثم قال: 'لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوه جميعًا' ففعلوا، حتى إذا بلغ به موضعه، وضعه هو بيده، ثم بنى عليه ‹ابن هشام›.

إن الاسم الأكثر شيوعًا لهذه الآلهة-الحجارة [الأنصاب] ينحدر من الجذر السامي نْصْبْ الذي يعني ما يُوقف منتصبًا. تعكس المصطلحات الأخرى جوانب مختلفة لاستعمالها، هكذا ففي بلاد الأنباط كانت تدعى مسجيدا، الذي يعني مكان السجود، وفي الشعر العربي الجاهلي يرد على نحو شائع الدُّوار، موضوع

الطواف بالمكان. كما في النصوص الـواردة أعـلاه، يكون حجر الإله في العادة لوحًا حرًا، أو قد يكون، كما هو الحال أحيانًا في المملكة النبطية، محفورًا في وجه صخرة. قد يكون متوضعًا على الأرض أو على أرضية كوة مشكلة خصيصًا، أو خلافًا لذلك، كما في النص الأول المستشهد به أعلاه، على نوع من القاعدة، التي تكون إما مجرد صخرة أو بنية أكثر إتقانًا مثل العرش أو المنصة المرفوعة. كان ثمة تفضيل واضح للحجارة الخام المشكّلة فقط من قبل الطبيعة/ الإله (سفر الخروج 20: 25): «وإن صنعت لي مذبحًا من حجارة فلا تبنه منها منحوتة. إذا رفعت عليها إزميلك تدنسها». لكننا نصادف أيضًا كثيرًا من الحجارة المنقوشة بآثار وجه (خصوصًا في بلاد الأنباط، اللوحة 2/28) أو برموز فلكية (خصوصًا في جنوبي جزيرة العرب). يبدو أن الشكل الخارجي لحجر الإله كان مهمًا: «فكان الرجل، إذا سافر فنزل منزلاً، أخذ أربعة أحجار فنظر إلى حسنها فاتخذه ربًا، وجعل ثلاث أثافي لقدرة» ‹ابن الكلبي›. يبدو أن الآلهة المختلفة كانت تجسد بحجوم وأشكال مختلفة: «كان اللات حجرًا مكعبًا»، «كان سعد . . . صخرة طويلة» ‹ابن الكلبي›. ومن الملاحظ أنه حيث تظهر الأنصاب العزى وذو شرا (رب البيت) معًا يكون الأول هو الأكبر ‹e.g. RES 1088, RB 42.413, 43.588›.



الشكل 6: معبد بربر دلمون، المنصة العليا، 23–25×15–17 م (**أعاد تصوره** David Hopkins).

نظرًا لأهمية تقديم الهبات والأضاحي للآلهة للديانات كان جليًا ضرورة توافر نـوع ما من المذبح . يلاحظ فيلسوف القرن الثالث ميلادي بورفيري (Porphyry) في وصفه للتضحية البشرية أن «سكان دومة في جزيرة العرب

اعتادوا كل عام على التضحية بغلام يدفنونه تحت المذبح الذي يعاملونه بمثابة تمثال العبادة» ‹Prophyry 2.56›. يتلقى المتعبد العربي الجنوبي رسالة وحي من إلهه بأن ينصب حجرًا واقفًا <قيف> على أرضه وأن يضحي عليه مرة كل عام ‹CIS 4.392›. علاوة على ذلك، فإن الشعر الجاهلي يذكر بشكل متكرر التضحية وإراقة الدم فوق الإله الحجر ‹زهير 50)› و‹طرفة›[12]:

علـــونَ بأنـــمـــاطٍ عـتــــاقٍ وكلـــــةٍ   وِرادٍ حواشيها مشاكهة الدم

و

إنّـــي وَجَـــدِّكَ، مــا هَجَــوْتُكَ، وَالأ   نْـصَـاب يُـسْـفَـحُ بَيْـنَـهُـنَّ دَمُ

ويحـرم القرآن على نحو واضح على المسلمين أن يأكلوا الحيوانات التي ﴿مَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ (المائدة 3). ومع ذلك، كان الاثنان متميزين عادة لدى الأغنياء. في الواقع أصبحت المذابح مزخرفة جدًا (اللوحة 3/28)، ونشات أنواع مختلفة عديدة لكي تتلاءم على نحو أفضل مع الأنـواع المختلفة من الإهداء (التكريس). هكذا فقد كان ثمة مذابح بخور للتقدمات العطرية وألواح إراقة للعطايا السائلة، ومذابح تضحية للتقدمات (القرابين) الحيوانية وهلم جرا، أما الأكثر تعقيدًا فلم تكن تحمل نقشًا إهدائيًا فحسب، بل كانت أيضًا مزخرفة بتصاميم هندسية ورؤوس حيوانات، ونجمة وهلال، إلخ.

كانت الهبات النذرية حاسمة بالقدر نفسه لتنفيذ الإهداءات إلى الآلهة. في أغلب الأحيان كانت هذه الهبات موادًا قابلة للتلف (نباتات عطرية، مواد غذائية، حيوانات إلخ)، لكن يوجد نوعان بقيا بأعداد كبيرة أحدهما هو اللوح الحجري أو الصفيحة البرونزية، الذي ينقش عليه إهداء الشخص ويكون عادة عبارة توسل أو تقديم شكر. النوع الآخر هو التمياثيل أو التمثال المصغر (باللغة العربية الجنوبية/ الآرامية صلم، باللغة العربية صنم)، يكون عادة في هيئة إنسان أو حيوان (اللوحة 4/28) يجري تشكيله من مجموعة من المواد المختلفة، أكثرها ورودًا الحجر (مثل الحجر الصابوني، حجر الطلق، الحجر الكلسي) أو المعدن (البرونز، الفضة أو الذهب)، أو المرمر، أو الخشب أو الصلصال. يتضمن العديد من النقوش العربية تصريحًا بأن فلان الفلاني يهدي إلى الإله كيت وكيت تمياثيلاً أملاً في الحصول على امتنان لتلقي النعمة كذا وكذا. في هذه الحالة قد يأخذ التمياثيل مكان الأضحية أو يمثل طبيعتها (مثال ذلك CIS 2.157: إهداء تمثالي جملين صغيرين إلى ذو شرا). خلافًا لذلك قد يكون على صورة المتوسل أو مرتبطًا بموضوع التوسل، على سبيل المثال رسم طفل مريض

يُرتجى العلاج لأجله، أو كما يلي:

> إيليغاز أيوكان وابنه علي، خيّالا الملك، أهديا إلى ربهما ألمقه هذا الحصان وراكبه من البرونز . . امتنانًا له لأنه حمى حصان الملك . . وامتنانًا له لأنه أنقذ حصانيهما . . فيما كانا يمتطيانهما من وادي بريان لكي يتسلما منصبيهما في خبتان ‹Ja 745›.









اللوحات 28/1–4: 1): رقيم بازلتي يصور الربة اللات في هيئة أثينا برداء من الزرد ودرع ورمح، من خرابة في حوران، القرن الثاني ميلادي 52×25,5 **سم)** ‹P. & M. Chuzeville, Louvre AO11215›؛ 2: **إله حجر (صنم) ذو معالم شكل بشري يمثل، وفقًا للنقش على القاعدة، «إلهة حيّان بن نِبات»، القرن الأول ميلادي، الارتفاع** 32 **سم (معبد الأسود المجنحة، البتراء)؛** 3: **مذبح عربي جنوبي من معبد برعان في مأرب منقوش باسم مقدمي الإهداء، القرن الخامس–القرن الرابع قبل الميلاد** 72×35 **سم (متحف مأرب)؛** 4: **تمثال نذري برونزي لمحارب (لاحظ الخوذة، جلد الأسد والرباط للدرع على اليد اليسرى) سمي معديكريب في النقش المرافق، القرن السادس قبل الميلاد، الارتفاع** 93 **سم (متحف صنعاء الوطني).**

7 / 6) الأسلحة والحرب

كشفت الحفريات في شرقي جزيرة العرب عن أعداد كبيرة من الأسلحة، وخصوصًا في الأضرحة، حيث جرى دفنها مع صاحبها. والنقوش والرسوم والشعر في غربي جزيرة العرب غالبًا ما تحمل صور الصيد والقتال والإغارة. هذان المصدران معًا يمكن أن يعلماننا الكثير حول الأسلحة العربية الجاهلية واستعمالها. إن أكثر ما يصادف عمومًا هي القوس والرمح والسيف. أما رؤوس السهام البرونزية فمن المؤكد وجودها بوفرة في شرقي جزيرة العرب في الألفين الثاني والأول قبل الميلاد، وفي رُميلة (واحة العين حاليًا) جرى العثور على قاعدة جعبة (كنانة) ذات ثقوب تُدخل فيها السهام. منذ العصر الهلنستي فصاعدًا تبدأ رؤوس السهام الحديدية بالظهور بكميات كبيرة، ويرجح أن الكثير منها قد جرى تصنيعه محليًا (جرى اكتشاف 621 في مليحة والدور في الإمارات، وكلتاهما للاستعمال تحويان رسوبيات من خام الحديد في منطقة مجاورة). ومن الواضح أن القوس والسهم كانا الأكثر فائدة للاستعمال عن بعد، سواء في المعركة أو في الصيد (اللوحة 1/29) ‹معلقة عنترة›

طــورًا يجــرَّد للطعــان وتــارة	يأوي إلى حصد القسى عرمرم

و‹امرؤ القيس›

ربّ رام مــن بنــي ثعــل	متلــج كفيـه في قُتـره
عــأرض زوراء مــن نـشــم	غــير بــانــاة عــلـى وتــره
قــد أتتـه الوحــش واردة	فتنحـى النـزعُ في يسره
فــرماهــا فــي فــرائصــهـا	بــإزاء الحــوض أو عُـقُـره
بــرهــيــش مــن كنـانتــه	كتلظي الجمـر في شـرره
راشـه مــن ريـش ناهـضـة	ثـم أمهــاه عـلـى حجـره

إن أكثر ما يتكرر ذكره في الشعر العربي الجاهلي هو الرمح، الذي يظهر للمرة الأولى في الألف الثالث قبل الميلاد في المواقع الأثرية شرقي جزيرة العرب. تبعًا لمقدار الطول إلى الوزن كان الرمح يفيد إما كقذيفة، مثل النقيفة، أو كأداة طعن. الوظيفة الثانية أصبحت أكثر شعبية عندما جرى إدخال الحصان إلى جزيرة العرب، في أثناء الفترة الممتدة من القرن الرابع إلى القرن الثاني قبل الميلاد، لأن الرمح يمكن استخدامه من على صهوة الحصان على نحو أسهل من السيف. تشرح الرسوم الصخرية والشعر استعمال الرمح بهذه الطريقة للصيد والقتال، وكذلك للإغارة، عندما كان يستعمل للمطالبة بالغنائم

(اللوحة 36)[13]، إذ يشير الشعراء في أغلب الأحيان إلى أنها كانت من إنتاج خط في شرقي الجزيرة، حيث يُروى أن الكثير منها كان يجمّع من الخيزران المستورد من الهند.

كان السيف السلاح الأكثر تقديرًا من كل الأسلحة الأخرى ‹المفضليات›:

خليـــلاي هـــوجاء النجاء شِمِلَّة   وذو شطب لا يجتويه المصاحب

إذ إنه غالبًا ما يرد ذكره بالمزاج نفسه الذي يذكر به الرمح ‹عبيد›:

ومهـــرة مــن عتـــاق الخيل سابحة   كأنها سحق بـردٍ بين أرماح

وكانا على العموم يستخدمان معًا ‹معلقة عنترة›:

فطعـــنته بالرمـــح ثـــم عَلَـــوتـــه   بمهند صافي الحديدة مخزم

لكن في حين كان الرمح يستخدم من مسافة قصيرة عن العدو، فإن السيف لم يكن يتدخل إلا عندما يقترب اقترابًا شديدًا ‹معلقة عمرو›:

فظـــاعن مـــا تراخـــى الناس عنـا   ونضرب بالسيوف إذا غشينا

لهذا السبب كان يعدّ الأنبل من بين الأسلحة وكان الاستخدام الماهر له يُكسب المرء أعلى درجات المديح. علاوة على ذلك فقد كان يستخدم لذبح الحيوانات لتقديم الطعام للضيف وهكذا كان يرمز إلى الكرم والضيافة. تغير شكل السيوف المستعملة في جزيرة العرب كثيرًا مع مرور الزمن، وذلك من السيوف البرونزية الطويلة المكونة من قطعتين في الألف الثاني قبل الميلاد، إلى السيوف البرونزية القصيرة المكونة من قطعة واحدة في الألف الأول قبل الميلاد (اللوحة 2/29)، إلى السيوف الحديدية الثقيلة الطويلة في العصرين الروماني والساساني. من المرجح أن كل تطور قد استتبع تبدلات أساس في أشكال القتال الخاصة بالمنطقة، مع أننا لا نملك أي دليل على ذلك في العصر ماقبل الروماني.

إضافة إلى أدوات الهجوم كانت ثمة وسائل الدفاع. فقد جرى اكتشاف شظايا سترة درع حديدية في قبر يعود إلى فترة القرنين الأول-الثاني ميلادي في جانوسان في البحرين، وتوجد التروس مرسومة على قصعة برونزية من القرن الثالث/ الثاني قبل الميلاد من مليحة في الإمارات. هذه البقايا الضئيلة يمكن استكمالها بوفرة بالإشارات الكثيرة في الشعر الجاهلي، فالتتمة الكاملة تورد كما يلي ‹معلقة عمرو›:

عليـــنا البيـــض واليلـب اليمانـي   وأسـيـاف يقـمـن وينحنينا

عليـــنا كـــل ســـــابغـــة دلاص   تـرى فوق النطاق لها غصونا

البندين الأولـين لا يلقيان اهتمامًا كبيرًا من الشعراء، لكن السترات

الواقية وُصفت على نحو متكرر ومتنوع. فقد كانت «من حياكة داوود»، إشارة إلى أسطورة يلمح إليها أيضًا في القرآن سبأ 34: 10-11: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ . . الآية﴾ والأنبياء 21: 80 ﴿ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ . . وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ فهي واسعة ومفككة (سابغة)، وفضفاضة ونَثْرةً ‹المفضليات› إنها في غالبيتها طويلة وقد تكون حواشيها بحاجة لأن:

أحفـــزهـا عنـــي بـــذي رونـق   مـهـنـد كـالـمـلـح قـطـاع

تكون الحلقات المنفردة مصفوفة قرب بعضها، تثبت بإحكام بواسطة المسامير لكي تبرهن على أنها غير قابلة للاختراق من أي قذيفة أو طعنة. إن السترة المصنوعة من معدن جيد، كما يقال غالبًا، تومض وتترقرق مثل حوض فضي تهب عليه الريح، وتلمع مثل البرق.

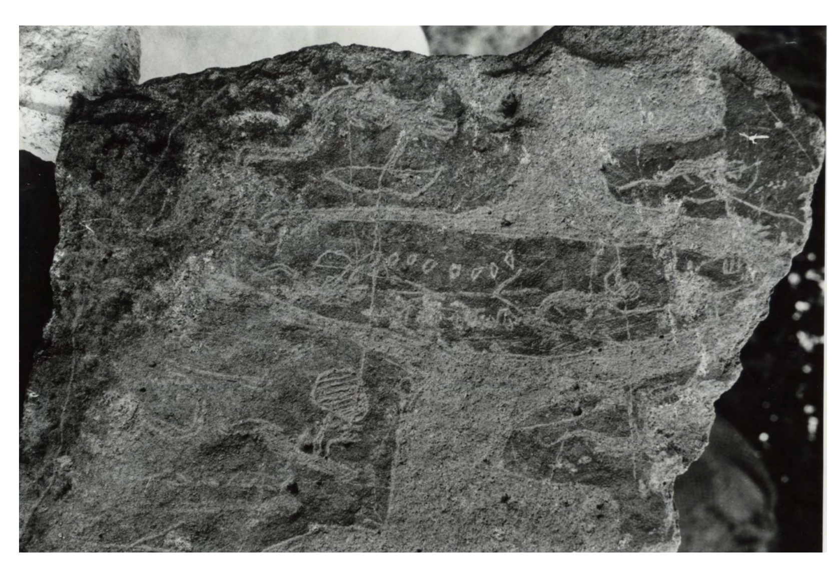
إن طريقة حشد هذه الترسانة إنما توضحها مشاهد المعارك في الفن الصخري للقبائل الرعوية (اللوحة 3/29) وشعرهم، الذي يسرد عمومًا الأحداث بكاملها. فهما، بالصدفة، يبينان أن الجمل يتم ركوبه في الطريق إلى المعركة وأثناء الانسحاب منها (اللوحة 4/29)، لكن الحصان كان يستخدم في أثناء المعركة ذاتها ‹طفيل بن عوف›:

جلبنـــا من الأعراف أعرافِ غمـرةٍ   وأعراف لبنى الخيل يا بُعْدَ مجْلَبِ
فلـــما بــدا حـــزم القنـان وصارة   ووزانٌ من شرقي سلمى بمنكبِ
أنخـنا فسـمناها النطـاف فشارب   قليلاً وآب صد عن كل مشربِ
يُـــرادى علـى فـأس اللجـامِ كأنما   يرادى بهٍ مرقاة جذعٍ مشذَّبِ
وشـد العضـاريط الرحـال وأسلمت   إلى كل مغوار الضحَى متلبِّبِ
فلـم يـــرها الـــراؤون إلا فجـاءة   بـوادٍ تناصيه العضاة مصوَّبِ
رمـــت عن قسـي الماسـخي رجالنا   بأجود ما يبتاع من نبل يثربِ
فلمـــا فنـــى ما في الكنائـــن ضاربوا   على القرع من جلد الهجان المجوَّبِ





اللوحة 29/1–4): 1: **رسم صخري من جبل سايس يظهر رجالاً يصطادون بالقوس والسهم** (David Hopkins)؛ 2: **نقش نافر آشوري مفقود من نينوى يظهر عربًا يحملون أقواسًا وسيوفًا قصيرة** (المتحف البريطاني Or. Dr. 7.28)؛ 3: **رسم صخري من بُرقُع، الآن في متحف عمّان، يظهر رجالاً يقاتلون بالقوس والرمح والترس** (M. C. A. Macdonald)، 4: **نقش نافر آشوري، نحو 650 ق م، يظهر عربيان يتراجعان على ظهور الجمال، واحد يسوق وواحد يطلق سهامه على المتعقبين** (British Museum 124926)





7 / 7) الفن الصخري

في كل مكان تقريبًا في جزيرة العرب تتوافر فيه الحجارة (أي الصحاري غير الكثبانية) سيتم العثور على اللوحات والرسوم العابثة، وتكثر هذه بشكل خاص حيث تكون السطوح الصخرية طيعة للحفر (مسطحة تمامًا وناعمة) وحيث تكون الكائنات البشرية ميالة إلى التجمع (أي حفر الماء، البقع المحمية، الأمكنة المرتفعة . . إلخ). لقد كشفت الحفريات الحديثة في ذُويلة في الصحراء البازلتية

لشرقي الأردن عن نقوش لأشكال بشرية وحيوانية على الحجارة المُقحمة في الإنشاءات النيوليثية [التي تعود إلى العصر الحجري الحديث] من أواخر الألف السابع قبل الميلاد. من الجلي، إذًا، أن هذا الفن قديم جدًا، واستمر لآلاف السنوات، لكونه قد تأكد وجوده أيضًا في العصر الإسلامي. ثمة ثلاث طرق أساس لإنتاج هذه الصور. أبسط طريقة هي النقر، أي، الاستعمال النقري لحجر مدبب محمول في اليد، والضرب المباشر للصخرة بضربات متكررة تخترق غشاء العتق وتؤثر في السطح في نقطة الصدم. أما الطريقة الأكثر تعقيدًا بقليل فهي استعمال الإزميل [التزميل]، استخدام حجر مطرقةً لدفع أداة حادة، تكون أيضًا حجرًا في العادة. توفر التقنية الأخيرة دقة أكبر وتعطي عمقًا أكبر للنقش النافر. أخيرًا هناك الخدش على السطح الصخري بحجر بحيث يجري إزالة غشاء العتق وتظهر الأشكال على نحو بارز على غشاء العتق الداكن لسطح الصخرة الأصلي. لا يمكن تحديد تاريخ أي من هذه الرسوم تحديدًا دقيقًا، مع أنه يمكن تكوين فكرة ما من درجة التجوية [التأثر بالعوامل الجوية]. علاوة على ذلك فإن البعض منها يكون مرفقًا بنقش منقوش يدعي فيه المؤلف شرف إبداعها الفني، ويمكن أن يعطينا هذا عندئذ زمنًا تقريبيًا جدًا للتأليف مستمدًا مما نعرفه عن اللغة المستعملة. من الممكن أيضًا أن ننسب أساليب بعينها إلى شعوب بعينها، لكن هذا يتطلب من الدراسة أكثر بكثير مما تم القيام به حتى تاريخه.

أهمية هذه اللوحات للمؤرخ أنها تمتلك إمكانية تقديم مساهمة قيّمة في معرفتنا للحياة اليومية في جزيرة العرب، فمعظمها يصور أشخاصًا (رجال ونساء، فرادى وجماعات)، حيوانات (خصوصًا الجمال، الخيول، الحمير، الوعول، الأسود، الغزلان والنعام) ورموزًا شتى مثل (أشكال العصي، النقاط المرتبة في أنساق، الشموس، النجوم، وعلامات كثيرة مجهولة الهوية). قد تظهر هذه بشكل إفرادي أو تشكل جزءًا من تشكيل يصور عددًا من الأشخاص المنخرطين في تشكيلة من النشاطات. تكون مشاهد الصيد شائعة جدًا، سواء المطاردة (رجال يلاحقون حيوانًا على ظهر حصان، ترافقهم الكلاب غالبًا، يرمون بالأقواس ويلوحون بالرمح) أو ينصبون فخًا (يسوقون طريدة إلى أرض فسيحة أو ما شابه). إن تصويرات النزاع المسلح شعبية أيضًا، تضم عادة عددًا صغيرًا من المشاركين المسلحين بالترس والرمح أو السيف. الغارات أكثر ندرة، لكنها تحصل، ويتم إظهار المشاركين على ظهر الحصان وهم يدعون لأنفسهم الحق في حيوان (الجمل عادة) بلمسه برماحهم. تتمتع مشاهد الرقص والعزف

على الآلات الموسيقية بأهمية خاصة، إما جماعة من الرجال يتفرجون على أنثى تؤدي الرقص أو شخصين أو أكثر يؤديان رقصة معًا (اللوحة 30).

7 / 8) النقود والأختام

إن النقود هامة ليس فقط كونها وسيلة للتبادل الاقتصادي، بل يشكل إصدارها أيضًا إعلانًا عن السلطة السياسية، أو على الأقل إعلانًا عن ادعاء السلطة السياسية. لذلك فإن أحد المراسيم الأولى للحاكم المدعي أو الدولة الحديثة العهد عادة ما يكون سك العملة الخاصة. علاوة على ذلك فإن حقيقة أنها يمكن أن تحمل صورًا وكتابة وتتمتع بتداول واسع تعني أنها قد تخدم كونها أداة فعالة للدعاية. لذا فإن الملكة البلميرا/تدمرية زنوبيا كشفت عن طموحاتها بطبع النقود باسم ابنها «الإمبراطور قيصر وهب اللات أغسطس» وباسمها هي «بصفتها زنوبيا أوغسطا» (اللوحة 12). على كل، في الفترات المضطربة العرضية، تكون النقود مع ذلك وسيلةٍ حافظة إلى درًجة كبيرة. إذ يجب أن تبعث الثقة في مستعمليها كي تساوي فعلاً ما يقولون إنها تساويه، وستظل مقبولة من قبل الآخرين لعدد من السنوات على المنوال نفسه. فإذا لم تبعث هذه الثقة، فإن الناس سوف يشيحون عنها لصالح عملات معترف بها دوليًا (قارن استعمال الدولار الأميركي في بعض الأنظمة غير المستقرة اليوم). لهذا السبب فإن كل العملات العربية بدأت كمحاكاة لنموذج أكثر شهرة. في جنوبي جزيرة العرب كانت أولى النقود (القرن الرابع/ الثالث ق م) محاكيات للدراخمات الرباعية الأثينية، التي كانت بمثابة الدولار لذاك العصر: إذ يظهرٍ وجه العملة رأس أثينا بخوذة، ويظهر الوجه الآخر بومة، وغصن زيتون وهلالاً والأحرف اليونانية (AθE). في شرقي جزيرة العرب تحولوا إلى عملة الاسكندر الأكبر: على الوجه رأس هرقل يرتدي جلد الأسد النيمي وعلى الوجه الآخر زيوس جالس على عرشه، في ذراعه الأيسر صولجان وعلى ذراعه الأيمن الممدود نسر. وفي نحو بداية القرن الأول قبل الميلاد، عندما ضعفت الإمبراطورية السلوقية بما يكفي، بدأت القوى الصغرى الواقعة تحت نفوذها، بما فيها الأنباط، بإثبات ذاتها وسك عملاتها الخاصة بها، باستعمال إصدارات أسيادها السابقين كأنموذج.

جرت محاولات تدريجيًا لإضفاء الطابع المحلي على العملة، وإدخال سمات أكثر صلة بالثقافة المُصْدرة للعملة. فعلى كثير من نقود شرقي جزيرة العرب، على سبيل المثال، جرى استبدال اسم الاسكندر باسم أبي يثع بالأحرف العربية

أو باسم أبي إيل بالأحرف الآرامية (اللوحة 3)، اللذان من الواضح أنهما اسما ملكين محليين. علاوة على ذلك فإن صور الوجه الآخر للعملة قد أعيد تشكيلها بشكل متكرر وفقًا للأذواق المحلية (فمثلاً، أزيلت لحية زيوس واستُبدل بالنسر الحصان أو المزمار القصبي، أو شجرة النخيل، أو جرى إدخال الأحرف العربية الجنوبية [المسند – ز م]). ومن ناحية أخرى أمكن استخدام الرموز ذات المعنى والخاصة بالسكان المحليين. فعلى سبيل المثال كان للكف الممدود لليد المرفوعة دلالة دينية وشعائرية واضحة في حياة النبطيين وظهورها على النقود مقصور عليهم. أخيرًا كانت هناك أيضًا ابتكارات تقنية تلبي حاجة محلية ما وأثرت في الأسلوب المحلي. هكذا ففي جنوبي جزيرة العرب جرى سك أربع فئات مختلفة من العملات الأثينية الأصلية، يشار إلى أوزانها المقابلة (وكذلك قيمها) بحرف عربي جنوبي منقوش على خد أثينا.



اللوحة 30: رسم صخري من شمال شرقي الأردن يظهر امرأة موسيقية وراقص، يقرأ النص المكتوب كما يلي: من عقربان بن كسيت بن سعد، قامت المرأة الجميلة بالعزف على مزامير القصب
(G. Lankester Harding; see ADAJ 2, 1953, no. 79)

إن الختم شيء (يوضع غالبًا على حلقة) يصنع من مادة صلدة، من الحجر عمومًا، لكنه يصنع أحيانًا من العظم أو العاج أو الزجاج، يُحفر عليه شكل حيث إنه عندما يُكبس على الشمع أو الصلصال فإنه يترك بصمة (دمغة). على مدى آلاف السنوات كان فعل الختم هذا قد كفل الموثوقية (المصداقية)، وحدد المِلكية، وبيّن المشاركة في صفقة قانونية وحمى السلع من السرقة. لم يجر العثور على أختام كثيرة في جزيرة العرب إلا في شرقيها حيث جرى كشف نحو ألف

منها، يتحدر أكثر من أربعمئة منها من جزيرة فيلكا في خليج الكويت. معظمها مصّنع من الحجر (الكلورايت أو الستيتيت [حجر الصابون])، مع أن بعضها يصنع من أصداف البحر (التي يبدو مع ذلك أنها كانت تستخدم في المدافن في المقام الأول). كانت التصاميم تحمل على نحو مفترض دلالة خاصة لمستعمليها، لكن هذا لم يصلنا منه إلى هذا التاريخ. الرموز النجمية والشمسية شعبية، كما البشر والطيور والحيوانات، وبالأخص الغزال وتلك التي تعرّف بالأبراج (الثور، الجدي، العقرب، الأسد، الأفعى). تُصور هذه إما إفراديًا أو في نوع ما من المشهد، سواء كان من الحياة اليومية أو مأخوذ من السياقات الطقسية والأسطورية (اللوحة 31).

7 / 9) الحرفيون والحِرَف

مثل المجتمعات ماقبل الحديثة الكثيرة، كان العرب الجاهليون يقدّرون الذين يعملون في ميادين الزراعة/ الرعي، الدين والحرب، لكنهم كانوا يزدرون الحرفيين (انظر الفصل الخامس من هذا الكتاب). وهذا واضح من النقوش، التي تبحث في الميادين الثلاثة الأولى مطولاً، لكنها تكاد لا تذكر الحِرَف أبدًا. كما يتوقع المرء من الكم الهائل من النقوش والنحت النافر المكتشف في جزيرة العرب، فإن النوع الوحيد من الحرفيين الذي يبرز بأي تواتر في النصوص العربية هم البناؤون. في الحجر/ مدائن صالح كانوا في بعض الأحيان حتى يلحقون اسمهم بالنقوش الدفنية، التي يبدو أن ثلاثة عشر منها قد نفذها أفراد من العشيرة نفسها. في حالات أخرى نكون مجبرين على الاعتماد على الشعر العربي الجاهلي، الذي لا يناقش أبدًا الحِرَف على نحو مباشر، بل غالبًا ما يستعمل عناصر فيها لتشكيل تشبيه أو مجاز. هكذا يشدد شاعر بقوله ‹ديوان الحماسة›:

فجئــــت إليـــه والرمـــاح تنوشـه … كوقع الصياصي في النسيج الممدد

وتشبّه التضاريس على منحدر جبل أملس بالنقوش على السفح ‹طرفة›:

وبالســـفح آيـــات كـــأن رســومها … يمـانٌ وشتـه ريـدة وسحول

الدباغة والأشغال الجلدية اكتسبت أهمية خاصة لأنها كانت تؤمن موادًا متنوعة كالخيام والدلاء (السطول) والسروج والملابس، وحاويات الماء والزيت، والسيور [القشاطات]، والوسائد ومادة الكتابة وحتى الزوارق (السبئيون «يبحرون عبر المضيق في قوارب جلدية» Strabon 16.4.19). لذلك فعندما كانت قريش تستعد لإرسال وفد إلى حاكم الحبشة، بدا من الواضح لهم أن أفضل هدية

يمكنهم أن يقدموها له «من أعجب ما يأتيه منها الآدم» هي الأواني المصنوعة من الجلد ‹ابن هشام›. لكن إضافة إلى هذه الإشارات وغيرها ليس لدينا سوى المنتجات نفسها، أو بالأحرى فقط تلك التي بقيت، لتخبرنا عن الحِرَف العربية، كصناعة الفخار في بلاد النبط، وأختام دلمون، ومنسوجات بلميرا/ تدمر، وتمياثيلات المرمر لجنوبي جزيرة العرب.



اللوحة 31: انطباع صنعه ختم لدلمون من الكلوريت/ الستيتيت، يمثل مشهدًا (ميثيولوجيًا؟) يتضمن أشكالاً بشرية (إله جالس على العرش) وثور، نحو 2000–1800 ق م، قطره 2,54 سم (متحف البحرين الوطني)

8) اللغة والأدب

8 / 1) النصوص المكتوبة

ثمة تراثان أبجديان كبيران تشتق منهما كل الأبجديات: التراث السامي (يسمى عادة الفينيقي، الذي تتحدر منه الأبجدية اليونانية) والتراث العربي. يُعتقد أنهما نشأا في المشرق وانفصلا في وقت ما في الألف الثاني قبل الميلاد. تقسم المجموعة العربية إلى فرعين، الجنوبي والشمالي. الأول يتألف من تسع وعشرين حرفًا، كانت تكتب كحروف كبيرة في النقوش النصبية على الحجر والبرونز وبالحرف الصغير في الوثائق على الخشب وسويقات النخيل. في مراحلها المبكرة كانت تكتب من اليسار إلى اليمين أو من اليمين إلى اليسار، أو كان من الممكن أن يتحول النقش الطويل حتى من اتجاه إلى آخر من سطر إلى سطر، ومع ذلك، بالتدريج أصبح الاتجاه المفضل، من اليمين إلى اليسار، هو الإمكانية الوحيدة. هذا الخط العربيي الجنوبي بقي قيد الاستعمال حتى العصر الإسلامي المبكر، عندما كان يستخدم عِرضيًا لكتابة اللغة العربية، لكن تم التخلي عنه بعدئذ مباشرة لصالح الخط العربي. كان يستخدم أيضًا، مع تعديلات صغيرة، في المنطقة الساحلية من شمال شرقي جزيرة العرب (الحسا/ الأحساء). أما المجموعة العربية الشمالية فكانت تضم ثمان

وعشرين حرفًا، وتوجد، مع تنويعات محلية في شكله والممارسة المتعلقة بالتهجئة، في كل أنحاء شمالي جزيرة العرب ووسطها، وكذلك بين جاليات الشتات العربية المستوطنة في بابل وفي أمكنة أخرى (الشكل 7).

Phonetic value	South Arabian	Taymanitic	Dedanitic	Hismaic	Safaitic	Arabic
ʾ	𐩱	𐪑	𐪑	𐪑	𐪑	ا
b	𐩨	𐪈	𐪈	𐪈	𐪈	ب
t	𐩩	𐪉	𐪉	𐪉	𐪉	ت
th	𐩻	𐪛	𐪛	𐪛	𐪛	ث
ǧ	𐩴	𐪔	𐪔	𐪔	𐪔	ج
ḥ	𐩢	𐪂	𐪂	𐪂	𐪂	ح
kh	𐩭	𐪍	𐪍	𐪍	𐪍	خ
d	𐩵	𐪕	𐪕	𐪕	𐪕	د
dh	𐩹	𐪙	𐪙	𐪙	𐪙	ذ
r	𐩧	𐪇	𐪇	𐪇	𐪇	ر
z	𐩸	𐪘	𐪘	𐪘	𐪘	ز
s	𐩪	𐪊	𐪊	𐪊	𐪊	س
sh	𐩦	𐪆	𐪆	𐪆	𐪆	ش
ṣ	𐩮	𐪎	𐪎	𐪎	𐪎	ص
ḍ	𐩳	𐪓	𐪓	𐪓	𐪓	ض
ṭ	𐩷	𐪗	𐪗	𐪗	𐪗	ط
ẓ	𐩼	𐪜	𐪜	𐪜	𐪜	ظ
ʿ	𐩲	𐪒	𐪒	𐪒	𐪒	ع
gh	𐩶	𐪖	𐪖	𐪖	𐪖	غ
f	𐩰	𐪐	𐪐	𐪐	𐪐	ف
q	𐩤	𐪄	𐪄	𐪄	𐪄	ق
k	𐩫	𐪋	𐪋	𐪋	𐪋	ك
l	𐩡	𐪁	𐪁	𐪁	𐪁	ل
m	𐩣	𐪃	𐪃	𐪃	𐪃	م
n	𐩬	𐪌	𐪌	𐪌	𐪌	ن
h	𐩠	𐪀	𐪀	𐪀	𐪀	ه
w	𐩥	𐪅	𐪅	𐪅	𐪅	و
y	𐩺	𐪚	𐪚	𐪚	𐪚	ى
ś	𐩯					

الشكل 7: خطوط عربية؛ لاحظ أن أشكال الحروف يمكن أن تتغير بشكل كبير، خصوصًا في حالة الخطوط المعروفة فقط من الغرافيتي

إضافة إلى هذه الخطوط العربية ثمة أدلة على وجود عدد من الحروف المستوردة. أما أقدمها فكان الخط المسماري، الذي استخدم في الألف الثاني قبل الميلاد في جزيرتي فيلكا والبحرين. أما أهمها فكان الخط الآرامي المستخدم في شمال غربي جزيرة العرب وشرقيها في أثناء العهد الفارسي [539–334 ق م]، واعتمدته لاحقًا كل الكيانات المبعثرة حول أطراف الصحراء السورية. لقد أدى نجاح الأنباط إلى نشر طبعتهم من الخط الآرامي في طول البلاد وعرضها، وحتى بعد الضم الروماني لملكتهم في العام 106 م بقي قيد الاستعمال لمدة قرنين. في وقت لاحق استخدمته القبائل العربية الموالية لروما وإيران لكتابة لغتها، أي العربية. إن سيرورة تحميل اللغة بأصوات مختلفة وأحرف ساكنة إضافية قد تسببت في النشوء التدريجي للخط النبطي (الذي لم يكن يضم سوى اثنين وعشرين حرفًا) إلى أن أصبح في القرن السادس ميلادي ما صرنا نعرفه بالخط العربي (اللوحة 2/32).

8 / 2) اللغات

تنتمي كل اللغات المستخدمة في جزيرة العرب تقريبًا إلى العائلة السامية، التي يشبه أفرادها بعضهم شبهًا شديدًا، بالشكل الأوضح في مجال تركيب الكلمة. فالغالبية الكبيرة من الكلمات في اللغة السامية تتألف من ثلاثة أحرف جذرية. في كل حالة يمكن تعديل هذه الحروف الجذرية بإضافة أحرف صوتية [أحرف علة] ومجالاً محدودًا من الأحرف الساكنة الأخرى لأعطاء تشكيلة من الكلمات ذات المعنى المتشابه. إن تعديل الأحرف الجذرية ليس اعتباطيًا، لكنه تخطيطي (تشكيلي) إلى درجة عالية، وكل تخطيط [تشكيل] يبين الشكل النحوي للكلمة ومعناها المحدد. رغم أن التطبيق أكثر فوضى قليلاً، فإن هذا العرض النظري يصحّ بما يكفي لأن يسمح لنا بأن نميز اللغات غير السامِيَّة تمييزًا واضحًا من اللغات السامية.

تنقسم لغات جزيرة العرب، مثل الخطوط العربية، إلى مجموعة جنوبية ومجموعة شمالية، فالأولى، المعروفة من نحو عشرة آلاف نقش، تتميز بوجود ثلاثة حروف لا مشدّدة (حروف تلفظ بصوت هسهسة) وأداة تعريف توصل بنهاية الكلمة. الأفراد الأساس للمجموعة الجنوبية من اللغات هي السبئية، المعينية (أو المذهبية/ Madhabic)، القتبانية والحضرمية، كون هذه اللغات تستعملها الشعوب الأساس الأربعة للمنطقة. كان ثمة لغات أخرى مختلفة يتكلم

بها في جنوبي جزيرة العرب، لكنها لم تكن مكتوبة أبًدا، أو نـادرًا جدًا فقط، فالحميريون، على سبيل المثال، كانوا يستخدمون السبئية في نقوشهم، مع أنهم في كثير من الأحيان كانوا يرتكبون الأخطاء وأدخلوا كلمات غريبة وسمات نحوية أجنبية مشتقة بشكل مفترض من لغتهم المحكية. توحي الشذوذات في نقوش المعينيين بأنهم، أيضًا، كانوا يتكلمون لغة ويكتبون لغة أخرى، مع كون الثانية اللغة المستخدمة في المنطقة (وادي مذهب، الجوف حاليًا) التي انتقلوا إليها في نحو القرن السادس ميلادي. أخيرًا، هناك اللغات غير العربية الحديثة لجنوبي جزيرة العرب (المهرية، الهروسية، السقطرية، البثارية، الجبالية، الحبيوتية)، التي كانت لها أسلاف قديمة كما هو مفترض، لكن النقوش الباقية من جنوبي جزيرة العرب لا تقدم أية موازيات لها.

يمكن التعرف إلى المجموعة الشمالية من لغات جزيرة العرب من طريق وجود حرفين صافرين لا مشدّدين وأداة تعريف متصلة ببداية الكلمة ويمثلها نحو أربعين ألف نقش تقع في معظمها في محيط المدن الواحية لشمال غربي جزيرة العرب، صحراء حِسمى الرملية وصحراء حراء البازلتية، ومرتفعات وسط جزيرة العرب[1]. هذه اللغات العربية الشمالية كلها قريبة تمامًا من بعضها وكانت مفهومة بشكل متبادل [بين متكلميها] إلى درجة كبيرة. إذ توجد بينها اللغة السلف (الأم) للغة العربية الكلاسيكية، التي عادة ما يشير الباحثون إليها بأنها العربية القديمة والتي يمكن تمييزها بسهولة من طريق استعمالها لأداة التعريف ’ال‘ (اللغات الأخرى تستخدم هـ/ هن). من ملاحظة ‹Herodotus 3.8› أن العرب يسمون أفروديت إيلات (الربة) ربما يمكننا أن نستنتج أن العربية القديمة قد وجدت في وقت مبكر يعود إلى القرن الخامس قبل الميلاد، لكن يبدو أنها نادرًا ما جرى تدوينها حتى قبل قدوم الإسلام بقرن أو أكثر. في المناسبات القليلة جدًا التي كانت تدون فيها، كان يستخدم خط الوجاهة في المنطقة المعنية. هكذا ففي ديدان منذ ماقبل زمن الأنباط (نهاية القرن الأول قبل الميلاد) يعلن نقش «النصب الدفنـي لِ عبد سمين بن زيد حارم الذي بنته سلمى بنت أوس» (Js Lih 384). فاللغة هي العربية القديمة، لكن الخط كان مستعملاً منذ زمن طويل في ديدان. في قرية الفاو، عاصمة كندة وقبائل عربية أخرى، كتب شخص يدعى عجل بن هفعم النص الإهدائي لضريح أخيه باللغة العربية القديمة مستعملاً خط المملكة السبئية المجاورة (اللوحة 3):

عجل بن هفعام بنى لأخيه ربيبيل بن هفعم الضريح: لنفسه ولولده وزوجه، وأولاده وأولاد أولادهم ونسائهم، الأفراد الأحرار لقوم غلوان. وقد وضعه تحت حماية [الآلهة] كهل ولاه وعشتار [عشتار؟] الشارق [لحمايته] من أي شخص غريب أو ضعيف، وأي شخص سيحاول أن يبيعه أو يرهنه، على مدى الدهر من دون أي انتقاص طالما بقيت السماء تنتج مطرًا والأرض عشبًا.

وفي العام 328 م في النمارة في الصحراء البازلتية جنوب شرقي دمشق جرى بناء ضريح لامرئ القيس ومآثره الممجدة في نص مؤلف باللغة العربية القديمة باستعمال الخط النبطي (اللوحة 1/32)، الذي بقي خط الوجاهة في تلك المنطقة (انظر الفصل الثالث). إن سمات اللغة العربية القديمة غالبًا ما تتبدى في النصوص المكتوبة بلهجات شمالي جزيرة العرب الأخرى أو بالنبطية من مختلف أجزاء جزيرة العرب، ما يبين أن العربية القديمة كانت محكية على نطاق واسع في كل أنحاء المنطقة. مع ذلك بقيت لغة عامية في المقام الأول يستخدمها الأميون والذين يفضلون الكتابة بلغات أخرى لأي سبب من الأسباب. فالنصوص المكتوبة كليًا بالعربية القديمة نادرة للغاية حيث إن تدوينها لابد أنه كان اختيارًا واعيًا ومتعمدًا. من المفترض أن القصد منه كان الإعلان عن نسبها الإثني و/ أو الثقافي، حول هويتها العربية. من الممكن أيضًا أنه كان ثمة دلالات سياسية لاستعمال اللغة المحكية بدلاً من استعمال لغة أجنبية، لأنه من الملاحظ أن امرؤ القيس قد مارس نفوذًا على منطقة كبيرة وكان عجل بن هفعم يتحدر من مدينة يتخذها عدد من القبائل عاصمة لها.

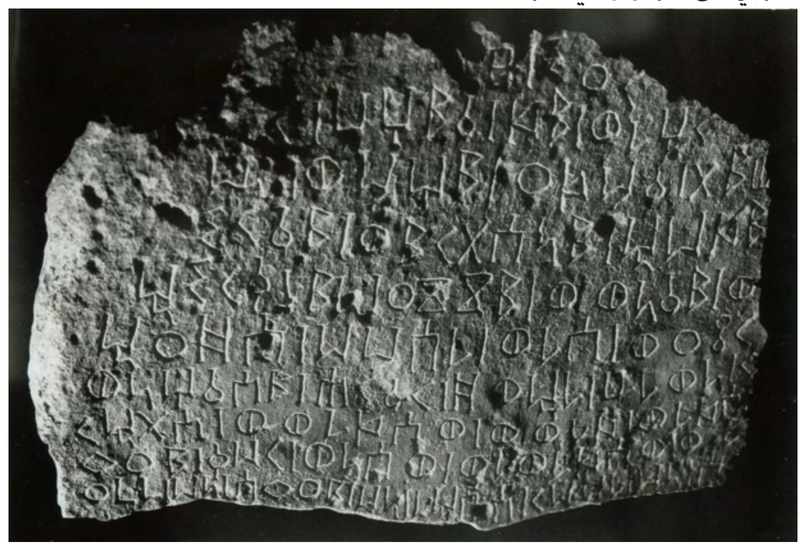




اللوحة 32/1-2: 1: **أسكفه من ضريح امرؤ القيس في النمارة، سورية، تحمل نقشًا عربيًا بالخط النبطي، يعود تاريخه إلى العام** 328 **م** (P. &M. Chuzeville, Louvre AO4083).
2: **غرافيتي عربي من جبل سايس، سورية، كتبه إبراهيم بن المغيرة الأوسي بمناسبة إرساله من قبل الحارث الملك، آنذاك بالخط العربي،** 528 **م،** (David Hopkins).

لا تتوافر لنا سوى معلومات قليلة جدًا عن الوضع اللغوي لشرقي جزيرة العرب لأنه لم يصلنا سوى عدد ضئيل من النصوص. فقد جرى العثور على نحو خمسين حجر ضريح منقوش في المنطقة الساحلية الشمالية الشرقية المعروفة باسم الحسا (من هنا فإن الباحثين الحديثين يسمون لغة أحجار القبور بالحسائية؟) مع ذلك، فإنها جميعًا مقتضبة جدًا وتتألف في معظمها من صيغ

دفنية مقولبة منمطة، زائد اسم شخصي «نصب وضريح فلان». لذلك من الصعب أن نقول أي شيء ذا معنى حول هذه اللغة يتجاوز حقيقة أنها تنتمي إلى المجموعة العربية الشمالية. من الممكن حتى ألا تكون لغة محلية، بالأحرى إن بلاطات الأضرحة (شاهدات القبور) هذه من الممكن أن تكون النصب التذكارية لجماعة مهاجرة من العرب الغربيين الذين يسيّرون طريق التجارة الشرقي- الغربي من طريق وادي سرحان.



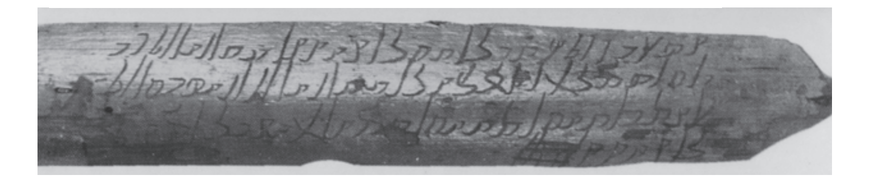
اللوحة 33: نقش عربي بالخط السبئي من قرية الفاو على حجر ضريح كلسي كتبه عجل بن هفعم، من القرن الأول قبل الميلاد (الأنصاري، انظر كتابه: قرية الفاو، ص 146).

إضافة إلى هذه اللغات العربية كان عدد من اللغات الأجنبية يستعمل في هذه البلاد، وثمة حفنة من الوثائق الأكادية من الألف الثاني قبل الميلاد ونصوص يونانية قليلة من العهد الهلنستي من جزيرتي فيلكا والبحرين. لقد جرى العثور على نقوش صخرية يونانية وحتى لاتينية قليلة جدًا في شمال غربي جزيرة العرب، لكن اللغة الآرامية فقط (مع خطها) هي التي توجد الأدلة عليها على نحو متكرر. كما هو متوقع، تصادف في غالبيتها في المناطق الواقعة تحت النفوذ النبطي والبلميرا/تدمري، وكانت أيضًا هامة في شرقي جزيرة العرب، كما تثبت ذلك مجموعة متزايدة من النصوص على تشكيلة من المواد كالقطع النقدية،

وصفائح البرونز والكسر الفخارية، والمراسلات الباقية (باللهجة الآرامية المعروفة بالسريانية) بين سلطات الكنيسة في بابل والكهنة في شرق جزيرة العرب.

8 / 3) الوثائق

إن النقش على الحجر أو المعدن عمل شاق، وعلاوة على ذلك فإنه صعب التجهيز، أما تحضير المعدن فغالي الثمن. لذلك من غير المفاجئ أن أيًا منهما لم يستعمل بكثرة لتدوين المعاملات اليومية حيث توافرت لهذه الأغراض مواد أسهل استعمالاً وأرخص ثمنًا يمكن الكتابة عليها بالحبر أو بالصبغة أو النقش عليها بسهولة. إن الإشارات الغزيرة في الشعر العربي الجاهلي تعطينا فكرة عن السطوح الأساس المستخدمة. هكذا نقرأ عن جلود الحيوانات التي يمكن للمرء أن يصنع منها الرق (الجلد غير المدبوغ) والجلد (المدبوغ)، والنباتات وأبرزها البردي وسيقان النخيل وأشجار ال (السمسق)؛ والقماش، على نحو رئيس القطن والكتان، والعظام التي جرى التنقيب عن بعض شظايا منها التي تحمل الخط العربي الجنوبي في قرية الفاو، وقطع الفخار (ostraca)، التي لدينا نماذج آرامية منها من بلاد النبط وشرقي جزيرة العرب. إضافة إلى ذلك فقد كانت الألواح والأختام الصلصالية تستعمل في شرقي جزيرة العرب لأجل النصوص المكتوبة بالخط المسماري وخصوصًا الأختام الرسمية والإيصالات الخاصة بالسلع. مع ذلك، فإن ما تكسبه هذه المواد في المؤاتاة للاستعمال تخسره في القدرة على التحمل والبقاء. ففي حين أن عشرات الآلاف من النصوص على الصخر قد صمدت أمام العوامل الجوية لقرون من الزمن، جرى العثور على بضع مئات من سيقان النخيل فقط، وعلى عدد لا يتجاوز دزينات قليلة من النصوص المكتوبة على الوسائل الأخرى. إن الوثائق المدونة على سيقان النخيل كلها بالخط العربي الجنوبي وتلقي ضوءًا على جوانب ذاك المجتمع الذي تتركنا النقوش في حالة غموض كلي عنه (اللوحة 34). فهي تتضمن، على سبيل المثال، تمارين على الكتابة، رسائل شخصية (عادة لها علاقة بالمسائل التجارية) وامتنانات لخدمات جرى تقديمها. الأرجح أن هذه الوثائق كانت فيما مضى جزءًا من أرشيفات، ربما كانت محفوظة في المعابد. إن اكتشافها حديث العهد، ويؤمل أن يجري تحديد موقع المزيد منها، لتقدم منظورات جديد عن عالم غامض إلينا.



اللوحة 34: **سعفة نخيل تحمل نصًا سبئيا كتبه يوعلّيل من عشيرة جيراف يأمر وهر من عشيرة هبران «استلام التابع لعشيرة دور الذي جرى إرساله مع سباع وألا يسيئ معاملته»، القرنين الأول-الثالث ميلادي** 2 **سم** (Jacques Ryckmans; id. Et al., Textes du Yémen antique, no. 6).

8 / 4) النقوش

لاحظ الشعراء العرب الجاهليون ديمومة النقوش [وهم] الذين قارنوها بالبقايا التي تخلفها المضارب التي كانت تبدو بطريقة مشابهة قادرة على تحدي تأثيرات الزمن المخربة، وبسبب هذه الخاصية تحديدًا، لطالما استعملت الشعوب الإغريقية-الرومانية والشرق أوسطية النقوش لتدوين مآثرها وقراراتها، آمالها وطموحاتها، صلواتها وتضرعاتها. في أغلب الأحيان كان يجري تطوير خط نُصبي جميل لكي يحمل هذه الرسائل، مضفيًا الجلال والموثوقية على النص وعلى الوسيلة التي ينقش عليها. ما يتعلق ببعض الحضارات فإنه لم يبق شيئًا من إرثها الأدبي سوى القليل الأخرى من إرثها الأدبي تمنع التدوين الأبيغرافي (النقش). وهذا يصح على نحو خاص على جزيرة العرب الجاهلية، التي خربش سكانها على الصخور من حولهم بتهتك خليع[2]. كانت مرئية النقوش تعني أنها جميعًا، إلى درجة أكبر أو أقل، نصوص علنية (عامة). لقد كان الكثير منها هكذا من الناحية الرسمية، إعلانًا من ممثل مؤسسة سياسية أو دينية نيابة عن المجتمع كله، يُعبر عن المبادئ التي يُحكم بها ويتصرف بها نفسه. هكذا كانت النقوش الأخرى على نحو مدروس، تصريحًا، من قبل بطرون [حامي] غني يتبجح بشهامته وفضيلته. ومرة أخرى ثمة نقوش أخرى (وعلى نحو بارز نقوش الأضرحة والغرافيتي) كانت هكذا بشكل أكثر حذاقة، بيانًا شخصيًا من قبل أفراد يسعون إلى إظهار أوراق اعتمادهم، يؤكدون عضويتهم في المجتمع والتزامهم بأوامره الأخلاقية وعقائده الهادية. نظرًا لهذه النية والحاجة إلى سهولة الفهم، فإن النقوش تميل إلى الاعتماد على مخزون مشترك من العبارات التي تبقى محدودة تمامًا وتكشف عن درجة عالية من تكرار الصيغ المؤطرة، رغم أن لكل جنس أدبي ولكل فئة ثقافية تعبيراتها الخاصة بها. إن عدد الأجناس

قليل نسبيًا أيضًا، مع أن كل جنس ذو مجال واسع تمامًا ويمكن أن يجمع النقش عناصر من أكثر من جنس أدبي.

8 / 4 / 1) النقوش التذكارية / التصريحية

هذه فئة واسعة جدًا. في حالة النصوص التذكارية كان النقش التذكاري يعني في أغلب الأحيان تدوين مشروع ناجح: انتصارات في الحرب، صروح فخمة جرى إكمالها، معاهدات ملزمة جرى إبرامها، أرباح جرى جنيها في التجارة. في حالة الغرافيتي كان ذلك يستتبع التدوين بالكلمات لأفعال وأفكار ومشاعر من الحياة اليومية، ولذلك فإن مجال الموضوعات أوسع بكثير. في النقوش الصفوية والحِسمية، على سبيل المثال، نحصل على مخطط عام لحياة مؤلفيها البدو. ففي الربيع يغادرون الصحراء الداخلية الحارة مع قطعانهم بحثًا عن المراعي الجديدة التي روتها الأمطار. هناك تلد الحيوانات: «العنزات ولدت صغارًا وسط البراعم الجديدة» ‹WH 1673›، فيما كان أصحابها يردون الحيوانات المفترسة، فبنوا حظائر تُجمع فيها الحيوانات عند هبوط الليل، وفي بعض الأحيان يقيمون ملاجئ خشنة لأنفسهم كحماية ضد عوامل الطبيعة. عندما يشتد الحر، يبحثون عن مكان آخر يقضون فيه الصيف (القيظ)، يكون من الناحية المثالية موقعًا باردًا تتوافر فيه إمدادات الماء الدائمة. مع أمطار الخريف الأولى يعودون إلى دفء الصحراء الداخلية، لأن برد البادية في الشتاء يمكن أن يقتل حيواناتهم الفتية. مع قدوم الربيع تبدأ الدورة مرة ثانية: «هذا هو مضربه عامًا بعد عام» ‹WH 1193, SIJ 171›. لابد أن الحياة كانت قاسية، ومن حين لآخر نسمع عن «عام من البؤس» ‹WH 2110›. مع أن البعض كانوا يعلنون أنهم «رعوا وعاشوا في يُسر» ‹WH 597)›. إن النشاطات اليومية التي تذكر على النحو الأكثر شيوعًا هي الرعي، الاستطلاع (النظر <نظر>)، الرسم <خطط>، البناء <بني>، وخصوصًا الحظائر المسيجة، والملاجئ، وخزانات الماء) والقتال (الغزو - <جهز>).

فيما يتعلق بالعواطف، فإن جل ما يكتبه مؤلفونا هو عن أحزانهم وحبيباتهم. إذ تغلب الأولى [الأحزان] في النصوص الصفوية، التي تكشف عن قاموس غني من الكلمات للتعبير عن الحزن. في العادة يكون الحزن على المتوفي من الأقرباء والأعزاء، هو الذي يمكن أن يسكن الأحياء «عامًا بعد عام» ‹SIJ 72, 119, 785)›، والذي يثيره ما يذكر بهم بالصدفة: «وجد نقش جده فحزن، <وجد

سفر عمه فوجم>» ‹WH 1273›. أما النصوص الحِسمية، من ناحية أخرى، فتخبرنا في أغلب الأحيان عن المآثر العشقية وكثيرًا ما يزعم شاب من قبيلة أنه «أحب (ودد) فتاة جميلة» ‹KJA 23› أو أنه «أغرم حتى السقم <سقم سرر> بفتاة عذراء واستمتع بمضاجعتها» ‹KJA 24›. كان الذين ينقشون باللهجة العربية الشمالية المستعملة حول نجد يميلون إلى الإشارة إلى أن عواطفهم هي هبة من الآلهة «بفضل <نوها> يكون الغضب المفاجئ»، «بفضل نوها تكون غيرة العاشق» «يا الله، بفضلك يكون الحب والسكينة». وفي الواقع أن كل الأشياء جيدة، أو سيئة، يعترف بأنها تظهر بقوة الآلهة: «بفضل دثن خبزنا ومرعانا»، «بفضل رودا نحن موجودن»، «بفضل كهل يكون حب الحيوانات»، «بفضل رودا يكون البكاء»، «بفضل نوها يكون مرض الأمعاء والحصبة»[3].

8 / 4 / 2) النقوش التوسلية

إن إحدى سمات قسم كبير من النقوش العربية هي أنها تناشد إلهًا طلبًا لنعمة ما. فمن الألف نقش أو أكثر من البتراء هناك ستمئة منها تقدم طلبات بسيطة: «عسى أن يكون فلان الفلاني بسلام» (سهلم + الاسم)، «عسى أن يكون فلان الفلاني مذكورًا» (دكير + الاسم)، و«عسى أن يكون "فلان الفلاني" مباركًا» (بريك+الاسم). والالتماسات القصيرة نفسها توجد في آلاف الغرافيتي الأخرى في بقية المملكة النبطية. خلافًا لذلك يمكن أن يضمر المتوسلون شيئًا محددًا يكون يخصهم أو يخص جماعتهم في ذاك الوقت، سواء كان شفاءً من مرض بعينه أو تلقي هبة بعينها. في النصوص الصفوية فإن الإله الذي يجري التضرع إليه على النحو الأكثر تكرارًا هو الربة اللات إذ يُطلب منها أن تقدم العناية وأن تبدي الرحمة. يُنتظر منها الرفاه واليسر والازدهار. يصلي المسافرون لكي ترافقهم في هجرتهم وتقدم الطقس المعتدل. يُتوسل إليها لأجل الحماية من العدو، والانتقام من المعتدي، والغنيمة للمؤمنين بها في غاراتهم، وأن تنزل المرض والعمى والعرج على كل من يمحو نقوشهم.

8 / 4 / 3) النقوش النذرية

إن طلب نعمة أو تقديم الشكر لأجل إنجازها يدعم في أغلب الأحيان بتقدمة أو أضحية تقدم إلى الإله المعني بالموضوع (اللوحة 35). وبين الناس المتوطنين

يوجد نقش مرافق غالبًا، يدون هذا الحدث.

أهدى مانع إلى سيدته، خليلة مفرش، محرق البخور هذا، عساها تمنحه قرارًا وحييًا يكون مُرضيًا، وعساها تمنحه السلامة لإخوانه والسلامة لأولاده، وعساها تمنحهم محاصيل الربيع والخريف في أرضهم، وعساها تصد كل أعداءهم ‹Ja 2897›.



اللوحة 35: صفيحة نذرية برونزية من تمنة مع مصباح زيت يُحمل باليد، أهداها همتيعم ظرهان إلى «ربه ومولاه، سيد يغيل»، القرن الأول ميلادي، 20×11,6 سم (AFSM).

يمكن للنقش أيضًا أن يعلن أسباب تقديم الإهداء، الذي عادة ما يكون تعبيرًا عن أمل أو امتنان المتقدم بالهدية لما سيفعله الإله أو ما فعله للتو. هذه الأسباب يمكن تفصيلها مطولاً إذا كان مقدم الهدية ملكًا أو نبيلاً، قادرًا على تحمل

نفقات الكتابة الاحترافية ومكافأة البنّاء ويرغب في عرض مآثره وتلقي البركات الإلهية لكل عابري السبيل. خلافًا لذلك يمكن تقديم التقدمة من دون أي شروط مرتبطة بها، ببساطة بدافع التبجيل والاحترام و«لأجل حياتهم وحياة أولادهم وأخوتهم» (صيغة بلميرا/تدمرية شائعة).

8 / 4 / 4) النقوش الدفنية

تميل النقوش على شاهدات القبور والأضرحة إلى البساطة الشديدة في جزيرة العرب. ففي الجنوب من الشائع تمامًا تدوين أسماء المتوفين وأسماء ذريتهم. بين قبائل الحراء كان بناؤوا الضريح يدونون عملهم واسم الشخص المعمول لأجله، ويقولون ببساطة إنهم: «شعروا بالأسى». ليس لدينا نصوص أضرحة حقيقية سوى من نخبة المملكة النبطية (ومن ثم بالدرجة الأولى من الحجر/ مدائن صالح)، وهذه في جوهرها من الوثائق القانونية التي تحدد ما يجوز وما لا يجوز فعله بالضريح وما الذي سيحدث للذين يخالفون هذه المواصفات:

> هذا الضريح الذي بناه عَيْدو بن كُحيلو بن الكاسي لنفسه وأولاده، والمتحدرين منه ولكل من ينتج بيده عملاً بتخويل من عَيْدو، ساريًا لأجله، ولأجل كل من يمنحه عَيْدو أثناء حياته الإذن بالدفن فيه. في شهر نيسان، العام التاسع من حكم حارثة، ملك الأنباط، المحب لشعبه. وليلعن [الإله] ذو شرا و[الربّان] مناة وقايشا كل من يبيع هذا الضريح أو يشتريه أو يرهنه أو يقدمه هبة أو يؤجره أو يصوغ لنفسه أي وثيقة تتعلق به أو يدفن فيه أحدًا من خارج أولئك المذكورين أعلاه في النقش. والضريح ونقشه هذا محرمان وفقًا لطبيعة التحريم بين النبطيين والسَلَميين إلى الأبد وعلى الدوام ‹H 8›.

8 / 4 / 5) النقوش التبجيلية

هذه النقوش هي إلى حد كبير ظاهرة بلميرا/تدمرية، تحاكي التقليد الإغريقي - الروماني المتَّبع لتمييز ومديح الذين بذلوا أنفسهم في خدمة المجتمع. المثال الآتي مسرف في العاطفية على نحو خاص:

المجلس والشعب يكرمان سودس بن لوليادس بن سودس بن طميسامس (Soados son of Boliades son of Soados son of Taymisamos) لتقواه وحبه لمدينته، وللنبل والكرم الذين يظهرهما في مناسبات هامة عديدة للتجار والقوافل والمواطنين في فولوغسياس (Vologesias). لهذه الخدمات تلقّى شهادات من هدريان الإلهي ومن الإمبراطور الأكثر إلهية أنطونينوس (Antoninus) ابنه، بشكل مشابه بتصريح من ببليسيوس مرسيلوس (Publicius Marcellus) ورسائل منه ومن والحكام القنصليين المتتابعين. لقد جرى تكريمه بالمراسيم والتماثيل من المجلس والشعب، من القوافل في مناسبات مختلفة، ومن المواطنين المنفردين. والآن لوحده من بين كل المواطنين وفي كل الأوقات بناء على خدماته الجيدة المستمرة والمتراكمة قد كرمته مدينته على نفقة العامة بأربعة تماثيل منصوبة على أعمدة في أربعة أركان المدينة، وبقرار من المجلس والشعب أقيمت ثلاثة أخرى في سباسينو خركس (Spasinou Charax)، وفولوغسياس وخان القوافل [نُزل] جنايس (Gennaes–107 ‹Sy 12.106›).

8 / 4 / 6) النقوش القضائية

كان من الشائع تمامًا في مناطق جزيرة العرب أن تنقش نصوص ذات طبيعة قانونية على حجر (انظر الأمثلة في الفصل 5). إن ميزة ذلك هي أن هذه النصوص متوافرة بسهولة ليقرأها الجميع (أو تُقرأ لأجلهم) وتبقى لأجيال عديدة. أما موضوعاتها فهي متنوعة: القوانين المحلية التجارية (مثل قوائم الضرائب المتوجبة على السلع المباعة في بلميرا/تدمر والتي يحددها مجلس المدينة، والأنظمة المتعلقة بالتجارة في سوق تمنة التي أسسها ملك قتبان)، والعقوبات بحق المجرمين، والتشريع المائي [المتعلق بالري]، والتعاليم العبادية، والتسويات الحدودية (التخوم) وحقوق الملكية . . وهلم جرا. كانت السلطة المشرعة هي في أغلب الأحيان إله (يصدر المراسيم بواسطة وحي إلهي ويتلقاها ويعيد كتابتها موظف ديني)، أو ملك أو ممثله، أو مجلس مدينة أو مجلس قبلي، وحتى الأفراد كان من الممكن أن يستفيدوا من هذه الممارسة، التي تحدد

الشروط لاستعمال أضرحتهم وتوكيد ملكيتهم للبيوت وما شابه. ثمة نوع خاص من النقش القضائي، المعروف الآن على نحو رئيس من منطقة الجوف في جنوبي جزيرة العرب وريبون في حضرموت، هو النص التكفيري (التوبي)، الذي يعترف فيه الأشخاص بمخالفتهم للقانون، المتعلق عادة بالطهارة، ويقدمون قربانًا تكفيرًا عن ذلك. هنا مثال نموذجي:

> اعترفت حوليت، عبدة [عشيرة] سُلَيْم وقدمت التوبة إلى ذو سماوي، رب بيان، لأنها ارتدت عباءة متسخة وثوبًا صوفيًا ملوثًا وقد أخفت ما اقترفته عن أسيادها. فعسى أن يكافئها ذو سماوي بالعطف. أما هي [بدورها] فقد خضعت وذلت نفسها وقدمت قربانًا تكفيرًا عن ذلك ودفعت غرامة ‹Haram 35; cf. nos. 8, 33 ,10–36, 40, 56›.

8 / 5) الأدب: الشعر

ينحصر الدليل المادي على وجود الشعر في جزيرة العرب قبل الإسلام بمثالين. أحدهما جرى اكتشافه مؤخرًا في وادي قانية إلى الجنوب الشرقي من صنعاء. إنه قصيدة أو ترنيمة موجهة إلى إلهة الشمس، شمس عليّات، التي يقع مزارها الجبلي في مكان قريب. مع أن هذه القصيدة قد كتبت بالخط العربي الجنوبي، ربما من أواخر القرن الأول أو أوائل القرن الثاني ميلادي، فهي ليست بأي لغة من اللغات المعروفة لجنوبي جزيرة العرب، مع أنها قد تكون باللغة المحلية للحميريين، الذين تقع في أرضهم. يتألف نص القصيدة من سبع وعشرين بيتًا، كل بيت يحوي على ثلاثة فواصل كلامية، ما يوحي بشكل نظمي ذي أربعة تفعيلات للبيت الواحد. علاوة على ذلك فإنها [قصيدة] مقفّاة، كل بيت ينتهي بالحرفين (حك). إنها تبدأ وتنتهي كما يلي [ترجمت بتصرف عن النص الإنغليزي – انظر الملحق – ز م]):

> أنشُدُ حمايتك، لأن كل الأحداث من فعلك
> في صيد الخنوان جعلت دم المئات [من الوحوش] يُسفك
> فرأس قبيلة ذو فَسَدْ ارتفع عليًا بك
> وصدر علهان من يهير اتسع [لك]
> لقد جعلت المطر المدار عبقًا، لأنك فتحت يدك

أنجدتنا، يا شمس، لأن المطر كان من فضلك
ونتوسل إليك أن يبقى شعبك بالمطر الدائم يتبارك[4]

من الفترة نفسها تقريبًا، إنما من الطرف الآخر من جزيرة العرب، عين عبدات في صحراء النقب، لدينا نص ثان، أقصر بكثير وهو هذه المرة باللغة العربية. إنه يشكل جزءًا من نقش نبطي، يدون فيه شخص يدعى جرملاهي بن تيمالاهي تقدمته لتمثال إلى الإله عُبُدات، ثم يتحول إلى اللغة العربية، مع أنه يظل يستعمل الخط النبطي. في مهرجان فينوس في البتراء كان المواطنون كما يبدو «يمتدحون العذراء بترانيم باللغة العربية» ‹Epiphanius 51.22›، وربما كان لدينا هنا جزء من ترنيمة أو قصيدة مشهورة في مديح الإله:

لأنه [عُبُدات] يتصرف [لا ينتظر] جزاءً ولا هوى.
مع أن الموت قد قصدنا، فهو لم يمنحه فرصة،
مع أنني غالبًا ما واجهت الجراح،
فإنه لم يدعه يكون سببًا في هلاكي

باستثناء هاتين القطعتين فإننا مجبرون على الاتكال في معرفتنا بالشعر العربي الجاهلي على تأليفات تعود في معظمها إلى القرن السادس، بدأ جمعها في القرن الثامن. لقد أثير الجدل الحاد لزمن طويل حول ما إذا كانت هذه القصائد أصيلة أو لا، لكن الدراسات الحديثة أظهرت كيف أن الشعوب ماقبل المتعلمة يمكنها أن تحفظ حفظًا فعالاً تراثاتها مع مرور القرون، وهذا ما حصر المناقشة بقضية "التلوث الضئيل" بدلاً من "التلفيق الكبير". علاوة على ذلك فإن الرأي التشكيكي قد تجاهل المنزلة الرفيعة التي اكتسبها الشعر في المجتمع العربي:

كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها بذلك، وصنعت الأطعمة، واجتمعت النساء يلعبن بالمزاهر، كما يصنعن في الأعراس. وتباشر الرجال والولدان، لأنه حماية لأعراضهم، وذبٌّ عن أحسابهم، وتخليدًا لمآثرهم، وإشادة بذكرهم ‹ابن رشيق، كتاب العمدة›.

وفي العصر الإسلامي كان ثمة حافز إضافي لحفظ هذه المادة، وهو أنها كانت تقدم موردًا لا غنى عنه لفهم القرآن ولوضع قواعد النحو العربي («إذا قرأتم شيئًا من كتاب الله، فلم تعرفوه، فاطلبوه في أشعار العرب، فإن الشعر ديوان العرب». ‹ابن رشيق، كتاب العمدة›.

يخضع الشعر العربي الجاهلي لمجموعة معقدة من التقاليد المتعلقة بالمضمون والشكل. فاللُبنات الأساس هي الموتيفات (الصور المخزونة، التشبيهات، المجازات) التي يستخدمها الشاعر لتأليف وحدات ثيمية/ أكبر. تدعى القصيدة القصيرة التي تضم وحدة واحدة فقط باسم القطعة، في حين أن القصيدة الأطول [25–120 بيتًا] التي تتضمن وحدات كثيرة تدعى باسم القصيدة (تترجم عادة ب ode). في البداية يجب على المرء أن يحدد المزاج للقصيدة، «ادخل من الباب وضع قدمك في الركاب». بالنسبة إلى شعب بهذه الدرجة من التقدم كان يعدّ من الملائم غالبًا أن يفتتح بنغمة من الحنين إلى الماضي، بذكر موقع المخيم المهجور [الوقوف على الأطلال]، والمشاهد ذات الصلة به، والذكريات المرتبطة به والمسرات التي مر بها فيما مضى فيه. خلافًا لذلك يجوز للمرء أن يبدأ بالحب، سواء كان ذكريات/ مؤلمة، أو انتظارًا متلهفًا أو تلميحات عشقية. في أغلب الأحيان لا يجتمع الاثنان معًا، لأن التأملات في مكان الإقامة في الماضي [مكان درَس] كانت تثير على نحو حتمي خواطر الحب الذي وجده المرء هناك (معلقة لبيد):

عمت الديار محلها فمقامها ... بمنىً تأبّد غولها فرجامها
فمدافع الريّان عري رسمها ... خلقًا كما ضمن الوحي سلامها
دمنٌ تجرّم بعد عهد أنيسها ... حججٌ خلونَ حلالها وحرامها
فوقفت أسألها وكيف سؤالنا ... صمًّا خوالد ما يبين كلامها
عريت وكان بها الجميع فأبكروا ... منها وغودر نؤيها وثمامها
شافتك طغن الحي حين تحملوا ... فتكنسوا قُطُنًا تصرُّ خيامها
من كل محفوف يظل عصيه ... زوج عليه كليه وقرامها
زجلاً كان نعاج توضح فوقها ... وظباء وجرةً عطفًا أرامها

ومعلقة عنترة:

هل غادر الشعراء من متردم ... أم هل عرفتَ الدار بعد توهم
يا دار عبلة بالجواء تكلمي ... وعمي صباحًا دار عبلة واسلمي
فوقفت فيها ناقتي وكأنها ... فَدَنٌ لا قضى حاجة المتلوِّم

قد يشكل الحب أيضًا ثيمة كبرى، تبحث عندئذ في التودد والمغازلة والفتوحات، وفي الرغبة غير المحققة والحب الذي لا يُقابَل [من طرف واحد]، وفي الجمال الآسر للقلب والمفاتن الساحرة للروح (معلقة امرؤ القيس):

وبيضة خدر لا يُرام خباؤها ... تمتعتُ من لهو بها غير معجلِ

تجـــاوزت أحراســـًا إليها ومعشـرًا ... عليّ حراصًا لو يُسرون مقتلي
إذا ما الثـريا فـي السماء تعرضت ... تعرض أثناء الوشاح المفصّلِ
فجـئت وقـد نضـت لنــوم ثيـابها ... لدى الستر إلا لبسة المتفضّلِ
فقالــت يمـــين الله مــا لك حيلـــة ... وما إن أرى عنك الغواية تنجليَ
فلمـــا أجـــزنا ساحة الحي وانتحـى ... بنا بطن خبت ذي حقاف عقنقل
هصــرت بفــودي رأسـها فتمـايلت ... عليّ هضم الكشح ريّا المخلخلَ
مهفــهفة بيضـــاء غيــر مفاضـــة ... ترائبها مصقولة كالسجنجلِ

و(المفضليات، الشنفرى):

فــواكبـــدا علــى أميــمة بعــدمـــا ... طمعتُ، فهبها نعمة العيش زلَّتِ
لقــد أعجبتـــني لا سقوطًا قنـاعها ... إذا ما مشت، ولا بذات تَلَفُّتِ
تبيـــت بعيـد النـــوم تهـدي غبوقها ... لجارتـهـا إذا الهـديـة قلتِ
تحــلُّ بمنـــجاة مـــن اللــوم بيتـــها ... إذا مـا بيـوت بـالمذمة حُلَّتِ
أميمـــة لا يخـــزي نثـــاها حليلـــها ... إذا ذكر النسوان عفت وحَلَّتِ

عن المحبوب أو عن مضرب الخيام سيفترق المرء ذات يوم لا محالة، وهو ما يعطينا موضوعًا ثالثًا، هو الفراق أو السفر، الذي قد يفيد ببساطة في تسهيل الانتقال من فكرة إلى أخرى، أو يمكن، في وصف الرحلة، أن يشكل جزءًا من القصيدة (معلقة طرفة):

وإنـــي لأمضـــي الهـمّ عند احتضاره ... بعوجاء مرقال تـروح وتغتدي
أمــــون كألــواح الإران نصـــأتـــها ... على لاحِبٍ كأنه ظهر برجدِ
تبــــاري عتاقــًا ناجيـــات وأتبعــت ... وظيفًا وطيفًا فوق مور معبّدِ

عندئذ قد يستتبع الفراق وصفًا، سواء للمكان المهجور أو المقصود، أو لحيوان الركوب، أو للمشهد الذي يجري المرور به على الطريق، أو قد يشكل هذا مرة أخرى موضوعًا بحد ذاته ‹عبيد›:

كـأنهـــا [فـرســـي] لقـــوة طلــوبُ ... تجـن في وكـرهــا الـقـلـوبُ
بــاتـــت عــلـــى إرم رابـئـــــــة ... كــأنــهــا شـيـخــة رقـــوبُ
فأصـــبحـت فـــي غَـــداة قـــرة ... يسقط عـن ريشها الضريبُ
فأبصــــرت ثعـــلبًا مـــن ســـاعةٍ ... ودونــهـــا سـبـسـب جـديـب
فنفضـــــت ريشــهـــا وانتفضـــت ... وهـــي مـن نـهـضـةٍ قـريـبُ
فاشــــتال وارتـــاع مـــن حسيسها ... وفِـعـلُـهُ يـفـعـل المـــذؤوبُ
فـنـهـضـــــت نـحـــوه حـثـيـثـة ... وحــــردت حــــردة تـسـيـبُ

فـــدب مــــن رأيــهـــا دبيــــبًا والــعــين حـملاقـهـا مقلوبُ
فـــأدركـــتـــه فـطـرحـتـــه والصيد من تحتها مكروبُ
فـــرنّـــحـــتـــه ووضـــعـــتـــه فـكـدحـت وجـهـه الجـبـوبُ
يضــفـــو ومخــلـبـهـا فـي دفـه لابـد حـيـزومـه مـقـلـوبُ

والنابغة الذبياني يصف زوجة ملك الحيرة:

قامـــت تـــراءى بـــين سجفي كِلة كالشمس يوم طلوعها بالأسعدِ
أو درة صـــدفـيـــة غـــواصـهـــا بَهِجٌ، متى يرها يهل ويسجدِ
أو دميـــة مـــن مـــرمـــر، مرفوعة بُنَيَتْ بآجر، تشاد، وقرمدِ
سـقط النصيف، ولم ترد إسقاطه فتناولته، واتقتنا باليدِ

إن أغنى ثيمات القصيدة بالمادة الفكرية هي المديح (سواءً مديح الذات أم مديح الآخر) والهجاء (البذيء غالبًا)، وهذان هما الأكثر كشفًا للمبادئ الأخلاقية والقيم الثقافية للعرب الجاهليين. فالأول يعرض أنموذجًا (قدوةً) أولئك الذين يصونون ويدافعون عن الفضائل التي يقدرها المجتمع أسمى تقدير (تُسمى مجتمعة المروءة)، الكرم، الشجاعة، الوفاء بالعهد، الولاء للعشيرة، حماية الضعفاء، في حين يكشف الثاني الذين يفشلون في تكريس حياتهم لها. بعبارة أخرى من خلال هاتين الثيمتين ساهم الشعر في بيان المعايير الاجتماعية وتعزيزها. إن أوضح مثال على هذين الجنسين الأدبيين هو أولى قصائد الشاعر الشهير لبيد، الذي شحنته عشيرته لكي يثأر للإهانة التي نزلت بها من قبل أقرب أصدقاء النعمان، ملك لخم. فوعد بتأليف قطعة هجائية لإذعة للغاية بحيث أن النعمان لن يوليه أي اهتمام أبدًا ‹انظر الأصفهاني› فأحضر أمام الملك عندما انتهى هو وصديقه من تناول الطعام (قصيدة: لا تزجر الفتيان عن سوء الرعة، لبيد):

فـــي كـل يـوم هامتـــي مُقَزَّعـــة قـانـعـة ولم تـكـن مقنعه
نحـــن بنـــو أمّ البنـــين الأربعـــة ونحن خير عامر بن صعصعه
المطعمـــون الجفـــنة المدعـدعـــه والضاربون الهام تحت الخيضعه
يا واهـــب المـــال الجـزيل من سعه مهلاً أبيتَ اللعن لا تأكل معه
إن أســـته مـن بَـــرَص ملـمعـــه وإنـه يـدخـل فيـهـا إصبعه
يدخلـــها حتـى يـــواري أشـجعه كـأنـمـا يطـلـب شيـئًا ضيعه[5]

الثيمتان الشعبيتان الأخريان، الكاشفتان أيضًا للجوانب الأخلاقية للمجتمع العربي، هما الحكمة، سواء كانت نُصحًا أو تعليقًا، والرثاء. فالقصائد من النوع

الثاني مثيرة للاهتمام على نحو خاص من حيث أنها كانت في غالبيتها من تأليف النساء، وفي الواقع ربما بدأت كتراتيل مقفاة ترتلها في الجنائز «نواحات يحملن مناديلهن ملوثّة» ‹لبيد›، ‹معلقة زهير بن أبي سلمى›:

ومـــن لـــم يصـــانع فـي أمور كثيـرة — يُضّرس بأنياب ويُوطأ بمنسم
ومن لم يجعل المعروف من دون عرضه — يفره ومن لا يتق الشتم يشتمَ
ومـن يـك ذا فضـل فيبخل بفضـله — على قومه يُستغنَ عنه ويذممَ
ومـن يُـوفِ لا يذمم ومن يهد قلبه — إلى مطمئنِّ البِّر لا يتجمجمَ
ومـن هاب أسـباب المنـايا ينلنـــه — وإن يرقَ أسباب السماء بسلمَ
ومـن لـم يـذد عن حوضـه بسلاحه — يهدَّم ومن لا يظلم الناس يظلمَ
ومـن يغتـرب يحسـب عدوًا صديقه — ومـن لا يكـرِّم نفسه لا يكرَّمَ
وإن ســفاه الشـيخ لا حلـم بعده — وإن الفتى بعد السفاهة يحلمَ

والخنساء في رثاء أخيها:

لمـــرزئة كـــان الجـــوف منـــها — بُعيد النـوم يُشعر حرّ جمرِ
علـى صـخر وأي فتـى كصـخر — لـعـان عـائـل غَـلَـق بـوتـرِ
وللخصـم الألـد إذا تعـدى — لـيـأخذ حـق مـقـهـورٍ بقسرِ
وللأضـياف إذ طـرقـوا هـدوءً — ولـلـكـل المـكـل وكـل سـفـرِ

هذه الوحدات الثيمية يمكن أن تكون ذات أطوال مختلفة جدًا ويمكن دمجها بتشكيلة من الطرائق المختلفة. مع أن بعض المتتاليات أكثر شعبية من غيرها (أشهرها الافتتاحية الحنينية [الوقوف على الطلال]، والترحال والمديح)، فإن هذا لم يصبح سمة مميزة للقصائد. وأهم شيء ينبغي ملاحظته هو أنه في حين أن المكونات الأساس كانت تتحدد إلى حد كبير من طريق العرف (التقليد)، فقد كان ثمة الكثير من حرية الاختيار في أسلوب مزجها. هذا المزيج من الحرية والتقييد يميز أيضًا الجوانب الشكلية للشعر العربي الجاهلي، ذلك أنه كان ثمة مجال واسع من الأوزان والقوافي المتاحة، فإنها عندما يتم اختيارها لا يمكن تغييرها. فالقصيدة تكون أحادية الوزن (أحادية البحر) وأحادية القافية.

يتخلل هذا الشعر مزاج (عاطفة) الاستسلام البطولي الممزوج بالتشاؤم. فالزمن/ القدر [الدهر] يرهق الإنسان ويسوقه عبر أقصر الطرق إلى حتفه، ومناسبات الراحة والسكينة ما هي إلا قليلة وزائلة. هذا المزاج عبر عنه أفضل تعبير شاعر كان يطور موتيفة تأمل مكان التخييم [المضرب] المهجور، فجعل حجارة القبر تتكلم كما يلي ‹عدي بن زيد›:

مــــن رآنــا فليــحــدث نفســـه ... أنــه مــوفٍ علــى قــرن زوال
وخطــوب الدهــر لا يبقــى لهـــا ... ولمــا تــأتـي بـه صـمُّ الجبال
ربَّ ركـــب قـــد أناخـــوا عنـــدنا ... يشربون الخمر بالماء الزلال
والأبـاريـــق عليـــهـــا نـــــدمٌ ... وعتاق الخيل تردي في الجلال
عمـــروا دهـــرًا بعيـــش حســــن ... آمنــي دهـرهـم غـير عجال
ثــم أضــحوا أخنــع الدهــر بهـمً ... وكذاك الدهر يودي بالجبال
وكــذاك الدهـــر يرمـــي بالفتـــى ... في طلاب العيش حالاً بعد حال

إن الإشارة الأكثر وضوحًا والأكثر مدعاة للتفجع على التأثيرات المخربة للزمن [الدهر] على شخص ما هي ظهور الشيب. لأنه يدل على نهاية الملذات المراهقة ‹عبيد›:

تصـــبو وأنّـــى لــك التصــــــابي ... أنّـــى وقـــد راعـــك المشيبُ

و‹المفضليات›:

فـلا مرحـبًا بالشـيب من وفـد زائر ... متى يأت لا تحجب عليه المداخل

الحل الوحيد هو القبول الرواقي ‹المفضليات›:

ولقـــد علمــت، ولا محـــالـة، أنـنــي ... للحادثات، فهل تريني أجزع

وتبنـي موقف استمتاعي تجاه الغنائية ‹معلقة طرفة بن العبد›:

فـإن كنـت لا تســتطيع دفـع منيتــي ... فدعني أبادرها بما ملكت يدي
ولـولا ثـلاثٌ هــن من عيشـة الفتى ... وجدك لم أحفل متى قام عُوَّدي
فمنــهن ســبقي العــاذلات بشــربة ... كميتٍ متى ما تُعْلَ بالماء تُزْبدِ
وكــرَّى إذا نــادى المضــافُ مجـنبًا ... كسيدِ الغضا نبهته المتورِّد
وتقصـير يوم الدَّجن والدَّجنِ معجب ... ببهنكة تحت الخبـاء المعمَّد
كأن البـــرين والـدماليـــج علقـــت ... على عُشْرٍ أو خروع لم يخضدِ
كـــريمٌ يـــروّي نفســـه فـــي حيـــاته ... ستعلم إنٌ متناغدًا أينا الصَّدي

8 / 6) الأدب: النثر

تفشي عشرات الآلاف من النقوش التي ورثناها من سكان جزيرة العرب الجاهلية شيئًا من العواطف الخاصة والبيانات العامة لهذه الشعوب، لكنها لا يمكن في الواقع تسميتها أدبًا (باستثناء القصيدتين المذكورتين أعلاه). لذلك فإننا نجهل جهلاً كاملاً التعبير الإبداعي العربي الجاهلي باللغات غير العربية. في حالة اللغة العربية لدينا على الأقل مجموعات الشعر والنثر التي قام بجمعها

البحاثة المسلمون. ومع ذلك لم يكن النثر يُقدر عاليًا كما يقدر الشعر ولم يكن عرضة للتقييدات الصارمة للوزن والقافية، ولذلك فإن معظم المادة كان يعاد سبكه مع مرور الزمن بمصطلح الأجيال اللاحقة. من هنا فإن أقصى ما يمكننا فعله هو تعريف هوية الأجناس الأدبية الأساس للنثر العربي الجاهلي، ويساعدنا في ذلك إلى درجة ما مصدر آخر، هو القرآن، الذي نزل وحيًا على النبي محمد في أواخر حياته. إنه يضم عددًا من الأساليب السردية المختلفة التي كانت معروفة تمامًا بشكل مفترض لجمهوره (بعض الأجزاء عدّوها محاكيات مباشرة لأساليب معاصرة)، وهكذا يمكن أن تعطينا بعض الدلائل على نوع مادة النثر العربي التي كانت رائجة قبل الإسلام.

8 / 6 / 1) الكلام الخارق للطبيعة

عندما كان العرافون، بعد الاجتماع مع الأرواح، يعطون إجابتهم للذين سألوهم عنها في الخارج، فقد كانوا يفعلون ذلك بلغة راقية الأسلوب، بنثر مقفى ذي أسلوب رفيع وبيان موجز. كان هذا الأسلوب المميز للكلام العرافي (الكهاني) يستخدم على نحو مؤكد لإلقاء الضوء على الأصل فوق-الطبيعي للرسالة، لأن العرافين لم يكونوا سوى الناطقين باسم الروح. في أغلب الأحيان كانوا يبدأون بسلسلة من الأيمان [جمع يمين] تطلق بسرعة وبقوة مثل قرع الطبل، تشكل التمهيد للنطق بحكمهم. كان من الشائع أن يجري اختبار العرافين المستقبليين من طريق تحديهم بأن يحددوا هوية جسم مخفي. هنا رد سلامة العذري على تحدٍ كهذا من قبل اثنين من قبيلة خزاعة، يفكران في استخدامه لكي يحكم بينهما في منافسة شرف بينهما حول من يمتلك الحصان الأفضل ‹ابن حبيب، كتاب المنمَّق›:

> أحلف بالنور والقمر، والسنا والدهر، والرياح والفطر، لقد
> خبأتم لي جثة نسر، في عكم من شعرٍ، مع الفتى من بني نصر.

إن العرافين، وقد اجتازوا هذا الاختبار، سوف يباشرون عندئذ بإعطاء جوابهم عن السؤال المطروح عليهم. هنا، على سبيل المثال، رد عراف من عُسفان على اثنين من قبيلة قريش، سألا من منهما أرفع منزلة ‹ابن حبيب، كتاب المنمَّق›:

> حلفت بأظب عفر، بلماعة قفر، يردن بين سلم وسدر، أن
> سناء المجد ثم الفخر، لفي عائد إلى آخر الدهر.

رغم أن القرآن يؤكد بقوة أن ذلك ليس كلام عرافين (لا بقول كاهن) فيمكن للمرء أن يفهم لماذا كان معاصرو محمد يعدونه هكذا، نظرًا لوجود الدافع الإيقاعي نفسه، مع أن المضمون قد جرى تكييفه بالطبع مع الرسالة الجديدة. هنا مثال جميل بشكل خاص (الشمس 1-10): ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (1) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (2) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (3) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (4) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (5) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (6) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾.

مثل شخصيات القصص التاريخية الإغريقية واللاتينية، كان الأبطال الجاهليون يُجعلون ينطقون بخطابات يرى المؤرخون المسلمون اللاحقون أنها ملائمة للحدث أو الموضوع المعالَج، تعدّ مشابهة لما كان سيقوله هذا الشخص في مثل هذه المناسبة. تكون هذه الخطابات في العادة طويلة ومقيتة، محشوة بحيل خطابية، في حين أن الخطابة العربية الجاهلية، بالمقابل، ليست مختلفة جدًا عن العبارة المتقطعة القصيرة للعرافين. هنا إحدى مخاطبات الله الأولى لمحمد (المدثر: 1-7): ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ(1) قُمْ فَأَنذِرْ(2) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ(3) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ(4) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ(5) وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ(6) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾.

يمكن مقارنة هذا بكلمات ابن عامر الحضرمي، خطيب قبيلة أُسد، الذي كان يمثلهم إلى النبي ‹ابن الأثير، أسد الغابة›:

> إنّا أتيناك • نتضرع الليل البهيم • في سنة شهباء • ولم ترسل إلينا • ونحن منك • تجمعنا خزيمة • حِمانا منيع • ونساؤنا مواجد • وأبناؤنا أنجاد أمجاد.

وتشبهها أيضًا مواعظ قس نجران المشهور، قُس بن ساعدة، الذي يقال إن محمدًا قد استشهد به في المقتطف الآتي ‹الأصفهاني›:

> أيها الناس اجتمعوا • واسمعوا وعوا • من عاش مات • ومن مات فات • وكل ما هو آتٍ آت.

8 / 6 / 2) الحكايات الأسطورية

القرآن يذكر عدد من المرات كيف كان الناس يأتون للاستماع إلى تبشير محمد، لكنهم كانوا ينفضون عنه وقد استنتجوا أن «هذا ليس (سوى أساطير

الأولين)». يقصد بهذا روايات شعوب الماضي التي كانت تتخلل الكتاب المقدس. كان يبدو من رد فعل الجمهور أن هذه كانت قصصًا معروفة جيدًا، وفي الواقع فإنها جميعًا إما حكايات توراتية مشهورة (نوح والطوفان، إبراهيم المصلح الديني، موسى وفرعون، لوط والفسوق) أو تراثات عربية [جزيرة العرب] أحرزت مكانة أسطورية بالحكم عليها من التلميحات إليها في الشعر العربي الجاهلي. في القرآن تنحصر كلها بجنس أدبي واحد، قصة العقاب، وتُقدم كأمثلة على كيف ينزل الله غضبه على الذين يقصرون في إطاعة أوامره، ومع ذلك فإن القطع [الأدبية] العربية هي بقايا لشيء مختلف جدًا، هو روايات الأصول الأسطورية. فقد قسّم علماء الأنساب القبائل العربية إلى بائدة وباقية. فكانت الأولى، التي تبلغ نحو سبع أو ثمان قبائل، هي العرب الحقيقيين، الذين كانوا يتكلمون العربية الخالصة (العرب العاربة)، لكنهم أبيدوا أو شُتتوا سواء بفعل الصراع الداخلي الضاري (طسْمْ وجاسم)، أو الكوارث الطبيعية (عبيل، جُرْهُم) أو القوى الأجنبية المضطهدة (عَمْلَق) أو، كما يقول القرآن، بفعل التدخل الإلهي (عاد وثمود) (الأعراف 65-72 . . 73-78): ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ (65) قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (66) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (67) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (68) أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (69) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (70) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ (71) فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (72)﴾ . . ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (73) وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (74) قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ

اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (75) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (76) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنْ الْمُرْسَلِينَ (77) فَأَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (78) ﴾.

إن القبيلتين معروفتين للشعراء العرب الجاهليين، عاد قدوة (عبرة) الأولين (منذ زمن عاد) وثمود المثال الأعلى على سرعة زوال كل الأشياء ("الناس الذين كانوا ذوي كرم وشجاعة فائقين هم الآن رفقة لأهل ثمود"، أبو زبيد الطائي). لكن هذه الإشارات المبكرة إلى عاد وثمود والقبائل العربية البائدة الأخرى كانت متشابكة جدًا وتغشاها تراثات لاحقة من الصعب الآن فصل القول فيها على نحو ملموس يتجاوز حقيقة أننا نجد في التلميحات إلى تطوافاتها ومواجهاتها أصداءً لعصر أكثر أسطورية.

8 / 6 / 3) حكايات المعارك

يتكلم القرآن عن «أيام الله» (إبراهيم 14)، قاصدًا بذلك المواجهات الكثيرة بين الله والأقوام الجاحدين. وثمة إشارة إلى آخر «أيام الله»، أي يوم الحساب، التصفية النهائية بين الله والكافرين، الذي سيكون «يوم النصر» (السجدة 29). يمكن تطبيق الكلمة أيضًا على الصراع بين المؤمنين بالله وأعدائهم (التوبة 25-26): ﴿ .. وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (25) ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (26) ﴾.

إن معنى المصطلح هو على نحو تقريبي «يوم المعركة» ويرد على نحو متكرر في الشعر الجاهلي (معلقة عمرو بن كلثوم):

وأيـــام لـنـــا غـــرّ طـــوال ... عصينا الملك فيها أن ندينا

ومعلقة الحارث بن حلزة:

هـل علمـتم أيـام ينتهـب النـا ... س غـوارًا لـكل حـي عـواء

و‹السموءل›:

وأيامنـا مشـهورة فـي عـدونا ... لهـا غـررٌ معلومـة وحُـجُـولُ

إن قسمًا كبيرًا من الأدب الإسلامي الضخم حول الحياة العربية الجاهلية ينشغل بالحروب التي خاضتها القبائل العربية فيما بينها، التي تعرف مجتمعة باسم «أيام العرب». مثل كل الأشكال الأخرى للنثر العربي الجاهلي لا نعرف عن روايات المعارك هذه سوى من التجميعات اللاحقة، التي أصبحت تكتسب طبيعة مقولبة نوعًا ما، وفي بعض الأحيان مكررة ومختلطة ببعضها. لكن رغم أن قيمتها لإعادة التصور التاريخية قد تكون لذلك مشكوكًا فيها، فإنها غالبًا تمتلك قيمة أدبية عالية. يكون الأسلوب السردي في العادة مكتملاً جدًا، واللغة ملونة ونابضة بالحياة، وفوق كل ذلك مسلية. فالبعض يسرد الغارات، والضربات الصغيرة التي يجري القيام بها في سبيل الاستيلاء على الحيوانات وكسب الهيبة، والبعض الآخر يحكي عن الحروب التي تشن دفاعًا عن الشرف. إن الأحداث التي تثير النوع الثاني من النزاع غالبًا ما تبدو تافهة، كما في المثال الآتي:

> ثم كان اليوم الثاني من أيام الفجار الأول، وكان السبب في ذلك أن شبابًا من قريش وبني كنانة كانوا ذوي غرام، فرأوا امرأة من بني عامر جميلة وسيمة، وهي جالسة بسوق عكاظ في درع وهي فضل عليها برقع لها، وقد اكتنفها شباب من العرب، وهي تحدثهم، فجاء الشباب من بني كنانة وقريش، فأطافوا بها، وسألوها أن تسفر، فأبت، فقام أحدهم، فجلس خلفها، وحل طرف ردائها، وشده إلى فوق حجزتها بشوكة، وهي لا تعلم، فلما قامت انكشف درعها عن دبرها، فضحكوا، وقالوا: ʼمنعنا النظر إلى وجهك، وجدت لنا بالنظر إلى دبرك ʻ، فنادت: ʼيا آل عامر! ʻ فثاروا، وحملوا السلاح، وحملته كنانة، واقتتلوا قتالاً شديدًا، ووقعت بينهم دماء، فتوسط حرب بن أمية، واحتمل دماء القوم، وأرضى بني عامر من مثلة صاحبتهم ‹الأصفهاني، الأغاني›.

ومع ذلك، بما أن الشرف كان على المحك فقد كانت القضية هامة، لأن الناس يشعرون بالعار من كونهم لا يستطيعون الدفاع عن حقوقهم وحماية مصالحهم. في الحادثة المذكورة أعلاه المسألة هي حماية التابعين، الواجب الأساس لأي رجل قبيلة وجذر كثير من النزاعات، هكذا اندلعت حرب البسوس الثأرية الشهيرة، التي تسببت في خصام قبيلتي تغلب وبكر العربيتين الشماليتين الشرقيتين الصديقتين سابقًا، عندما أطلق كليب بن ربيعة، زعيم تغلب، سهمًا

على جمل لأحد محميي بكر، ظنًا منه أن راعيه، صهره جساس، قد أفلته عمدًا لكي يزعج إبله، فقامت بسوس عمة جساس، زوجة المحمي بتمزيق الحجاب عن رأسها، وهي تلطم وجهها، وصاحت، فقام جساس، وقد لسعته أسوأ الصفات، بقتل كليب، مشعلاً أربعين عامًا من النزاع وسفك الدماء بين الجماعتين. أما المحرضات الأخرى فقد تكون الصراع على المراعي أو مصادر الماء، والضرائب المرهقة في سنة عجفاء أو انتهاك منطقة مقدسة. أو قد تكون غارة غير مؤذية أدت إلى مناوشة، فسال الدم واطلق العنان للضغينة. فقد قاد المقاتل المشهور دريد بن الصمة، زعيم جُشام، غزوة ناجحة ضد عشيرة غَطَفان وأسر كثيرًا من الإبل، لكن أصحابها أدركوهم وفي المناوشة الناجمة عن ذلك قتل شقيق دريد. بسبب هذه الإهانة انتقم دريد انتقامًا شديدًا، فأغار على كل قبيلة من قبائل اتحاد غَطَفان وذبح عددًا من رجالها انتقامًا.

تدور النقوش العربية الجنوبية حول موضوع الحرب أيضًا، وخصوصًا تلك النقوش التي تعود إلى القرنين الثاني والثالث للميلاد، التي هي الأكثر قيمة وتقترب من كونها تأليفات أدبية. في النص الآتي، على سبيل المثال، تنتقل الحكاية وفق تسلسل زمني وبإيقاع مفعم بالحياة، ما يسمح لنا بملاحظة تطور خطة ملك سبأ للقيام بحركة كماشية. علاوة على ذلك، يُشرح حافز الطرفين الفاعلين الأساسين وثمة درجة بارعة من الوصف: ملك سبأ الحكيم الذي يتفوق بدهائه على ملك حضرموت العدواني الذي يجبر في النهاية على «الانكفاء في الهزيمة والاضطراب والفوضى»:

> شن ملك حضرموت وقواته حملة في مقاطعة ياثيل . . هاجموا مقاطعة نشق نششن، لكن الرجال المسلحين لهاتين البلدتين والحامية التي عينها ملك سبأ للدفاع عنهما ثبت أنهم أكثر عددًا وقاموا بصدهم. أمر الملك السبئي من مُقطعه نشءكريب مع سميفع بتع وكتيبة مشاة وخيَّالة من الجيش الملكي السبئي بالذهاب لنجدة نشق ونششن. عندما علم ملك حضرموت بخبر قوة النجدة هذه انسحب وكل جنوده من نشق ونششن. لدى دعوتهم إلى ياثيل، جاءهم جاسوس بمعلومات تقول إن الملك السبئي والقوات التي تحت إمرته في طريقهم للهجوم عليه من مأرب، في حين أن نشءكريب وسميفع والقوات تحت إمرتهما

ستقوم بالشيء نفسه من نشق ونششن. هكذا بدأ ملك حضرموت يخاف من كونه، في موقعه في ياثيل، مهددًا من تحالف القوتين، ولذلك هجر ياثيل وانسحب إلى هنان. هناك استدرجهم الملك السبئي إلى مواجهة ‹Ja 643, 643bis›.

8 / 6 / 4) حكايات الحكمة

في أوائل العصر الإسلامي أصبح من المألوف أن يجري جمع مجموعات من أقوال العرب الحكيمة (أمثال العرب)، التي رد عدد لا بأس به منها إلى أصل عربي جاهلي. فكثير منها يلائم بشكل جيد سياقًا كهذا: «عشب ولا بعير»، «ما يجمع بين الأورى والنعام» (يقال لشيئين لا يتفقان)، «إنه الأضرع من ضبٍّ قَرشْتَهُ»، «لقد ذَلَّ من بالت عليه الثعالب»، «الأقوى يأخذ الغنيمة»، «كطالب القرن فجدعت أُذُنُه» (أبو عُبيد، 584, 898, 1229, 319, 319, 796). لكن كما هو مقدّر لمثل هذا الجنس الأدبي، من المستحيل تحديد زمان أو مكان ظهوره. الشيء نفسه يصح بالنسبة إلى جنس أدبي شعبي بالقدر نفسه، هو الوصية الأخيرة والشهادة (الوصية)، تعليقات ساخرة ونصائح حول الحياة ينطق بها أشخاص مشهورون على فراش الموت إلى اولادهم. كل ما يمكن للمرء أن يلاحظه هو أن هذه المادة توجد قبلئذ في الشعر العربي الجاهلي وأن مفهوم (الحكمة) بارز في القرآن. ومع ذلك ففي القرآن ليست التعليقات الذكية حول الحياة هي ما يجري تقديمه، بل التعاليم الأخلاقية: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً﴾ (الإسراء 29). ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ (الإسراء 36). ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾ (الإسراء 37). كمؤلف لمثل هذه الحكمة يُقدم لنا البطل العربي القديم لقمان، المذكور في القصائد العربية الجاهلية بوصفه مثالاً للحكمة: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (12) وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (13) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (14) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (15) يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ

تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (16) يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (17) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (18) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (19) ﴾ (لقمان 12–19).

9) العروبة والتعرّب

ينقل العلاّمة الإسلامي الأصمعي [توفي عام 213 هـ/ 828 م] في تاريخه للعرب الجاهليين خطابًا لجد النبي محمد، عبد المطلب، ألقاه على الحاكم اليمني الأخير سيف بن ذي يزن:

> فقام عبد المطلب بين يديه، وحوله الملوك وأبناء الملوك، وعن يمينه ويساره الأقاول وأبناء الأقاول، وسيفه مجرد بين يديه، وهو مضمَّخ بالعنبر، يلصف وميض المسك من مغرقة، فقال عبد المطلب: 'إن الله قد أحلَّك أيها الملك محلاً رفيعًا صعبًا منيعًا شامخًا باذخًا، وأنبتك منبتًا طابت أرومته، وعزَّت جرثومته، وثبت أصله، وسمق فرعه، في اكرم معدن، واطيب موطن، وأنت، أبيت اللعن، رأس العرب التي له تنقاد، وعمودها الذي عليه العماد، ومعقلها الذي يلجأ إليه العباد، وربيعها الذي يخصب البلاد، سلفك خير سلف، وأنت لنا منهم خير خلف' ‹الأصمعي؛ وهب بن منبه›.

كان سيف، رغم كونه مجسدًا هنا بوصفه بطلاً عربيًا، ينتمي في الحقيقة إلى أسرة حضرمية عريقة من المؤكد أن [أفرادها] لم يكونوا يعدّون أنفسهم

عربًا (ترسم النقوش العربية القديمة تمييزًا واضحًا بين العرب وشعوب اليمن الأصلية). لكن في أيام الأصمعي كان هناك تصور واضح جدًا للهوية العربية وجرى تطبيقه ارتجاعيًا على كافة سكان جزيرة العرب الجاهلية. فهناك اعتقاد بأنهم ربما لم يكونوا جميعًا يمتلكون الأصول العرقية نفسها، لكن البعض كان يشك في أنهم صاروا يشكلون جماعة إثنية (سوسيو-ثقافية) واحدة:

> فإن قلت: فكيف كان أولادهما جميعًا عربًا مع اختلاف الأبوة.
> قلنا: إن العرب لما كانت واحدة فاستووا في التربة وفي اللغة، والشمائل والهمة، وفي الأنف والحميّة، وفي الأخلاق والسجية، فسُبكوا سبكًا واحدًا، وأفرغوا إفراغًا واحدًا، وكان القالب واحدًا، تشابهت الأجزاء وتناسبت الأخلاط، وحين صار ذلك أشد تشابهًا في باب الأعم والخص وفي باب الوفاق والمباينة من بعض ذوي الأرحام ‹الجاحظ، مناقب الترك›.

مؤلف هذا المقطع كتبه في أوائل القرن التاسع ميلادي عندما كان تطور الهوية العربية متقدمًا تمامًا وكان تعرُّب جزيرة العرب كاملاً. في هذا الفصل سنحاول إيضاح المراحل الأبكر لهاتين السيرورتين.

9 / 1) الألف الأولى قبل الميلاد

إن النصوص التوراتية والآشورية من الفترة الممتدة من القرن التاسع إلى القرن الخامس قبل الميلاد هي الأفضل إلمامًا بالقبائل العربية في الصحراء السورية بين بلميرا/تدمر ودومة، لكنها تدرك أن ثمة قبائل عربية خارج هذه الأصقاع. فأرض نبايوت، على سبيل المثال، معروفة للآشوريين، لكنها خارج دائرة نفوذهم (من هنا يفر الملك عويطة ملك قيدار إلى هناك هربًا من العقاب الآشوري) وكانت تبدو لهم نائية على نحو خاص: «صحراء بعيدة لا توجد فيها حيوانات برية وحتى الطيور لا تبني أعشاشها فيها» ‹AR 2.823›. بما أن العرب يظهرون في نقش واحد قديم جدًا من جنوبي جزيرة العرب من المرجح أنه يعود إلى القرن السابع/ السادس قبل الميلاد ‹RES 3945›، فيمكننا أن نفترض أنهم كانوا يصلون في تطوافهم إلى حدود تلك البلاد. لذلك فقد كان الموطن العربي شمالي جزيرة العرب ووسطها (المنطقة المدروسة في الفصل الثالث من هذا الكتاب)، وكان يمتد من أطراف الهلال الخصيب جنوبًا إلى حدود اليمن،

ومن جبال غربي جزيرة العرب شرقًا إلى دهناء الربع الخالي (التي تقع إلى الشرق منها سواحل الخليج، منطقة ثقافية مستقلة).

ما كان يجمع العرب ويميزهم من الشعوب الأخرى هو لغتهم[1]. فقد كان معظمهم يتكلم واحدة من عدد من اللهجات العربية الشمالية، كما يشهد على ذلك نحو أربعين ألف نقش جداري عثر عليها في كافة أنحاء موطنهم (انظر الفصل الثامن)، وهذه [اللهجات] شديدة الارتباط، إلى درجة أنها كانت إلى حد كبير مفهومة على نحو متبادل، مسهّلة بذلك التفاعل بين القبائل المختلفة. كان ثمة أيضًا كثير من العادات والمؤسسات الاجتماعية والدينية التي تشترك بها مختلف القبائل العربية (انظر الفصول 4–7 أعلاه)، لكن أيًا منها لم تكن عامة ولا عامل توحيد بالتالي كما كانت اللغة. فقد كان الكثير من القبائل، على سبيل المثال، رعاة حيوانات، مع أن عددًا لا بأس به منهم كان يمارس الزراعة، بالأخص في مدن الواحات في شمال غربي جزيرة العرب ومرتفعات نجد. كان الإله رضا شعبيًا جدًا في الشمال لكنه مهمَل في الجنوب، في حين كان يغوث معبودًا في الجنوب لكنه يحظى بقليل من التقدير في الشمال. وفي حين شعر العرب في الشمال بقوة إمبراطوريات العالمين المتوسطي والرافديني، فإن أولئك الذين في الجنوب قد تأثروا بأنظمة الحكم في اليمن (اللوحة 36)[2].

9 / 2) القرنان الأول والثانـي ميلادي

في هذه الفترة بدأ عدد من الجماعات العربية في جنوبي جزيرة العرب (تقريبًا المنطقة بين الرياض الحالية ونجران) بالهجرة من موطنهم. يشير الدليل الأدبي والأبغرافي إلى أنهم ذهبوا إلى الشمال (الصحراء السورية)، وإلى الشرق (البحرين/ عمان) وإلى الجنوب (اليمن). سبب ترحالهم غير واضح، لكن ربما يكون ذلك مرتبطا بالثورات في ممالك اليمن. في نهاية القرن الأول قبل الميلاد كان المعينيون قد كفوا عن الوجود كقوة سياسية وكان السبئيون قد ضعفوا على نحو شديد للغاية حيث إنهم أجبروا على تشكيل ائتلاف مع الحميريين (انظر الفصل الثاني من هذا الكتاب). تبدأ التواريخ الإسلامية لجزيرة العرب الجاهلية بهذا التشتت للقبائل من جنوبي جزيرة العرب إلى أركانها البعيدة، وتقدم أسبابًا مختلفة لحدوثه. في بعض الأحيان تقترح تفسيرًا مالتوسيًا، أي النمو السكاني الذي يشكل عبئًا على الموارد المحدودة ولذلك يحتم رحيل جزء من السكان بحثًا عن مراعي جديدة:

> فلما كثر أولاد معد بن عدنان ومن كان معهم من قبائل العرب، وملأوا بلادهم من تهامة وما يليهم، فرقتهم حروب وقعت بينهم، وأحداث حدثت فيهم، فخرجوا يطلبون المتسع والريف فيما يليهم من بلاد اليمن ومشارف الشام ‹الطبري›.

الأكثر شيوعًا هو تقديم حدث معين بوصفه سببًا، وهو تصدع سد مأرب، الذي شكل بداية عهد من عدم الاستقرار والفاقة. «واستولى الماء على تلك الديار والجنان والعمائر والبنيان، حتى انقرض سكان تلك الأرض وزالوا عن تلك المواطن» ‹المسعودي›.

إضافة إلى التقارير الصريحة للمصادر الإسلامية، فإن الدليل الأساس على هجرة بعض الجماعات العربية الجنوبية هو ورود الأسماء القبلية العربية في أمكنة لم يتأكد وجودهم فيها سابقًا. فعلى سبيل المثال، يروي المؤرخون المسلمون أن «اجتمع بالبحرين جماعة من قبائل العرب [التي غادرت اليمن]، فتحالفوا على التنوخ، وهو المقام، وتعاقدوا على التوازر والتناصر، فصاروا يدًا على الناس وضمهم اسم تنوخ»، ‹الطبري›، وهذا ما يتأكد من كتاب الجغرافية لبطليموس، الذي كتبه في نحو العام 150 م، والذي يضع تنوخ في منطقة البحرين، في حين أن كتاب ‹التاريخ الطبيعي› لبليني، الذي جرى إكماله في العام 77 م، لا يعرف عن وجودهم هناك (انظر الفصل الأول من هذا الكتاب). وفي النقوش اليمنية التي تعود إلى نحو القرن الثاني ميلادي تظهر طائفة من الأسماء القبلية الجديدة، مثل مراد، مذحج، كندة، وسُفْلْ (انظر الفصل الثاني من هذا الكتاب). يتضح أن هذه القبائل عربية (وليست سبئية، حميرية، إلخ) من عدد من المصطلحات المطبقة عليها التي ليس ثمة ما يشهد على وجودها سابقًا ومن الواضح أنها مأخوذة من اللغة العربية، مثل قبيلة/ عشيرة، أو سلالة/ آل، بدو/ عرب. علاوة على ذلك فإن أداة التعريف العربية ال تستعمل في بعض الأسماء الشخصية والقبلية؛ هكذا نقرأ عن ملك يدعى ال- حارث بن كعب ‹CIAS 2.33› وعن «أرض/ بلاد ال-أزد» ‹Ja 635›. من المؤكد أن عددًا من هذه القبائل العربية الجنوبية كان يتكلم العربية وهو بالفعل ما يؤكده كل المؤرخين المسلمين، الذين يدعونهم باسم العرب الناطقين بالعربية (العرب العاربة). يوحي بذلك أيضًا وجود النقوش الجدارية السبئية ذات السمات العربية في هذه المنطقة والنقش الدفني العربي لعجل ابن هفعم المكتَشف في قرية الفاو (انظر الفصل الثامن).



اللوحة 36: لوح مدفن من المرمر يظهر الموتى منغمسين في وليمة (الأعلى) ويركبون الإبل (الأسفل) مع نقش سبئي: «صور ونفس عجل ابن سعد اللات من قريات، عسى أن يضرب عشتار الشارقي كل من يحطمه». لاحظ أنه رغم كون الاسم عربيًا (الأكثر احتمالاً أنها قرية الفاو)، فإن الإله المتوسل إليه هو من جنوبي جزيرة العرب، القرن الأول–الثالث ميلادي 55×29 سم (P. & M. Chuzeville, Louvre AO1029).

يبدو من المرجح أن ما لدينا في الروايات الإسلامية عن تشتت القبائل العربية هو بقايا من ملحمة شعب، الذاكرة الجماعية لرحلة ملحمية قامت بها جماعات بدأت رحلتها على شكل عصابات متنافرة وأنهتها كشعوب متحدة. إن الروايات التي وصلتنا تكشف بالتأكيد الكثير من العلامات المميزة لهذا الأدب كالتركيز على أشخاص محددين وأحداث مُعيَّنة بدلاً من التركيز على البيئة والسيرورات، والولوع بالإشارات (الآيات) الخارقة للطبيعة. هكذا تبدأ المغامرة عندما يتنبأ عَمْر بن عامر، زعيم أزد، أو زوجه، في المنام أن مأرب سوف يغمرها الطوفان، ما يدفعهما إلى بيع ممتلكاتهما والخروج مع كل من انضم إليهما من قبيلتهما.

ثم تأتي قساوات الرحلة، لأنهم من الكثرة بحيث «فلا يرد قومه وكافة من معه ماءً إلا نزفوه، ولا يسمون بلدًا إلا أجدبوه» ‹الأصمعي›. استقروا أولاً في السهل الساحلي لتهامة، لكنه لم يلائمهم، لذلك فقد اتجهوا شمالاً إلى الحجاز. «فصار كل فخذ إلى بلد، فمنهم من نزل السروات ومنهم من تخلَّف بمكة وما حولها، ومنهم من خرج إلى العراق، ومنهم من سار إلى عُمان» ‹الأصمعي›. وفي كل حالة كانت هناك مواجهة مع القبائل المحلية، ومعارك كانت كل جماعة تتذكرها وتزينها بفخر.

9 / 3) القرن الثالث ميلادي

قام الإمبراطور مارقُس أُرليُس ‹Marcus Aurelius, 161–180 CE› بتحريك الجيوش من نهري الرون والدانوب شرقًا كي يشن حربه ضد الفرتيين. لم يأخذ الكثير، ربما ثلاثة فيالق فقط والذين كانوا يتحدرون من مناطق مستقلة إلى حد بعيد، لكن ذلك كان كافيًا. في أثناء الحرب الفرتية عبرت القبائل الجرمانية، وأهمها الماركوماني، نهر الدانوب وبدأت بتخريب الأراضي الزراعية الغنية الواقعة بعده. في العام 166 م جرى طردهم، لكنهم في العام 170 م وصلوا إلى إيطاليا نفسها قبل أن يهزموا. كانت حملة روما إلى الشرق في القرنين الأولين بعد الميلاد تعني أن مواردها العسكرية كانت بالكاد تكفي لتلبية حاجات الشرق والغرب، وهذا الوضع ازداد سوءًا بفعل وصول الساسانيين إلى السلطة في العام 224 م، وهم سلالة حاكمة إيرانية ذات مخططات توسعية. فقد قاد حاكمها الثاني، شابور [242–273 م] سلسلة من الحملات المدمرة إلى الأرض الرومانية، تتوجت بأسر الإمبراطور فلِريان في العام 259 م. للتعامل مع هذه التحديات الجديدة جرى توسيع الجيوش الإقليمية وزيدت رواتبها، ما أدى إلى العسكرة المتزايدة للإمبراطورية وخصوصًا المقاطعات. لقد جرت تلبية الطلب على الجنود على نحو رئيس من طريق ملء الرتب بأشخاص من خارج الإمبراطورية، ما أدى إلى إضفاء الهمجية (البربرية) المتزايد على الإمبراطورية، وبالأخص المقاطعات، مرة أخرى[3].

في الشرق اعتمد الرومان والإيرانيون على الدول التابعة (النبطيين، البلميرا/ تدمريين، الحضريين، ال(chara cenes)، إلخ) للعناية بالمناطق الحدودية بالنيابة عنهم. في النصف الثاني من القرن الثالث، مع ذلك، كانت القوتان قد دمجتا

هذه التوابع ضمن مملكتيهما وكان عليهما في ذاك الوقت أن تتعاملا مباشرة مع البدو على حدودهما. في هذه المرحلة بدأت القبائل المختلفة التي هاجرت من جزيرة العرب الجنوبية بالدخول في علاقات مع الإمبراطوريتين العظيمتين:

> ثم غلبت الروم على ديارها، فتفرقوا في البلاد، وكانت قضاعة أول من نزل الشام وانضافوا إلى ملوك الروم، فملكوهم بعد أن دخلوا في النصرانية على من حوى الشام من العرب ‹المسعودي›.

> فتطلعت أنفسُ مَنْ كان بالبحرين من العرب إلى ريف العراق، وطمعوا في غلبة الأعاجم على ما يلي بلاد العرب منه أو مشاركتهم فيه، واهتبلوا ما وقع بين ملوك الطوائف [الفرتيين] من الاختلاف، فأجمع رؤساؤهم بالمسير إلى العراق . . ونزل كثير من تنوخ الأنبار والحيرة . . فكان أول من ملك منهم في زمان ملوك الطوائف مالك بن فهم . . ثم مات مالك، فملك من بعده أخوه عمرو بن فهم . . ثم هلك فملك من بعده جذيمة الأبرش ‹الطبري›.

يبرز جذيمة نفسه بوصفه «ملك تنوخ» في أبيغراف معلمه، المدون على نقش باللغتين اليونانية والنبطية من أم الجمال ‹PAES 4A.41›. يظهر ابن أخته، عمرو بن عدي من قبيلة لخم، في نقش باللغتين الفارسية والفرتية ‹Paikuli 92› يدرج أسماء مُقْطعي الإمبراطور الساساني نارسه، 293–302 م، أمثال عمرو ملك اللخميين. هذا كان ينسجم في حينه مع حقيقة أن عمرو بن امرؤ القيس الحاكم . . على المنطقة الحدودية لبلاد العرب ‹الطبري 833/1–34›. يُذكر على شاهدة قبره أنه توفي في العام 328 م. أخيرًا، يذكر نقش عربي جنوبي من أواخر القرن الثالث إرسال الحاكم الحميري شمر يهرعش/ يرعش وفودًا إلى العواصم الساسانية في العراق إلى «بلاد تنوخ» وإلى «ملك» قبيلة الأزد ‹شرف›[4].

ينعكس وصول هذه الشعوب الجديدة أيضًا في التغير في الطريقة التي كان يشير بها المواطنون الإمبراطوريون إلى سكان جزيرة العرب. فقد استخدم المؤلفون الكلاسيكيون المصطلحين الإثنيين «عرب» و«ساكني الخيام»، أما وقد ولت الدول التابعة القديمة، فإن رعايا روما وإيران الذين كانوا يعيشون على تخوم الصحراء السورية صاروا على معرفة مباشرة بالقبائل وبدأوا يستعملون

بدلاً من ذلك أسماء أولئك الأكثر قربًا إليهم. ففي الأراضي النبطية السابقة كان الأكثر شهرة هم السراسنة[5] من القرن الثاني ميلادي، الذين يذكرون في كتاب الجغرافية ‹Ptolmy 6.7› من القرن الثاني ميلادي، بوصفهم قبيلة من منطقة الحجاز الشمالي-سيناء. كان لسكان بلاد الرافدين العليا تعاملات أولاً مع طيء (الذي يترجم طيي في اللهجة الآرامية المحلية للسريان)، و[هي] قبيلة عربية كانت قد انضمت إلى الالحجر/ مدائن صالحت من جنوبي جزيرة العرب واستوطنت في وسط وشمال شرقي جزيرة العرب. يبدأ المصطلحان بالبروز في كتابات الشعوب المستوطنة في القرن الثالث عندما نجد، على سبيل المثال، مؤلفًا يستعمل تعبير «منطقة الطائيين والسراسنة» ‹Bardaisan 50›. في القرن الرابع كان الاسمان قد أصبحا مصطلحين اثنين للدلالة على العرب (السراسنة كان يستعمله الرومان[6]، والطائيون يستعمله المسيحيون الناطقون بالسريانية)، حتى رغم أنهما قد طغت عليهما لاحقًا القبائل الأخرى (السراسنة بالكامل إلى درجة أنهم لم يعد يذكرهم علماء الأنساب الإسلاميون).

بحسب روايتهم فإن القبائل التي شاركت في الخروج من جنوبي جزيرة العرب أزاحوت عددًا من الجماعات المحلية:

> لا يدخلوا (كذا) بلدًا إلا غلبوا أهل ذلك البلد عليه. أما خزاعة فغلبت جرهم على مكة، وأما الأوس والخزرج فغلبوا اليهود على المدينة، وأما آل المنذر فغلبوا أهل العراق عليها، وأما أهل جفنة فغلبوا أهل الشام على الشام وملكوها، وأما ولد عمران بن عمرو بن عامر فغلبوا أهل عمان عليها، وللآن الجميع من هؤلاء في طاعة الملوك من حمير ‹الأصمعي›.

رغم وجود الكثير ربما من تمجيد الذات في هذا الزعم فمن الممكن أن تكون الهجرة الواسعة النطاق قد خلقت كثيرًا من النزاعات والتهجيرات والاستيعابات. هذا قد يفسر جزئيًا انقطاع النقوش العربية الشمالية القديمة في هذا الوقت تقريبًا، عندما جرى احتواء الجماعات القبلية الأقدم ضمن الجماعات الجديدة أو طُردت من مواطنها التقليدية وبرزت اللهجات الجديدة. كما نوهنا سابقًا، بما أن كثيرًا من القبائل العربية الجنوبية كانت تتكلم العربية، فقد ازدادت شعبيتها. كما عبر الباحثون الإسلاميون عن ذلك لاحقًا فإن العرب الشماليين الأصليين قد أصبحوا عربًا متعربة. ففي منطقة السراسنة(❖)، على سبيل المثال، غالبًا ما تحوي النصوص

(❖) انظر كتاب العالم الراحل توفيق فهد: الكهانة العربية. شركة قدمس للنشر والتوزيع ش م م، بيروت 2009.

المصطلحات العربية (مثال: استعمال صيغة المبنـي للمجهول العربية مذكور بدلاً من الكلمة الآرامية دكير CIS 2.1331, 2662, 2768)[7]. ومن الحجر/ مدائن صالح لدينا شاهد قبر من العام 267 م وُصف بأنها «أقدم وثيقة عربية محددة التاريخ»، مع أنه لا يزال يحمل السمات الآرامية. ثم نصادف في القرن الرابع أول نقش عربي خالص، في شمالي جزيرة العرب، [وهو] شاهدة قبر لإمرؤ القيس الآنف الذكر، الذي كان يعد نفسه «ملك كل العرب» (انظر الفصل الثالث).

9 / 4) من القرن الرابع إلى القرن السادس ميلادي

لقد كان هناك على الدوام جانبان لمصطلح (عربي). فمنذ العصر الآشوري فصاعدًا نسمع ليس فقط عن العرب البدو، بل أيضًا عن العرب المتوطنين (الحضر) الذين اختاروا أن يخلقوا لأنفسهم حياة ضمن حدود الحضارة بدلاً من خارجها. ربما أصبح معظمهم متمثلاً بالكامل في الثقافة السائدة، لكن ثمة تلميحات من حين لآخر [تقول] إن البعض منهم ظلوا يعدّون أنفسهم عربًا. ثمة، على سبيل المثال، العراف (oiônoskopos) روفينوس (Rufinus)، من أهالي قنوات/ كاناثا (Canatha) في حوران، لكنه صار في وقت لاحق مقيمًا في جزيرة ثاسوس اليونانية، الذي كتب في القرن الثالث ميلادي شاهدة قبر باللغة اليونانية لابنه يُعرِّف نفسه فيها بأنه عربي (araps). ليس واضحًا ما هو المقصود بالضبط بذلك، لكن ربما كان يفكر في تعزيز سمعته المهنية، نظرًا لأن العرب كانوا مشهورين منذ زمن طويل بمهارتهم في علم العرافة[8]، وفي نقوش القرن الرابع-السادس ميلادي من المقاطعات النائية للإمبراطورية الرومانية (النقب، عبر الأردن، حوران وسورية) ثمة نسبة مرتفعة جدًا من الأسماء العربية بشكل مميز (مثلاً الشكل 8). كان الإنفاق الزائد في هذه المناطق على رواتب الجنود والإنشاءات العسكرية يعنـي أنه كان ثمة طلب أكبر على السلع والخدمات وقد خلق ذلك ازدهـارًا اقتصاديًا في الفترة من القرن الرابع إلى القرن السادس. إن أمكنة مثل أم الجمال (جنوب غرب بصرى) وأندرين ([خربة الاندرين؟]، شمال شرق حمص)، التـي بدأت حياتها كمواقع [عسكرية] محصنة هادئة تحمي طرق التجارة، قد أصبحت بلدات مزدهرة، تتباهى بالبيوت الجميلة والحمامات والحانات والكنائس ومجموعة كبيرة من القرى التابعة لها. فالعرب، سواءكانوا من قريب أو بعيد، قد جذبهم هذا الازدياد في الازدهـار والطلب الشديد على اليد العاملة. من الممكن أيضًا أنهم قد جرى توطينهم، او شجعوا على القيام

بذلك، من قبل الحكومة في مناطق خالية من السكان بفعل الحرب أو الوباء، وهي ممارسة شائعة جدًا من ممارسات الإمبراطوريتين الرومانية والإيرانية. هؤلاء العرب، عندما استوطنوا، تبنوا إلى حد ما الثقافة الإمبراطورية، وهذا هو الأكثر جلاءً في تحولهم إلى المسيحية، الذي سهل اندماجهم مع سكان المدن:

> إن أسبيطُس (Aspebetos)، رغم كونه وثنيًا ورعية فارسي، أصبح حليفًا للرومان [بالتحول عن دينه بعد شفاء ابنه على يد القس يوثيميوس (Euthymius) . .] لدى سماعه أن يوثيميوس العظيم [توفي سنة 373 م] قد عاد أخيرًا، جاء إليه مع عدد كبير من السراسنة [العرب] رجالاً ونساءً وأطفالاً وتوسل إليه أن يبشرهم بكلمة الخلاص. لقنهم الشيخ الجليل جميعًا أصول الدين وأدخلهم إلى الدير الأسفل حيث عمّدهم. بعد المكوث مدة أسبوع، صعد معهم إلى كهفه. جلب أسبيطُس معه عمالاً مهرة وأنشأ حوضًا كبيرًا . . وفي الجوار بنى مَخبزًا. علاوة على ذلك فإن هؤلاء الناس الذين كانوا سابقًا ذئاب جزيرة العرب إلا أنهم انضموا عندئذ إلى القطيع الروحي للمسيح توسلوا أن يبقوا قربه . . فأخذهم إلى بقعة ملائمة وقال لهم: 'إذا أردتم البقاء قريبين جدًا مني، فاستوطنوا هنا' وهو يحدد [موقع] كنيسة لهم ولخيامًا حولها، أمرهم ببناء الكنيسة والاستيطان هناك. كان يزورهم على نحو متكرر وعين لهم كاهنًا وشمامسة. جاء الذين عُمّدوا قبلئذ واستوطنوا هناك، أما الآخرون الذين وصلوا بالتدريج أيضًا فقد قام بتعميدهم. بما أنهم بالنتيجة أصبحوا كثيري العدد فانتشروا ليشكلوا مخيمات [مضارب] مختلفة، فإن أبونا العظيم يوثيميوس كتب إلى جوفنال، بطريرك القدس، يطلب تعيين أسقف، وعندما وافق، أرسل إليه أسبيطُس بوصفه الأكثر قدرة على جر الأرواح إلى الخلاص وهكذا كان أسبيطُس [الذي صار يسمى الآن بطرس] أول من عُين في فلسطين أسقفًا للمضارب ‹25–Cyril of Scythopolis 18.24›.

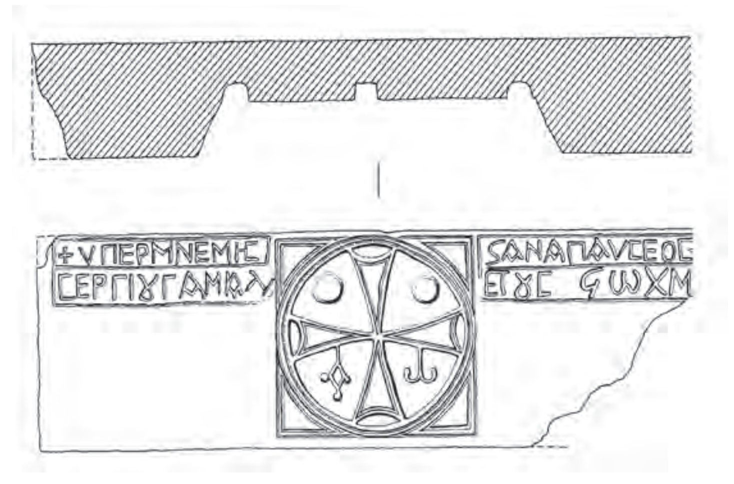
ومع ذلك فإن المصادر الأدبية لهذه الفترة، هي أكثر اهتمامًا بالعرب البدو، لأنهم في هذا الوقت كانوا يخدمون في جيوش روما وإيران بأعداد دائمة الازدياد.

لقد سعت السياسة الأجنبية الإمبراطورية سعيًا دائمًا لوضع زعامة القبائل على طول الحدود تحت النفوذ الإمبراطوري من طريق رشوتها بالمواطنية والهبات والدعم العسكري والاقتصادي لكي تستخدمها لإبقاء أفرادها مسالمين وحواجز ضد القبائل الأخرى. جرى إبرام المعاهدات مع هذه الجماعات، مع إمداد زعمائها بالذهب والألقاب وإمداد الجماهير بالقمح. في القرن الرابع ازدادت هذه الممارسة بشكل هائل، كما يظهر بشكل واضح جدًا في المناطق الرومانية حيث كانت وحدات الجيش المحبذة من كل أنحاء الإمبراطورية تحمل أسماء الشعوب البربرية. إن وثيقة العام 400 م، على سبيل المثال تُدرج وحدات الخيالة (الفرسان) السراسنة في مواقع في مصر وفينيقية وفلسطين ‹Notitia dignitatum Or. 28.17, 32.27–28, 34.22›. وغالبًا ما نقرأ روايات عن أمثال أطفر (Atfar) «ملك العرب «saracen» . . الذي كان رجلاً مقتدرًا ومحبًا للحرب، وكان ذو خبرة في استعمال الأسلحة الرومانية واكتسب في أمكنة مختلفة تميزًا وشهرة في المعركة» ‹Zacharias 9.2›. استخدم الإيرانيون العشيرة النصرية من قبيلة لخم أساسًا وانتدبهم لإجراء الترتيبات مع القبائل الأخرى بأنفسهم. مع ذلك فإن الرومان الذين كانت لهم حصة أكبر بكثير في جزيرة العرب، استفادوا من عدد من العشائر المختلفة، التي خصّوها بمقاطعات [ولايات] محددة. هكذا عندما قام مُقطع [تابع] عربي لإيران بقتل أحد الزعماء العرب الموالين للرومان كتب الإمبراطور جسطنيان [527 565– م] « إلى قادة فينيقية وجزيرة العرب وبلاد بين النهرين وإلى الزعماء القبليين للمقاطعات [الأقاليم] (التي كانت تسمى، حارثة وجنبس ونعمان) بأن يلاحقوه ويطاردوه وجيشه» (Malalas 18.16). وعندما قدَّم أبيكريب، زعيم قبيلة عربية في الحجاز، هدية لجسطنيان من سعف النخيل، «عيَّنه الإمبراطور رئيسًا على السراسنة [العرب] في فلسطين» ‹Procopius 1.19.7–11›.

كانت الحروب المستمرة بين روما وإيران تعني أنهما في حاجةٍ إلى القوة البشرية وترغبان أيضًا في استمالة القبائل الفعالة إلى جانبهما بدلاً من تركها تنضم إلى العدو. يمكن ملاحظة ذلك في الرواية الآتية كيف أن غسان، قبيلة أخرى كانت أصلاً قد أتت من جنوبي جزيرة العرب، دخلت سورية في عهد أنسطسيوس (Anastasius, 491–518):

وكانت [قبيلة] سليح يجبون من نزل بساحتهم من مضر

وغيرها للروم. فأقبلت غسان في جمع عظيم يريدون الشأم حتى نزلوا بهم. فقالت سليح لهم: 'إن أقررتم بالخرج وإلا قاتلناكم'. فأبوا عليهم، فقاتلتهم سليح، فهزموا غسان. ورئيس غسان يومئذ ثعلبة بن عمرو المجالد بن عمرو بن عدي بن عمرو بن مازن بن الأزد. فرضيت غسان بأداء الخرج إليهم. فكانوا يجبونهم لكل رأس دينارًا، ودينارًا ونصفًا، وديناريـن في كل سنة على أقدارهم. فلبثوا يجبونهم ما شاء الله حتى قتل جذع بن عمرو الغساني جابي سليح وهو سبيط بن المنذر بن عمرو بن عوف بن عوف بن ضجعم بن حماطة. فتنادت سليح بشعارها. فالتقوا بموضع يقال له المحفف. فأبارتهم غسان. وخاف ملك الروم أن يميلوا مع فارس عليه. فأرسل إلى ثعلبة فقال: 'أنتم قوم لكم بأس شديد وعدد كثير. وقد قتلتم هذا الحي وكانوا أشد حي في العرب وأكثرهم عدة. وإني جاعلكم مكانهم وكاتب بيني وبينكم كتابًا: إن دهمكم دهم من العرب أمددتكم بأربعين ألف مقاتل من الروم بأداتهم. وإن دهمنا دهم من العرب فعليكم عشرون ألف مقاتل على أن لا تدخلوا بيننا وبين فارس' ‹ابن حبيب، المحبر›.



الشكل 8: نقش من ضريح «سرجيوس جمّال» (Sergius Jammal) **عثر عليه المؤلف في حمدانية، قرب أندرين، سورية، «يعود للعام 890»، 578/ 579 م** (David Hopkins).

تأثرت هذه القبائل التي خدمت في الجيش باحتكاكها مع القوى الإمبراطورية، مثل زميلاتها العربيات التي جرى توطينها في الريف. فتحول معظمها إلى المسيحية مرة أخرى واهتم البعض منها بتشجيعها بنشاط. علاوة على ذلك فإن التوق إلى الثقافة المادية لروما وإيران، التي كان بالإمكان اكتسابها فقط من طريق التجارة أو من طريق الحرب، قد غيَّر مدى النشاط ودرجة التفاعل بين الشعوب العربية. عندما تم جر القبائل إلى الشبكة التجارية الإمبراطورية، انجرّ زعماؤها بالضرورة إلى العلاقات السياسية مع الإمبراطوريات، وهي نتيجة سعى إليها تحديدًا المسؤولون الإمبراطوريون. فمن وجهة نظرهم كان المطلوب إلى حد كبير هو جعل القبائل العربية بقيادة من يمكنهم التفاوض بالنيابة عن قبائلهم على إبرام المعاهدات مع الإمبراطورية يمكن الحفاظ على ولائهم الشخصي من طريق الهبات وكان المطلوب أيضًا جعل هذه القبائل معتمدة على البضائع الإمبراطورية. هكذا كانت السياسة الإمبراطورية تهدف إلى تحقيق استقرار البنى السياسية البربرية، بشروطها، وتطوير الاقتصادات البربرية لكي تؤمن الأسواق لسلعها. مع ذلك، كانت خلاصة نتيجة هذه السياسة الإمبراطورية زعزعة استقرار المجتمع العربي، وإبراز التمايز الاجتماعي والاقتصادي ضمن القبائل العربية، وتشكيل أحزاب ضمن هذه الشعوب موالية للإمبراطورية ومعادية لها أدى غالبًا إلى تمزيق الوحدات القبلية القديمة وتشكيل تكتلات جديدة. بما أن روما وإيران كانتا تتنافسان فيما بينهما، فقد شجعتا حلفاءهما العرب على كسب أكبر قدر ممكن من القبائل إلى جانبهما. فعلى سبيل المثال «وضع الإمبراطور جسطنيان الحارث بن جبلة على رأس أكبر عدد ممكن من العشائر» ‹Procopius 1.17›، وعين الإمبراطور كسرى المنذر بن النعمان «على البلدان الممتدة من عُمان والبحرين واليمامة إلى الطائف وبقية الحجاز وكافة البلدان الداخلة ضمنها» ‹الطبري›. وقد أدى هذا إلى ظهور أحلاف قبلية أكبر (مضر، ربيعة، إلخ). ربما كان امرؤ القيس متهورًا نوعًا ما في تسمية نفسه «ملكًا لكل العرب» قبلئذ في القرن الرابع، لكن تبجحه كان نذيرًا بأشياء قادمة.

لقد كان لظهور هذه السلالات الحاكمة العربية جذوره في القيادة العسكرية. فالعشائر مثل النصريين والجفنيين، الذين كانوا مقطعيين تابعين لإيران وروما على التوالي، لم تكن تمتلك أي سلطة موروثة لفرض إرادتها على الجماعات القبلية الأخرى. لكن النجاح في الحرب كان يمنحهم الهيبة والوسيلة لإيجاد الموارد خارج الحياة الرعوية، بالأخص انتزاع الجزية [الخراج] وأموال الحماية

[الخوة]. وإذا، كما في المقتطف الوارد أعلاه، استطاعوا من طريق بسالتهم أن يجذبوا انتباه الدول، فمن الممكن أيضًا أن يكسبوا الإعانات الحكومية الكبيرة. بهذا الريع كانت هذه السلالات تحاول أن تفعل شيئين أولهما تحويل قوتها العسكرية من قوة قائمة على رجال القبيلة والقبائل الحليفة التي كانت مع ذلك، مستقلة ذاتيًا وقد تبقى وقد لا تبقى موالية لهم، إلى جيش محترف مدفوع الأجر (ذي راتب) [مكون] من رجال المدن والعبيد وغيرهم ممن يمكنهم أن يمارسوا سيطرة فعالة عليهم. هكذا كان معروفًا أن ‹المفضليات›:

وغسَّانُ حيٌّ عِزُّهم في سواهم يُجالد عنهم مِقْنبٌ وكتائبُ.

وبالفعل فقد كتب المنذر بن الحارث (زعيم جفني) إلى الإمبراطور جسطين [565–78] يطلب أن يرسل له الذهب لكي يتمكن من استئجار الجنود ‹John of Ephesus 6.3›.

كان الهدف الثاني لهذه السلالات عند صرف دخلها هو تقليد أسيادها الإمبراطوريين في رعاية الثقافة. لهذه الغاية شيّدوا الأبنية واستوردوا كل أصناف الفنانين إلى بلاطاتهم الفاخرة:

> لقد رأيت عشر قيان: خمس روميات يغنين بالرومية بالبرابط، وخمس يغنين غناء أهل الحيرة وأهداهن إليه [الملك جبلة الجفني] إياس بن قبيصة، وكان يفد إليه من يغنيه من العرب من مكة وغيرها، وكان إذا جلس للشرب فرش تحته الآس والياسمين وأصناف الرياحين، وضرب له العنبر والمسك في صحاف الفضة والذهب، وأتي بالمسك الصحيح في صحاف الفضة، واوقد له العود المندَّى إن كان شاتيًا، وإن كان صائفًا بُطّن بالثلج، وأُتي هو وأصحابه بكسًا صيفية يتفضل هو وأصحابه بها في الصيف، وفي الشتاء الفراء الفنك، وما أشبهه، ولا والله ما جلست معه يومًا قط إلا خلع عليّ ثيابه التي عليه في ذلك اليوم، وعلى غيري من جلسائه، هذا مع حلم عمن جهل، وضحك وبذل من غير مسألة مع حسن وجه . . ‹الأصفهاني›.

شجعت هذه الزعامات العربية بوجه خاص اللغة العربية والشعر العربي. فقد اختارت أن تدون مراسلاتها باللغة العربية، مستفيدة من الأبجدية النبطية التي تحولت على مر الزمن إلى ما صار يدعى لاحقًا الخط العربي (انظر الفصل

الثامن). لقد اندثرت وثائق هذه الكيانات السياسية العربية كلها باستثناء حفنة من النقوش، ولذلك لا يمكن الآن أن نتتبع هذا التطور، لكننا نستطيع أن نشهد مراحله النهائية في ثلاثة نصوص من القرن السادس محفورة على حجر بأحرف عربية فصيحة بديعة. كانت الممارسة المعتادة للوافدين الجدد في هذا الجزء من العالم هي كتابة نصوصهم الرسمية على الأقل باللغة المحلية ذات الامتياز، سواء كانت اليونانية أم الآرامية. لذلك كان قرار هذه الإمارات العربية أن تكتب بلغتها الأهلية جديدًا ولابد أنه كان اختيارًا متعمدًا. إنه يوحي بأنهم كانوا يدركون قيمة لغتهم الخاصة والتعلق القوي بها وأن ذلك كان مرتبطًا ارتباطًا حميمًا بهويتهم وإدراكهم لذاتهم.

قد تكون الوثائق العربية الجاهلية نادرة، لكن الشعر العربي الجاهلي وافر، لأن هذه السلالات الحاكمة العربية رعت الشعر وكان لكل سلالة حاكمة مدّاحُها الخاص بها. بحسب ناقد أدبي إسلامي فإن «العرب القدماء لم يكن لديهم من الشعر أكثر من أبيات قليلة ألفها شخص ما في مناسبات محددة، فالقصائد الملحمية الطويلة ألقيت لأول مرة في زمن عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف» أي في أوائل القرن السادي ‹ابن سلام›. كان الشعر البسيط موجودًا منذ زمن طويل (ربما الأسلوب القصير الخفيف من النظم المعروف باسم الرجز)، وفي الواقع احتفل السراسنة "العرب" بانتصار ماوية ملكة السرسن في سبعينات القرن الرابع [370] بالأناشيد "Ôdai" ‹Sozomen 6.38›. لكن البحاثة الإسلاميين اتفقوا على أن الأشعار المعقدة [القصائد] قد «ولدت من جديد وكانت حديثة العهد» ‹الجاحظ، كتاب الحيوان›. وأن هذا الشكل الجديد كان قد ولد في نحو 500 م. إن هذا يتصادف بدقة مع صعود ممالك تابعة أكثر قوة كالجفنيين والنصريين، ويبدو من المنطقي أن نستنتج أن رعايتهم هي التي ساعدت على تحقيق هذا التطور.

هذا الشِّعر الجديد كان مهمًا إلى درجة قصوى في تعزيز مفهوم الهوية العربية. أولاً لقد منح الحياة والانتشار لمثال الفضيلة العربية (المروءة)، لأن الكرم تجاه المحتاجين، والشجاعة في المعركة والوفاء بالعهد والولاء للعشيرة يجري مناصرتها والدفاع عنها في كل قصيدة تقريبًا. هذا المثال، رغم كونه مستندًا على جماعات قبلية ويلح على أن روابط الدم فقط هي المقدسة، أصبح مع ذلك رباطًا غير منظور بين مختلف العشائر، ووضع الأسس، سواء على نحو واع أو لا، لوحدة أخلاقية أوسع. ثانيًا، إن الأسلوب العربي المتميز الذي كتب به

هذا الشعر قد تجاوز اللهجات ووحد الذين يفهمونه في وحدة لغوية واسعة. أخيرًا لقد خدم كونه أداة للذاكرة الجماعية، لأن «كل أمة تعتمد على وسيلة أو أخرى لصون وحماية مآثرها المجيدة، والعرب كافحوا لتخليد مآثرهم بواسطة الشعر، الذي شكّل أرشيفهم العام [ديوانهم] ‹الجاحظ، كتاب الحيوان 1/ 72›. وبالفعل فإن المعارك الضخمة التي لا تحصى والأحداث العظيمة للتاريخ القبلي العربي مدونة في المجموعة الكاملة الباقية من الشعر العربي الجاهلي. لكنه رغم كونه ذا قيمة رفيعة للجمهور العربي الحضري، فقد كان موجهًا بشكل أساس إلى العرب البدو، كما هو واضح من نفحة الحنين إلى أمكنة الإقامة المهجورة [الأطلال] وثيمة الترحال الدائم التي تتخلله بشكل كامل.

9 / 5) القرنان السابع والثامن ميلادي

ولد الإسلام بين سكان المدن وانطلق مع صورهم المنمطة عن البدو بوصفهم غير جديرين بالثقة ومخادعين ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنْ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ (الفتح 11). في الأدب الإسلامي المبكر يُصور العرب البداة غالبًا على أنهم فظون ومكرسون للنفاق والشهوانية السرية، ومدمنين على الممارسات الوثنية، لهذا السبب لم يكن مسموحًا أن يقوموا بدور أئمة الصلاة أو أن يتزوجوا النساء المسلمات أو يدلوا بشهادة ضد حضري. ومع ذلك، سرعان ما تغير ذلك كله فأصبحوا يوصفون بأنهم جذر العرب وتعزيز للإسلام (أصل العرب ومادة الإسلام)[9].

أحد أسباب إعادة الاعتبار للبدوي هو أن سكان المدن المسلمين، الذين كانوا الدعامة الأساس للإسلام، كانوا أقوياء في الدين لكنهم ضعفاء في الهوية. من الواضح أن محمدًا كان يعدّ دينه مفتوحًا للجميع: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً﴾ (النساء 79)، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾ (الأعراف 158)، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ (سبأ 28). بالنتيجة لا يبذل القرآن أي محاولة لتعريف هوية الجماعة الإسلامية الأولى على أسس قومية. مع ذلك فإن المسلمين كانوا يدخلون بلادًا ذات شعوب عريقة جدًا ذات تراثات مبجلة، وكانوا في حاجة إلى تقديم الرد عندما يسألون عن تاريخهم الخاص وخواصهم المميزة. فيما يتعلق بالتاريخ فقد تبنوا فكرة كانت قد راجت على الأقل منذ زمن المؤرخ اليهودي[!] يوسفوس (توفي العام 110 م)، وهي أن العرب

متحدرون من إسماعيل ‹Ant. 1.214, 221›. بهذه الفكرة شكلوا لأنفسهم شجرة نسب دينية، تروي كيف ذهب إسماعيل وأباه إبراهيم إلى مكة معًا وأسسا الحرم الإسلامي الأصلي. فيما يتعلق بالخصائص المميزة فقد عادوا إلى العرب البدو الذين كانوا ضعيفين في الدين لكنهم أقوياء في الهوية، وهكذا صارت الثقافة البدوية تشكل نواة الهوية العربية في العصر الإسلامي. يمكن رؤية ذلك في عدد كبير من النوادر التي تهدف وصف طبيعة وعادات العرب:

> وفد على كسرى أنوشروان [الإمبراطور الفارسي] بعض خطباء العرب. فسأله كسرى عن شأن العرب وسكناها البر واختيارها البدو. فقال: 'أيها الملك، ملكوا الأرض ولم تملكهم، وأمِنوا عن التحصن بالأسوار، واعتمدوا على المرهفات الباترة، والرماح الشارعة جنبًا وحصونًا . .'. قال: 'فما أكثر غذاءهم؟' قال: 'اللحم واللبن والنبيذ والتمر'، قال: 'فما خلائقهم؟' قال: 'العزّ، والشرف، والمكارم، وقرى الضيف وإذمام الجار، وإجارة الخائف، واداء الحمالات، وبذل المهج في المكرمات، وهم سراة الليل، وليوث الغيل، وعمار البر، وأنس القفر، ألفوا القناعة، وشنفوا الضراعة، لهم الأخذ بالثأر، والأنفة من العار، والحماية للذمار . .' ‹المسعودي›.

رغم أن هذا قد تركهم عرضة لسخريات مهينة من قبيل أن «العرب لم يكن لهم ملك يستطيع أن يوحدهم . . لم يحققوا شيئًا على الإطلاق في الفن والتقانة ولم يتركوا أي أثر في الفلسفة» ‹ابن عبد ربه›، فإن هذه يمكن إسكاتها بسهولة بالإشارة إلى إنجازاتهم العسكرية ([الأصمعي في بلاط الخليفة هارون الرشيد):

> قال لي الرشيد: 'أتروي كلمة عدي بن الرقاع: عرف الديار توهمًا فاعتادها' قلت: 'نعم'! قال: 'هاتها'! فمضيت فيها حتى إذا أنا صرت إلى صفته لجمله، قال لي الفضل: 'ناشدتك الله أن تقطع علينا ما أمتعنا به السهر في ليلتنا هذه بصفة جمل أجرب!' فقال الرشيد: 'اسكت فالإبل هي التي أخرجتك عن دارك، وعزتك في قرارك، فاستلبت تاج ملكك' ‹المرزباني›.

سبب ثانٍ لإعادة الاعتبار إلى العرب البدو هو أن الباحثين صاروا يعدّونهم

مصدرًا حاسمًا للعلوم الإسلامية. فالثروة التي راكمها المسلمون الأوائل بالضرائب والسلب تعني أن مدنهم الجديدة اجتذبت شعوبًا من مختلف الأصول والعقائد والمراتب الاجتماعية، كانت تأمل في كسب حصة من هذه الثروات من طريق تقديم خدماتها إلى الحكام الجدد. علاوة على ذلك فإن عصابات اللصوص التابعة لهؤلاء الحكام كانت تذهب سنويًا إلى الأصقاع البعيدة وإلى الجزر، فتعود بالأسرى من كافة شعوب الأرض إلى المدن الجديدة ‹John bar Penkaye 147›. وهذه البوتقات كان يحركها اعتناق الأديان والمذاهب الجديدة والردة الواسعة الانتشار، وظاهرات الزواج بين الطوائف (الملل) وحضور المهرجانات، والتبادلات التجارية، والمناظرات العامة. من المحتم أن كل هذا النهوض قد أدى إلى تحول سريع وجوهري للعالم الإسلامي المبكر خلال جيلين أو ثلاثة بعد وفاة النبي محمد. إن هذا قد طرح مشكلة أمام فقهاء العصور اللاحقة الذين سعوا إلى فهم القرآن ولغته، ووضع القوانين طبقًا لتعاليم [سُنة] محمد، وكتابة تاريخ ميلاد ديانتهم. ومع ذلك، كان ثمة عرب بدو اختاروا ألا يشاركوا في الفتوحات أو عادوا لاحقًا إلى مخيماتهم بدلاً من الاستيطان في مدن الحاميات الجديدة. لذلك فقد عاشوا خارج المعمعة واشتهروا بحفظهم لتراثات قبائلهم ولم يطل الوقت حتى جاءت فكرة استشارتهم في هذه المسائل.

كان أبو عمر بن العلاء (توفي سنة 154 هـ/ 770 م) أول من مارس ذلك منهجيًا وشجع الدراسات القرآنية والنحوية في البصرة، إذ يُزعم أنه كان يرسل طلابه إلى الرواة البدو لحل إشكالية في النحو، والسؤال على «كلام العرب» البدو وكان يدون الملاحظات بنفسه عندما يدخل في نقاش مع البدو، خصوصًا الشيوخ المعمرين الذين كانوا أحياء قبل الإسلام ‹السيوطي 278، 304، 321›[10]. لقد تبنى طريقته الكثير من أتباعه. هكذا فإن عبد الملك الأصمعي (توفي سنة 213 هـ/ 828 م)، أحد آخر المشمولين بحمايته ورعايته يبدأ مقدمة تاريخه للعرب قبل الإسلام، بتفويض من الخليفة المشهور هارون الرشيد، كما يلي:

> فقد أمرتَ . . بأن أجمع ما بلغني من أخبار ملوك العرب البائدة الأولية؛ وبعضًا من سياستهم ونصائحهم؛ وأشعارهم وخطبهم؛ ومسراهم في تدبير ما خولهم الله، تعالى، ووقائعهم . . فرأيت استفراغ المجهود في قلة ما وصل إليَّ من ذلك عذرا، ووجدان ما به الكفاية عسرا، لانقطاع أخبارهم، ومحو آثارهم،

> فأتعبت ركبي يجوب القبائل؛ مستقصيًا بها رواة الأخبار؛ وحفظة تواريخ ما مضى من الأعصار، فاستقصيت كلَّ من رافقته من النسابين، وتلقيت ما روته لي الشيوخ المعمرة عن الأجداد السالفين، إلى أن جمعت منه هذا القدر القليل؛ امتثالاً للأمر العالي الجليل ‹الأصمعي›.

ثمة طالب آخر من طلاب أبي عمر (وبالأخص من طلاب الخليل بن أحمد ويونس بن حبيب، اللذان كانا أيضًا من طلاب أبي عمر) هو سيبويه (توفي سنة 180 هـ/ 796 م)، مؤلف النحو العربي الأول، الذي يمكن رؤية التزامه بتقليد أستاذه تقليدًا واضحًا. يحوي نحوه على وصف وتحليل للغة العربية، إضافة إلى بعض التنظير اللغوي. إنه يستند إلى ثلاثة مصادر رئيسة: القرآن، الشعر العربي القديم والكلام العادي للعرب البدو. ففي رأي سيبويه أن الكثير من هؤلاء البدو، وعلى النقيض من السكان الحضريين للعراق، كانوا لا يزالون يتكلمون لهجات قريبة من اللغة العربية قبل الإسلام، وكانوا، خلافًا للقرآن أو الشعر القديم، في المتناول ويمكن استنطاقهم. لذلك كان عمله يحفل بالتعليقات حول ما يقوله البدو وما لا يقولونه، ومبدؤه العام هو أن على المرء أن يستعمل تلك العبارات التي يستعملها البدو ويقر بما يقرون به ‹انظر سيبويه›.

إن أصول الهوية العربية لاتزال غير واضحة لنا، لكننا نستطيع أن نفهم كيف تعززت من خلال الهجرة والتفاعل مع الدول، ثم اتخذت اتجاهًا جديدًا مع صعود الإسلام. فالصلة بين الدين الإسلامي والهوية العربية استغرقت وقتًا لتتشكل، لكنها كانت قوية قبلئذ في نهاية القرن الأول بعد وفاة النبي محمد. هكذا أكد الخليفة الوليد [86–96 هـ/ 705–15 م] لشمع الله، زعيم قبيلة تغلب العربية المسيحية أنه «في حين أنك زعيم العرب، فإنك تخزيهم جميعًا بعبادة الصليب» ‹Michael the Syrian 11.17›. لقد سمح له بالعيش، لكن في عهد الخليفة المهدي [159–69 هـ/ 775–85 م] لم تعد المسألة قابلة للنقاش فقد خيرت قبيلة تنوخ العربية المسيحية خيارًا قاسيًا بين التحول عن دينها أو الموت، كما هو مدوّن في نقش محلي: «في العام 1090/ 780 جاء أمير المؤمنين . . وأمر بأن تهدم الكنائس وأن يصبح التنوخ مسلمين <نهججرون>»[11]. وبالفعل ففي ذاك الوقت، في القرن الأول من عهد السلالة العباسية [133–236 هـ/ 750–850 م]، لقيت قضية الهوية العربية أعظم اهتمام. عندئذ اتخذ العرب المسلمون من بغداد عاصمة لهم، ما عرّضهم لتحدي الهوية القوية والمتماسكة لإيران، في حين لم

يكن عليهم، قبلئذ في دمشق، أن يتنافسوا سوى مع الهويات المحدودة والمحجمة العديدة للمشرق. علاوة على ذلك فقد كان العراق بلدًا كوزموبوليتيًا ذا نخبة ثقافية كبيرة، بدأ أفرادها مناقشة التوجه الثقافي للإمبراطورية الإسلامية (عربية أم متعددة الإثنيات؟)، وأسس العلوم الإسلامية (معرفة عربية تقليدية أم أكثر استنادًا إلى العقلانية؟) والميزات الخصوصية لشعوب العالم الكبرى ودياناته (ما أنجزه العرب، هل كان محمد نبيًا حقيقيًا، إلخ).

كانت حقيقة أن القرآن باللغة العربية وأن النبـي كان عربيًا ولد في جزيرة العرب تعنـي حتمًا أن كثيرًا من المسلمين الصالحين، حتى وإن لم يكونوا من أصل عربي، سوف يقرون بالصلة بين قضيتـي العروبة والإسلام وحتى يسعون لتقوية تلك الصلة. هكذا كان أول عمل شامل عن تاريخ جزيرة العرب وحياة محمد من تأليف ابن إسحق (توفي سنة 150 هـ/ 767 م)، الذي كان جده أسير حرب من عين التمر في العراق. أما أقدم تعليق قرآني باق فقد كان من تأليف مقاتل ابن سليمان (توفي سنة 150 هـ/ 767 م) الذي ولد لأبوين فارسيين، وأول [كتاب] نحو للغة العربية كان من تأليف سيبويه (توفي سنة 180 هـ/ 796 م)، وهو من أهالي بلخ الواقعة في أفغانستان الحالية. إن تشكّل هذه الصلة يعنـي أن العرب الجاهليين، الذين كانوا يشتمون في البداية باعتبارهم وثنيين، قد أصبحوا موضوعًا مقبولاً للبحث. لذلك لم يُعد ذلك خطأ، عندما أمر الخليفة المنصور [136–58 هـ/ 754–75 م]، الفخور بإنجازات ابنه في تعلّم الشعر العربي الجاهلي، المعلم بأن «تختار لأجل وديعتك الصغيرة [تلميذك] الأفضل مما قاله كل شاعر عربي» ‹قالي›. إن التواريخ الكثيرة للعرب الجاهليين، مثل تاريخ الأصمعي، سرعان ما توالت تباعًا، ساعية إلى تقديم وصف دقيق لهذا الشعب للمرة الأولى وإفساح المكان له في الصورة العامة للثقافات البشرية، والآن إذ يجري القيام بالمزيد من الأعمال الآركيولوجية [الأثرية] في جزيرة العرب ويجري الكشف عن المزيد من النقوش يؤمل أن تستمر هذه المهمة وأن يُمنح سكان جزيرة العرب الجاهلية مكانهم اللائق في التاريخ العالمي.

ملحق

قصيدة قانية/ ترنيمة الشمس

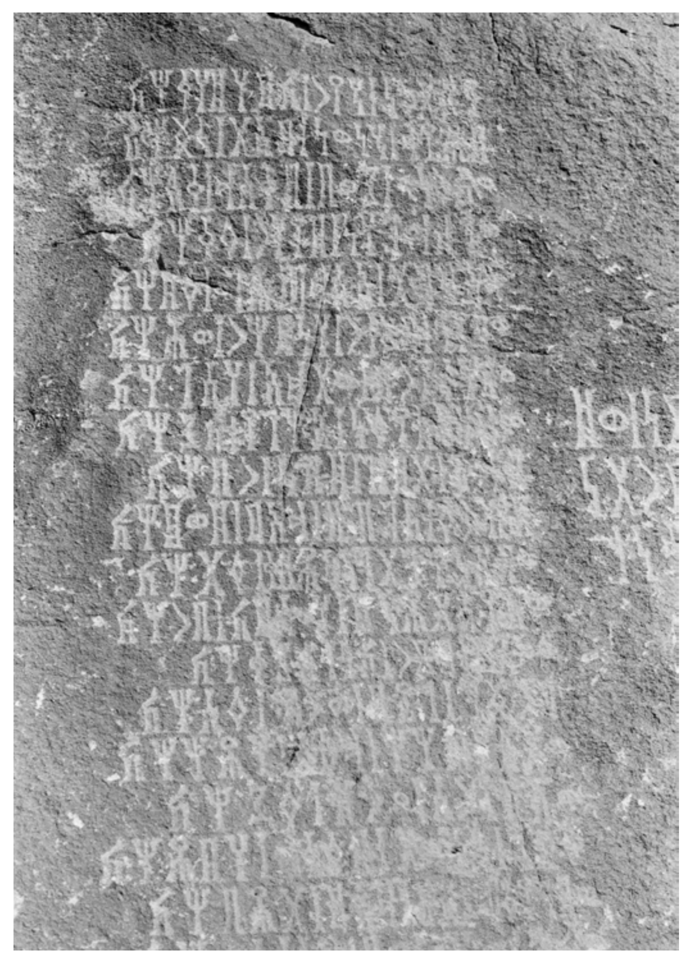
أورد د يوسف محمد عبد الله النص على النحو الآتي:

01 (ي)س^{2}ترن خير ك-مهـ-ذ-هقحك
02 (ب-)صيد خنون مءت نس^{3}حك
03 و-كرنو س^{2}عب ب-قس1د قس1حك
04 (وخب) علهن ذ-يهر فقحك
05 (ويث)لت (ء)ءدب صلع فذحك
06 (و-مي)ن مس^{2}قر هن-بحر وصحك
07 (و-)مه(قب)رم و-تدء هس1لحك
08 و-(...)(ء)يفن (ء)حلي كس^{2}حك
09 (س^{2}هرم) ت(بغ) ذ-(ب)ة ربحك
10 (ذ-)صرف(ء)مغب دءم ذ-وضحك
11 و-(ب-)هنحلت هن-ص(ب)ض فتحك
12 و-(ذ-)ي(س^{1})تص(نم) هـ(عس^{1}م)ك برحك
13 و(ي)(ن)مزر كن ك-س^{2}قحك
14 مرس^{3}ل ل-ثب و-ر(م) فسحك
15 (و-)ت(ء)(.)صحح (دء)(.) هصححك
16 (و-)(..)يرس^{1} عر(ب) فس^{2}حك
17 (...) (ء)(.)(و)ت (.)(ف)(..) هبصحك
18 و-(بل)ي(...)ك(م)(.) د(.)م تصبحك
19 و-(كل و)(..) (و عب)ر-ن نوحك

1. نشترن/ خير/ كمهذ/ هقحك
2. بصيد/ خنون/ مأت/ نسحك
3. وقرنو/ شعب/ ذقسد/ قسحك
4. ولب/ علهن/ ذيحر/ فقحك
5. وعليت/ أأدب/ صلع/ فذحك
6. وعين/ مشقر/ هنبحر/ وصحك
7. ومن/ ضرم/ وتدأ/ هسلحك
8. ومهسع/يخن/ أحجي/ كشحك
9. ونوي/ تفض/ ذكن/ ربحك
10. وصرف/ ألغذ/ دأم/ ذوضحك
11. وجهنللت/ هنصنق/ فتحك
12. وذي/ تصخب/ هعسمك/ برحك
13. وين/ مزر/ كن/ كشقحك
14. ورسل/ لثم/ ورم/ فسحك
15. وسن/ صحح/ دأم/ هصححك
16. وكل/ يرس/ عرب/ فشحك
17. وكل/ أخوت/ ذقسد/ هبصحك
18. ولليت/ شظم/ دأم/ تصبحك
19. وكل/ عدو/ عبرن/ نوحك

20 و-(..) هن-حزي ءملك رضحك
21 (و-)(..) (..)عك(.) ءرء ك-فقحك
22 (..)ن (..)يب (و-)(.)ءس^{1} هجلحك
23 (ع)ل(م ي)ذ(كر) كل-ن ميحك
24 حمدن (خير ون)يك توحك
25 (..)(س^{2}مك)(...) (و-ءت)(.)وءن صلحك
26 هرد(س3ت)-ن (.)(م)(..)مس^{1} تنذحك
27 ت(ب)هل(ل)(.)(د)(...)ي مس^{2}حك

20. وكل/ هنحظي/ أملك/ ربحك
21. وأك/ ذتعكد/ أرأ/ كفقحك
22. ومن/ شعيب/ عرأن/ هلجحك
23. وجب/ يذكر/ كلن/ ميحك
24. حمدن/ خير/ عسيك/ توحك
25. هنشمك/ هندأم/ وأك/ صلحك
26. هردأكن/ شمس/ وأك/ تنضحك
27. تبهل/ عد/ أيسي/ مشحك



اللوحة 37: صورة نقش القصيدة الحميرية

الهوامش

المقدمة: (ص 23 - 36)

1. There is also a number of short essays, most famously I. Guidi, L'Arabia antéislamique, Paris, Geuthner, [1921]; C. A. Nallino, 'L'Arabie preislamica in his raccolta di Scritti 3, Rome, Instituto, Per L'Oriente, [1941], [147-];.G. Levi della Vida, "pre- Islamic Arabia" in N. A. Faris ed., ‹The Arab heritage›, Princeton, pup, [1944], [2547-]; H. St J. Philby, The background of Islam, Alexandria Whitehead Morris, [1947].

2) نادرًا ما تظهر جزيرة العرب، وجنوبي جزيرة العرب لا يظهر أبدًا تقريبًا، في تواريخ الشرق الأدنى. لنأخذ مثالاً حديثًا جدًا، كتاب ‹Sicker, The pre-Islamic Middle East› لا يحوي أي فصل وحتى فقرة عن جزيرة العرب، وسكانها يبرزون فقط بوصفهم «خونة»، «قبائل عربية غازية» و«قبائل تزعج المقاطعات البيزنطية».

3. For a recent discussion see Retso, "The Earliest Arabs."

4. Robin (AAKM 72) argues that Shaqab 3 mentions Arabs, but it should be read rather as a verb to offer (thus Walter Mpüller in Biblioteca Orientalis 51, 1994, 472.

5) تعرف الجماعة الإثنية ببناها الاجتماعية وتاريخها وثقافتها. كذلك الإثنية، خلافًا للعرق (الذي يتحدد بيولوجيًا)، هي مُنشأ بشري، لكن هذا لا يعني أنها حقيقية في عيون أفرادها أو قادرة على ربطهم أو تحريكهم.

6. See further I. Goldziher, ‹What is meant by al-Jahiliyya› in id., Muslim studies 1, Chicago, Aldine, [1967, 201208-] (original German: Halle 1889).

1) شرقي جزيرة العرب (ص 37 - 60)

1) هذه المحددات لموقع ديلمون ومَجَن مقبولة عمومًا في الوقت الحالي، لكن كان ثمة خلاف حول جوارهما، لأجل المراجع انظر ‹Arabian Gulf, 85–92, 133–50›.

2) إنني أستخدم مصطلحات مثل العصر البرونزي والعصر الحديدي لأغراض كرونولوجية، لكي لا نقول شيئًا حول الثقافة المادية. في الحقيقة كان ثمة القليل جدًا من الحديد المستخدم في شرق جزيرة العرب في هذه الفترة إذ إن وفرة النحاس قد أجلت إدخاله حتى العصر السلوقي.

3) هذا الشعب من سورية/ منطقة الفرات الأوسط، سوف يظهر غالبًا في هذا الكتاب، لأنهم، رغم أنهم لم يكونوا أبدًا قوة سياسية موحدة كالآشوريين والبابليين، صاروا يتمتعون بتأثير ثقافي كبير في الشرق الأوسط، بالأخص من طريق لغتهم، التي أصبحت بالتدريج لغة مشتركة في النصف الثاني من الألف الأول قبل الميلاد. لمزيد من المعلومات انظر أعمال ديون وهويرت المدرجة في قسم القراءة الداعمة من الببيليوغرافيا.

4) النصوص المستشهد بها في هذه الفقرة جرى تجميعها على نحو ملائم، والمراجع وردت في ‹Potts, Arabian Gulf, 1. 333–79›.

5) الحاكم الذي نصادفه في أغلب الأحيان هو أبيئيل. في بعض الأحيان يعطى الاسم الكامل، يكون من الصعب قراءته، لكنه يبدأ دائمًا بمقطع (<برت>/ ابنة، لذلك فقد كان أبيعيل ملكة (وهذا ما سيجري إثباته في دراسة قادمة لِمايكل مكدنلد).

6) أثير كثير مِن الجدلِ حول موقعه الدقيق، كل ما يمكننا قوله بشكل مؤكد هو إنه في شرقي السعودية، في داخل البر قليلاً وغير بعيد عن البحرين.

7) يورد النص اسم (Carrae)، بما أن الحديث هو عن جزيرة العرب، والنباتات العطرية و(Characene)، فقد بدأ وكأن (Gerrha) هي المقصودة، انظر: (Potts, Arabian Gulf, 2. 90 – 97) لأجل المناقشة والمزيد من المراجع.

8) فيما يتعلق بفقد (خ) النهائية، قارن نقش أم الجمال المكتوب باللغتين اليونانية والنبطية: (تنوح Thanouênoi/ (PAES 4A.41).

9) (Cf. Epistulae 261): «لقد أخذت بيان عصيانك إلى بلاط الحكام الدنيويين» (إلى أساقفة قطر). نظرًا لأن أيشوع يهب كان بطريركًا في أربعينيات وخمسينيات القرن السابع فلابد أن الإشارات كانت إلى المسلمين.

10) هكذا (استنتج) جورج من (Resh'aina 313). انطلاقًا من هذه القاعدة أطلق علي دعوته إلى حاكمية الشرق الأوسط برمته بالنسبة إلى الأتباع اللاحقين، الشيعة، فقد كان هو الحاكم الشرعي الوحيد.

أ) الأمفورة: قارورة ضيقة العنق ذات عروتين كان الإغريق والرومان يضعون فيها الخمر والزيت.

2) جنوبي جزيرة العرب (ص 61 - 84)

1) أو يجادل بأن ملكة عربية شمالية هي المقصودة (انظر الفصل 5)، لكن الملكات الوحيدات المعروفات، ملكات قيدار، كن كاهنات، وكان لجنوبي جزيرة العرب كاهنات. علاوة على ذلك فإن المؤلف، ومهما كان العصر الذي كان يكتب (أو تكتب) فيه، فمن المؤكد أنه كان يضع في ذهنه مرادفًا لمملكة إسرائيل، وهذه لم يكن من الممكن إلا أن تكون قوة (دولة) حضرية كبرى، وليس قبيلة رعوية.

2) (Cf Theophanes 144): «في هذا العام (502–503 م) أبرم أنسطسيوس معاهدة مع الحارث (المعروف بأنه ابن امرأة من تَغْلب)، أبي معديكريب (Ma'dikarib) وهُجْر (Hujr)، تمتعت بعدها كل فلسطين وجزيرة العرب وفينيقية بكثير من السلام والهدوء». يرفض روبن (CRAIBL 1996, 696) (Robin–97) وشاهد (BASIC, 5) (Shahid–6) هذه الرواية، بقولهما إن رجال القبائل كان من الممكن أن يحملوا الاسم

الشخصي للأم، وليس اسم قبيلتها، مع ذلك فإن هذا غير صحيح. (انظر مثلاً الطبري: 1. 755: «عمر بن عدي، ابن امرأة من تنوخ، هو من لخم»). إن مالالاس (434 .18) (Malalas–35) يجعل المنذر، الحليف العربي للفرس، يقتل الحارث في العام (528 م).

3) يعطى تاريخ (523 م) من طريق رواية الاستشهاد اليونانية. هذا الحدث يسمح لنا بتحديد العصر الحميري، لأن هذا النقش والنقش التالي، اللذان يعود تاريخهما إلى العام (633 م)، يصفان على نحو واضح نفس الأحداث التي تصفها رواية الاستشهاد اليونانية.

4) إسيميفيُس هذا من المفترض أنه هو سُميفع أشوَع ('Sumyafa' Ashwa) في نقوش جنوبي جزيرة العرب وربما هو أريات (Aryat) في المصادر الإسلامية (الطبري، 1. 927–33). أطلق الملك الأثيوبي حملة ثانية ضد حمير كما يشار إلى ذلك في المصادر اليونانية والسريانية (Huxley, 'On the Greek Martyrium', 46–48).

5) في المصادر الرومانية المتأخرة والبيزنطية، صار سراسن (Saracen)، الذي هو في الأصل اسم قبيلة عربية، هو المصطلح العام المستخدم للدلالة على العرب (انظر الفصل التاسع).

6) كان المنذر والحارث هما المقْطعان العربيان الأقوى لإيران وبيزنطة على التوالي، انظر الفصل (3) لأجل المناقشة.

3) شمالي جزيرة العرب ووسطها (ص 85 - 114)

1) لأجل المراجع في هذه الفقرة ولمزيد من المناقشة انظر: (Eph'al, Ancient Arabs, 93–100).

2) إن جشم (Geshem) في هذا النص يُماهى عادة ب «جشم العرب» التوراتي الذي عارض قيام نحميا بإعادة بناء أسوار أورشليم في العام 444 ق م (سفر نحميا 2. 19، 6. 1) وبجشم بن شَهْر الذي يظهر على نقش من البلدة الواحية ديدان في شمالي جزيرة العرب كونه شخصية سياسية ذات أهمية (JS Lih 349)، لكن هذا يبقى تأمليًا.

3) فيما يتعلق بالمعاني المتغيرة للعربية السعيدة (Arabia Felix) انظر (Retso, «Where and what was Arabia Felix?»).

4) يقرأ شاهد، حاذيًا حذو روزنتال (sharbat)، (Rosenthal/) «قبيلة» (EI, s.v. 'Saracen')، ميليك (Milik) يقرأ (shirkat) التي تعني سرية خيالة مأخوذة من قبيلة ثمود، التي تعطي مدلولاً جيدًا (انظر Macdonald, 'Saracénes').

5) يُماهي الباحثون المعاصرون عادة زنوبيا بالملكة العربية الزباء من التراث الإسلامي. قد يكون الأمر كذلك، لكن الحكايات الأسطورية الكثيرة التي جرى جمعها حول الزباء قد جعلت سيرة حياتها مختلفة جدًا عن سيرة حياة زنوبيا.

6) هذه هي ترجمة بيستن (Beeston)، لكن ثمة ترجمات أخرى (انظر مسرد الكتب)، لأن النص في أمكنة كثيرة من الصعب قراءته.

7) من الممكن أن يكون أبي كريب بن جبلة من غسّان هذا هو الذي يرسل مبعوثًا إلى أبرهة في اليمن (CIS 4.541، انظر الفصل الثاني).

4) الاقتصاد (ص 115 - 144)

أ) الجذامية نسبة إلى الجذامة وهي ما يتبقى من الزرع بعد حصاده، لرعي الأغنام والماعز إلخ...

ب) أو ما يدعى بالرعي الجائر.

1) لأجل تعديل هذا البيان انظر الفقرة المتعلقة بالأسلحة والحرب في الفصل السابع.

ج) المارية (Oryx): ضرب من البقر الوحشي الإفريقي.

2) رغم أن كتاب (A. Jamme, A ‹propos des rios Hadramoutiques de al–'Uqlab›, Wahington, 1965, 16–17) يراهم، على النقيض من مولر (Müller) وبيستون (Beeston)، كونهم أفراد من عشائر تدمر وكشد وهند العربية الجنوبية.
3) رغم أنهم كانوا يلقون عقابًا شديدًا إذا قبضت عليهم السلطات مثلاً: «عبر العرب الفارسيون إلى الأرض البيزنطية من دون الجيش الفارسي استولوا على قريتين عندما علم الحاكم الفارسي في نيسيبيس بذلك، أمسك زعماءهم وأعدمهم. عبر العرب البيزنطيون أيضًا من دون أوامر إلى الأرض الفارسية واستولوا علىقرية صغيرة. عندما سمع القائد العسكري بذلك . . أرسل إلى تيموستراتوس (Timostratus)، حاكم كالينيكوم، وألقى القبض على خمسة من زعمائهم، فذبح اثنين بالسيف وخَوزق الثلاثة الآخرين». (Joshua the Stylite 88).
4) (Cf) زكرياس (2 .7) (Zacharias–3) (يندفع العرب أفواجًا إلى أميدا كنتيجة للجراد والمجاعة)، مارسيلينوس (943) (Marcellinus) (مراعي بلاد فارس تخربت بفعل الجفاف في العام (536) و«نحو 1500 عربيًا» يعبرون إلى الأراضي البيزنطية).
5) (Cf) الصفحة (68) أعلاه (سرغون يوطن يوطن العرب في السامرة) و(Plutarch, Lives, Cambridge (Ma), Leob, 1959, 2.536) (تيغرانس (Tigranes) يوطن العرب ساكني الخيام...... . . لاستخدامهم في التجارة).
6) عبّر اسطرابون عن ذلك بطريقة أخرى، لكن هذا لابد أن يكون خطأً كتابيًا، لأن حضرموت هي مصدر اللبان في حين أن المر كان يأتي من مناطق أبعد إلى الغرب مثل قتبان.
7) يختلف الرقم في المخطوطات المختلفة، وهذا هو الرقم الأقرب إلى المسافة الحقيقية، نحو (2220 كم (الميل الروماني يساوي بالضبط أقل من 1,5 كيلومتر).

5) **المجتمع (ص** 145 - 170)

1) مصدرنا الأكثر حيوية لأجل هذا الشكل من التنظيم الاجتماعي في جزيرة العرب يأتي من الشعر العربي الجاهلي (انظر الفصل الثامن من هذا الكتاب)، لكن يجب أن نضع في الذهن أن هذا مستمد بشكل رئيس من القرن السادس ميلادي ولا يمكننا أن نتأكد كيف يكون ممثلاً للعصور القديمة.
2) قد تكون القرابة حقيقية جدًا (النصوص الصفوية غالبًا ما تدون أنسابية الشخص بالعودة إلى خمسة عشر جيلاً، وفي دراسة وراثية لقبيلتين من سيناء تبين أن خمسة وستين من أصل سبعة وستين ذكرًا خضعوا للفحص يحملون نفس النمط الفردي (haplotype) أو تكون تخيلية (القبائل المدينية الأربعة من بلميرا/تدمر جرى تشكيلها لأهداف إدارية وعبادية)، لكن في كل الحالات كانت القرابة تؤمن اللغة لأجل التعاون الجماعي.
3) هذا جلي من الشعر، الذي يمتلك قاموسًا غنيًا لأجل تمييز التقسيمات الفرعية القبلية (مثلاً، أهل، رهط، بطن، فخذ، عمارة، حي، قوم، عشيرة، قبيلة، معشر، آل)، في حين أن النقوش أقل وفرة بالمعلومات بكثير (تستعمل نصوص جنوبي جزيرة العرب في معظمها مصطلح شعب والنصوص الصفوية تستعمل مصطلح آل مهما كان حجم الزمرة القبلية المقصودة).
4) يوصف النوع نفسه من الممارسة في الشعر العربي الجاهلي بعدئذ بألف عام، الأمر الذي يشكل حجة لصالح استمرارية معينة للبنة الاجتماعية على مدى هذه الفترة.
5) يتضح أنها لم تكن ضريبة دولة مستترة من حقيقة أنه كان بمقدور المرء أن يقدم هبة نذرية بدلاً عنها. ما تبتغي ملاحظته هنا أن لدينا أيضًا إشارات إلى ملوك شرق جزيرة العرب في وثائق بلاد بين النهرين (Potts, Arabian Gucf, 135–41, 229) وعلى القطع النقدية الهلنستية، لكننا لا نعرف شيئًا عن طبيعة حكمهم ومداه.
6) يعني الماشية التي تؤخذ ثمنًا لدم (دية) القتيل. هذه القصيدة من تأليف امرأة من عشيرة الرجل

المقتول.

7) تختلف درجة حدوث ذلك اختلافًا كبيرًا: ففي معبد هدران في ريبون فإن 44% من التقدمات المنقوشة هي مقدمة من نساء في حين أنها في معبد عوام في مأرب تبلغ فقط 5,3%.

8) هذه هي تءلهونو، المشار إليها هنا بلقبها (Borger, "Miszellen" Orientalia 26, 1957, 9–10)، في مكان آخر توصف بأنها «كاهنة» <كوميرترو> (AR 2.943). فيما يتعلق بالمعنى والأمثلة الأخرى لهذا اللقب انظر الفصل السادس من هذا الكتاب والهامش رقم 5 منه.

6) **الدين** (**ص** 171 - 200)

1) يتضح موقعهم الأول من النقوش المكتوبة بلغتين، التي تساويهم مع زيوس وأفروديت (انظر: Roche, Le Nabateéns en Mediterranée). من المفترض أن تكون حول العزى ملاحظة إبيفانيوس (Epiphanius) (توفي سنة 403) أنه: «في المعبد الوثني في البتراء . . يمتدحون العذراء بترانيم باللغة العربية ويسمونها خابو (khaabu) (كعبة؟) . . بالعربية، والطفل الذي يولد منها يدعونه دوسارس (Dusares) ويجري ذلك أيضًا في تلك الليلة في مدينة إلوسا (51. 22) «(Elusa). وكذلك تعليق جيروم (Jerome) بأن القديس هيلاريون (Hilarion) (توفي سنة 371) «وصل إلى إلوسا في اليوم نفسه الذي اجتذب فيه مهرجان مهيب كل أهل البلدة إلى معبد فينوس، لأن السراسنة يعبدون هذه الربة بوصفها نجمة الصبح ويكون نسلهم مكرسًا (موقوفًا) لعبادتها» («Vita Hilarionis» 42–43).

2) رغم أن لغتهم ليست العبرانية كما كان يظن ياوسن (Jaussen) وسافنياك (Saviqnac)، بل النبطية والعربية، فمثلاً، يقرأ الرقم (3) «هذا ما كتب» (كما كشفه لي سيمون هُبكنز Simon Hopkins).

3) إن أقدم النصوص التوحيدية ليست واضحة (ما دفع البعض إلى طرح صنف محلي من التوحيد)، لكن توجد نصوص يهودية بشكل علني قبل أن توجد نصوص مسيحية بشكل علني.

أ) نسبة إلى المجمع المسكوني الذي عقد في مدينة خلقيدونية بآسية الصغرى في العام 451 م وحرم القول بالطبيعة الواحدة للمسيح.

4) الإشارات الموجودة في الشعر الجاهلي مقتضبة أكثر مما ينبغي دائمًا، مثلاً قول لبيد (24): «لعمرك ما تدري الضوارب بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله صانع».

5) يرد المصطلح أيضًا مرة واحدة في شرق جزيرة العرب (Ja 1052) وفي جنوبي جزيرة العرب (RES 3945). إنه في النهاية ذو أصل سومري وثمة شاهد على وجوده في الميثولوجيا الأكادية، بمعنى «حكيم»، ومنها دخل لغات جزيرة العرب. يمكن استعماله أيضًا للنساء (انظر مثلاً أفكلت/J.S.Lih 64, afklt).

6) (Cf. Procopius 2.16): «كان فصل الاعتدال الربيعي وفي هذا الفصل كان السراسنة يكرسون نحو شهرين لإلههم، وخلال هذا الوقت لا يقومون بأية غزوة إلى أرض الآخرين».

ب) الإراقة: سكب سائل ما، كالخمر، على الأرض أو على جسد الأضحية، تكريمًا لإله.

7) هكذا يتعين على المرء أن يفهم تضحية الملك المنذر ب (400) عذراء إلى الإلهة العزى في العام 527 (cf. procopius 2.28.13) (Zachrias 8.5) (المنذر يضحي بابن الحارث إلى أفروديت/ العزى)، (Nilus 612) «يسجدون لنجمة الصبح ويضحون لها بأفضل غنائمهم».

8) نيلوس (611–13) (سيناء، صبيان يقدمون كقرابين)، يوسبيوس (4. 16) (جزيرة العرب، يُقدم الصبي قربانًا ويدفن تحت المذبح)، بورفيري (2. 56) (دومة، الضحية السنوية تدفن عند قدم مذبح الوثن).

9) سيقال المزيد حول هذه النصوص في الفقرة التي تدور حول النقوش في الفصل الثامن.

10) أي، إن الشعائر يجب أن تُؤدى حينما تكون نجمة الصبح مرئية. هذا النص تجاهله معظم الباحثين القدماء، لكن انظر الآن: (Christides, «Once again the 'Narrations' of Nilus», and Mayerson, «Observations on the Nilus Narrationes»).

7) الفن والعمارة والمصنوعات اليدوية (ص 201 - 232)

1) كرسويل (CresWell) العمارة الإسلامية› (1)، (Muslim architecture) كررته مراجعة آلان (Allan) لِ كرسويل (3)، ‹17› (18–Art and architecture of Islam› ،(Islamic art) ‹Hillenbrand 11) ‹and architecture)، (لا يلاحظ أنه لم يكن «غائبًا بأي حال من الأحول»، لكنه لا يقدم أي عرض لمحتواه).

2. (Schmidt in Yemen 3000, 88)، (Patrich, Nabataean art, 191).

3) (Talgam, Origins, 'conclusion'). «أمية» هو اسم أول سلالة حاكمة في الإسلام (656 – 750).

4) يضعها بطليموس شمال نجران وجنوب غرب الجبال، ربما سلسلة جبال طويق (TuWayq). ومع ذلك، يجب ملاحظة أن حسابات بطليموس ليست دقيقة وأنه يستعمل خليطًا متنافرًا من المصادر.

5) (Doughty, C.M., Travels in Arabia deserta, Cambridge, CUP, 1888, 2.417) الفجوة الطويلة بين دوتي (Doughty) والعصر الجاهلي يردمها الرحالة المسلمون أمثال ابن الجبير الذي يتكلم أيضًا عن: «نوع من المعقل معروف في هذه الأجزاء (جزيرة العرب) باسم القصر»، «سياج ضخم يضم أبنية صغيرة» (رحلة ابن جبير Rihla 206).

6. (Musil, A., ‹The manners and customs of the RWala Beduins› NeW York, American Geographical Society, 1928, 160.

7) الارتفاع توحي به مقارنتها بالناقة السمينة (مثلاً: البيت 12 من قصيدة عبيد بن الأبرص: (جلالة وجناء كالأجم المطين)، توصف عادة بأنها مرتفعة القامة (مثلاً: البيت 19 من قصيدة طفيل: كركن الباب).

8) هنا بيت؛ تُستعمل كلمات أخرى كثيرة، خصوصًا قُبة، التي يفسرها المعلقون المسلمون بأنها خيمة جلدية مستديرة، وخِباء، التي يقال إنها تصنع من الشعر أو الجلد.

9) رغم أنه ليس كل مَعلَم (صوة) هو ضريح، مثلاً (المفضليات 47):

وأعــرض أعــلامٌ كــأن رؤوســها رؤوس جبــال في خليــج تغامــس
إذا علــمٌ خلّفتــه الهــدى يُهتــدى بــه بــدا علــم فيَ الآل أغــبر طامــس

10) يُصادف النوعان في سياق خاص، فالحجارة الآلهة (الأوثان) بحجم الجيب معروفة من الحفريات الآثارية والأوثان بالحجم الكامل لاتزال تنتصب في مواقع التخييم القديمة (Avner, Nabataean Standing Stones). إن تمياثيلات الآلهة، أي ما يمكن أن نسميها الأصنام كانت تحفظ حول البيت، بشكل مفترض لصد الأرواح الشريرة ولأجل التعبدات الخاصة (الواقدي 870–71، الكلبي 28C، ابن هشام 54).

11) هذا قاموس بيزنطي من القرن العاشر، لكنه يعتمد على كتّاب أقدم، كان معروفًا بشكل جيد بالنسبة إليهم أن النبطيين يعبدون إلههم في هيئة حجر (19 (e.g. Maximus of Trye (d.c. AD 158). «رأيت صورتهم، كانت حجرًا مستطيلاً (Lithos tetragÔnos)» مكسيموس الصوراني (Maximus of Tyre) (توفي سنة 185 م) (19).

12) من المؤكد أن سفك دم الأضاحي كان مهمًا جدًا، كما يتضح من حقيقة أن الكلمة المستخدمة للدلالة عليه (نُسك) صارت تعني الشعائر الدينية عمومًا (مناسك).

13) (cf. Musil, RWala, 524): «كل شخص يحاول الوصول إلى حيوان برمحه، وهو ينادي رفاقه في الوقت نفسه ليشهدوا أنه هو الذي أصابه، ثم يسوقه أمامه إلى ثانٍ وثالث، يجعلهما أيضًا ملكًا له. فالرمح الطويل مفيد جدًا لأجل هذا النوع من العمل».

8) اللغة والأدب (ص 233 - 262)

1) اللغات المعرّفة حتى الآن يطلق عليها الباحثون المعاصرون أسماء مثل التيمانية، الديدانية، الدومية

(المحكية في أو حول تيماء، ديدان ودومة على التوالي)، والحِسمية (من الحسماء) والصفوية (من حراء). كل اللغات الباقية (الممثلة بنحو 15.000 نقش جداري من كل أنحاء جزيرة العرب) تدعى في الوقت الحالي الثمودية (تيمنًا باسم القبيلة الحجازية الشهيرة)، مع أن القليل سيظهر بانتظار مزيدًا من البحث.
2) باستثناء الشرق حيث، باستثناء بعض النصوص العامية القصيرة (لم يجر فك رموزها حتى الآن) التي تكون مرسومة على أسقف وجدران الكهوف في ظفار، جرى العثور على قليل جدًا من النقوش.
3) هذه الأمثلة توجد كلها لدى وينيت «النصوص الدينية الثمودية» (Winnett, « thamudic religious texts) في شرح التركيب ب + اسم الإله + اسم (أسماء).
4) هذا استنادًا إلى: عبد الله، «نقش القصيدة الحميرية» و(Beeston, Antecedents) لكن يقصد به فقط كونه تلميحًا إلى طبيعة القصيدة، وليس قراءة أكيدة، لأن اللغة ليست مفهومة كثيرًا بعد. ثمة نقش آخر يحفظ ما يمكن أن يكون جزءًا من ترنيمة (ZI 11 انظر م أ بافقيه وس روبن (C. Robin) من نقوش مَحْرم بلقيس، Raydan 1, 1978, 16–22)
5) قبيلة لبيد والملك، مقدمو الطعام، يقابلون بالأصدقاء الحميمين الذين يبحثون عنه.

9) العروبة والتعرّب (ص 263 - 282)

1) كان هذا هو الشرط الأهم، لكنه ليس شرطًا ضروريًا وكافيًا. أما الصفات الأخرى (مثلاً، الإقامة في جزيرة العرب، الولاء للآلهة التي تعدّ عربية، ممارسة العرافة بالأسلوب العربي إلخ)، فقد تكفي للشخص لكي يدعي الهوية العربية. في سبيل تعريف الجماعة الإثنية انظر (S. L. Armstrong and C. K. Mahmood, Do ethmic groups exist? Ethnology 31, 1999, 1–14).
2) هذه الاختلافات وغيرها قد تبرر تقسيم علماء الأنساب الإسلاميين العرب إلى شماليين (ينحدرون من عدنان) وجنوبيين (ينحدرون من قحطان)، لكن في عصرنا يجب تمييز الفئة الأخيرة من الشعوب اليمنية (بالسنبة إلى المسلمين كانوا كلهم فئة واحدة).
3) استعمل الرومان الإغريق مصطلح «بربري» لتسمية الشعوب خارج حدودهم، لذلك فقد قصدت ب«بربرة الإمبراطورية» أن الفرق بين المقاطعات الرومانية والبلدان الواقعة وراءها صار أقل فأقل عندما أَصبحت الأولى أكثر بربرية والثانية أكثر رومانية.
4) الأخير أصبح متحالفًا مع قسم من تنوخ بفضل زواج جذيمة، الذي هو الأزد بالأصل، في العشيرة التنوخية لفهم ابن تيم الله (الطبري 1. 746–47).
5) كان ثمة تفسيرات مختلفة لاسم سراسن/ سركن(؟) (Saracen)، من قبيل الشرقيون، السارقين، سكان الأراضي القاحلة (من الجذر الآرامي سْرْقْ srq)، الشريكون (من شِركةَ). لكن يبدو من الأبسط أن نفترض أنه اسم قبيلة، كما هو الحال مع الطائية؟.
6) لاحظ Ammianus (22. 15. 2): «العرب ال (scenite) (ساكنو الخيام) الذين نسميهم الآن السراسنة» (cf. 23.6.13).
7) ثمة دليل على وجود مفردات عربية قليلة أيضًا في اللغة السريانية انظر: (Segal, « Arabs in Syriac literature», 104) وبعض نتف من التعابير العربية تُلاحظ في المصادر اليهودية، انظر (A. Brüll, ‹Fremdprachliche Redensarten in den Talmud und Midraschim›, Leipzig, Fritsch, 1869, 40–59).
8) من أجل هذا النقش والإشارات الأخرى إلى العرب بوصفهم عرافين انظر (L. Roberrt, « L'Epitaphe d'un Arabe à Thasos» Hellenica 2, 1946, 43–50). ثمة شخص آخر سمى نفسه عربيًا هو باراتس (Parates)، حلاق من مصر البطالمية. انظر (J. Lesquier, Papyrus grecs de Lille 2: Papyrus de Magdola, Paris, Leroux, 116, 15, 220 BC).
9) المراجع من أجل هذا المقطع توجد لدى: (Bashear, Arabs and others, 10–13, 32).

10) أعراب قد أدركوا الجاهلية. بما أن أبا عمر ولد بعد ستين عامًا من وفاة محمد، فقد كان ثمة القليل من هؤلاء الشيوخ الباقين. لكن يستطيع المرء أن يتخيل الباحث الشاب وهو يتم إدخاله إلى خيمة بدوي عجوز ذابل، سيزعم أن عمره مئة عام أو أكثر ويبهجه بحكايات الأيام الخوالي للوثنية.

11) حُرر في: (H. Pognon, Inscriptions sémitiques, Paris, Imprimerie Nationale, 1907, 84). السبب الآخر لهذا التصرف هو أن المسيحي، في عصور الصراع الإسلامي البيزنطي، كان يفهم على أنه مرادف لِـ «موالي لبيزنطة».



BIBLIOGRAPHY

Since the source material for pre-Islamic Arabia is so little known and because almost every hypothesis I have advanced is contested or contestable, it is necessary for me to give in full the primary and secondary literature upon which I have directly relied. To keep it manageable, however, I will exclude works from before 1970 unless they are still fundamental. Those interested in earlier studies can consult the Corpus des inscriptions et antiquités sud-Arabes: bibliographie générale systématique, Louvain, Peeters, 1977, and Stephen D. Ricks, Western language literature on pre-Islamic central Arabia, Denver, American Institute of Islamic Studies, 1991. For those wishing to do more advanced research they can consult the very full bibliography of D.T. Potts, "The Gulf and Arabia, 3000 BC-- 600 AD", Handbuch der Orientalistik forthcoming, and the annual update on south Arabian studies by Walter Müller in Archiv für Orientforschung. For the general reader I include a background reading list and at the beginning of each of the first three chapters I have listed survey works that provide an introduction and orientation to the main issues.

Selected Background Reading and Reference Works

Ali, Jawad, Al-mufas/.s/.al fî ta'rîkh al-'arab qabl al-Islâm, 10 vols., Baghdad, Maktabat al-Nahda, 1968 (the most famous and comprehensive modern Muslim history of pre-Islamic Arabia).

Ball, Warwick, Rome in the east: the transformation of an empire, London, Routledge, 2000.

Briant, Pierre, Histoire de l'empire Perse de Cyrus à Alexandre, Paris, Fayard, 1996.

Bulliet, R., The camel and the wheel, Cambridge (Ma.), HUP, 1975.

Calvet, Yves, and Robin, Christian, Arabie heureuse, Arabie déserte, Paris, Musée du Louvre, 1997 (catalogue of the Louvre's Arabian items with a helpful introduction).

Cameron, Averil, The Mediterranean world in Late Antiquity AD 395--600, London, Routledge, 1993.

Chelhod, Joseph, Le sacrifice chez les Arabes, Paris, Presses Universitaires, 1955.
---- Les structures du sacré chez les Arabes, Paris, Maisonneuve et Larose, 1964 (an anthropologist's view).
Civilizations of the Ancient Near East (CANE), 5 vols., ed. J.M. Sasson, New York, Charles Scribner, 1995.
Daum, Werner, Ursemitische Religion, Stuttgart, Kohlhammer, 1985 (examines south Arabian religion in light of modern Yemeni myths and folktales).
Dion, P.E., Les Araméens à l'âge du fer: histoire politique et structures sociales, Paris, Librairie Lecoffre, 1997.
Dostal, Walter, "Die Araber in vorislamischer Zeit", Der Islam 74, 1997, 1--63 (examines degree to which Arabs integrated into the high cultures of the Near East).
Encyclopaedia Islamica (EI), New Edition, ed. H.A.R. Gibb et al., Leiden, Brill, 1960--2001 (has numerous entries on aspects of pre-Islamic Arabia).
Groom, Nigel, Frankincense and myrrh. A study of the Arabian incense trade, London, Longman, 1981 (the classic study).
Hamdani, Hasan ibn Ahmad al-, S/.ifat jazîrat al-'arab, 2 vols., ed. D.H. Müller, Leiden, Brill, 1884--91 (famous description of Arabia by a tenth-century AD visitor).
Harding, G. Lankester, An index and concordance of pre-Islamic Arabian names and inscriptions, Toronto, University of Toronto, 1971.
Hawting, Gerald, The idea of idolatry and the emergence of Islam, Cambridge, CUP, 1999 (argues that the environment in which Islam arose was monotheist not polytheist).
Hetzron, Robert, ed., The Semitic languages, London, Routledge, 1997.
Hoerth, Alfred, et al. eds., Peoples of the Old Testament world, Grand Rapids (Mi.), Baker Books, 1994.
Höfner, Maria, Gese, H., and Rudolph, K., Die Religionen Altsyriens, Altarabiens und der Mandäer, Stuttgart, Kohlhammer, 1970.
Isaac, Benjamin, The limits of empire. The Roman army in the east, Oxford, Clarendon, 1990.
Jabbur, Jibrail S., The beduins and the desert (tr. L.I. Conrad), Albany, SUNY, 1995 (blends modern observation and ancient references).
Kaiser, O., ed., Texte aus der Umwelt des Alten Testaments, Gütersloher, Mohn, 1982- (contains translations by Walter Müller of a number of Arabian inscriptions).
Khazanov, Anatoly, Nomads and the outside world, Cambridge, CUP, 1984 (a classic study of the subject).
Kitchen, K.A., Documentation for Ancient Arabia (DAA), 4 vols., Liverpool, LUP, 1994- (chronology, concordance of south Arabian inscriptions, gazeteer, anthology of texts).
Kuhrt, Amelie, The Ancient Near East c. 3000--330 BC, London, Routledge, 1995.
Masry, A.H., Prehistory in Northeastern Arabia, London, KPI, 1997.
Millar, Fergus, The Roman Near East 31 BC-- AD 337, Cambridge (Ma.), HUP, 1993.
Nayeem, M.A., Prehistory and protohistory of the Arabian Peninsula, 5 vols., Hyderabad, 1990--98.
Nicholson, Reynold, A literary history of the Arabs, Cambridge, CUP, 1930.
Noja, Sergio, I primi arabi, Milan, Jaca, 1994; L'Arabie avant l'Islam, Aix-en-Provence, Edisud, 1994.
Obrycht, Marek J., Parthia et ulteriores gentes. Die politischen Beziehungen zwischen dem arsakidischen Iran und den Nomaden der eurasischen Steppen, Munich, Tuduv, 1998.
Peters, F.E., Muhammad and the origins of Islam, New York, SUNY, 1994.
Pritchard, James, ed., Ancient Near Eastern Texts relating to the Old Testament, Princeton, PUP, 1969.
Robertson Smith, W., Lectures on the religion of the Semites, London, Adam and Charles Black, 1894 (now dated, but still influential).

Sartre, M., L’Orient romain. Provinces et sociétés provinciales en Méditerranée orientale d’Auguste aux Sévères, Paris, Seuil, 1991.
Sass, Benjamin, Studia alphabetica. On the origin and early history of the northwest Semitic, south Semitic and Greek alphabets, Göttingen, Vandenheock and Ruprecht, 1991.
Sherwin-White, Susan, and Kuhrt, Amelie, From Samarkhand to Sardis. A new approach to the Seleucid Empire, London, Duckworth, 1993.
Sicker, Martin, The pre-Islamic Middle East, Westport (Ct.), Praeger, 2000.
Soden, Wolfram von, The Ancient Orient. An introduction to the study of the Ancient Near East (tr. D.G. Schley), Grand Rapids (Mi.), Eerdmans, 1994.
Stetkevych, Suzanne, The mute immortals speak: pre-Islamic poetry and the poetics of ritual, Ithaca, Cornell, 1993 (rich commentary on the most famous poems and their milieu).
Teixidor, J., The pagan God. Popular religion in the Greco--Roman Near East, Princeton, PUP, 1977 (has chapters on north Arabia and Palmyra).
Thompson, Andrew, Origins of Arabia, London, Stacey International, 2000 (geological formation).
Versteegh, Kees, The Arabic language, Edinburgh, Edinburgh University, 1997 (discusses origins and development).
Yarshater, Ehsan, ed., The Cambridge History of Iran, 3.1. The Seleucid, Parthian and Sasanian periods, Cambridge, CUP, 1983.
Zwettler, Michael, The oral tradition of classical Arabic poetry, Columbus, Ohio State University, 1978 (on the language and transmission of these poems).

Useful Journals and Collections of Articles (abbreviated in the bibliography below)

AA = Robin, Christian, and Gajda, Iwona, eds., Arabia Antiqua. Early Origins of South Arabian states, Rome, IsMEO, 1996.
AAE = Arabian Archaeology and Epigraphy.
AAEI = Peters, F.E., ed., The Arabs and Arabia on the Eve of Islam, Aldershot and Brookfield, Variorum, 1999.
AAKM = Robin, Christian, L’Arabie Antique de Karib’il a Mahomet, Aix-en-Provence, Edisud, 1991.
AAW = Altheim, Franz, and Stiehl, Ruth, Die Araber in der alten Welt, Berlin, Walter de Gruyter, 1964--69.
ABADY = Archäologische Berichte aus dem Yemen (Deutsche Archaeologische Institut San‘a).
ADAJ = Annual of the Department of Antiquities of Jordan.
AF = Nebes, Norbert, ed., Arabia Felix. Festschrift Walter Müller, Wiesbaden, Harrassowitz, 1994.
AMB = Salles, J.F., L’Arabie et ses mers bordières 1. Itinéraires et voisinages, Paris, Maison de l’Orient, 1988.
ANBC = Phillips, C.S., et al. eds., Arabia and its neighbours. Essays in honour of Beatrice de Cardi, Brepols, Abiel II, 1998.
AOMIM = Boucharlat, R., and Salles, J.F., eds., Arabie orientale, Mésopotamie et Iran méridional de l’âge du fer au début de la période islamique, Paris, Recherche sur les Civilisations, 1984.
AP = Fahd, T. ed., L’Arabie préislamique et son environnment historique et culturel, Colloque de Strasbourg 1987, Leiden, Brill, 1989.
ASB = Gabrieli, Francesco, ed., L’antica societa beduina, Rome, Centro di Studi Semitici, 1959.
ASMG = Ibrahim, Moawiyah, Arabian Studies in honour of Mahmoud Ghul, Wiesbaden, Harrassowitz, 1989.
ATB = Potts, D.T., ed., Araby the Blest. Studies in Arabian Archaeology, Copenhagen, Carston

Niebuhr Institute, 1988.
BAA = Khalifa, H.A. al-, and Rice, Michael, eds., Bahrain through the Ages: the Archaeology, London, Kegan Paul, 1986.
BASOR = Bulletin of the American School of Oriental Research.
BSOAS = Bulletin of the School of Oriental and African Studies.
CRAIBL = Comptes rendus de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres.
ESA = Etudes Sud-Arabes. Recueil offert à Jacques Ryckmans, Louvain, Institut Orientaliste, 1991.
Hudhud = Stiegner, Roswitha, Al-Hudhud. Festschrift Maria Hofner, Graz, Karl-Franzens-Universität, 1981.
JSS = Journal of Semitic Studies.
NESE = Degen, Rainer, et al. eds., Neue Ephemeris fur Semitische Epigraphik, Wiesbaden, Harrassowitz, 1972--78.
PA = Lozachmeur, Helene, ed., Presence arabe dans le Croissant fertile avant l'Hegire. Table ronde international 1993, Paris, Editions recherche sur les Civilisations, 1995.
PSAS = Proceedings of the Seminar for Arabian Studies (London, Institute of Archaeology).
Sayhadica = Robin, Christian, and Bafaqih, Muhammad, Sayhadica. Recherches sur les inscriptions de l'Arabie pré-Islamique offertes au Professeur A.F.L. Beeston, Paris, Geuthner, 1987.
SHA = Ansary, A.T., ed., Studies in the History of Arabia, 2 vols., Riyad, University of Riyad, 1979--84.
Südarabien = Stiegner, R.G., ed., Südarabien. In memorian Maria Hofner, Graz, Leykam, 1997.
ZDMG = Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft.

Primary Sources: texts from outside Arabia
ANCIENT TEXTS (3000--330 BC)

Ahiqar, The Aramaic proverbs of, ed./tr. James M. Lindenberger, Baltimore, John Hopkins, 1983.
AR = Luckenbill, D.D., Ancient Records of Assyria and Babylonia, 2 vols., Chicago, University of Chicago, 1927.
Bible: cited according to The New Jerusalem Bible, London, Darton, Longman and Todd, 1985.
ABC = Grayson, A.K., Assyrian and Babylonian Chronicles, Locust Valley (NY), J.J. Augustin, 1975.
CHLI = Hawkins, J.D., Corpus of hieroglyphic Luwian inscriptions, 3 parts, Berlin, de Gruyter, 2000.
CSL = Black, J.A., et al., The electronic text corpus of Sumerian literature, http:// www.etcsl.orient.ox.ac.uk Oxford, 1998-
Harran Inscription = Gadd, C.J., "The Harran inscriptions of Nabonidus", Anatolian Studies 8, 1958, 35--92.
Herodotus, History, 4 vols., ed./tr. A.D. Godley, Cambridge (Ma.), Loeb, 1926.
IA = Borger, Riekele, Die Inschriften Asarhaddons Königs von Assyrien, Graz, Archiv für Orientforschung, 1956.
ITP = Tadmor, H., The inscriptions of Tiglath-Pileser III king of Assyria, Jerusalem, Israel Academy of Sciences and Humanities, 1994.
La = Cooper, J.S., Sumerian and Akkadian royal inscriptions, I. Pre-Sargonic inscriptions, New Haven, AOS, 1986, 22--30 (Lagash texts).
Ni = Goetze, A., "The texts Ni. 615 and Ni. 641 of the Istanbul Museum", Journal of Cuneiform Studies 6, 1952, 142--45 (Nippur texts).
RIM = Frayne, Douglas, The Royal Inscriptions of Mesopotamia 2: Sargonic and Gutian

periods, Toronto, University of Toronto, 1993.
Sappho = Page, Denys, ed./tr., Sappho and Alcaeus, Oxford, Clarendon, 1955.
Suhu = Cavigneaux, A., and Ismail, B.K., “Die Statthalter von Suhu und Mari im 8. Jh. v. Chr.”, Baghdader Mitteilungen 21, 1990, 321--456.
UET = Ur Excavation Texts; the letter of Ea-Nasir cited in ch. 1 is translated in W.F. Leemans, Foreign trade in the Old Babylonian period, Leiden, Studia et Documenta, 1960, 39.
VAT 5600 = Weippert, Manfred, “Die Kämpfe des assyrischen Konigs Assurbanipal gegen die Araber”, Die Welt des Orients 7, 1973--74, 74--85.
Xenophon, Anabasis/Cyropaedia, ed./tr. C.L. Brownson/W. Miller, Cambridge (Ma.), Loeb, 1922/1914.

CLASSICAL TEXTS (330 BC--400 AD)
Aelian, On the characteristics of animals, 3 vols., ed./tr. A.F. Scholfield, Cambridge (Ma.), Loeb, 1958--59.
Ammianus Marcellinus, History, 3 vols., ed./tr. J.C. Rolfe, Cambridge (Ma.), Loeb, 1950.
Appian, Roman History, 4 vols., ed./tr. Horace White, Cambridge (Ma.), Loeb, 1912.
Arrian, Anabasis Alexandri and Indica, 2 vols., ed./tr. P.A. Brunt, Cambridge (Ma.), Loeb, 1976.
Athenaeus, The Deipnosophists, 7 vols., ed./tr. C.B. Gulick, Cambridge (Ma.), Loeb, 1928.
Cassius Dio, Roman History, 9 vols., ed./tr. E. Cary, Cambridge (Ma.), Loeb, 1914.
Cicero, De divinatione, 2 vols., ed. A.S. Pease, Urbana, University of Illinois, 1920--23.
---- Epistulae ad familiares, 4 vols., ed./tr. V. Glynn William, Cambridge (Ma.), Loeb, 1926.
Delos = Durrbach, F., et al., Inscriptions de Délos, Paris, Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, 1926-
Diodorus Siculus, History, 12 vols., ed./tr. C.H. Oldfather et al., Cambridge (Ma.), Loeb, 1933.
Festus, Breviarum, ed. J.W. Eadie, London, Athlone, 1967.
Herodian, History, 2 vols., ed./tr. C.R. Whittaker, Cambridge (Ma.), Loeb, 1969.
Josephus, Antiquities, 6 vols., ed./tr. H. St. J. Thackeray et al., Cambridge (Ma.), Loeb, 1930.
Maximus of Tyre, Dissertationes, ed. M.B. Trapp, Stuttgart and Leipzig, Teubner, 1994.
Nicander of Colophon, Poems and political fragments, ed. A.S.F. Gow and A.F. Scholfield, Cambridge, CUP, 1953.
Notitita dignitatum, ed. Otto Seeck, Berlin, Weidemann, 1876.
Periplus maris Erythraei, ed./tr. Lionel Casson, Princeton, New Jersey, PUP, 1989.
Pliny, Natural History, 10 vols., ed./tr. H. Rackham et al., Cambridge (Ma.), Loeb, 1942.
Polybius, The Histories, 6 vols., ed./tr. W.R. Paton, Cambridge (Ma.), Loeb, 1954.
Porphyry, De abstinentia, 3 vols., ed./tr. J. Bouffartigue and M. Patillon, Paris, Belles Lettres, 1977--95.
Ptolemy, The Geography, ed. K.F.A. Nobbe, Leipzig, Otto Holtze, 1888--1913; tr. E.L. Stevenson, New York, NY Public Library, 1932.
Scriptores historiae Augustae, 2 vols., ed. E. Hohl, Leipzig, Teubner, 1927.
Strabo, The Geography, 8 vols., ed./tr. H.L. Jones, Cambridge (Ma.), Loeb, 1917.
Theophrastus, Enquiry into Plants, 2 vols., ed./tr. A. Hort, Cambridge (Ma.), Loeb, 1916.
Zenon Papyri, 4 vols., ed. C.C. Edgar, Cairo, Musée du Caire, 1925--31.

CHRISTIAN AND ZOROASTRIAN TEXTS (200--700 AD)
Ahudemmeh, “Histoire”, ed./tr. F. Nau, Patrologia Orientalis 3, 1909, 52--96.
Anastasius of Sinai = Nau, F., ed., “Le texte grec des récits du moine Anastase sur les saints pères du Sinaï”, Oriens Christianus 2, 1902, 58--89.
Antoninus Placentinus, Itinerarium, ed. P. Geyer, Turnhout, Brepols, 1965, 127--53; tr. J. Wilkinson in his Jerusalem pilgrims before the Crusades, Warminster, Aris and Phillips, 1977,

79--89.
Bardaisan, The book of the laws of countries, ed./tr. H.J.W. Drijvers, Assen, Van Gorcum, 1964.
Chron. Khuzistan = Guidi, I., ed., Chonicon anonymum, Paris, CSCO, 1903.
Chronicle of Siirt (10th century, but citing earlier writers), ed./tr. A. Scher, Patrologia Orientalis 4--5, 7, 11, 1908--19.
Cosmas Indicopleustes, Topographie chrétienne, 3 vols., ed./tr. W. Wolska-Conus, Paris, Cerf, 1968--73.
Cyril of Scythopolis, Lives of the monks of Palestine, ed. E. Schwartz, Leipzig, Texte und Untersuchungen 49, 1939; tr. R.M. Price, Kalamazoo (Mi.), Cistercian Publications, 1991.
Epiphanius of Salamis, Panarion, 3 vols., ed. K. Holl, Leipzig, Hinrichs, 1915--33; tr. F. Williams, Leiden, Brill, 1987--94.
Eusebius of Caesarea, Praeparatio Evangelica, 5 vols., ed./tr. E.H. Gifford, Oxford, Clarendon, 1903.
George of Resh'aina, "An early Syriac Life of Maximus the Confessor", ed./tr. Sebastian Brock, Analecta Bollandiana 91, 1973, 299--346.
Isho'yahb III, Epistulae, ed. R. Duval, Paris, CSCO, 1904--1905.
Jerome, "Vita Hilarionis", Bibliotheca Patrum Latina (ed. J.P. Migne) 23, 1845, 29--53.
---- "Vita Malchi", Bibliotheca Patrum Latina (ed. J.P. Migne) 23, 1845, 53--60.
John bar Penkaye, Ktâbâ d-rîsh mellê, partial ed./tr. A. Mingana (Sources syriaques), Leipzig, 1907.
John of Ephesus, Ecclesiastical History III, ed./tr. E.W. Brooks, Louvain, CSCO, 1952.
Joshua the Stylite, Chronicle, ed./tr. W. Wright, Cambridge, CUP, 1882.
Malalas, Chronicle, ed. L. Dindorf, Bonn, Weber, 1831; tr. E. Jeffreys et al., Melbourne, Australian Association for Byzantine Studies, 1986.
Malchus, Byzantine History, ed./tr. R.C. Blockley in The fragmentary classicising historians of the Later Roman Empire II, Liverpool, Francis Cairns, 1983, 402--55.
Marcellinus Comes, "Chronicle", Bibliotheca Patrum Latina (ed. J.P. Migne) 51, 1846, 913--48.
Menander the Guardsman, History, ed./tr. R.C. Blockley, Liverpool, Francis Cairns, 1985.
Michael the Syrian (12th century, but citing earlier writers), Chronique, ed./tr. J.B. Chabot, 4 vols., Paris, Ernest Laroux, 1899--1910.
Nilus Monachus, "Narrations", Bibliotheca Patrum Graeca (ed. J.P. Migne) 79, 1865, 583--694.
Paikuli = Humbach, H., and Skjaervo, P.O., The Sassanian inscription of Paikuli 3.1, Wiesbaden, Reichert, 1983.
Philostorgius, Historia Ecclesiastica, ed. J. Bidez, rev. F. Winkelmann, Berlin, Akademie-Verlag, 1972; tr. E. Walford, London, Bohn's Ecclesiastical Library, 1855.
Photius (9th century., but citing earlier writers), Bibliotheca, 8 vols., ed./tr. R. Henry, Paris, Belles Lettres, 1959--77; partial tr. N.G. Wilson, London, Duckworth, 1994.
Procopius, History of the Wars and Buildings, 7 vols., ed./tr. H.B. Dewing, Cambridge (Ma.), Loeb, 1914 (references are to Wars unless B is prefixed).
Pseudo-Dionysius of Tel-Mahre, Chronicle II, ed. J.B. Chabot, Paris, CSCO, 1933; tr. Witold Witakowski (part III), Liverpool, LUP, 1996.
Simeon Stylites, Das Leben, ed. (of Greek texts) H. Lietzmann/tr. (of Syriac texts) H. Hilgenfeld, Leipzig, Texte und Untersuchungen, 1908.
Sozomen, Ecclesiastical History, ed. R. Hussey, Oxford, Clarendon, 1860; tr. C.D. Hartranft in Nicene and Post-Nicene Fathers of the Christian Church 2, Oxford, Parker and co., 1891, 239--427.
Stephen of Byzantium, Ethnikôn, ed. A. Westermann, Leipzig, Teubner, 1839.
Suidas (10th century, but citing earlier writers), Lexicon, 5 vols., ed. A. Adler, Leipig,

Lexicographi graeci, 1928--38.
Synodicon orientale, ed./tr. J.B. Chabot, Paris, Bibliothèque Nationale, 1902.
Theophanes Confessor, Chronicle, ed. C. de Boor, Leipzig, Weber, 1883--85; tr. C. Mango and R. Scott, Oxford, Clarendon, 1997.
Theophylact Simocatta, History, ed. C. de Boor, rev. P. Wirth, Stuttgart, Teubner, 1972; tr. M. and M. Whitby, Oxford, Clarendon, 1986.
Zacharias Rhetor, Historia ecclestiastica, 2 vols., ed./tr. E.W. Brooks, Paris, CSCO, 1919--24.

MUSLIM TEXTS (written after 700 AD, but containing material on pre-Islamic Arabia)

‘Abd al-Razzaq al-San‘ani, Mus/.annaf, 11 vols., ed. H. al-A‘zami, Beirut, al-Majlis al-‘Ilmi, 1970--72.
Abu ‘Ubayd, Qasim ibn Sallam, Amthâl, ed. A. al-Qatamish, Damascus, Markaz al-Bahth al-‘Ilmi, 1980.
Asma‘i, ‘Abd al-Malik al-, Ta’rîkh al-‘arab qabl al-islâm, ed. M.H. Al Yasin, Baghdad, al-Maktaba al-‘Ilmiyya, 1959.
Awtabi, Salma ibn Musallim al-, Kitâb ansâb al-‘arab, Bibliothèque Nationale, Ms. arabe 5019.
Bukhari, Muhammad ibn Isma‘il al-, Al-s/.ah/.îh/., 4 vols., ed. L. Krehl, Leiden, Brill, 1862--1908.
Dinawari, Ahmad ibn Da’ud al-, Al-akhbâr al-t/.iwâl, ed. M.S. al-Rafi‘, Cairo, Matba‘at al-Sa‘ada, 1910.
Hamdani, Hasan ibn Ahmad al-, Kitâb al-iklîl, vol. 8, ed. A.M. al-Karmali, Baghdad, Dar al-Salam, 1931; tr. N.A. Faris, Princeton, PUP, 1938 (as The Antiquities of South Arabia).
---- Kitâb al-jawharatayn, ed./tr. C. Toll, Uppsala, Acta Universitatis Uppsaliensis, 1968.
Ibn ‘Abd Rabbihi, Ahmad ibn Muhammad, Al-‘iqd al-farîd, 9 vols., ed. M.M. Qumayha and A.M. Tarhini, Beirut, Dar al-Kutub al-‘Ilmiyya, 1983.
Ibn al-Athir, ‘Ali ibn Muhammad, Usd al-ghâba, 5 vols., Cairo, Jam‘iyyat al-Ma‘arif, 1869--71.
Ibn Habib, Muhammad, Kitâb al-muh/.abbar, ed. I. Lichtenstadter, Hyderabad, Da’irat al-Ma‘arif al-‘Uthmaniyya, 1942.
---- Kitâb al-munammaq, ed. K.A. Fariq, Hyderabad, Da’irat al-Ma‘arif al-‘Uthmaniyya, 1964.
Ibn Hisham, ‘Abd al-Malik, Sîrat rasûl Allâh, ed. F. Wüstenfeld, Göttingen, Dieterichsche Universitäts-Buchhandlung 1858--60; tr. A. Guillaume (The life of Muhammad), Karachi, OUP, 1955.
Ibn Jubayr, Rih/.la, ed. W. Wirght, rev. M.J. de Goeje, Leiden, E.J.W. Gibb Memorial, 1907.
Ibn al-Kalbi, Hisham, Kitâb al-as/.nâm/Les idoles, ed./tr. W. Atallah, Paris, Klincksieck, 1969.
Ibn Maja, Muhammad ibn Yazid, Sunan, 2 parts in 1, Cairo, al-Matba‘a al-‘Ilmiyya, 1895.
Ibn Qutayba, ‘Abdallah ibn Muslim, ‘Uyûn al-akhbâr, 4 vols., Cairo, Dar al-Kutub, 1925--30.
Ibn Rashiq, Hasan, Al-‘umda, 2 vols., Cairo, Matba‘at al-Sa‘ada, 1963.
Ibn Sa‘d, Muhammad, Kitab al-t/.abaqât al-kabîr, 8 vols., ed. E. Sachau et al., Leiden, Brill, 1905--40.
Ibn Sallam al-Jumahi, T/.abaqât fuh/.ûl al-shu‘arâ’, 2 vols., ed. M.M. Shakir, Cairo, Madani, 1974.
Isfahani, ‘Ali ibn Husayn al-, Kitâb al-aghânî, 24 vols., Cairo, Dar al-Kutub, 1927--74.
Jahiz, ‘Amr ibn Bahr al-, “Manâqib al-Turk”, ed. A.M. Harun in Rasâ’il al-Jâh/.iz/., Cairo, Khanji, 1964, 1.5--86.
---- H/.ayawân, 7 vols., ed. A.M. Harun, Cairo, Mustafa Albabi al-Halabi, 1940--45.
Kalbi, Hisham ibn Muhammad al-, Ğamharat al-nasab, 2 vols., ed. W. Caskel, Leiden, Brill, 1966.

Marzubani, Muhammad ibn ‘Imran, Kitâb nûr al-qabas/Die Gelehrtenbiographien, ed. R. Sellheim, Wiesbaden, Bibliotheca Islamica, 1964.
Mas‘udi, ‘Ali ibn Husayn al-, Murûj al-dhahab/Les prairies d’or, 9 vols., ed./tr. C. Barbier de Meynard and J.B. Pavet de Courteille, Paris, Société Asiatique, 1861--77.
Mubarrad, Muhammad ibn Yazid al-, Al-kitâb al-kâmil, 3 vols., ed. W. Wright, Leipzig, Brockhaus, 1874--92.
Muslim ibn al-Hajjaj, Al-s/.ah/.îh/., 2 parts in 1, Bulaq, 1873.
Nuwayri, Ahmad ibn ‘Abd al-Wahhab, Nihâyat al-arab, 31 vols., Cairo, Dar al-Kutub, 1924--92.
Qali, Isma‘il ibn al-Qasim al-, Dhayl al-amâlî wa-l-nawâdir, Cairo, Dar al-Kutub, 1926.
Quran: I use the text of M.M. Pickthall, London, George Allen and Unwin, 1976, and the translation of N.J. Dawood, Hammondsworth, Penguin, 1956.
Sibawayh, Al-kitâb/Le livre, 2 vols., ed. Hartwig Derenbourg, Paris, Imprimerie Nationale, 1881--89.
Suyuti, ‘Abd al-Rahman al-, Al-muzhir fî ‘ulûm al-lugha, 2 parts in 1, Cairo, 1907.
Tabari = Tabari, Muhammad ibn Jarir al-, Ta’rîkh al-rusul wa-l-mulûk, 3 series, ed. M.J. de Goeje et al., Leiden, Brill, 1879--1901; tr. The History of al-Tabari, 39 vols., Albany, SUNY, 1985--99.
---- Tafsîr al-qurân, 30 vols., Bulaq, 1905--12.
Tawhidi, Abu Hayyan al-, Kitâb al-imtâ‘ wa-l-mu’ânasa, ed. A. Amin and A. al-Zayn, Cairo, 1953.
Wahb ibn Munabbih, Kitâb al-tîjân, Hyderabad, Da’irat al-Ma‘arif al-‘Uthmaniyya, 1929.
Waqidi, Muhammad ibn ‘Umar al-, Kitâb al-maghâzî, 3 vols., ed. Marsden Jones, London, OUP, 1966.
Ya‘qubi, Ahmad ibn Abi Ya‘qub al-, Ta’rîkh, 2 vols., ed. M.T. Houtsma, Leiden, Brill, 1883.

Primary Sources: texts from within Arabia
INSCRIPTIONS AND PAPYRI

‘Abadan = Robin, Christian, and Gajda, Iwona, “L’inscription du Wadi ‘Abadan”, Raydan 6, 1994, 113--37.
AH = Abu l-Hasan, Husayn b. Ali, Qirâ’a li-kitâbât Lih/.yâniyya min Jabal ‘Akma bi-mant/.iqat al-‘Ulâ, Riyad, King Fahd National Library, 1997.
Askoubi, Khalid M., Dirâsa tah/.lîliyya muqârina li-nuqûsh min mant/.iqat Rum junûb gharb Taymâ’, Riyad, Wakalat al-Athar wa-l-Matahif, 1999.
BIA = Bulletin de l’Institut de l’Archéologie (re : vol. 10, 1972, containing the “Preliminary survey in N.W. Arabia, 1968” of P.J. Parr et al.).
CIAS = Corpus des inscriptions et antiquités sud-arabes, Louvain, Peeters, 1977-
CIS = Corpus inscriptionum semiticarum, Paris, e Reipublicae Typographeo, 1881-
Darb al-Sabi = Robin, Christian, et al., “Le sanctuaire Minéen de Nkrh à Darb as-Sabi”, Raydan 5, 1988, 91--159.
Doe 1--7 = Beeston, A.F.L., “Miscellaneous epigraphic notes”, Raydan 4, 1981, 9--14; 5, 1988, 5--10.
Fa = Fakhry, A., An archaeological journey to Yemen, part II: epigraphical texts (by G. Ryckmans), Cairo, Government Press, 1952.
Gl = “Sammlung Eduard Glaser”, Osterreichische Akadmie der Wissenschaften, ?? 1913--81.
H = Healey, John, The Nabataean tomb inscriptions of Mada’in Salih, Oxford, JSS, 1993.
Hamilton = Brown, W.L., and Beeston, A.F.L., “Sculptures and inscriptions from Shabwa”, Journal of the Royal Asiatic Society 1954, 43--62 (deposited by Major Hamilton in the Ashmolean, Oxford).
Haram = Robin, Christian, Inventaires des inscriptions sud-arabiques, Paris/Rome, Boccard/Herder, 1992, 1.9--126.

HIT = Livingstone, A., “A linguistic, tribal and onomastical study of the Hasaean inscriptions”, Atlal 8, 1984, 86--108 (pp. 87--90 = Hasaean Inscriptions from Thaj).
IGLS = Jalabert, L., et al., Inscriptions grecques et latines de la Syrie, Paris, Geuthner, 1929-
IIH = Aggoula, B., Inventaire des inscriptions Hatréennes, Paris, Geuthner, 1991.
IMT = Müller, Walter, “Sabaische Inschriften aus dem Museum in Ta‘izz”, NESE 1.87--102.
Ingrams 1--3 = Philby, H. St. J., “Three new inscriptions from Hadramaut”, Journal of the Royal Asiatic Society 1945, 124--32.
Ir. = Iryani, M.A., Fî ta’rîkh al-Yaman. Sharh/. wa-ta‘lîq ‘alâ nuqûsh lam tunshar, Cairo, Dar el-Hana, 1973.
ISB = Oxtoby, W.G., Some inscriptions of the Safaitic bedouin, New Haven, American Oriental Society, 1968.
Ja 550--850 = Jamme, A., Sabaean inscriptions from Mahram Bilqis, Baltimore, John Hopkins, 1962.
Ja 910--1006 = Jamme, A., The al-‘Uqlah texts, Washington, Catholic University of America, 1963.
Ja 1008--62 = Jamme, A., Sabaean and Hasaean inscriptions from Saudi Arabia, Rome, Istituto di Studi del Vicino Oriente, 1966.
Ja 2106--20 = Jamme, A., and Doe, D.B., “New Sabaean inscriptions from South Arabia”, Journal of the Royal Asiatic Society 1968, 2--25.
Ja 2830--69 = Jamme, A., 1974--75 Yemen Expedition, Pittsburgh, Carnegie Museum, 1976.
Ja 2892--900 = Jamme, A., “Pre-Islamic Arabian Miscellenea”, Hudhud 95--112.
Jidhma = Robin, Christian, “‘Amdan Bayyin Yuhaqbid, roi de Saba et de Dhu Raydan”, ESA 187--88.
JS = Jaussen, P., and Savignac, P., Mission archéologique en Arabie, Paris, Geuthner, 1909--22.
KJA = King, Geraldine, Early North Arabian Thamudic E. A preliminary description based on a new corpus of inscriptions from the Hisma desert, 2 vols., London, SOAS, 1990, 1.176--252.
M = Iscrizioni sudarabiche, vol. 1: iscrizioni minee, Napoli, Istituto Orientale, 1974.
Mi‘sal 7--9 = Robin, Christian, “‘Amdan Bayyin Yuhaqbid, roi de Saba et de Dhu Raydan”, ESA 176--77.
MNA = Macdonald, M.C.A., North Arabian inscriptions and drawings, forthcoming.
NAG 1--20 = Nami, K.Y., “Nuqûsh ‘arabiyya ğanûbiyya”, Kulliyyat al-âdâb (Cairo) 9, 16, 20, 22--24, 1947--66.
Nami = Nami, K.Y., Nashr nuqûsh sâmiyya qadîma, Cairo, al-Ma‘had al-‘Ilmi al-Faransi, 1943.
Nessana Papyri = Kraemer, C.J., ed./tr., Excavations at Nessana, vol. 3, Princeton, PUP, 1958.
NIA = Negev, A., “Nabatean Inscriptions from ‘Avdat (Oboda)”, Israel Exploration Journal 11, 1961, 127--38; 13, 1963, 113--24.
NIN = Milik, J.T., “Nouvelles inscriptions Nabatéennes”, Syria 35, 1958, 227--51.
PAT = Hillers, Delbert R., and Cussini, Eleonora, Palmyrene Aramaic Texts, Baltimore, John Hopkins, 1996.
PAES = Littmann, Enno, Semitic inscriptions, Leiden (Publications of the Princeton University Archaeological Expeditions to Syria 1904--5 and 1909, division 4), 1914--49 (parts A--D).
Qutra 1 = Robin, Christian, AAKM, 141--43.
RB = Revue Biblique (re: R. Savignac, “Le sanctaire d’Allat à Iram”, 41--43, 1932--34).
RES = Répertoire d’épigraphie sémitique, 8 vols., Paris, Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, 1900--68.
Ry = Ryckmans, G., “Inscriptions sud-arabes”, in numerous articles in Le Muséon between 40, 1927, and 78, 1965.
Sharaf = Sharafaddin, A.H., Ta’rîkh al-Yaman al-thaqafî 3, Cairo, 1967.

SIJ = Winnett, F.V., Safaitic inscriptions from Jordan, Toronto, University of Toronto, 1957.
SOYCE = Soviet Yemenite Complex Expedition; see S.A. Frantsouzoff, “The inscriptions of the temples of Dhat Himyam at Raybun”, PSAS 25, 1995, 15--27.
Sy = Syria (re: R. Mouterde and A. Poidebard, “Palmyre et Hit au II siècle ap. J.C.”, and J. Cantineau, “Textes plamyréniens du temple de Bêl”, 12, 1931, 101--15, 116--41).
VL = Van Lessen collection. For VL 7 see Beeston, A.F.L., “Notes on Old South Arabian Lexicography X”, Le Muséon 89, 1976, 420--23; for VL 9 see M. Ghul, “New Qatabani inscriptions”, BSOAS 22, 1959, 419--23.
WH = Winnett, Fred V., and Harding, G. Lankester, Inscriptions from fifty Safaitic cairns, Toronto, University of Toronto, 1978.
WR = Winnett, F.V., and Reed, W.L., Ancient records from North Arabia, Toronto, University of Toronto, 1970.
YMN = Abdallah, Y.M., “Mudawwanat al-nuqûsh al-yamaniyya al-qadîma”, Dirâsât yamaniyya (San‘a) 3, 1979, 45--50 (no. 13); al-Iklil (San‘a) 8, 1990, 76--78 (no. 19).
ZI = ‘Inan, Zayd, Ta’rîkh h/.ad/.ârat al-Yaman al-qadîm, Cairo, Salfiyya, 1976.

PRE-ISLAMIC ARABIC POETRY (ca. 500--630 AD)
‘Abid ibn al-Abras, Dîwân, ed./tr. Charles Lyall, Leiden and London, E.J.W. Gibb Memorial, 1913.
‘Adi ibn Zayd, Dîwân, ed. M.H. al-Mu‘aybid, Baghdad, Wizarat al-Thaqafa wa-l-Irshad, 1965.
‘Amr ibn Qami’a, Dîwân/The Poems of, ed./tr. C.J. Lyall, Cambridge, CUP, 1919.
A‘sha: the piece I quote is edited in C.J. Lyall, A commentary on ten ancient Arabic poems, Caluctta, 1894, 146--47, and translated in Nicholson, Literary history of the Arabs, 125.
H/.am. = Salih, A.A., ed., Dîwân al-H/.amâsa ta’lîf Abî Tammâm, Baghdad, Dar al-Shu’un al-Thaqafiyya al-‘Amma, 1987.
Hassan ibn Thabit, Dîwân, ed. H. Hirschfeld, Leiden and London, E.J.W. Gibb Memorial, 1910.
Hatim al-Ta’i, Dîwân, ed./tr. Friedrich Schulthess, Leipzig, Hinrichs, 1897.
Hudhaliyyun, Dîwân, J.G.L. Kosegarten, London, Oriental Translation Fund, 1854 (nos. 1--138); ed./tr. J. Wellhausen in his Skizzen und Vorarbeiten I, Berlin, Georg Reimer, 1884 (nos. 139-).
Ikh. = Akhfash al-Asghar, Kitâb al-ikhtiyârayn, ed. F. Qabawa, Damascus, Majma‘ al-Lugha al-‘Arabiyya, 1974.
Imru’ al-Qays, Dîwân, ed. W. Ahlwardt in his The Diwans of the six ancient poets, London, Trubner,1870, 115--62.
Khansa’, Dîwân, ed. A. Abu Suwaylim, Amman, Dar ‘Ammar, 1988.
Labid, Dîwân, ed. I. Abbas, Kuwait, Wizarat al-Irshad wa’l-Anba’, 1962.
Mu. = Mu‘allaqât, the seven most famous pre-Islamic Arabic poems. Iuse the edition of C.J. Lyall, A commentary on ten ancient Arabic poems, Calcutta, 1894, and the translations of A.J. Arberry, The seven odes, London, George Allen and Unwin, 1957 (Imru’ al-Qays, Tarafa, ‘Antara, ‘Amr, Haritha); C.J. Lyall, Translations of ancient Arabian poetry, London, Williams and Norgate, 1930, 111--15 (Zuhayr); A.F.L. Beeston, “An experiment with Labid”, Journal of Arabic Literature 7, 1976, 1--6 (Labid).
Muf. = Lyall, C.J., ed./tr., The mufad/.d/.aliyât, Oxford, Clarendon, 1918.
Muhalhil = Cheikho, L., ed., Shu‘arâ’ nas/.râniyya, 2 vols., Beirut, Jesuit Fathers, 1890, 1.160--81.
Nabigha al-Dhubyani, Dîwân, ed. A. ‘Abd al-Satir, Beirut, Dar al-Kutub al-‘Ilmiyya, 1984.
Shanfara, Dîwân, ed. I.B. Ya‘qub, Beirut, Dar al-Kitab al-‘Arabiyy, 1991 (the passage of his Lâmiyya translated in chapter five is from Nicholson, Literary history of the Arabs, 80).
Tarafa ibn al-‘Abd, Dîwân, ed. D. al-Khatib and L. al-Saqqal, Damascus, Majma‘ al-Lugha al-‘Arabiyya, 1975.

Tufayl ibn ʻAuf, Dîwân/The poems of, ed./tr. F. Krenkow, London, E.J.W. Gibb Memorial, 1927.
Zuhayr ibn Abi Sulma, Dîwân, ed. K. al-Bustani, Beirut, Dar al-Sader, 1964 (references are to page numbers).

Secondary Sources

CHAPTER 1: EAST ARABIA

SURVEY WORKS

Hellyer, Peter, Hidden riches. An archaeological introduction to the United Arab Emirates, Abu Dhabi, Union National Bank, 1998.
Potts, D.T., The Arabian Gulf in Antiquity, 2 vols., Oxford, Clarendon, 1990.
Rice, Michael, The Archaeology of the Arabian Gulf, London, Routledge, 1994.
Traces of paradise: the archaeology of Bahrain 2500 BC--300 AD. An exhibition at the Brunei Gallery, London, July--September 2000, London, Bahrain National Museum, 2000.

BRONZE AGE

BAA (all articles relevant; see also review and update by H.I. Macadam, "Dilmun revisited", AAE 1, 1990, 49--87).
Calvet, Yves, "Le pays de Dilmoun au II millénaire: découvertes récentes", AP 15--24.
Chakrabarti, D.K., "The Indus civilisation and the Arabian Gulf: an Indian point of view", ANBC 303--14.
Cleuziou, Serge, "Dilmoun--Arabie", AMB 27--58 (urges caution on identification and chronology).
Crawford, Harriet, "Dilmun, victim of world recession", PSAS 26, 1996, 13--22.
---- Dilmun and its Gulf neighbours, Cambridge, CUP, 1998.
Durand, Capt., "Extracts from report on the islands and antiquities of Bahrein", Journal of the Royal Asiatic Society 12, 1880, 6--7 (stone mentioning "palace of Rimum…").
Hojlund, F., "The ethnic composition of the population of Dilmun", PSAS 23, 1993, 1--7.
Hruška, B., "Dilmun in den vorsargonischen Wirtschafttexten aus Šuruppak und Lagaš" in Potts ed., Dilmun, 83--85.
Millard, A.R., "Cypriot copper in Babylonia c. 1745 BC", Journal of Cuneiform Studies 25, 1973, 211--13.
Oljidam, Eric, "Nippur and Dilmun in the second half of the 14th c. BC: a re-evaluation of the Ili-ippasra letters", PSAS 27, 1997, 199--204.
Potts, D.T., ed., Dilmun. New studies in the archaeology and early history of Bahrain, Berlin, Dietrich Reimer, 1983.
---- "The booty of Magan", Oriens Antiquus 25, 1986, 271--85.
---- "The late prehistoric, protohistoric and early historic periods in eastern Arabia (ca. 5000--1200 BC)", Journal of World Prehistory 7, 1993, 163--212.
---- "Rewriting the late prehistory of southeastern Arabia: a reply to J. Orchard", Iraq 59, 1997, 63--71.

IRON AGE

Bienkowski, Piotr, Early Edom and Moab, Sheffield, J.R. Collis, 1992 (re: Iron Age tribal kingdoms).
Boucharlat, R., "Les périodes pré-Islamiques récentes aux Emirats Arabes Unis", AOMIM 189--97.
Ferrara, A.J., "An inscribed stone slab of Nebuchadnezzar II", Journal of Cuneiform Studies 27, 1975, 231--32.
Finkelstein, I., and Naʻaman, Nadav, eds., From nomadism to monarchy. Archaeological and historical aspects of early Israel, Jerusalem, Yad Izhak Ben-Zvi, 1994 (re: Iron Age tribal kingdoms).

Graf, David, "Arabia during Achaemenid times", Achaemenid History 4 (Leiden, Nederlands Institut voor het Nabije Oosten), 1990, 131--48 (re: Hagar).
Liverani, M., "The collapse of the Near Eastern regional system at the end of the Bronze Age" in M. Rowlands et al. eds., Centre and periphery in the Ancient World, Cambridge, CUP, 66--73.
Lombard, Pierre, "Ages du fer sans fer: le cas de la péninsule d'Oman au 1 millénaire avant J.C.", AP 25--37.
MacDonald, Burton, and Younker, Randall W., eds., Ancient Ammon, Leiden, Brill, 1999 (re: Iron Age tribal kingdoms).
Magee, Peter, and Carter, Rob, "Agglomeration and regionalism: southeastern Arabia between 1400 and 1100 BC", AAE 10, 1999, 161--79.
Müller, Walter, "Zur Inschrift auf einem Krugfragment aus Muweilah", AAE 10, 1999, 51--53.
Potts, D.T., "From Qadê to Mazûn: four notes on Oman 700BC--700AD", Journal of Oman Studies 1, 1975, 81--94.
Roaf, M., "The subject peoples on the base of the statue of Darius", Cahiers de la délégation archéologique française en Iran 4, 1974, 73--160.
Salles, J.F., "Les échanges commerciaux et culturels dans le Golfe arabo--persique au 1 milléннaire avant J.C.", AP 67--96.
---- "Les Achéménides dans le Golfe arabo--persique", Achaemenid History 4 (Leiden, Nederlands Institut voor het Nabije Oosten), 1990, 111--30.
Sass, Benjamin, The genesis of the alphabet and its development in the second millennium BC, Wiesbaden, Harrassowitz, 1988.
Schmidt, E.F., Persepolis, 3 vols., Chicago, University of Chicago, 1953--70 (3.108: province lists; 3.111: status of Arabians; 3 figs. 47, 50: portrayal of Macians, Arabians).
Sherratt, Susan, "Commerce, iron and ideology: metallurgical innovation in 12--11th century Cyprus" in Procs. of the International Symposium 'Cyprus in the 11th Century BC', Nicosia, Leventis Foundation, 1994, 59--106.
Sherratt, Susan and Andrew, "From luxuries to commodities: the nature of Mediterranean Bronze Age trading systems" in N.H. Gale ed., Bronze Age trade in the Mediterranean, Jonsered, Paul Aströms, 1991, 351--86.
---- "The growth of the Mediterranean economy in the early first millennium BC", World Archaeology 24, 1993, 361--78.
Ungnad, A., Neubabylonische Rechts- und Verwaltungskunden I, Leipzig, Hinrichs, 1935 (pages 550--51 translate and discuss the text relating to "administrator of Dilmun").
Zarins, J., "Persia and Dhofar: aspects of Iron Age international politics and trade" in G.D. Young et al. eds., Crossing boundaries and linking horizons, Bethesda, CDL, 1997, 615--89.

GRECO--ROMAN/PARTHIAN PERIOD

AAW, "Omana und Gerrha", 1.107--13; "Bahrain und der Untergang Gerrha's", 5.1.163--69; "On the location of Gerra", 5.2.36--57 (by W.E. James).
Blau, O., "Die Wanderung der sabäischen Völkerstämme im 2. Jahrhundert n. Chr.", ZDMG 22, 1868, 654--73.
Boucharlat, R., "Les périodes pré-Islamiques récentes aux Emirats Arabes Unis", AOMIM 189--97.
---- and Salles, J.F., "The history and archaeology of the Gulf from the fifth century BC to the seventh century AD", PSAS 11, 1981, 65--84.
---- and Mouton, M., "Cultural change in the Oman Peninsula during the late 1st millennium BC as seen from Mleiha, Sharjah Emirate", PSAS 21, 1991, 23--33.
Fahd, T., "Gerrhéens et Ğurhumites" in Hans Roemer and Albrecht Noth eds., Studien zur Geschichte und Kultur des Vorderen Orients. Festschrift für B. Spuler, Leiden, Brill, 1981,

67--78.
Groom, N. St. J., “Gerrha-a ‘lost’ Arabian city”, Atlal 6, 1982, 97--108.
Haerinck, E., “Abi’el, the ruler of southeastern Arabia”, AAE 10, 1999, 124--28.
Högemann, Peter, Alexander der Grosse und Arabien, Munich, C.H. Beck, 1985.
Jeppesen, Kristian, “The Ikaros inscription” in Ikaros: the Hellenistic settlements 3, Moesgaard, Jutland Archaeological Society, 1989, 82--103.
Lombard, Pierre, “The salt mine site and the ‘Hasaean period’ of northeastern Arabia”, ATB 117--35.
Mouton, Michel, “Les échanges entre l’Arabie du Sud et la péninsule d’Oman du 3 s. av. J.C. au 4 s. ap. J.C.” in A. Avanzini ed., Profumi d’Arabia, Rome, ‘L’Erma’ di Bretscheider, 1997, 297--311.
Potts, D.T., “Thaj in the light of recent research”, Atlal 7, 1983, 86--101.
---- “Thaj and the location of Gerrha”, PSAS 14, 1984, 87--91.
---- “Northeastern Arabia in the later pre-Islamic era”, AOMIM 85--123.
---- “Arabia and the kingdom of Characene”, ATB 137--67.
---- “The Roman relationship with the Persicus sinus from the rise of Spasinou Charax (127 BC) to the reign of Shapur II (AD 309--79)” in Susan Alcock ed., The early Roman empire in the east, Oxford, Oxbow, 1997, 89--107.
Salles, J.F., “Bahrain ‘hellénistique’: données et problèmes”, AOMIM 151--62.
Seray, Hamad bin, “Spasinou Charax and its commercial relations with the East through the Arabian Gulf”, Aram 8, 1996, 15--23.

BYZANTINE/SASANIAN PERIOD

AAW, “Die Araber an der oströmisch--persischen Grenze im 4. Jahrhundert”, 2.312--32; “Šapur II. und die Araber”, 2.344--56.
Abu Ezzah, A., “The political situation in eastern Arabia at the advent of Islam”, PSAS 9, 1979, 53--64.
Beaucamp, J., and Robin, Christian, “L’évêche nestorien de Mâšmâhîg dans l’archipel d’al-Bahrayn” in D.T. Potts ed., Dilmun, Berlin, 1983, 171--95.
Bernard, V., and Salles, J.F., “Discovery of a Christian church at al-Qusur, Failaka”, PSAS 21, 1991, 7--21.
Boucharlat, R., and Salles, J.F., “The history and archaeology of the Gulf from the fifth century BC to the seventh century AD”, PSAS 11, 1981, 65--84.
Calvet, M.A., “Les écrivains chrétiens de l’Antiquité et le Golfe”, AOMIM 347--50.
Cardi, Beatrice de, “A Sasanian outpost in northern Oman”, Antiquity 46, 1972, 305--10.
Donner, Fred, “The Bakr b. Wa’il tribes and politics in northeastern Arabia on the eve of Islam”, Studia Islamica 51, 1980, 5--37.
Frye, Richard N., “Bahrain under the Sasanians” in D.T. Potts ed., Dilmun, Berlin, 1983, 167--70.
Healey, John F., “The Christians of Qatar in the 7th century AD” in I.R. Netton ed., Studies in honour of C.E. Bosworth, Leiden, Brill, 2000, 1.222--37.
Kennet, Derek, “Evidence for 4th/5th century Sasanian occupation at Khatt, Ras al-Khaimah”, ANBC 105--16.
Kervran, Monik, “A la recherche de Suhar: état de la question”, AOMIM 285--97.
Langfeldt, J.A., “Recently discovered early Christian monuments in northeastern Arabia”, AAE 5, 1994, 32--60.
Lecker, M., “The levying of taxes for the Sasanians in pre-Islamic Medina”, forthcoming (Persians govern Hijaz via governor in Bahrain, then via a local Arab vassal).
Maricq, A., “Res gestae divi Saporis”, Syria 35, 1958, 295--360 (re: Naqsh-i Rustam inscription).
Piacentini, V.F., “Ardashir I Papakan and the wars against the Arabs”, PSAS 15, 1985, 57--

77.
Potts, D.T., “Nestorian crosses from Jabal Berri”, AAE 5, 1994, 61--65.
Rothstein, G., Die Dynastie der Lahmiden in al-Hira, Berlin, Reuter und Reichard, 1899.
Seray, Hamad bin, “Christianity in east Arabia”, Aram 8, 1996, 315--32.
---- “The Arabian Gulf in Syriac sources”, New Arabian Studies 4, 1997, 205--42.
Tardieu, M., “L’Arabie du Nord Est d’après les documents manichéens”, Studia Iranica 23, 1994, 59-75 (discusses a reference to Manichaeans in Khatt).
Wilkinson, J.C., “Arab--Persian land relationships in late Sasanid Oman”, PSAS 3, 1973, 40--51.
---- “The Julanda of Oman”, Journal of Oman Studies 1, 1975, 97--107.

ARCHAEOLOGY (and see relevant references in the sections above and in chapter 7):

Cleuziou, Serge, “Hili and the beginning of oasis life in eastern Arabia”, PSAS 12, 1982, 15--22.
Hassell, Jonathan, “Alabaster beehive-shaped vessels from the Arabian Peninsula”, AAE 8, 1997, 245--81.
Orchard, J., “Third millennium oasis towns and environmental constraints on settlement in the al-Hajar region”, Iraq 56, 1994, 63--88.
Potts, D.T., “Nabataean finds from Thaj and Qatif”, AAE 2, 1991, 138--44.
---- “A new Bactrian find from southeastern Arabia”, Antiquity 67, 1993, 591--96 (re: bone comb).
Whitehouse, D., Excavations at ed-Dur (Umm al-Qaiwain, U.A.E.) I. The glass vessels, Louvain, Peeters, 2000.

CHAPTER 2: SOUTH ARABIA
SURVEY WORKS

Breton, J.F., L’Arabie heureuse au temps de la reine de Saba, Paris, Hachette, 1998.
Doe, Brian, Southern Arabia, London, Thames and Hudson, 1971.
Jemen, 3000 Jahre Kunst und Kultur des glücklichen Arabien, München 1987, Innsbruck, Pinguin, 1987.
Robin, Christian, “Sheba dans les inscriptions d’Arabie du Sud”, Dictionnaire de la Bible, supplément 1996, 1047--1254.
Schippmann, Klaus, Geschichte der altsüdarabischen Reiche, Darmstadt, Wissenschaftliche Buchgesellschaft, 1998.
Yémen au pays de la reine de Saba. Exposition présentée à l’Institut du monde arabe 1997--98, Paris, Flammarion, 1997 (an exhibition that has since gone to Vienna, Munich and Rome, spawning more catalogues).

IRON AGE

Avanzini, A., “Saba’ and the beginning of epigraphic documentation of the Jawf”, AAE 7, 1996, 63--68.
---- “La chronologie ‘courte’. Un réexamen”, AA 7--14.
Beek, Gus van, Hajar bin Humeid. Investigations at a pre-Islamic site in South Arabia, Baltimore, John Hopkins, 1969.
Beeston, A.F.L., “Problems of Sabaean chronology”, BSOAS 16, 1954, 37--56.
Dion, Paul, and Daviau, P.M., “An inscribed incense altar of Iron Age II at Khirbet el-Mudeyine (Jordan), Zeitschrift des deustchen Palästina-Vereins 116, 2000, 1--13.
Edens, Christopher, and Wilkinson, T.J., “Southwest Arabia during the Holocene: recent archaeological developments”, Journal of World Prehistory 12, 1998, 55--119.
Garbini, Giovanni, “La successione dei ‘Mukarrib’ di Saba”, ESA 93--99.
---- “La chronologie ‘longue’. Une mise au point”, AA 15--22.

Korotayev, Andrey, “The earliest Sabaeans in the Jawf: a reconsideration”, AAE 9, 1998, 118--24.
Lemaire, A., “Histoire du Proche-Orient et chronologie sudarabique avant Alexandre”, AA 35--48.
---- “Les Minéens et la Transeuphratène à l’époque perse”, Transeuphratène 13, 1997, 123--39.
Magee, Peter, “Writing in the Iron Age: the earliest south Arabian inscription from southeastern Arabia”, AAE 10, 1999, 43--50.
Maigret, Alessandro de, The Sabaean archaeological complex in the Wadi Yala, Rome, IsMEO, 1988.
---- and Robin, Christian, “Les fouilles Italiennes de Yalâ: nouvelles données sur la chronologie de l’Arabie du Sud préislamique”, CRAIBL 1989, 255--91.
Pirenne, Jacqueline, “Des Grecs à l’aurore de la culture monumentale sabéenne”, AP 257--69.
Robin, Christian, “Les premiers états du Jawf et la civilisation sudarabique”, AA 49--66.
---- “Sumhuriyam, fils de Karib’il le Grand, et le mukarribat”, Südarabien 155--69.
Ryckmans, Jacques, L’institution monarchique en Arabie méridionale avant l’Islam (Ma‘in et Saba), Louvain, Publications universitaires, 1951.
---- “Biblical and Old South Arabian institutions: some parallels” in R. Bidwell and G.R. Smith eds., Arabian and Islamic Studies. Articles presented to R.B. Serjeant, London, Longman, 1983, 14--25.
Saqqaf, H.M. al-, “Awwal naqsh yadhkuru mkrb Awsân”, Raydan 6, 1994, 111--20*.
Sayed, Abdel Monem, “Were there direct relationships between Pharaonic Egypt and Arabia”, PSAS 19, 1989, 155--64 (no!).
Singer-Avitz, Lily, “Beersheba: a gateway community in southern Arabia long-distance trade in the eighth century BC”, Tel Aviv 26, 1999, 3--75 (see also references in pastoralism section of ch. 4).
Wissmann, Hermann von, Das Grossreich der Sabäer bis zu seinem Ende im frühen 4. Jht. v. Chr., Vienna, Osterreichischen Akademie der Wissenschaften, 1982 (ed. Walter Müller).

GRECO--ROMAN/PARTHIAN PERIOD

Bafaqih, M.A., L’unification du Yémen antique. La lutte entre Saba’, Himyar et le Hadramawt du 1 au III s. de l’ère chrétienne, Paris, Geuthner, 1990.
---- and Arbach, M., “Nouvelles données sur la chronologie des rois du Hadramawt”, Semitica 48, 1998, 109--26.
Beeston, A.F.L., “Notes on Old South Arabian lexicography VIII”, Le Muséon 86, 1973, 443--53 (tr. of Ja 576).
---- “The Himyarite problem”, PSAS 5, 1975, 1--7.
---- “The settlement at Khor Rori”, Journal of Oman Studies 2, 1976, 39--42.
---- “Some observations on Greek and Latin data relating to South Arabia”, BSOAS 42, 1979, 7--12.
---- “Old South Arabian era datings”, PSAS 11, 1981, 1--5.
---- “Further remarks on the Zayd-‘il sarcophagus text”, PSAS 14, 1984, 100--102.
---- “Chronological problems of the Ancient South Arabian culture”, SHA 2.3--6.
---- “Sabaeans in Tihama”, AAE 6, 1995, 236--45.
Bron, F., “A propos de l’éponymie Qatabanite”, Sayhadica 21--27.
Casson, Lionel, “South Arabia’s maritime trade in the first century AD”, AP 187--94.
---- “The Greek and Latin sources for the southwestern coast of Arabia”, AAE 6, 1995, 214--21.
Gnoli, Gherardo, “Il sincronismo Mineo--Persiano”, AA 23--34 (re: RES 3022/M247).
Groom, Nigel, “The Periplus, Pliny and Arabia”, AAE 6, 1995, 180--95.
Müller, Walter, “Arabian frankincense in Antiquity according to classical sources”, SHA 1.79-

-92.
---- “Das Ende des antiken Königreichs Hadramaut. Die sabäische Inschrift Schreyer-Geukens = Iryani 32”, Hudhud 225--56.
Potts, D.T., “Augustus, Aelius Gallus and the Periplus: a reinterpretation of the coinage of San‘a class B”, AF 212--22
Robin, Christian, “Le calendrier himyarite: nouvelles suggestions”, PSAS 11, 1981, 43--53.
---- “Les inscriptions d’al-Mi‘sal et la chronologie de l’Arabie méridionale au III siècle de l’ère chrétienne”, CRAIBL 1981, 315--39.
---- Les hautes-terres du nord-Yémen avant l’Islam, 2 vols., Leiden, Nederlands Instituut voor het Nabije Oosten, 1982.
---- “Aux origines de l’état Himjarite: Himyar et Dhu-Raydan”, ASMG 104--12.
---- “Première mention de Tyr chez les Minéens d’Arabie du Sud”, Semitica 39, 1990, 135--47.
---- “La pénétration des Arabes nomades au Yémen”, AAKM 71--88.
---- “A propos d’une nouvelle inscription du règne de Sha‘r Awtar, un réexamen de l’éponymat sabéen a l’époque des rois de Saba et de dhu-Raydan”, AF 230--49.
---- “La fin du royaume de Ma‘in”, Res Orientales 11, 1998, 177--88.
Rodinson, Maxime, “L’Arabie du Sud chez les auteurs classiques” in Chelhod, J., ed., L’Arabie du Sud I, Paris, Maisonneuve et Larose, 1984, 55--89.
Rougé, Jean, “La navigation en mer Erythrée dans l’Antiquité”, AMB 59--74.
Ryckmans, Jacques, “Les ‘Hierodulenlisten’ de Ma‘in et la colonisation Minéene”, Scrinium Lovaniense. Mélanges historiques E. van Cauwenbergh, Louvain, Université de Louvain, 1961, 51--61.
Salles, J.F., “La circumnavigation de l’Arabie dans l’Antiquité classique”, AMB 75--102.
Sayed, Abdel Monem, “Reconsideration of the Minaean inscription of Zayd’il”, PSAS 14, 1984, 93--99.
Sedov, Alexander, “Sea-trade of the Hadramawt kingdom from the 1st to the 6th centuries AD” in A. Avanzini ed., Profumi d’Arabia, Rome, ‘L’Erma’ di Bretschneider, 1997, 365--79.
Wissmann, Hermann von, “Himyar, ancient history”, Le Muséon 77, 1964, 429--97.
Zwettler, Michael, “The ‘era of NBT’ and ‘YMNT’: two proposals”, AAE 7, 1996, 95--107.

BYZANTINE/SASANIAN PERIOD

AAW, “Dhu Nuwas”, 5.1.305--391 (and related topics).
Ansary, A.T., “Ad/.wâ’ jadîda ‘alâ dawlat Kinda min khilâl âthâr Qaryat al-Faw wa-nuqûshihâ”, SHA 3--15* (includes epitaph of Mu‘awiya ibn Rabi‘a).
Bafaqih, M.A., “New light on the Yazanite dynasty”, PSAS 9, 1979, 5--9.
---- “Abraha…tubba‘an! Ta’ammulât fî ‘ahdih fî daw’ naqshihi l-kabîr”, ASMG 91--105 (re: CIS 4.541).
Beeston, A.F.L., “Notes on the Mureighan inscription”, BSOAS 16, 1954, 389--92 (tr. of Ry 506).
---- “A note on Ma‘dikarib’s Wadil Masil text”, Annali dell’Istituto Orientale di Napoli 42, 1982, 307--11 (re: Ry 510).
---- “Two Bi’r Hima inscriptions re-examined”, BSOAS 48, 1985, 42--52 (tr. of Ja 1028, Ry 507).
---- “The martyrdom of Azqir”, PSAS 15, 1985, 5--10.
---- “The chain of al-Mandab” in On both sides of al-Mandab. Studies presented to Oscar Löfgren, Stockholm, Swedish Research Institute in Istanbul, 1989, 1--6.
Blois, F. de, “The date of the martyrs of Nagran”, AAE 1, 1990, 110--28.
Frézouls, Edmond, “Cosmas Indicopleustes et l’Arabie”, AP 441--60.
Gajda, Iwona, “Huğr b. ‘Amr roi de Kinda et l’établissement de la domination himyarite en Arabie centrale”, PSAS 26, 1996, 65--73.

Huxley, G.L., “On the Greek Martyrium of the Negranites”, Proceedings of the Royal Irish Academy 80, 1980, 41--55.
Kister, M.J., “The Campaign of Huluban. A new light on the expedition of Abraha”, Le Muséon 78, 1965, 425--36.
Müller, Walter, “Eine sabaeische Gesandtschaft in Ktesiphon und Seleukeia”, NESE 2, 155--65.
---- “Survey of the history of the Arabian peninsula from the 1st c. AD to the rise of Islam”, SHA 2.125--31 (chiefly south Arabia).
---- “CIH 325: die jüngste datierte sabäische Inschrift”, ESA 117--31.
Olinder, Gunnar, The Kings of Kinda, Lund, Gleerup, 1927.
Robin, Christian, “Du nouveau sur les Yaz’anides”, PSAS 16, 1986, 181--97.
---- “La Tihama yéménite avant l’Islam: notes d’histoire et de géographie historique”, AAE 6, 1995, 222--35.
---- “Le royaume hujride, dit ‘royaume de Kinda’, entre Himyar et Byzance”, CRAIBL 1996, 665--714.
Rubin, Z., “Byzantium and southern Arabia-the policy of Anastasius”, in D.H. French and C.S. Lightfoot eds., The eastern frontier of the Roman empire II, Oxford, BAR, 1989, 383--420.
Ryckmans, Jacques, La persécution des chrétiens Himyarites au sixième siècle, Istanbul, Nederlands Historisch--Archaeologisch Institut, 1956.
---- “Some remarks on the late Sabaean inscriptions”, SHA 1.57--68.
---- “A confrontation of the main hagiographic accounts of the Najran persecution”, ASMG 113--33.
Sayed, Abdel Monem, “Emendations to the Bir Murayghan inscription Ry506”, PSAS 18, 1988, 131--43.
Shahid, Irfan, The martyrs of Najran: new documents, Brussels, Société des Bollandistes, 1971.
---- “Further reflections on the sources for the martyrs of Najran”, ASMG 161--72.
Shitomi, Y., “Réexamen de deux lettres attribuées à Siméon de Beth-Aršam relatives à la persécution de Nağran”, ESA 207--24.

CHAPTER 3: NORTH AND CENTRAL ARABIA
SURVEY WORKS

There are no survey works for all the peoples of this region during the pre-Islamic period, but only for specific peoples, especially Nabataeans, and specific places, especially Palmyra:

Dussaud, René, La pénétration des Arabes en Syrie avant l’Islam, Paris, Geuthner, 1955 (covers Nabataeans, Palmyrenes, Lihyan, Thamud, Safaites, without considering whether all are Arabs).
Eph‘al, Israel, The ancient Arabs. Nomads on the borders of the Fertile Crescent 9th--5th centuries BC, Jerusalem, Magnes, 1982.
Glueck, Nelson, Deities and dolphins: the story of the Nabataeans, London, Cassell, 1996.
Hammond, Philip, The Nabataeans: their history, culture and archaeology, Gothenburg, Paul Aströms, 1973.
Knauf, E.A., Ismael. Untersuchungen zur Geschichte Palästinas und Nordarabiens im 1. Jahrtausend v. Chr., Wiesbaden, Harrasowitz, 1985.
Levy, Udi, Die Nabatäer: versunkene Kultur am Rande des heiligen Landes, Stuttgart, Urachhaus, 1996.
Macdonald, M.C.A., “North Arabia in the first millennium BCE”, CANE 2.1355--69.
Starcky, J., and Gawlikowski, M., Palmyre, Paris, Librairie d’Amérique et d’Orient, 1985.
Stoneman, Richard, Palmyra and its empire. Zenobia’s revolt against Rome, Ann Arbor, University of Michigan, 1992.

Will, Ernest, Les Palmyréniens. La Venise des sables, Paris, Armand Colin, 1992.

IRON AGE

Bawden, G., “Continuity and disruption in the ancient Hejaz”, AAE 3, 1992, 1--23 (argues against Parr that there was a break in settlement 11--6th centuries BC).
Dalley, S., and Goguel, A., “The Sela‘ sculpture: a neo-Babylonian rock relief in southern Jordan”, ADAJ 41, 1997, 169--76 (a relief on a cliff near Petra effected by Nabonidus on his way to Tayma).
Deller, K., and Parpola, S., “Ein Vertrag Assurbanipals mit dem arabischen Stamm Qedar”, Orientalia 37, 1968, 464--66.
Dumbrell, William J., “The Tell el-Maskhuta bowls and the kingdom of ‘Qedar’ in the Persian period”, BASOR 203, 1971, 33--44.
Gerardi, Pamela, “The Arab campaigns of Assurbanipal: scribal reconstruction of the past”, State Archives of Assyria Bulletin 6, 1992, 67--103.
Graf, David, “Arabia during Achaemenid times”, Achaemenid History 4 (Leiden, Nederlands Institut voor het Nabije Oosten), 1990, 131--48.
Knauf, E.A., “The Persian administration in Arabia”, Transeuphratène 2, 1990, 201--17.
---- “Südarabien, Nordarabien und die Hebräische Bibel”, AF 115--22.
Livingstone, A., “Arabians in Babylonia/Babylonians in Arabia”, AP 97--105.
Parr, P.J., “Pottery of the late second millennium BC from northwest Arabia”, ATB 73--89.
---- “Aspects of the archaeology of northwest Arabia in the first millennium BC”, AP 39--66.
---- “The early history of the Hejaz: a response to Garth Bawden”, AAE 4, 1993, 48--58.
Rabinowitz, Isaac, “Aramaic inscriptions of the fifth century BCE from a North-Arab shrine in Egypt”, Journal of Near Eastern Studies 15, 1956, 1--9 (re: Tell el-Maskhuta bowl).
Reade, Julian, ‘Assyrian illustrations of Arabs”, ANBC 221--32.
Retso, Jan, “The earliest Arabs”, Orientalia Suecana 38--39, 1989--90, 131--39.
---- “Xenophon in Arabia”, Studia graeca et latina gothoburgensia 54, 1990, 122--33 (against F.M. Donner, “Xenophon’s Arabia”, Iraq 48, 1986, 1--14).
Rouillard-Bonraisin, H., “Présence et représentations des Arabes dans les écrits bibliques”, PA 23--35.
Sack, Ronald, “Nabonidus of Babylon”, and Weisberg, D.B., “Polytheism and politics: some comments on Nabonidus’ foreign policy” in G.D. Young et al. eds., Crossing boundaries and linking horizons, Bethesda, CDL, 1997, 455--74, 547--56 (put the religious and political cases respectively for Nabonidus’ move to Tayma and list the voluminous earlier literature on this topic).
Zadok, Ran, “Arabians in Mesopotamia during the Late Assyrian, Chaldean, Achaemenian and Hellenistic periods”, ZDMG 131, 1981, 42--84.

GRECO--ROMAN/PARTHIAN PERIOD: WRITERS OF NORTH ARABIAN TEXTS

AAW, “Die Lihyan”, 1.93--106.
Abu Duruk, Hamid, and Murad, Abd al-Jawad, “Preliminary report on Qasr al-Hamra excavations, Tayma”, Atlal 9, 1985, 55--64; 10, 1986, 29--35; 11, 1988, 29--36.
Caskel, Werner, Lihyan und Lihyanisch, Köln and Opladen, Westdeutscher Verlag, 1954.
Dalley, S., “Stelae from Teima and the god Slm (Salmu)”, PSAS 15, 1985, 27--33.
Edens, C., and Bawden, G., “History of Tayma and Hejazi trade during the first millennium BC”, Journal of the Social and Economic History of the Orient 32, 1989, 48--103.
EI, s.v. “Thamud”.
Fares-Drappeau, Saba, Dedan et ses inscriptions, 3 vols., Aix-Marseilles, Université d’Aix, 1999.
Graf, David, “The Saracens and the defense of the Arabian frontier”, BASOR 229, 1978, 1--26.

Gysens, J. Calzini, “Safaitic graffiti from Pompeii”, PSAS 20, 1990, 1--7.
Höfner, Maria, “Die Beduinen in den vorislamischen arabischen Inschriften”, ASB 53--68.
Khraysheh, Fawwaz al-, “Safaïtische Inschriften mit Jahresangaben”, Südarabien 69--80.
Lemaire, A., “Les inscriptions araméennes anciennes de Teima”, PA 59--72.
Macdonald, M.C.A., “The distribution of Safaitic inscriptions in northern Jordan”, Studies in the History and Archaeology of Jordan 4, 1992, 303--307.
---- “Nomads and the Hawran in the late Hellenistic and Roman periods: a reassessment of the epigraphic evidence”, Syria 70, 1993, 303--403.
---- “Quelques réflexions sur les Saracènes, l’inscription de Rawwafa et l’armée romaine”, PA 93--101.
---- “Herodian echoes in the Syrian Desert” in S. Bourke and J.P. Descoeudres eds., Studies in honour of J. Basil Hennessy, Sydney, Mediterranean Archaeology Supplement, 1995 (Safaitic texts mentioning Herodian rulers of the Hawran).
Maraqten, Mohammed, “The Aramaic pantheon of Tayma”, AAE 7, 1996, 17--31.
Potts, D.T., “Tayma and the Assyrian Empire”, AAE 2, 1991, 10--23.
Retso, Jan, “Where and what was Arabia Felix?”, PSAS 30, 2000, forthcoming.
Salles, J.F., “Al-‘Ula-Dédan : recherches récentes”, Topoi 6, 1996, 565--607.
Scagliarini, Fiorella, “La chronologie dédanite et lihyanite: mise au point”, PA 119--32.
Sima, Alexander, “Aramaica aus Dedan und Tayma”, AAE 10, 1999, 54--57.
Theeb, S.A. al-, Dirâsa tah/.lîliyya li-l-nuqûsh al-ârâmiyya al-qadîma, Riyad, King Fahd National Library, 1994.
Winnett, F.V., “The revolt of Damasi: Safaitic and Nabataean evidence”, BASOR 211, 1973, 54--57 (an example of some precisely dateable Safaitic texts).
---- “A reconsideration of some inscriptions from the Tayma area”, SHA 1.69--77 and PSAS 10, 1980, 133--40.

GRECO--ROMAN/PARTHIAN PERIOD: WRITERS OF ARAMAIC/GREEK TEXTS

Aggoula, Basile, “Arabie et Arabes en Mésopotamie (du III siècle av. JC. au III siècle apr. JC.)”, PA 73--79 (re: Hatra and its hinterland).
AAW, “Berichte über die Anfänge der Nabatäer”, 1.31--39; “Ptolemäer und Nabatäer”, 1.65--79; “Odainat und Palmyra”, 2.251--73.
Aram 2, 1990: The Nabataeans (proceedings of a conference held in Oxford 1989).
Aram 7, 1995: Palmyra and the Aramaeans (proceedings of a conference held in Oxford 1994).
Bowersock, G.W., Roman Arabia, Cambridge (Ma.), HUP, 1983.
Briquel-Chatonnet, F., “La pénétration de la culture du Croissant fertile en Arabie: à propos des inscriptions nabatéennes”, PA 133--41.
Dijkstra, K., “State and steppe: the socio--political implications of Hatra inscription 79”, JSS 35, 1990, 81--98.
Dodgeon, Michael, and Lieu, Samuel, The Roman eastern frontier and the Persian wars Ad 226--363, London, Routledge, 1991 (ch. 4: “The Rise and Fall of Palmyra”).
Drijvers, H.J.W., “Hatra, Palmyra und Edessa”, Aufstieg und Niedergang der romischen Welt 2.8, 1977, 799--906.
Freeman, Philip, “The annexation of Arabia and imperial grand strategy”, Journal of Roman Archaeology suppl. 18, 1996, 91--118.
Gatier, P.L., and Salles, J.F., “Aux frontières méridionales du domaine Nabatéen”, AMB 174--90.
Gawlikowski, M., “Les Arabes en Palmyrène”, PA 103--108.
---- “The Syrian Desert under the Romans” in Susan Alcock ed., The early Roman empire in the east, Oxford, Oxbow, 1997, 37--54.
Hamarneh, Salih, “The Nabataeans after the decline of their political power”, Aram 2, 1990,

425--36.
Hauser, Stefan R., “Hatra und das Königreich der Araber” in J. Wiesehöfer ed., Das Partherreich und seine Zeugnisse, Stuttgart, Franz Steiner, 1998, 493--528.
Healey, John F., “The Nabataeans and Mada’in Salih”, Atlal 10, 1986, 108--16 (ancient Hegra).
---- “Were the Nabataeans Arabs?”, Aram 1, 1989, 38--44.
Isaac, Benjamin, “Trade-routes to Arabia and the Roman presence in the desert”, AP 241--56.
Kammerer, A., Pétra et la Nabatène. L’Arabie Petrée et les Arabes du nord dans leurs rapports avec la Syrie et la Palestine jusqu’à l’Islam, Paris, Geuthner, 1929.
Kasher, Aryeh, Jews, Idumaeans and ancient Arabs 332 BCE --70 CE, Tübingen, J.C.B. Mohr, 1988.
Knauf, E.A., “Nabataean origins”, ASMG 56--61 (from ancient Edom).
MacAdam, Henry I., “Strabo, Pliny the Elder and Ptolemy of Alexandria: three views of ancient Arabia and its peoples”, AP 289--320.
Macdonald, M.C.A, “Personal names in the Nabataean realm. A review article”, JSS 44, 1999, 251--89 (on the value of names to Nabataean cultural history).
Nasiriyy, S.A. al-, “Al-s/.irâ‘ ‘alâ l-bah/.r al-ah/.mar fî ‘as/.r al-Bat/.âlima”, SHA 2.401--28.
Retso, Jan, “Nabataean origins once again”, PSAS 29, 1999, 115--18 (a social rather than ethnic term).
Roche, M.J., “Les débuts de l’implantation nabatéenne à Pétra”, Transeuphratène 8, 1994, 35--46.
Segal, J.B., “Arabs at Hatra and the vicinity”, JSS 30, 1986, 57--80.
Sidebotham, S.E., Roman economic policy in the Erythra Thalassa 30 BC--AD 217, Leiden, Brill, 1986.
Starcky, J., “Pétra et la Nabatène”, Dictionnaire de la Bible, supplément 1966, 886--1017.
Wenning, Robert, “The Nabataeans in the Decapolis/Coele Syria”, Aram 4, 1992, 79--99.
Zakeri, M., “Arabic reports on the fall of Hatra to the Sasanids” in S. Leder ed., Story-telling in the framework of non-fictional Arabic literature, Wiesbaden, Harrassowitz, 1998, 158--67.

BYZANTINE/SASANIAN PERIOD

Beeston, A.F.L., “Nemara and Faw”, BSOAS 42, 1979, 1--6 (re: translation of Nemara text).
---- “A further note on the Nemara inscription”, al-Abhath 29, 1981, 3--5.
Bosworth, C.E., “Iran and the Arabs before Islam” in E. Yarshater ed., The Cambridge History of Iran, 3.1. The Seleucid, Parthian and Sasanian periods, Cambridge, CUP, 1983, 593--612.
Gaube, Heinz, “Arabs in sixth-century Syria: some archaeological observations”, Proceedings of the First International Conference on Bilad al-Sham, Amman, 1984, 61--66.
Greatrex, G., and Lieu, S., eds., The Roman eastern frontier and the Persian wars AD 363--630 (forthcoming).
Kropp, Manfred, “Vassal-neither of Rome nor of Persia. Mar’ al-Qays the great king of the Arabs”, PSAS 23, 1993, 63--93.
Letsios, D.G., “The case of Amorkesos and the question of the Roman foederati in Arabia in the Vth century”, AP 525--38.
Peters, F.E., “The Arabs on the frontier of Syria before Islam”, Proceedings of the First International Conference on Bilad al-Sham, Amman, 1984, 141--75.
Pohl, Walter, ed., Kingdoms of the Empire. The integration of barbarians in Late Antiquity, Leiden, Brill, 1997.
Qathami, H.D. al-, Shimâl al-H/.ijâz, Beirut, Al-‘Asr al-Hadith, 1991 (vol. 1: al-âthâr; vol. 2 mu‘jam al-mawâd/.i‘ wa-l-qabâ’il).
Sartre, M., “Le trophéus de Gadhimat, roi de Tanukh: une survivance en Arabie d’une institution hellénistique”, Liber Annuus 29, 1979, 253--58.
---- Trois études sur l’Arabie romaine et byzantine, Brussels, Revue d’études latines, 1982.

---- “Deux phylarches arabes dans l’Arabie byzantine”, Le Muséon 106, 1993, 145--53.
Shahid, Irfan, “H/.amlat Imru’ al-Qays ‘alâ Najrân: al-mas/.âdir ghayr al-‘arabiyya”, SHA 1.73--79*.
---- Byzantium and the Arabs in the Fourth Century, Washington DC, Dumbarton Oaks, 1984.
---- Byzantium and the Arabs in the Fifth Century, Washington DC, Dumbarton Oaks, 1989.
---- Byzantium and the Arabs in the Sixth Century, Washington DC, Dumbarton Oaks, 1995.
---- “The Syriac sources for the history of the Arabs before the rise of Islam”, Orientalia Christiana Analecta 256, 1998, 323--31 (Symposium Syriacum VII).
Smith, Sydney, “Events in Arabia in the 6th century AD”, BSOAS 16, 1954, 425--68.
Whittow, Mark, “Rome and the Jafnids: writing the history of a 6th-c. tribal dynasty”, Journal of Roman Archaeology suppl. 31, 1999, 207--24.
Zwettler, Michael, “Imra’alqays, son of ‘Amr: king of…?” in M. Mir ed., Literary heritage of Classical Islam, Princeton, Darwin, 1993, 3--37 (argues for “of Arabia” rather than “of the Arabs”).

CHAPTER 4: ECONOMY
AGRICULTURE AND WATER MANAGEMENT

ABADY 5--7, 1991--95: “Die sabäische Wasserwirtschaft von Marib”.
Bowen, R. LeBaron, “Irrigation in Ancient Qataban” in id. and F.P. Albright, Archaeological discoveries in South Arabia, Baltimore, John Hopkins, 1958, 43--131.
Brunner, Ueli, “The history of irrigation in the Wadi Marhah”, PSAS 27, 1997, 75--85.
Costa, Paolo M., “Notes on traditional hydraulics and agriculture in Oman”, World Archaeology 14, 1983, 273--95.
Hehmeyer, Ingrid, “Irrigation farming in the ancient oasis of Marib”, PSAS 19, 1989, 33--44.
Irvine, A.K., A survey of old Arabian lexical materials connected with irrigation techniques, Oxford, University of Oxford, 1962 (tr. of CIS 4.540).
Muheisen, Zeidoun al-, “Maîtrise de l’eau et agriculture en Nabatène: l’exemple de Pétra”, Aram 2, 1990, 205--20.
Nasif, Abdallah A., “An ancient water system in Sakaka, al-Jawf, Saudi Arabia”, PSAS 17, 1987, 127--35.
---- An historical and archaeological survey with special reference to its irrigation system, Riyad, King Saud University Press, 1988.
Pirenne, Jacqueline, La maîtrise de l’eau en Arabie du Sud antique, Paris, Imprimerie nationale, 1977.
---- “La juridiction de l’eau en Arabie du Sud antique” in F. and J. Metral eds., L’homme et l’eau en Méditerranée et au Proche Orient II, Lyon, Maison de l’Orient, 1982, 81--102.
Potts, D.T., “Contributions to the agrarian history of Eastern Arabia I. Implements and cultivation techniques”, AAE 5, 1994, 158--68.
---- “Contributions to the agrarian history of Eastern Arabia II. The cultivars”, AAE 5, 1994, 236--75.
Roberts, N., “Water conservation in ancient Arabia”, PSAS 7, 1977, 134--46; 8, 1978, 29--32.
Robin, Christian, “Quelques observations sur la date de construction et la chronologie de la première digue de Ma’rib d’après les inscriptions”, PSAS 18, 1988, 95--105.
Sedov, A.V., “On the origin of the agricultural settlements in Hadramawt”, AA 67--86.
Serjeant, R.B., “Observations on irrigation in southwest Arabia”, PSAS 18, 1988, 145--53.
Wilkinson, J.C., “The origins of the aflâj of Oman”, Journal of Oman Studies 6, 1983, 177--94.

PASTORALISM

Artzy, Michal, “Incense, camels and collared rim jars: desert trade routes and maritime outlets in the second millennium”, Oxford Journal of Archaeology 13, 1994, 121--47.

Bar-Yosef, Ofer, and Khazanov, Anatoly, eds., Pastoralism in the Levant, Madison (Wi), Prehistory Press, 1992.
Betts, A.V.G., "The Solubba: nonpastoral nomads in Arabia", BASOR 274, 1989, 61--69 ("a useful example of the potential diversity of lifestyles" even in Arabia deserta).
---- "The Neolithic sequence in the East Jordan Badia. A preliminary overview", Paléorient 19, 1993, 43--53.
Dayton, J.E., "Midianite and Edomite pottery", PSAS 2, 1972, 25--37.
Finkelstein, I., "Arabian trade and socio--political conditions in the Negev in the 12--11th centuries BC", Journal of Near Eastern Studies 47, 1988, 241--52.
Gauthier-Pilters, H., and Dagg, A.I., The camel: its evolution, ecology, behaviour and relationship to man, Chicago, University of Chicago, 1981.
Köhler-Rollefson, I., "Camels and camel pastoralism in Arabia", Biblical Archaeologist 56, 1993, 180--88.
---- and Rollefson, G.O., "The impact of Neolithic subsistence strategies on the environment: the case of 'Ain Ghazal, Jordan" in S. Bottema et al. eds., Man's role in the shaping of the eastern Mediterranean landscape, Rotterdam, Balkema, 1990, 3--14.
---- "PPNC adaptations in the first half of the 6th millennium B.C.", Paléorient 19, 1993, 33--41.
Liverani, M., "Early caravan trade between South Arabia and Mesopotamia", Yemen (IsMEO, Rome) 1, 1992, 111--15.
Maigret, Alessandro de, "The Arab nomadic people and the cultural interface between the Fertile Crescent and Arabia Felix", AAE 10, 1998, 220--24.
Parr, P.J., "The early history of the Hejaz: a response to Garth Bawden", AAE 4, 1993, 48--58.
Retso, Jan, "The domestication of the camel and the establishment of the frankincense road from South Arabia", Orientalia Suecana 40, 1991, 187--219.
Schwartz, Glenn, "Pastoral nomadism in ancient western Asia", CANE 1.249--58.
Sherratt, Andrew, "The secondary exploitation of animals in the Old World", World Archaeology 15, 1983, 90--104.
Wapnish, Paula, "The dromedary and bactrian camel in Levantine historical settings: the evidence from Tell Jemmeh" in J. Clutton-Brock and C. Grigson eds., Animal and Archaeology 3, Oxford, BAR, 1984, 171--200.
Wengrow, David, "Egyptian taskmasters and heavy burdens: highland exploitation and the collared rim pithos of the Bronze/Iron Age Levant", Oxford Journal of Archaeology 15, 1996, 307--26.

HUNTING

Beeston, A.F.L., "The ritual hunt. A study in Old South Arabian religious practice", Le Muséon 61, 1948, 183--96 (tr. of CIS 4.571 and Ingrams 1).
---- "Observations on the texts from al-'Uqlah", PSAS 12, 1982, 7--13.
---- "The Sayhadic hunt at Ši'b al-'Aql", ESA 49--57.
Doe, Brian, "Anwad, Jabal al-'Uqla", PSAS 12, 1982, 23--25.
Fowden, Garth, "'Desert kites': ethnography, archaeology and art", Journal of Roman Archaeology suppl. 31, 1999, 107--36.
Höfner, Maria, "Ta'lab und der 'Herr der Tiere' im antiken Südarabien" in Al-Bahit. Festschrift Joseph Henninger, Bonn, Anthropos-Institut, 1976, 145--53.
Müller, Walter, "The meaning of Sabaic KRWM", ASMG 89--96.
Ryckmans, Jacques, "An ancient stone structure for the capture of ibex in western Saudi Arabia", PSAS 6, 1976, 161--66.
---- "La chasse rituelle dans l'Arabie du Sud ancienne" in Al-Bahit. Festschrift Joseph Henninger, Bonn, Anthropos-Institut, 1976, 259--307.

Serjeant, R.B., South Arabian Hunt, London, Luzac, 1976 (p. 36: “if we did not hunt…”).
Stetkevych, Jaroslav, “The hunt in the Arabic Qas/.îdah” in J.R. Smart ed., Tradition and modernity in Arabic Language and Literature, Richmond, Curzon, 1996, 102--19.

NOMAD--SETTLED RELATIONS

Athamina, K., “A‘râb and muhâjirûn in the environment of ams/.âr”, Studia Islamica 66, 1987, 5--25.
Bosworth, C.E., “A note on ta‘arrub in early Islam”, JSS 34, 1989, 355--62.
Briant, Pierre, Etat et pasteurs au Moyen Orient ancien, Cambridge, CUP, and Paris, Maison des sciences de l’homme, 1982.
Bronson, B., “The role of barbarians in the fall of states” in N. Yoffee and G. Cowgill eds., The collapse of ancient states and civilizations, Tucson, University of Arizona, 1988, 196--218.
Caskel, W., “Zur Beduinisierung Arabiens”, ZDMG 103, 1953, 36--58; English tr. (“The Bedouinization of Arabia”) in AAEI 34--44.
Christides, V., “Saracens’ Prodosia in Byzantine sources”, Byzantion 40, 1970, 5--13.
Crone, Patricia, “The first century concept of hiğra”, Arabica 41, 1994, 352--87.
Donner, Fred, “The role of nomads in the Near East in Late Antiquity” in F.M. Clover and R.S. Humphreys eds., Tradition and innovation in Late Antiquity, Madison, University of Wisconsin, 1989, 73--88 (repr. in AAEI 21--33).
Dostal, Walter, “The evolution of bedouin life”, ASB 11--34 (new saddle developed in 2nd--3rd c. AD allowed Arabian camel-herders to develop their military powers and become “full bedouin”).
---- “The development of bedouin life in Arabia seen from archaeological material”, SHA 1.125--44.
Finkelstein, I., Living on the fringe. The archaeology and history of the Negev, Sinai and neighbouring regions in the Bronze and Iron Ages, Sheffield, Sheffield Academic Press, 1995.
---- and Perevolotsky, Avi, “Processes of sedentarization and nomadization in the history of Sinai and the Negev”, BASOR 279, 1990, 67--88 (see reply thereto in Rosen below).
Geyer, Bernard, “Des fermes byzantins aux palais omayyades” in L. Nordigiwan and J.F. Salles eds., Aux origines de l’archéologie aérienne. A. Poidebard (1878--1955), Beirut, Saint Joseph, 2000, 109--22.
Graf, David, “Rome and the Saracens: reassessing the nomadic menace”, AP 341--400.
Haiman, Mordechai, “Agriculture and nomad--state relations in the Negev Desert in the Byzantine and Early Islamic periods”, BASOR 297, 1995, 29--53.
Isaac, Benjamin, “The meaning of ‘limes’ and ‘limitanei’ in ancient sources”, Journal of Roman Studies 78, 1988, 125--47.
Labianca, O.S., Sedentarization and nomadization: food system cycles at Hesban and vicinity in Transjordan, Berrien Springs (Mi.), Andrews University, 1990.
Lancaster, William and Fidelity, “Thoughts on the bedouinisation of Arabia”, PSAS 18, 1988, 51--62 (argues against Caskel and Dostal’s concept of predatory bedouin).
Macdonald, M.C.A., “Was the Nabataean kingdom a ‘bedouin state’?”, Zeitschrift der deutschen Palästina-Vereins 107, 1991, 102--19.
Mayerson, Philip, “The Saracens and the Limes”, BASOR 262, 1986, 35--47.
---- “Saracens and Romans: micro-macro relationships”, BASOR 274, 1989, 71--79.
Nelson, Cynthia, The desert and the sown, Berkeley, University of California, 1973.
Parker, S. Thomas, Romans and Saracens. A history of the Arabian frontier, Winona Lake (In.), ASOR, 1986.
Rosen, Steven, “Nomads in archaeology: a response to Finkelstein and Perevolotsky”, BASOR 287, 1992, 75--85 (but see comments of Finkelstein on pages 87--88).
Rowton, M., “Enclosed nomadism”, Journal of the Economic and Social History of the Orient

17, 1974, 1--30.
---- “Dimorphic structure and the tribal elite” in Al-Bahit. Festschrift Joseph Henninger, Bonn, Anthropos-Institut, 1976, 219--57.
Segal, J.B., “Arabs in Syriac literature before the rise of Islam”, Jerusalem Studies in Arabic and Islam 4, 1984, 89--123 (tr. of “Vita Malchi” and Bar Sauma passages).
Webster, Roger, “The bedouin in southern and southeastern Arabia; the evolution of bedouin life reconsidered”, PSAS 22, 1992, 124 (based on modern data).
Whittaker, C.R., “Where are the frontiers now?”, Journal of Roman Archaeology suppl. 18, 1996, 25--40.
Zarins, J., “Mar-tu and the land of Dilmun”, BAA 233--50 (pastoral nomads around northeast Arabia).

TRADE

Avanzini, A., ed., Profumi d’Arabia, Rome, ‘L’Erma’ di Bretschneider, 1997 (a very useful collection of articles on all aspects of Arabian aromatics).
Beeston, A.F.L., “Pliny’s Gebbanitae”, PSAS 2, 1972, 4--8 (and see his “Greek and Latin data”).
Crone, Patricia, Meccan trade and the rise of Islam, Oxford, Blackwell, 1987.
Dirven, Lucinda, “The nature of the trade between Palmyra and Dura-Europos”, Aram 8, 1996, 39--54.
During Caspers, E., “Harappan trade in the Arabian Gulf in the third millennium BC”, PSAS 3, 1973, 3--20.
Eidem, Jesper, and Hojlund, Flemming, “Trade or diplomacy? Assyria and Dilmun in the eighteenth century BC”, World Archaeology 24, 1993, 441--48.
Gawlikowski, M., “Le commerce de Palmyre sur terre et sur eau”, AMB 163--72.
---- “Palmyra as a trading centre”, Iraq 56, 1994, 27--33.
Gogte, V.D., Petra, the Periplus and ancient Indo-Arabian maritime trade”, ADAJ 43, 1999, 299--304 (pottery evidence for interaction between Nabataea and India).
Healey, John F., “Palmyra and the Arabian Gulf trade”, Aram 8, 1996, 33--37.
Lecker, M., “On the markets of Medina in pre-Islamic and early Islamic times”, Jerusalem Studies in Arabic and Islam 19, 1995, 133--47.
Macdonald, M.C.A., “A dated Nabataean inscription from southern Arabia”, AF 132--41 (a Nabataean in south Arabia in 87/88 AD, possibly trading).
Mango, M.M., “Byzantine maritime trade with the east (4--7th centuries)”, Aram 8, 1996, 139--63.
Maraqten, Mohammed, “Dangerous trade routes: on the plundering of caravans in the pre-Islamic Near East”, Aram 8, 1996, 213--36.
Mattingly, Gerald, “The Palmyrene luxury trade and Revelation 18:12--13”, Aram 7, 1995, 217--31.
Mildenberg, Leo, “Petra on the frankincense road? - again”, Aram 8, 1996, 55--65.
Müller, Walter, “Notes on the use of frankincense in south Arabia”, PSAS 6, 1976, 124--36.
---- “Weihrauch: ein arabisches Produkt und seine Bedeutung in der Antike”, Pauly-Wissowa’s Realencyclopädie der classischen Altertumswissenschaft (Munich 1978), suppl. XV, 700--77.
O’Dwyer Shea, M., “The small cuboid incense-burner of the Ancient Near East”, Levant 15, 1983, 76--109.
Palmyra and the Silk Road, special issue of Annales archéologiques arabes syriennes 42, 1996.
Potts, D.T., “Trans-Arabian routes of the pre-Islamic period”, AMB 127--62 (repr. in AAEI 45--80).
---- “Rethinking some aspects of trade in the Arabian Gulf”, World Archaeology 24, 1993, 423--40.

---- “Distant shores: ancient Near Eastern trade with South Asia and Northeast Africa”, CANE 3.1451--63.
Rashid, N.S., “Ta‘âmul al-‘arab al-tijâriyy wa-kayfiyyatuhu fî l-‘as/.r al-jâhiliyy”, SHA 2.210--49*.
Rey-Coquais, J.P., “L’Arabie dans les routes de commerce entre le monde Méditerranéen et les côtes Indiennes”, AP 225--39.
Sahhab, Victor, Ilâf Quraysh rih/.lat al-shitâ’ wa-l-s/.ayf, Beirut, Kumbyu nashr, 1992.
Salles, J.F., ed., L’Arabie et ses mers bordières, Lyon, Maison de l’Orient, 1988.
Saud, Abdullah al-, “The domestication of camels and inland trading routes in Arabia”, Atlal 14, 1996, 129--36.
Sidebotham, Steven E., “Ports of the Red Sea and the Arabia--India trade”, AP 195--223.
Speece, Mark, “The role of Eastern Arabia in the Arabian Gulf trade of the third and second Millennia”, SHA 2.167--76.
Teixidor, J., Un port romain du désert. Palmyre et son commerce, Paris, Semitica 34, 1984.
Will, Ernest, “Marchands et chefs de caravane à Palmyre”, Syria 34, 1957, 262--77.
Yon, J.B., “Remarques sur une famille caravanière à Palmyre”, Syria 75, 1998, 153--60.

MINING

Heck, Gene W., “Gold mining in Arabia and the rise of the Islamic state”, Journal for the Social and Economic History of the Orient 42, 1999, 364--92.
Prentiss, S., Zarins, J., Hester, J., et al., “Preliminary report on the ancient mining survey”, Atlal 6, 1982, 63--79; 7, 1983, 76--84; 8, 1984, 115--42.

CHAPTER 5: SOCIETY

TRIBES AND SOCIAL DIFFERENTIATION/STRATIFICATION

For understanding tribal structure in general, it can be helpful to read modern anthropological studies (e.g. Sahlins, Marshall D., Tribesmen, Englewood Cliffs, NJ, Prentice-Hall, 1968; Khoury, Philip S., and Kostiner, Joseph, eds., Tribes and state formation in the Middle East, Berkeley, University of California, 1990; Lancaster, William and Fidelity, “Tribal formations in the Arabian Peninsula”, AAE 3, 1992, 145--72) and ethnographic studies (e.g. C.M. Doughty, Travels in Arabia deserta, 2 vols., Cambridge, CUP, 1888; Musil, A., The manners and customs of the Rwala Bedouins, New York, American Geographical Society, 1928).

Beeston, A.F.L., “Kingship in Ancient South Arabia”, Journal for the Social and Economic History of the Orient 15, 1972, 256--68.
---- “Epigraphic South Arabian nomenclature”, Raydan 1, 1978, 13--21.
---- “Notes on Old South Arabian lexicography XI”, Le Muséon 91, 1978, 195--209 (tr. of RES 3869).
---- “Some features of social structure in Saba”, SHA 1.115--23.
---- “Free and Unfree: the Sayhadic case”, PSAS 16, 1986, 1--6.
Caskel, Werner, “Der arabische Stamm vor dem Islam und seine gesellschaftliche und juristische Organisation”, Convegno internazionale sul tema ‘Dalla tribu allo stato’, Accad. dei Lincei 359, 1962, 139--51.
Crone, Patricia, Roman, provincial and Islamic law, Cambridge, CUP, 1987 (ch. 4 looks at clientage in pre-Islamic Arabia).
Dostal, Walter, “Mecca before the time of the prophet”, Der Islam 68, 1991, 193--231 (movement towards more complex religio--political organisation).
Fabietti, Ugo, “The role played by the organization of the ‘Hums’ in the evolution of political ideas in pre-Islamic Mecca”, PSAS 18, 1988, 25--33 (as for Dostal in the previous entry).
Harding, G.L., “The Safaitic tribes”, al-Abhath 22, 1969, 3--25.
Henninger, Joseph, “La société bédouine ancienne”, ASB 69--93.

---- Arabica Varia. Aufsätze zur Kulturgeschichte Arabiens und seiner Randgebiete, Freiburg (Universitätsverlag) and Göttingen (Vandenhoeck and Ruprecht), 1989.
Hufi, A.M. al-, Al-h/.ayât al-ʻarabiyya min al-shiʻr al-jâhiliyy, Cairo, Nahda, 1962.
Jacob, Georg, Altarabisches Beduinenleben, Hildesheim, Georg Olms, 1967 (repr. of 1897 edition).
Korotayev, Andrey, "Sabaean cultural--political area: some general trends of evolution", PSAS 23, 1993, 49--62.
---- "Internal structure of Middle Sabaean bayt", AAE 5, 1994, 174--83.
---- "The social sense of Middle Sabaean epithet names", PSAS 24, 1994, 157--64.
---- "The political role of the shaʻb of the first order", Raydan 6, 1994, 47--52.
---- "Was there any level of socio--political integration between bayt and shaʻb of third order?", Raydan 6, 1994, 53--55 (i.e. between a lineage and the local territorial community; the reply is yes).
---- "Some trends of evolution of the Sabaean cultural--political area: from clan titles to clan names?", New Arabian Studies 2, 1994, 153--64.
---- "Middle Sabaean cultural--political area: problem of local taxation and temple tithe", Le Muséon 107, 1994, 15--22.
---- "Middle Sabaean cultural--political area: qayls and their tribesmen, clients and maqtawîs", Acta Orientalia 56, 1995, 62--77.
---- Ancient Yemen. Some general trends of evolution of the Sabaic language and Sabaean culture, Oxford, OUP/JSS, 1995.
---- "How could royal power exist without royal taxation? (material sources of Middle Sabaean royal power", PSAS 26, 1996, 75--78.
---- "Middle Sabaean royal succession", Annali dell'Istituto Orientale di Napoli 56, 1996, 297--304.
---- "Individual and collective concerns of the Sabaeans in 1st--4th c. AD", PSAS 28, 1998, 157--67.
Preissler, Holger, "Das kulturelle Niveau von Abhängigen in mittelsabäischen Inschriften", Südarabien 133--41.
Robin, Christian, "La cité et l'organisation sociale à Maʻin: l'exemple de YTL (Baraqish)", SHA 2.157--64.
Salem, A.H., et al., "The genetics of traditional living: Y-chromosomal and mitochondrial lineages in the Sinai peninsula", American Journal of Human Genetics 59, 1996, 741--43.
Sartre, M., Palmyre, cité grecque", Annales archéologiques arabes syriennes 42, 1996, 385--406.
Schlumberger, D., "Les quatre tribus de Palmyre", Syria 48, 1971, 121--33 (civic bodies, not kinship groups).
Serjeant, R.B., "The Daʻif and the Mustadʻaf and the status accorded them in the Qur'an", Journal for Islamic Studies 7 (Johannesburg), 1987, 32--47 (re: socially inferior, non-arms-bearing people).
Sima, Alexander, "Notes on ʻshr in Sabaean inscriptions", PSAS 29, 1999, 159--66 (re: tithes).

LAW AND LEGISLATION

Beeston, A.F.L., "A Sabaean penal law", Le Muséon 64, 1951, 305--15.
---- "A Sabaean trader's misfortunes", JSS 14, 1969, 227--30 (re: Ja 750).
---- "Miscellaneous epigraphic notes II", Raydan 5, 1988, 5--32 (re: Doe 7 and RES 3910).
Cussini, Eleonora, "Transfer of property at Palmyra", Aram 7, 1995, 233--50.
Dareste, R., "Lois des Homerites", Nouvelle revue historique de droit français et étranger 59, 1905, 157--70.
Healey, John F., "Sources for the study of Nabataean law", New Arabian Studies 1, 1993,

203--14.
Irvine, A.K., “Homicide in pre-Islamic South Arabia”, BSOAS 30, 1967, 277--92.
Korotayev, Andrey, “A socio--political conflict in the Qatabanian kingdom?”, PSAS 27, 1997, 141--58.
Loundine, A.G., “Les inscriptions du Jabal al-‘Amud et le conseil des anciens de Saba”, PSAS 19, 1989, 93--96.
Procksch, Otto, Uber die Blutrache bei den vorislamischen Arabern, Leipzig, Teubner, 1899.
Reinert, Werner, Das Recht in der altarabischen Poesie, Köln, Universität Köln, 1963.
Robin, Christian, “L’offrande d’une main en Arabie préislamique” in id. ed., Mélanges linguistiques offerts à M. Rodinson, Paris, Geuthner, 1985, 307--20 (argues that such offerings were made in expiation and served as a substitute for the offender’s own hand).
---- “A propos d’une nouvelle inscription du règne de Sha‘r Awtar : un réexamen de l’éponymat sabéen”, AF 230--49 (re : the term in office of the tribal elders who sat on the supreme council).
Segal, J.B., “Aramaic legal texts from Hatra”, Journal of Jewish Studies 33, 1982, 109--17.
Wolff, H.J., “Römisches Provinzialrecht in der Provinz Arabia”, Aufstieg und Niedergang der römischen Welt 1970, 763--806.

MARRIAGE AND THE ROLE OF WOMEN
Abbott, Nabia, “Pre-Islamic Arab queens”, American Journal of Semitic Languages 58, 1941, 1--22.
---- “Women and the state on the eve of Islam”, American Journal of Semitic Languages 58, 1941, 259--84.
Amaldi, Daniela, “Women in pre-Islamic poetry” in F. de Jong ed., Verse and the Fair Sex, Utrecht, Houtsma Stichting, 1993, 77--84.
Avanzini, A., “Remarques sur le ‘matriarchat’ en Arabie du Sud”, AAKM 157--61.
Beeston, A.F.L., “The so-called harlots of Hadramawt”, Oriens 5, 1952, 16--22 (priestesses inciting revolt upon death of Muhammad).
---- “The position of women in pre-Islamic South Arabia”, Proceedings of the 22nd Congress of Orientalists 1951, Leiden, Brill, 1957, 101--106.
---- “Temporary marriage in pre-Islamic South Arabia”, Arabian Studies 4, 1978, 21--25.
---- “Miscellaneous epigraphic notes”, Raydan 4, 1981, 9--28 (re: Qutra 1).
---- “Women in Saba” in R. Bidwell and G.R. Smith eds., Arabian and Islamic Studies. Articles presented to R.B. Serjeant, London, Longman, 1983, 7--13.
---- “YMN 19: a Sabaean divorce case?”, Südarabien 1--4.
Chelhod, Joseph, “Du nouveau à propos du ‘matriarchat’ arabe”, Arabica 28, 1981, 76--106.
Dostal, Walter, “‘Sexual hospitality’ and the problem of matrilinearity in southern Arabia”, PSAS 20, 1990, 17--30.
Frantsouzoff, S.A., “Die Frau im antiken Südarabien” ” in Im Land der Königin von Saba, Staatliches Museum für Völkerkunde, Munich, 1999, 151--69.
Korotayev, Andrey, “Were there any truly matrilineal lineages in the Arabian peninsula?”, PSAS 25, 1995, 83--98.
Lichtenstäter, I., Women in the aïyâm al-‘arab: a study of female life during warfare in pre-Islamic Arabia, London, Royal Asiatic Society, 1935.
Perron, A., Femmes arabes avant et depuis l’Islamisme, Paris, Librairie Nouvelle, 1858 (mostly descriptive and uncritical).
Preissler, Holger, “Kinder in mittelsabäischen Inschriften”, AF 223--29.
Robertson Smith, W., Kinship and marriage in early Arabia, London, Adam and Charles Black, 1903.
Robin, Christian, “Two inscriptions from Qaryat al-Faw mentioning women”, ATB 168--75.
Ryckmans, Jacques, “A three generations’ matrilineal genealogy in a Hasaean inscription”,

BAA 407--17.
Müller, Walter, “Sabaeische Texte zur Polyandrie”, NESE 2.125--44 (but see Ryckmans, “A three generations’…”, 413).

FEASTING AND REVELLING

Alavoine, V., “Le mrzh/. Est-il un banquet funéraire? Etude des sources épigraphiques et bibliques”, Le Muséon 113, 2000, 1--23 (no, not necessarily).
Ingholt, Harald, “Un nouveau thiase à Palmyre”, Syria 7, 1926, 128--41.
Loundine, A.G., “Le banquet rituel dans l’état de Saba”, PSAS 20, 1990, 95--100.
Maraqten, Mohammed, “Wine drinking and wine prohibition in Arabia before Islam”, PSAS 23, 1993, 95--115.
Nanah, Mouhamed Fouaed, Freigebigkeit und Geiz in der Vorstellungswelt der vorislamischen arabischen Dichter, Erlangen, Friedrich-Alexander Universität, 1987.
Ryckmans, Jacques, “Ritual meals in the ancient South Arabian religion”, PSAS 3, 1973, 36--39.
---- “Le repas rituel dans la religion sud-arabe” in M.A. Beek et al. eds., Symbolae Biblicae et Mesopotamicae F.M. Theodoro dedicatae, Leiden, Brill, 1973, 327--34.
Tarrier, Dominique, “Banquets rituels en Palmyrène et en Nabatène”, Aram 7, 1995, 165--82.
Will, E., “Les salles de banquet de Palmyre et d’autres lieux”, Topoi 7, 1997, 873--87.
Zayadine, F., “A Nabataean inscription from Beida”, ADAJ 21, 1976, 139--42 (mentions a rb mrzh/.’/symposiarch).

CHAPTER 6: RELIGION

POLYTHEISM

Ababneh, Mohammed I., Ba‘alshamîn ‘inda l-Sâmiyyîn, Amman, Yarmouk University, 1994.
Ali, Jawad, “Adyân al-‘arab qabl al-islâm”, SHA 2.107--16*.
Beeston, A.F.L., The Labakh texts (Qahtan 2), London, Luzac, 1971.
---- “Theocracy in the Sayhad culture”, PSAS 7, 1977, 5--10.
---- “The religions of pre-Islamic Yemen” in Chelhod, J., ed., L’Arabie du Sud I, Paris, Maisonneuve et Larose, 1984, 259--69.
---- “Sayhadic divine designations”, PSAS 21, 1991, 1--5.
Dalley, Stephanie, “Bel at Palmyra and elsewhere in the Parthian period”, Aram 7, 1995, 137--51.
Drijvers, H.J.W., The religion of Palmyra, Leiden, Brill, 1976.
EI, s.v. “al-‘Uzza” (M.C.A. Macdonald and L. Nehmé).
Fahd, Toufic, Le panthéon de l’Arabie centrale à la veille de l’hégire, Paris, Geuthner, 1968.
Figueras, Pau, “The Roman worship of Athena--Allat in the Decapolis and the Negev”, Aram 4, 1992, 173--83.
Gawlikowski, M., “Les dieux des Nabatéens”, Aufstieg und Niedergang der römischen Welt 1990, 2659--77.
---- “Les dieux de Palmyre”, Aufstieg und Niedergang der römischen Welt 1990, 2605--58.
Grimme, Hubert, Texte und Untersuchungen zur safatenisch--arabischen Religion, Paderborn, Ferdinand Schöning, 1929.
Henninger, Joseph, “La religion bédouine préislamique”, ASB 115--40; English tr. (“Pre-Islamic bedouin religion”) in AAEI 109--28.
---- “Geisterglaube bei den vorislamischen Arabern” in Festschrift Paul Schebesta, Vienna, St. Gabriel, 1963, 279--316.
---- Arabica Sacra. Aufsätze zur Religionsgeschichte Arabiens und seiner Randgebiete, Freiburg (Universitätsverlag) and Göttingen (Vandenhoeck and Ruprecht), 1981.
Kaizer, T., “De dea syria et aliis diis deabusque: a study of the variety of appearances of Gad in Aramaic inscriptions”, Orientalia Louvaniensa Periodica28, 1997, 147--66; 29, 1998, 33--62.

---- A Study of the Social Patterns of Worship at Palmyra in the Roman Period, Oxford, University of Oxford, 2000.
Knauf, E.A., “Dushara and Shai al-Qaum”, Aram 2, 1990, 175--83.
Korotayev, A.: many of his articles cited above (ch. 5: tribes) are relevant to the social aspects of south Arabian religion.
Krone, Susanne, Die altarabische Gottheit al-Lat, Frankfurt-am-Main, Peter Lang, 1992.
Lecker, M., “Idol worship in pre-Islamic Medina”, Le Muséon 106, 1993, 331--46.
Lundin, A.G., “Die arabischen Göttinnen Ruda und al-‘Uzza”, Hudhud 211--18.
Muhyi l-din, A., “‘Ibâdat al-arwâh/. fî l-mujtama‘ al-‘arabiyy al-jâhiliyy”, SHA 2.153--64*.
Nashef, Khaled al-, “The deities of Dilmun”, BAA 340--66.
Naveh, Joseph, “The inscriptions from Failaka and the lapidary Aramaic script”, BASOR 297, 1995, 1--4 (invocation of Bel, Nabu, Poseidon and Artemis).
Pirenne, Jacqueline, “Une legislation hydrologique en Arabie du Sud antique” in Hommages à A. Dupont-Sommer, Paris, Maisonneuve, 1971, 117--35 (re: Ry 478; see also Beeston, “Kingship”, 262).
Roche, M.J., “Remarques sur les Nabatéens en Méditerranée”, Semitica 45, 1996, 73--99 (dedications of Nabataeans abroad).
Ryckmans, G., Les religions arabes préislamiques, Louvain, Bibliothèque du Muséon, 1951 (useful survey).
Ryckmans, Jacques, “Le panthéon de l’Arabie du Sud préislamique”, Revue de l’histoire des religions 206, 1989, 151--69.
Tarrier, Dominique, “Baalshamin dans le monde Nabatéen”, Aram 2, 1990, 197--203.
Teixidor, J., The pantheon of Palmyra, Leiden, Brill, 1979.
---- Teixidor, J., “Une inscription araméenne provenant de l’Emirat de Sharjah, CRAIBL 1992, 695--707 (Kahl and Manat in a funerary text on a bronze plaque, ca. 2nd c. AD).
Watt, W. Montgomery, “Belief in a ‘high god’ in pre-Islamic Mecca”, JSS 16, 1971, 35--40.
Wellhausen, J., Reste arabischen Heidentums, Berlin, Walter de Gruyter, 1927 (uses chiefly Muslim sources, but still a fundamental study).
Zayadine, F., “The pantheon of the Nabataean inscriptions in Egypt and Sinai”, Aram 2, 1990, 151--74.

MONOTHEISM

AAW, “Christliche Mission in Südarabien”, 4.306--18.
Baron, S.W., A social and religious history of the Jews III, New York, Columbia University, 1957, esp. 60--74 and notes 75--87 thereto.
Beeston, A.F.L., “Himyarite monotheism”, SHA 2.149--54.
---- “Judaism and Christianity in pre-Islamic Yemen” in Chelhod, J., ed., L’Arabie du Sud I, Paris, Maisonneuve et Larose, 1984, 271--78.
Degen, Rainer, “Die hebräische Inschrift DJE23 aus Jemen”, NESE 2.111--16.
Frantsouzoff, S.A., “A Gezerah-decree from ancient southern Arabia”, Aram 8, 1996, 299--306 (re: the Jewish Sabaic inscription Hasi1).
Gil, M., “The origin of the Jews of Yathrib”, Jerusalem Studies in Arabic and Islam 4, 1984, 203--24 (repr. iin AAEI 145--66).
Korotayev, Andrey, “‘Aramaeans’ in a late Sabaic inscription”, Aram 8, 1996, 293--98 (re: the Jewish Sabaic inscription Hasi1).
Müller, Walter, “Eine hebräisch--sabäische Bilinguis aus Bait al-Ašwal”, NESE 2.117--24.
Nau, Francois, Les Arabes chrétiens de Mésopotamie et de Syrie, Paris, Imprimerie nationale, 1933.
Rippin, Andrew, “Rahman and the Hanifs”,
Robin, Christian, “Judaïsme et Christianisme en Arabie du Sud”, PSAS 10, 1980, 85--96.
---- and Beaucamp, Joelle, “Le Christianisme dans la péninsule arabique d’après l’épigraphie

et l'archéologie", Travaux et Mémoires 8, 1981, 45--61.
Trimingham, J.S., Christianity among the Arabs in pre-Islamic times, London, Longman, 1979.

MAGIC AND MEDICINE

Lecker, M., "The bewitching of the Prophet Muhammad by the Jews", al-Qantara 13, 1992, 561--69.
Maraqten, Mohammed, "An inscribed amulet from Shabwa", AAE 7, 1996, 88--94.
Ryckmans, Jacques, "Un rite d'istisqa' au temple sabéen de Marib", Annuaire de l'Institut de Philologie et d'Histoire orientales et slaves 20, 1973, 379--88 (re: Ja735).
---- "'Uzza et Lat dans les inscriptions sud-arabes à propos de deux amulettes méconnues", JSS 25, 1980, 193--204.

DIVINATION

Beeston, A.F.L., "The oracle sanctuary of Jar al-Labba", Le Muséon 62, 1949, 207--28.
Crone, Patricia, "Tribes without saints", Paper given at Mellon Seminar, Princeton University, 1991 (re: diviners).
Drijvers, H.J.W., "Inscriptions from Allat's sanctuary", Aram 7, 1995, 109--19.
Fahd, Toufic, La divination arabe, Leiden, Brill, 1966.
Ryckmans, Jacques, "La mancie par HRB en Arabie du Sud ancienne" in Erwin Graf ed., Festschrift Werner Caskel, Leiden, Brill, 1968, 261--73.

SACRED OFFICES, PLACES, TIMES

Beeston, A.F.L., "Notes on Old South Arabian lexicography IV", Le Muséon 65, 1952, 139--47 (re: Nami74).
---- "The 'Ta'lab lord of pastures' texts", BSOAS 17, 1955, 154--56 (re: RES 4176).
---- "The Hasaean tombstone J1052", Journal of Ancient Near Eastern Studies (Columbia University) 11, 1979, 17--18 (re: priest of Yabish).
---- "The constructions at Itwat", PSAS 14, 1984, 40--41.
---- "The Qatabanic text VL1", PSAS 16, 1986, 7--11 (re: rshw).
Frantsouzoff, S.A., "Regulation of conjugal relations in ancient Raybun", PSAS 27, 1997, 113--27.
Gawlikowski, M., Palmyre VI. Le temple palmyrénien, Warsaw, PWN, 1973 (re: relationship between tribes/priests/temples).
---- "Sacred space in ancient Arab religions", SHAJ 1, 1982, 301--303.
Ghul, M.A., "The pilgrimage at Itwat (revised by A.F.L. Beeston)", PSAS 14, 1984, 33--39 (re: RES4176).
Lammens, Henri, "Les sanctuaires préislamites dans l'Arabie occidentale", Mélanges de l'Université Saint Joseph 11, 1926, 39--173.
Müller, Walter, "Zwei sabäische Votivinschriften an die Sonnengöttin NAMI 74 und Yemen Museum 1965", Sayhadica 57--73.
---- "Das Statut des Gottes Ta'lab von Riyam für seinen Stamm Sum'ay", Südarabien 89--110 (re: RES 4176).
Noja, Sergio, "Une hypothèse sur l'origine du vêtement du muh/.rim", Annali dell'Istituto Orientale di Napoli 45, 1985, 405--409 (re : similarity of Muslim pilgrim garb to attire of a south Arabian statuette).
Pirenne, Jacqueline, "Le site préislamique de al-Jaw, la Bible, le Coran et le Midrash", Revue Biblique 82, 1975, 34--69.
Robin, Christian, "Les montagnes dans la religion sudarabique", Hudhud, 263--81.
Serjeant, R.B., "Haram and Hawtah, the sacred enclave in Arabia" in Mélanges Taha Husain, Cairo, Dar al-Ma'arif, 1962, 41--58 (repr. in AAEI 167--84).

OFFERINGS TO THE GODS
Beeston, A.F.L., “Miscellaneous epigraphic notes II”, Raydan 5, 1988, 5--32 (pp. 11--14 deal with the Mi‘sal and Gidma texts relating to human sacrifice).
Christides, Vassilios, “Once again the ‘Narrations’ of Nilus Sinaiticus”, Byzantion 43, 1973, 39--50.
Henninger, Joseph, “Das Opfer in den altsüdarabischen Hochkulturen”, Anthropos 37--40, 1946--47, 779--810.
---- “Le sacrifice chez les Arabes”, Ethnos 13, 1948, 1--16.
---- “Die unblutige Tierweihe der vorislamischen Araber in ethnologischer Sicht”, Paideuma 4, 1950, 179--90.
---- “Neuere Untersuchungen über Menschenopfer bei semitischen Volkern”, Hudhud 65--78.
Maraqten, Mohammed, “New evidence of infanticide in ancient Yemen”, PSAS forthcoming (re: MSS 74, a text on palm-stalk regarding “those who kill their children”, for cultic reasons).
Mayerson, Philip, “Observations on the ‘Nilus’ Narrationes”, Journal of the American Research Centre in Egypt 12, 1975, 51--74.
Milik, J.T., Dédicaces faites par les dieux (Palmyre, Hatra, Tyr), Paris, Geuthner, 1972 (re : what one can learn from dedications, such as professions, banqueting, etc.).
Müller, Walter, “Die angeblichen ‘Töchter Gottes’ im Licht einer neuen qatabanischen Inschrift”, NESE 2.145--48 (re: symbolic dedication of a person to a deity).
---- “Notes on the use of frankincense in South Arabia”, PSAS 6, 1976, 124--36.
Pirenne, Jacqueline, “RShW, RShWT, FDY, FDYT and the priesthood in ancient South Arabia”, PSAS 6, 1976, 137--43 (argues that the terms refer to sacrifice not to priesthood).
Ryckmans, G., “Le sacrifice DBH dans les inscriptions Safaîtiques”, Hebrew Union College Annual 23, 1950--51, 431--38.
Ryckmans, Jacques, “Les confessions publiques sabéennes: le code sud-arabe de pureté rituelle”, Annali dell’Istituto Orientale di Napoli 32, 1972, 1--15.
---- “Sacrifices, offrandes et rites connexes en Arabie du Sud pré-Islamique” in J. Quaegebeur ed., Ritual and sacrifice in the ancient Near East, Leuven, Peeters, 1993, 355--80.

CHAPTER 7: ART, ARCHITECTURE AND ARTEFACTS

Since we have no literary texts from Arabia, it is on the material culture that scholars have had to concentrate, and consequently the secondary literature for this topic is vast. Here I will only cite the works directly relevant to what I have said in this chapter and a few useful monographs. The only survey of Arabian art is that by D.T. Potts in J. Turner ed., The Dictionary of Art, New York, Grove, 1996, 2.246-75. After that one can either turn to the appropriate section in the survey works listed for chapters 1--3 or else delve into journals such as AAE, ABADY, ADAJ, BASOR, Atlal, PSAS and Syria. For east Arabia see also the bibliography compiled by E. Haerinck and K.G. Stevens, Preislamic archaeology of Kuwait, northeastern Arabia, Bahrain, Qatar, United Arab Emirates and Oman (Louvain, Peeters, 1985); First supplement (1985--95), Louvain, Peeters, 1996.

ARABIAN MATERIAL CULTURE?
AAW, “Mšatta und der Beginn der arabischen Kunst”, 1.592--607.
Audouin, Rémy, “Etude du décor des temples des Banat ‘Ad”, AA 121--42.
Badawy, A., “The contribution of the Arabs to Islamic Art”, Rivista degli Studi Orientali 39, 1964, 261--85.
Boucharlat, R., “Archaeology and artifacts of the Arabian Peninsula”, CANE 2.1335--53.
Breton, J.F., “Arabie méridionale et Orient hellénisé”, AMB 191--99.

Buffa, Vittoria, “Note per una tipologia delle techniche costruttive del periodo sudarabico antico”, AA 165--77.
Colledge, Malcolm, The art of Palmyra, London, Thames and Hudson, 1976.
Creswell, K.A.C., A short account of early Muslim architecture, Harmondsworth, Penguin, 1958; revised and supplemented by James W. Allan, Aldershot, Scolar, 1989.
Ettinghausen, R., and Grabar, Oleg, The art and architecture of Islam 650--1250, Harmondsworth, Penguin, 1987.
Frantsouzoff, S.A., “A parallel to the Second Commandment in the inscriptions of Raybun”, PSAS 28, 1998, 61--67 (re: prohibition of graven images in Hadramawt).
Hillenbrand, Robert, Islamic art and architecture, London, Thames and Hudson, 1999.
Maigret, Alessandro de, “Alcune considerazioni sulle origini e lo sviluppo dell’arte sudarabica”, AF 142--59.
McKenzie, Judith, “The development of Nabataean sculpture at Petra and Khirbet Tannur”, Palestine Exploration Quarterly 120, 1988, 81--107.
Parlasca, Ingemarie, “Probleme Nabatäischer Koroplastik: aspekte der auswärtigen Kulturbeziehungen Petras” in A. Invernizzi and J.F. Salles eds., Arabia Antiqua, Rome, IsMEO, 1993, 55--79.
Parlasca, Klaus, “Some problems of Palmyrene plastic art”, Aram 7, 1995, 59--71 (re: funerary sculpture).
---- “Bemerkungen zu den archäologischen Beziehungen zwischen Südarabien und dem griechisch--römischen Kulturkreis”, PA 281--88.
Parr, P.J., “Pottery, people and politics” in id. and Roger Moorey eds., Archaeology in the Levant. Essays for Kathleen Kenyon, Warminster, Aris and Phillips, 1978, 203--209.
---- The present state of archaeological research in the Arabian peninsula”, SHA 2.43--54.
Potts, D.T., “Tayma and the Assyrian Empire”, AAE 2, 1991, 10--23 (re: Assyrian influence on Tayma relief).
Roche, M.J., “Khirbet et-Tannur et les contacts entre Edomites et Nabatéens”, Transeuphratène 18, 1999, 59--69 (re : persistence of Edomite cult features in Nabataea).
Schmidt-Colinet, A., “Aspects of Romanization: the tomb architecture at Palmyra and its decoration” in Susan Alcock ed., The early Roman Empire in the east, Oxford, Oxbow, 1997, 157--77.
Talgam, Rina, The stylistic origins of Umayyad sculpture as shown in Khirbat al-Mafjar, Mshatta, and Qas/.r al-Hayr west, forthcoming.
Vycichl, Werner, “Studies on Nabataean archaeology and religion”, Petra 147--51.
Will, Ernest, “De la Syrie au Yémen : problèmes des relations dans le domaine de l’art”, AP 271--80.
---- “Architecture locale et architecture impériale à Palmyre”, Aram 7, 1995, 29--35.

SETTLEMENTS

Recently many studies on individual sites have been published and these will also contain information on funerary structures, public buildings, etc.

Abu-Duruk, H.I., Introduction to the archaeology of Tayma, Riyad, Dept. of Antiquities and Museums, 1986.
Ansary, A.R., Qaryat al-Fau. A portrait of pre-Islamic civilisation in Saudi Arabia, Riyad, University of Riyad, 1982.
Beeston, A.F.L., “Functional significance of the old South Arabian town”, PSAS 1, 1971, 26--28.
---- “Pre-Islamic San‘a” in R.B. Serjeant and R. Lewcock eds., San‘a, an Arabian Islamic city, London, World of Islam Festival Trust, 1983, 36--38.
Breton, J.F., ed., Fouilles de Shabwa II, Paris, Geuthner, 1992 (published from Syria 68,

1991).
Doe, Brian, Monuments of South Arabia, Naples and Cambridge, Falcon-Oleander, 1983.
Failaka/Dilmun: the second millennium settlements, 2 vols., Moesgaard, Jutland Archaeological Society, 1983--87 (seals, pottery).
Frifelt, Karen, The Island of Umm an-Nar, 2 vols., Moesgaard, Jutland Archaeological Society, 1991.
Hojlund, Flemming, and Andersen, H.H., Qala'at al-Bahrain, 2 vols., Moesgaard, Jutland Archaeological Society, 1994--97.
Ikaros: the Hellenistic settlements, 3 vols., Moesgaard, Jutland Archaeological Society, 1982--89 (figurines, pottery, sacred enclosure).
Kennet, Derek, et al., "Ra's al-Khaimah tower survey 1991--2", PSAS 23, 1993, 9--47.
Lindner, Manfred, ed., Petra und das Königreich der Nabatäer, Munich, Delp, 1989.
McKenzie, Judith, The architecture of Petra, Oxford, OUP, 1990.
Michalowski, K., and Gawlikowski, M., Palmyre I--IX, Warsaw, PWN, 1960--84.
Mouton, M., Mleiha I: environnement, stratégies de subsistance et artisanats, Lyon, Maison de l'Orient, 1999.
Nehmé, Leila, and Villeneuve, F., Pétra : métropole de l'Arabie antique, Paris, Seuil, 1999.
Palmyre. Bilan et perspectives, Colloque de Strasbourg 1973, Strasbourg, AECR, 1976 (aspects of material culture of Palmyra).
Potts, D.T., Ancient Magan: the secrets of Tell Abraq, London, Trident, 2000.
Ryckmans, Jacques, "Al-Ukhdud: the Philby-Ryckmans-Lippens expedition of 1951", PSAS 11, 1981, 55--63 (re: Najran).
---- "Villes fortifiées du Yémen antique", Bulletin de la classe des lettres et des sciences morales et politiques (Académie royale de Belgique) 67, 1981--85, 253--66.
Salles, J.F., et al., Failaka. Fouilles françaises, 3 vols., Lyon, Maison de l'Orient, 1984--90.
Saud, A.S. al-, Central Arabia during the early Hellenistic period, Riyad, King Fahd National Library, 1997 (re: the site of al-'Ayun in the area of al-Aflaj).
Schmidt, Jürgen, et al., "Marib und Umgebung", ABADY 1, 1982, 5--89; 2, 1983; 3, 1986, 1--95; 4, 1987, 63--142.
Schreiber, Jürgen, Die Siedlungsarchitektur auf der Halbinsel Oman vom 3. bis zur Mitte des 1. Jahrtausends v.Chr., Münster, Ugarit-Verlag, 1998.
Semitica 43--44, 1995: La ville de 1200 avant JC à l'hégire (contains articles on Petra, Palmyra and cities of south Arabia).
Stucky, Rolf, "Das Nabataeische Wohnhaus und das urbanistsiche System der Wohnquartiere in Petra" in A. Invernizzi and J.F. Salles eds., Arabia Antiqua, Rome, IsMEO, 1993, 37--53.
Sudairi, A.A. al-, The desert frontier of Arabia : al-Jawf through the ages, London, Stacey International, 1995.
Weber, Thomas, and Wenning, Robert, eds., Petra. Antike Felsstadt zwischen arabischer Tradition und griechischer Norm, Mainz-am-Rhein, Zabern, 1997.

FUNERARY STRUCTURES AND OBJECTS

Cleveland, Ray L., An ancient South Arabian necropolis, Baltimore, John Hopkins, 1965.
Gawlikowski, M., Monuments funéraires de Palmyre, Warsaw, PWN, 1970.
Harding, G. Lankester, "The cairn of Hani'", ADAJ 2, 1953, 8--55.
---- "The cairn of Sa'd" in P.J. Parr and Roger Moorey eds., Archaeology in the Levant. Essays for Kathleen Kenyon, Warminster, Aris and Phillips, 1978, 243--49.
Kirkbride, Diana, "Ancient Arabian ancestor idols", Archaeology 22, 1969, 116-21, 188-95 (examples of gravemarkers carved with human outlines).
Jasim, S.A., "The excavation of a camel cemetery at Mleiha, Sharjah", AAE 10, 1999, 69--101.
Mouton, M., "Les tours funéraires d'Arabie, nefesh monumentales", Syria 74, 1997, 81--99.

Salles, J.F., and Lombard, P., La nécropole de Janussan (Bahrain), Lyon, Maison de l'Orient, 1984.
Schmidt-Colinet, A., Das Tempelgrab nr. 36 in Palmyra. Studien zur Palmyrenische Grabarchitektur und ihrer Ausstattung, Mainz-am-Rhein, P. von Zabern, 1992.
Vogt, Burkhard, Zur Chronologie und Entwicklung der Gräber des späten 4.--2. Jtsd. v. Chr. auf der Halbinsel Oman, Göttingen, Georg-August-Universität, 1985.
---- "Death, resurrection and the camel", AF 279--90.

PALACES AND TEMPLES
Breton, J.F., "Religious architecture in ancient Hadramawt", PSAS 10, 1980, 5--16.
---- "Le château royal de Shabwa", Syria 68, 1991, 209-28.
---- "Le sanctuaire de 'Athtar Dhu Risaf d'as-Sawda' (Yémen)", CRAIBL 1992, 429--53.
---- "Les temples de Ma'in et du Jawf (Yémen): état de la question", Syria 75, 1998, 61--80.
---- and Robin, Christian, "Le sanctuaire préislamique du Ğabal al-Lawd (nord-Yémen)", CRAIBL 1982, 590--629.
Crawford, Harriet, et al. eds., The Dilmun Temple at Saar, London, Kegan Paul, 1997.
Hammond, Philip, The Temple of the Winged Lions, Petra, Fountain Hills (Arizona), Petra Publishing, 1996.
Maigret, Alessandro de, "The Excavations of the temple of Nakrah at Baraqish", PSAS 21, 1991, 159--72.
Nehmé, Leila, "L'espace cultuel à l'époque Nabatéenne", Topoi 7, 1997, 1023—67.
---- and Robin, Christian, "Le temple de Nakrah à Yathill (Baraqish)", CRAIBL 1993, 427--96.
Schmidt, Jürgen, "Zur altsüdarabischen Tempelarchitektur", ABADY 1, 1982, 161--69.
Sedov, A.V., and Batayi', Ahmad, "Temples of ancient Hadramawt", PSAS 24, 1994, 183--96.
Tholbecq, L., "Les sanctuaires des Nabatéens", Topoi 7, 1997, 1069--95.

CULTIC OBJECTS
Avner, Uzi, "Nabataean standing stones and their interpretation", Aram forthcoming.
Connelly, J.B., "Votive offerings from Hellenistic Failaka", AP 145--58.
Lammens, H., "Le culte des bétyles et les processions religieuses chez les arabes préislamites" in id., L'Arabie occidentale avant l'hégire, Beirut, Imprimerie Catholique, 1928, 101--79.
Maraqten, Mohammed, "Typen altsüdarabische Altäre", AF 160--77.
Patrich, Joseph, The formation of Nabataean Art. Prohibition of a graven image among the Nabataeans, Jerusalem, Magnes Press, 1990.
Pirenne, Jacqueline, "La religion des arabes préislamiques d'après trois sites rupestres et leurs inscriptions" in Al-Bahit. Festschrift Joseph Henninger, Bonn, Anthropos-Institut, 1976, 177--217 .
---- "Sud-Arabe: Qyf-Qf/Mqf. De la lexicographie a la spiritualite des idolatres", Semitica 30, 1980, 93--124.
Ryckmans, G., "Sud-arabe mdhbh/.t = Hébreu mzbh/. Et termes apparentés" in Erwin Graf ed., Festschrift Werner Caskel, Leiden, Brill, 1968, 253--60.
Tawil, H.M. al-, Early Arab icons: literary and archaeological evidence for the cult of religious images in pre-Islamic Arabia, Iowa, University of Iowa, 1993 (mostly uses Muslim sources).
Toorn, Karel van der, "Worshipping stones: on the definition of cult symbols", Journal of Northwest Semitic Languages 23, 1997, 1--14 (argues that cult-stones were perceived as manifestations of deities).
Wenning, Robert, "Hegra and Petra: some differences", Aram 8, 1996, 253--67 (esp. niches and betyls).
Zayadine, Fawzi, ed., Petra and the caravan cities, Amman, Department of Antiquities, 1990

(contains articles on representation of Nabataean deities and use of figurines).

WEAPONRY AND WARFARE

Beeston, A.F.L., Warfare in Ancient South Arabia (2nd--3rd c. AD), London, Luzac, 1976 (Qahtan 3).
Graf, David, “The Nabataean army and the Cohortes Ulpiae Petraeorum” in E. Dabrowa ed., The Roman and Byzantine army in the east, Krakow, Uniwersytet Jagiellonski, 1994, 265--311.
Macdonald, M.C.A., “Camel hunting or camel raiding?”, AAE 1, 1990, 24--28.
---- “Hunting, fighting and raiding: the horse in pre-Islamic Arabia” in David Alexander ed., Furusiyya. The horse in the art of the Near East, Riyad, King Abdulaziz Public Library, 1996, 73--83.
Mouton, M., “Les pointes de flèches en fer des sites préislamiques de Mleiha et ed-Dur, E.A.U.”, AAE 1, 1990, 88--103.
Potts, D.T., “Late Sasanian armament from southern Arabia”, Electrum 1, 1997, 127--37.
---- “Some issues in the study of the pre-Islamic weaponry of southeastern Arabia”, AAE 9, 1998, 182--208.
Schwarzlose, F.W., Die Waffen der alten Araber aus ihren Dichtern dargestellt, Leipzig, Hinrichs, 1886.

ROCK ART

Anati, E., Rock art in Central Arabia, 4 vols., Louvain, Institut Orientaliste, 1968--74.
Betts, A.V.G., “The hunter’s perspective: 7th millennium BC rock carvings from eastern Jordan”, World Archaeology 19, 1987, 214--25.
Jung, M., Research on rock art in North Yemen, Naples, AION supplement, 1991.
Khan, Majeed, et al., “Rock art and epigraphic survey of northern Saudi Arabia”, Atlal 9, 1985, 128--44; 10, 1986, 82--93; 11, 1988, 61--76; 12, 1989, 41--52; 13, 1990, 35--40; 14, 1996, 55--72.
---- “Schematisation and form in the rock art of northern Saudi Arabia”, Atlal 11, 1988, 95--100.
---- “Sacred images of the metaphysical world”, Atlal 12, 1989, 55--58.
Ziolkowski, M.C., “A study of the petroglyphs from Wadi al-Hayl, Fujairah”, AAE 9, 1998, 13--89.

COINS AND SEALS

Meshorer, Yaakov, Nabataean coins, Jerusalem, Hebrew University (Qedem 3), 1975.
Munro-Hay, S.C.H., “The coinage of Shabwa and other ancient South Arabian coinage in the National Museum, Aden”, Syria 68, 1991, 393--418.
---- “Coins of ancient South Arabia”, Numismatic Chronicle 1994, 191--203; 1996, 33--47.
Pickworth, Diana, “Die Glyptik Südarabiens” in Im Land der Königin von Saba, Staatliches Museum für Völkerkunde, Munich, 1999, 144--47.
Potts, D.T., The pre-Islamic coinage of Eastern Arabia, Copenhagen, Carsten Niebuhr Institute, 1991; Supplement published in 1994.
Robin, Christian, “Monnaies provenant de l’Arabie du nord-est”, Semitica 24, 1974, 83--125.
Sindi, Khalid Mohammed al-, Dilmun seals, Bahrain, Bahrain National Museum, 1999.

ARTISANS AND CRAFTS

Khan, Ahmad, “The tanning cottage industry in pre-Islamic Arabia”, Journal of the Pakistan Historical Society 19, 1971, 85--100.
Schmidt-Colinet, A., “A Nabataean family of sculptors at Hegra”, Berytus 31, 1983, 95--102.
Schmitt-Korte, K., “Nabataean pottery: a typological and chronological framework”, SHA 2.7--40.

Stauffer, A., and Asad, K., Die Textilien aus Palmyra, Mainz-am-Rhein, P. von Zabern, 2000.

CHAPTER 8: LANGUAGE AND LITERATURE

SCRIPTS

AAW, “Anfänge der arabischen Schriftsprache”, 2.357--69, 4.1--13.
Beeston, A.F.L., “Mahmoud Ali Ghul and the Sabaean cursive script”, ASMG 15--19.
Bordreuil, Pierre, and Pardee, Dennis, “Un abécédaire du type sud-sémitique découvert en 1988 dans les fouilles de Ras Shamra-Ougarit”, CRAIBL 1995, 855--60.
Bron, F., “Vestiges de l’écriture sud-sémitique dans le Croissant Fertile”, PA 81--91.
Dietrich, M., and Loretz, O., Die Keilalphabete. Die phönizisch-kanaanäischen und altarabischen Alphabete in Ugarit, Munster, Ugarit-Verlag, 1988.
Gruendler, B., The development of the Arabic scripts from the Nabatean era to the first Islamic century, Atlanta (Georgia), Scholars, 1993.
Healey, John F., “The Nabataean contribution to the development of the Arabic script”, Aram 2, 1990, 93--98.
Khan, M., “Recent rock art and epigraphic investigations in Saudi Arabia”, PSAS 21, 1991, 113--22.
Knauf, E.A., “The migration of the script and the formation of the state in South Arabia”, PSAS 19, 1989, 79--91.
Macdonald, M.C.A., “ABCs and letter order in Ancient North Arabian”, PSAS 16, 1986, 101--68.
---- “Cursive Safaitic inscriptions? A preliminary investigation”, ASMG 62--81.
Naveh, Joseph, “The inscriptions from Failaka and the lapidary Aramaic script”, BASOR 297, 1995, 1--4.
Robin, C., “Les écritures de l’Arabie avant l’Islam”, AAKM 127--37.
Ryckmans, Jacques, “Alphabets, scripts and languages in pre-Islamic Arabian epigraphical evidence”, SHA 2.73--86.
---- “L’ordre alphabétique sud-sémitique et ses origines” in Christian Robin ed., Mélanges linguistiques offerts à M. Rodinson, Paris, Geuthner, 1985, 343--59.
---- “Pétioles de palmes et bâtonnets sud-arabes inscrits”, AF 250--59.
Shahri, A.A.M al-, “Recent epigraphic discoveries in Dhofar”, PSAS 21, 1991, 173--91.

LANGUAGES

Beeston, A.F.L., “The Inscription Jaussen-Savignac 71”, PSAS 3, 1973, 69--72.
---- “Nemara and Faw”, BSOAS 42, 1979, 1--6 (tr. of ‘Igl text).
---- “Languages of pre-Islamic Arabia”, Arabica 28, 1981, 178--86.
---- “Languages. Pre-Islamic South Arabian”, The Anchor Bible Dictionary, New York, Doubleday, 1992, 4.223--26.
Bellamy, James, “Two pre-Islamic Arabic inscriptions revised: Jabal Ramm and Umm al-Jimal”, Journal of the American Oriental Society 108, 1988, 369--78 (both undated).
Cantineau, J., Le Nabatéen, Paris, Ernest Leroux, 1930--32.
Corriente, F., “From old Arabic to Classical Arabic through the pre-Islamic koine: some notes on the native grammarians’ sources, attitudes and goals”, JSS 21, 1976, 62--98.
Costa, P., “Further comments on the bilingual inscription from Baraqish”, PSAS 16, 1986, 33--36 (a short Greek/Latin text; see also C. Marek, “Der römische Inschriftenstein von Baraqis”, AF 178--90).
Diem, W., “Some glimpses of the rise and early development of Arabic orthography”, Orientalia 45, 1976, 251--61.
Drewes, A.J., “The phonemes of Lihyanite” in Christian Robin ed., Mélanges linguistiques offerts à M. Rodinson, Paris, Geuthner, 1985, 165--73.
Healey, John, and Smith, G. Rex, “Jaussen-Savignac 17-the earliest dated Arabic document”,

Atlal 12, 1989, 77--84 (a funerary text dated 287 AD in Arabic with some Nabataean features).
Kropp, Manfred, “The inscription Ghoneim AFO 27. 1980. ABB. 10”, PSAS 22, 1992, 55--67.
Livingstone, Alasdair, “A linguistic, tribal and onomastical study of the Hasaean inscriptions”, Atlal 8, 1984, 86--108.
---- “An early attestation of the Arabic definite article”, JSS 42, 1997, 259--61.
Macdonald, M.C.A., “Reflections on the linguistic map of pre-Islamic Arabia”, AAE 11, 2000, 28--79.
---- “The form of the definite article in classical Arabic. Some light from the Jahiliyya”, JSS forthcoming.
Maraqten, Mohammed, “The Arabic words in Palmyrene inscriptions”, Aram 7, 1995, 89--108.
Müller, Walter, “Das Altarabische und das klassische Arabisch” in W. Fischer ed., Grundriss der arabischen Philologie I, Wiesbaden, Reichert, 1982, 17--36.
O’Connor, M., “The Arabic loanwords in Nabataean Aramaic”, Journal of Near Eastern Studies 45, 1986, 213--29.
Rabin, Chaim, Ancient West-Arabian, London, Taylor’s Foreign Press, 1951.
Robin, Christian, “Les langues de la péninsule Arabique”, AAKM 89--111.
---- “Les plus anciens monuments de la langue arabe”, AAKM 113--25.
Said, Salah Ahmad, Das Arabische in vorislamischer Zeit, Erlangen, Friedrich-Alexander Universität, 1994 (re: Safaitic and Dedanitic).
Seray, Hamad bin, and Healey, John, “Aramaic in the Gulf: towards a corpus”, Aram forthcoming.

DOCUMENTS
Abdallah, Y.M., “Ein altsüdarabischer Vertragstext von den neuentdeckten Inschriften auf Holz”, AF 1--12.
André-Salvini, B., and Lombard, P., “La découverte épigraphique de 1995 à Qal‘at al-Bahrein”, PSAS 27, 1997, 165--70 (a new find of cuneiform tablets, mostly brief economic texts).
Cotton, H.M., et al., “The papyrology of the Roman Near East: a survey”, Journal of Roman Studies 85, 1995, 214--35 (pp. 223--25: Arabia).
Frantsouzoff, S.A., “Hadramitic documents written on palm-leaf stalks”, PSAS 29, 1999, 55--66.
Ghul, Omal al-, “The names of the buildings in the Greek papyrus no. 10 from Petra”, PSAS 29, 1999, 67--71 (one of a number of papyri concerning acquisition/cession of property in Petra).
Maraqten, Mohammed, “Writing materials in pre-Islamic Arabia”, JSS 43, 1998, 287--310.
Puech, E., “Présence arabe dans les manuscrits de ‘La grotte aux lettres’ du Wadi Khabra”, PA 37--46 (four legal papyri from 90s AD).
Ryckmans, Jacques, “Inscribed Old South Arabian sticks and palm-leaf stalks”, PSAS 23, 1993, 127--40.
---- et al., Textes du Yémen antique inscrits sur bois, Louvain, Institut Orientaliste, 1994.
---- and Loundine, A.G., “Un pétiole de palme inscrit en minéen”, Südarabien 171--80.

INSCRIPTIONS (for further examples of juridical texts see chapter 5 above re: law)
AAW, “Neue lihyanische Inschriften. Mit einem Beitrag G. Ryckmans”, 5.1.24--33.
Avanzini, A., “For a study on the formulary of construction inscriptions”, Sayhadica 11--20.
Beeston, A.F.L., The mercantile code of Qataban (Qahtan 1), London, Luzac, 1959.
---- “A Minaean market code”, BSOAS 41, 1978, 142--45 (re: M 356, a Dedanite--Minaean inscription).

Branden, A. van den, Les inscriptions Thamoudéennes, Louvain, Bibliothèque du Muséon, 1950.
---- Les textes Thamoudéens de Philby, 2 vols., Louvain, Bibliothèque du Muséon, 1956.
---- Les inscriptions dédanites, Beirut, l'Université Libanaise, 1962.
EI, s.v. "Safaitic", "Thamudic".
Gawlikowski, M., and As'ad, K., "Le péage à Palmyre en 11 après J.C.", Semitica 41--42, 1991--92, 163--72 (re: inscription concerning a camel tax).
Gruntfest, Y., "Language and style of the south Arabian inscriptions: votive inscriptions from Marib", Jerusalem Studies in Arabic and Islam 7, 1986, 1--34.
King, Geraldine, "The Basalt Desert Rescue Survey and some preliminary remarks on the Safaitic inscriptions and rock drawings", PSAS 20, 1990, 55--78.
Kropp, Manfred, "Individual public confession or stylised document of lawsuit?", PSAS forthcoming (argues that south Arabian expiation texts illustrate judicial process not personal piety).
Lundin, A.G., "Die Inschriften des antiken Raybun", Mare Erythraeum (Munich) 1, 1997, 19--26.
Macdonald, M.C.A., "Some reflections on epigraphy and ethnicity in the Roman Near East", Mediterranean Archaeology 11, 1998, 177--90.
---- "The seasons and transhumance in the Safaitic inscriptions", Journal of the Royal Asiatic Society 3.2, 1992, 1--11.
---- et al., "Les inscriptions safaïtiques de Syrie cent quarante ans après leur découverte", CRAIBL 1996, 435--94.
Maraqten, Mohammed, "Curse formulae in South Arabian inscriptions and some of their Semitic parallels", PSAS 28, 1998, 189--99.
Matthews, J.F., "The tax law of Palmyra", Journal of Roman Studies 74, 1984, 157--80.
Müller, Walter, "Some remarks on the Safaitic inscriptions", PSAS 10, 1980, 67--74.
Nehmé, Laila, "La géographie des inscriptions de Pétra", Antiquités Sémitiques 2, 1997, 125--43.
Puech, E., "Inscriptions araméennes du Golfe: Failaka, Qala'at al-Bahrein et Mulayha", Transeuphratène 16, 1998, 31--55.
Robin, Christian, "L'épigraphie de l'Arabie avant l'Islam: intérêt et limites", AAKM 13-- 24.
Ryckmans, Jacques, "Les inscriptions anciennes de l'Arabie du Sud", Oosters Genootschap in Nederland (Leiden, Brill) 4, 1973, 79--110.
---- "Formal inertia in the South Arabian inscriptions", PSAS 4, 1974, 131--39.
Scagliarini, Fiorella, "The Dedanitic inscriptions from Ğabal 'Ikma in northwestern Hejaz", PSAS 29, 1999, 143--50.
Sima, Alexander, Die Lihyanischen Inschriften von al-'Udhayb, Rahden, Marie Leidorf, 1999.
---- "Die sabäische Buss- und Sühneinschrift YM 10.703", Le Muséon 113, 2000, 185--204.
Theeb, S.A. al-, Aramaic and Nabataean inscriptions from north-west Saudi Arabia, Riyad, King Fahd National Library, 1993.
---- Dirâsa tah/.lîliyya li-nuqûsh nabat/.iyya qadîma min shimâl gharb al-mamlakat al-'arabiyya, Riyad, King Fahd National Library, 1995.
---- Nuqûsh al-H/.ijr al-nabat/.iyya, Riyad, King Fahd National Library, 1998.
Winnett, F.V., "Some Thamudic religious texts in the light of the Ha'il inscriptions", Berytus 22, 1973, 95--100.

POETRY

Abdallah, Y.M., "Naqsh al-qas/.îda al-H/.imyariyya aw tarnîmat al-Shams", Raydan 5, 1988, 81--100.
Beeston, A.F.L., et al. eds., Arabic literature to the end of the Umayyad period, Cambridge,

CUP, 1983 (has useful sections on “pre-Islamic poetry”, “Early Arabic prose” and “The Qur’an”).
---- “Antecedents of classical Arabic verse?” in Festschrift Ewald Wagner,, Beirut, Franz Steiner, 1994, 1.234--43.
Bellamy, James, “Arabic verses from the first/second century: the inscription of ‘En ‘Avdat”, JSS 35, 1990, 73--79.
Caskel, Werner, Das Schicksal in der altarabischen Poesie, Leipzig, Eduard Pfeiffer, 1926.
Fares, Bichr, L’honneur chez les Arabes avant l’Islam, Paris, Librairie d’Amérique et d’Orient, 1932.
Frolov, Dmitry, Classical Arabic verse. History and theory of ‘Arud, Leiden, Brill, 2000.
Gabrieli, Francesco, “La letteratura beduina preislamica”, ASB 95--114.
Gamal, Adel S., “The beginnings of classical Arabic poetry” in M. Mir ed., Literary heritage of Classical Islam, Princeton, Darwin, 1993, 41--67.
Goldziher, Ignaz, “Muruwwa and Din” in id., Muslim studies 1, Chicago, Aldine, 1967, 11--44 (original German: Halle 1889; classic exposition of pagan Arab honour and its conflict with Islam).
Jones, Alan, Early Arabic poetry, 2 vols., Oxford, Ithaca, 1992, 1996.
Kennedy, P.F., The wine song in classical Arabic poetry, Oxford, Clarendon, 1997 (tr. of ‘Adi ibn Zayd).
Kropp, Manfred, “A Puzzle of Old Arabic tenses and syntax: the inscription of ‘En ‘Avdat”, PSAS 24, 1994, 165--74.
Negev, Avraham, “Obodas the God”, Israel Exploration Journal 36, 1986, 56--60 (re: ‘En ‘Avdat inscription).
Noja, Sergio, “Uber die älteste arabische Inschrift” in Studia Semitica necnon Iranica R. Macuch dedicata, Wiesbaden, Harrassowitz, 1989, 187--94 (re: ‘En ‘Avdat inscription).
Shahid, Irfan, “The composition of Arabic poetry in the fourth century”, SHA 2.87--93.

PROSE

Abu ‘Ubayda Mu‘ammar ibn al-Muthanna, Ayyâm al-‘arab qabl al-Islâm, ed. A.J. al-Bayyati, Beirut, ‘Alam al-Kutub, 1987.
Beeston, A.F.L., Warfare in Ancient South Arabia (2nd--3rd c. AD), London, Luzac, 1976 (tr. of Ja 643).
Caskel, Werner, “Aijam al-‘Arab. Studien zur altarabischen Epik”, Islamica 3, 1930, 1--99.
EI, s.v. “Ayyam”, “Khatib”, “Mathal”, “Sadj‘”.
Jones, Alan, “The prose literature of pre-Islamic Arabia” in J.R. Smart ed., Tradition and modernity in Arabic language and literature, Richmond (Surrey), Curzon, 1996, 229--41.
---- “The Qur’an in the light of earlier Arabic prose”, University Lectures in Islamic Studies (ed. A. Jones) 1, 1997, 67--83.
Khuza‘i, Da‘bul ibn ‘Ali (d. 246/860), Was/.âyâ al-mulûk wa-anbâ’ al-mulûk min walad Qah/.tân ibn Hûd, ed. Nizar Abazir, Beirut, Dar Sader, 1997.
Meyer, Egbert, Der historische Gehalt der Aiyam al-‘Arab, Wiesbaden, Harrassowitz, 1970.
Qatamish, A. al-, Al-amthâl al-‘arabiyya: dirâsa ta’rîkhiyya wa-tah/.lîliyya, Damascus, Dar al-Fikr, 1988.
Sellheim, R., Die klassisch-arabischen Sprichwörtersammlungen insbesondere die des Abu ‘Ubaid, The Hague, Mouton, 1954.
Stetkevych, Jaroslav, Muhammad and the golden bough: reconstructing Arabian myth, Bloomington, Indiana University, 1996.

CHAPTER 9

There is no work devoted to this subject. See the relevant references given in ch. 3 (esp. Byzantine/Sasanian period), ch. 4 (esp. nomad--sedentary relations), ch. 8 (language and

poetry). Also useful are:
Bashear, Suliman, Arabs and others in Early Islam, Princeton, Darwin, 1997.
Dagorn, René, La geste d'Ismaël d'après l'onomastique et la tradition arabes, Geneva, Librairie Droz, 1981 (argues from onomastic evidence that Ishmael unimportant to pre-Islamic Arabs).
Drory, Rina, "The Abbasid construction of the Jahiliyya: cultural authority in the making", Studia Islamica 83, 1996, 33--49.
Geary, P.J., Before France and Germany. The creation and transformation of the Merovingian world, Oxford, OUP, 1988 (provides interesting parallels, though the east is very different from the west: more ancient, more urbanised, more ecologically fragile, etc.).
Grunebaum, G.E. von, "The nature of Arab unity before Islam", Arabica 10, 1963, 4--23 (repr. in AAEI 1--20).
Kister, M.J., "Mecca and the tribes of Arabia" in id., Society and religion from Jahiliyya to Islam, Aldershot, Variorum, 1990, II (illustrates how "the period of the sixth and the beginning of the seventh century was characterised by intertribal conflicts and by the pressure of the Byzantine and Persian empires,through their vassal states, on the tribal divisions aimed at widening their control over the Arabian peninsula", p. 37).
---- "Mecca and Tamim", "Some reports concerning Mecca", and "Al-Hira: some notes on its relations with Arabia" in id., Studies on Jahiliyya and early Islam, Aldershot, Variorum, 1980, I--III.
Korotaev, A., et al., "Origins of Islam: political--anthropological and environmental context", Acta Orientalia (Hungary) 52, 1999, 243--76 (effects of climate change on 6th c. Arabia).
Mayerson, Philip, "The use of the term phyarchos in the Roman--Byzantine east", Zeitschrift für Papyrologie und Epigraphik 88, 1991, 291-95 (tribal chief, not an administrative office).
Millar, Fergus, "Empire, community and culture in the Roman Near East: Greeks, Syrians, Jews and Arabs", Journal of Jewish Studies 38, 1987, 143--64 (examines vitality of local identities).
Müller, Walter, "Sabäische Felsinschriften von der Jemenitischen Grenze zur Rub' al-Khali", NESE 3.113-35 (though Sabaic texts, they have many correspondences with north Arabian).
Robin, Christian, "La pénétration des arabes nomades au Yémen", AAKM 71--88.
Ryckmans, Jacques, "Aspects nouveaux du problème Thamoudéen", Studia Islamica 5, 1956, 5--17 (points out differences between Thamudic inscriptions of north Arabia and those of south; moderated by A. van den Branden, "L'unité de l'alphabet Thamoudéen", Studia Islamica 7, 1957, 5--27).
---- "Les inscriptions sud-arabes anciennes et les études arabes", Annali dell'Istituto Orientale di Napoli 35, 1975, 443--63.
And for the boom in the Near Eastern countryside see:
Di Segni, Leah, "Epigraphic documentation on building in the provinces of Palaestina and Arabia 4--7th c.", Journal of Roman Archaeology suppl. 31, 1999, 149--65.
Foss, Clive, "The Near Eastern countryside in late antiquity: a review article", Journal of Roman Archaeology suppl. 14, 1995, 213--34.
Mayerson, Philip, "Urbanization in Palaestina Tertia: pilgrims and paradoxes" in id., Monks, martyrs, soldiers and Saracens, Jerusalem, IEJ, 1994, 232--45.
Tate, Georges, "The Syrian countryside during the Roman Era" in Susan Alcock ed., The Early Roman Empire in the East, Oxford, Oxbow, 1997, 55--71.
Vries, Bert de, Umm el-Jimal. A frontier town and its landscape in northern Jordan, Portsmouth (RI), Journal of Roman Archaeology, 1998.

ثبت الأسماء

(ب)

ثبت البلدان والمواقع الجغرافية

ثبت القبائل والعشائر

ثبت الكتب

ثبت الاقتباسات

العهد القديم

القرآن الكريم

ثبت الآلهة

First published 2001
by Routledge
11 New Fetter Lane, London EC4P 4EE

Simultaneously published in the USA and Canada
by Routledge
29 West 35th Street, New York, NY 10001

Reprinted 2002 (twice), 2003

Routledge is an imprint of the Taylor & Francis Group

Typeset in Garamond 3 by Keystroke,
Jacaranda Lodge, Wolverhampton.
Printed and bound in Great Britain by
TJ International Ltd, Padstow, Cornwall.

British Library Cataloguing in Publication Data
A catalogue record for this book is available from the British Library.

Library of Congress Cataloging in Publication Data
Hoyland, Robert G.
Arabia and the Arabs : from the Bronze Age to the coming of Islam /
Robert G. Hoyland.
p. cm.
Includes bibliographical references and index.
1. Arabian Peninsula—History. I. Title.
DS231.H69 2001
953—dc21 2001019298

ISBN 0–415–19535–7 (pbk)
ISBN 0–415–19534–9 (hbk)

ARABIA AND THE ARABS

From the Bronze Age to the coming of Islam

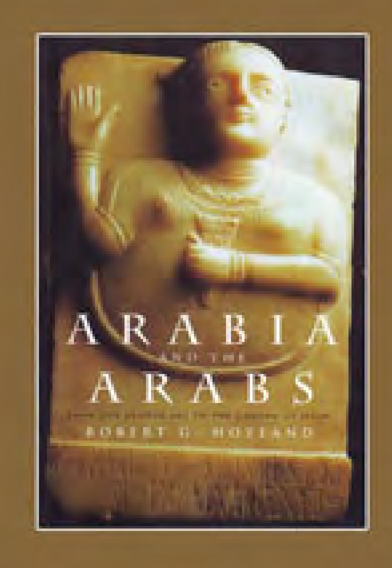
Robert G. Hoyland



London and New York

إن القرون العديدة من التاريخ العربي التي تسبق وفاة النبي محمد لا تُدرس إلا قليلاً ولا يُعرف عنها سوى النادر . قد يُظن أن هذا الجهل يعكس عدم أهمية جزيرة العرب في التاريخ العالمي قبل ظهور الاسلام، لكن هذا حكمٌ مجحف. فمع أن سكان جزيرة العرب كانوا يعيشون في محيط الإمبراطوريات العظمى، فقد كانوا ذوي أهمية كبيرة إليها. أولاً، إن موطنهم يحتل موقعاً مركزياً بين الهند وافريقية وبلاد بين النهرين والعالم المتوسطي، الأمر الذي يعني أن البشر والسلع العابرين من منطقة إلى أخرى كانوا مجبرين غالباً على إجراء الصفقات معهم. ثانياً، إن وجود اللُبان [البخور والمر والنباتات العطرية الأخرى في جنوبي جزيرة العرب، وكلها كانت مطلوبة جداً في حضارات البحر المتوسط وبلاد بين النهرين، قد جلب الثروة والشهرة إلى زارعيها ومصدّريها العرب. ثالثاً، قدمت جزيرة العرب خزاناً من القوة البشرية العسكرية التي كانت تملك خبرة بالسفر في الصحراء، ومارست دوراً هاماً كحليف وأيضاً كعدو لمختلف القوى.

مؤلف هذا الكتاب، الأول في مجاله، بحث في مختلف جوانب حياة العرب في جزيرتهم، أي في الاقتصاد والمجتمع والدين والفن والعمارة والمصنوعات اليدوية واللغة والأدب، اعتماداً على المصادر الأولية، وقدم لنا وثيقة معرفية "كي أوسع الفهم التقليدي للجاهلية من حقبة قصيرة جداً قبل بزوغ الإسلام إلى الامتداد الكامل من الزمن منذ النشوء الأول للمجتمعات المعقدة في جزيرة العرب في الألفية الرابعة قبل الميلاد. إنها حقبة هامة من التاريخ في جزء هام من العالم ولذلك فإني أمل أن هذه الطبعة العربية من هذا الكتاب ستجعل قصته معروفة لجمهور أعرض بكثير.





www.cadmusbooks.net